وائع الفكر الإنسانى

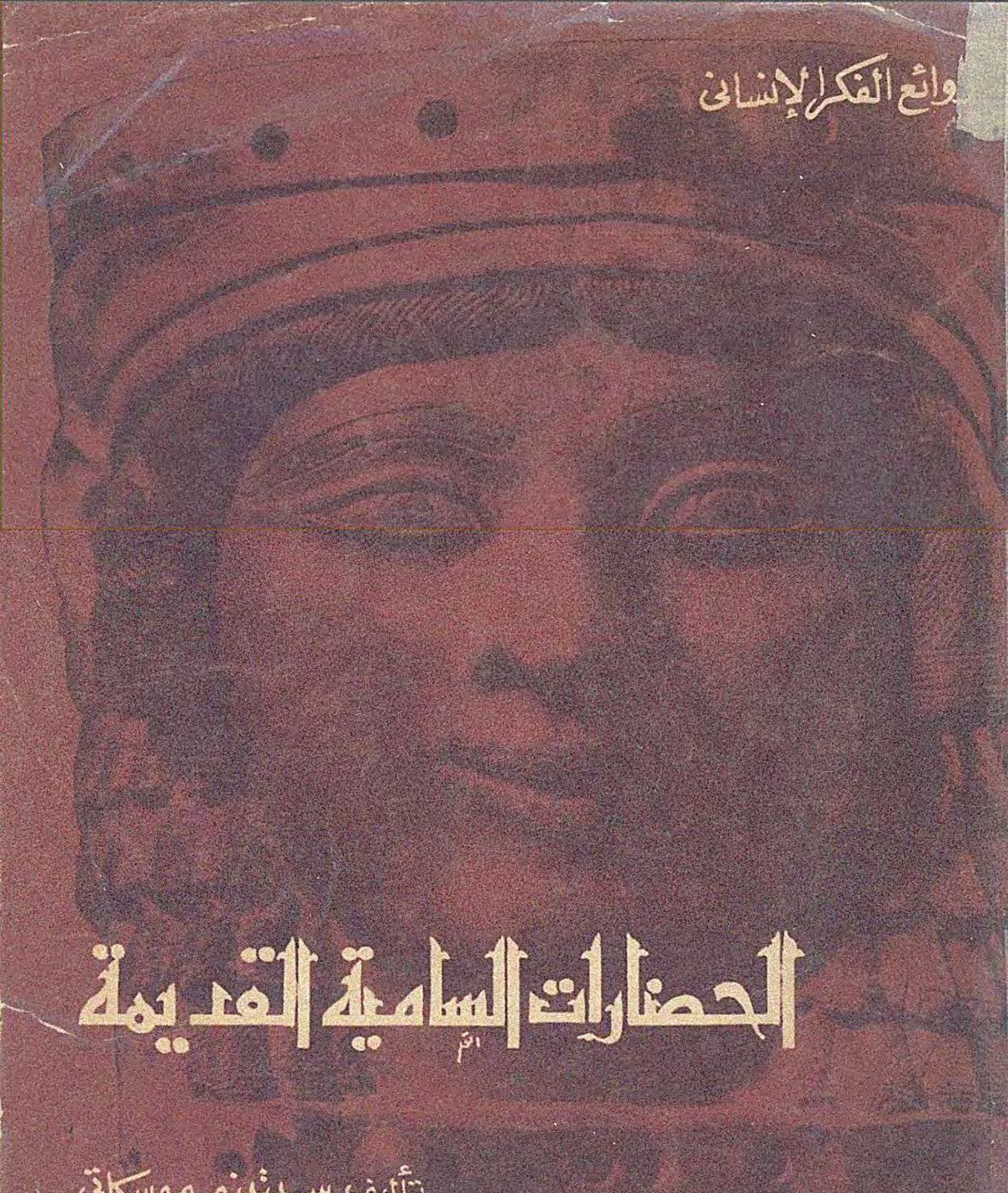

الحضارات السامية القديمة

تأليف سبتينو موسكاتى

ترجمة د. السيد يعقوب بكر

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

الحضارات السامية القديمة

ألفه:
سبتينو موسكاتي

ترجمه وزاد عليه:
الدكتور السيد يعقوب بكر

راجعه:
الدكتور محمد القصاص

دار الرقي
بيروت

حُقُوق الطَّبع محفُوظَة لِلنَاشِر

١٩٨٦

ANCIENT SEMITIC CIVILIZATIONS

by

SABATINO MOSCATI

London 1957

(Elek Books)

اهداء

اهدى هذه الترجمة ومازدته
عليها الى أستاذى الفاضل
الأستاذ الدكتور خليل يحيى
نامى اعترافا بفضله السابغ
وعونه الصادق واخوته الكريمة

السيد يعقوب بكر

فهرست

صفحة

فاتحة المؤلف : ٢٧

فاتحة المترجم : ٢٩

الفصل الاول : المسرح ٣٤

الجزيرة العربية – سوريا وفلسطين – أرض الرافدين – خطوط المواصلات – خاتمة

الفصل الثانى : المثلون ٤٢

الاسم والانتشار – اللغات – الشعوب – الاجناس

الفصل الثالث : المقدمة ٥٢

مشكلة أصول الساميين – المنطقة التى انتشر منها الساميون – الأحوال الاجتماعية – الصور الدينية – التراث البدوى

الفصل الرابع : البابليون والأشوريون ٦١

الكشوف : الحفائر – تفسير الوثائق – نظام الكتابة

التاريخ : السومريون – الدول البابلية القديمة – غارات الاجانب وتفوق الاشوريين – اليقظة البابلية الاخيرة – خاتمة

الدين : طبيعة حضارة أرض الرافدين – الآلهة – الشياطين والاثم – الكهنة ، السحر ، التنبؤ ، الدفن – الطقوس

الادب : مقدمة – أساطير الآلهة – أساطير الابطال – الشعر الغنائى – أدب الحكمة – النثر

النظم القانونية والاجتماعية : قوانين أرض الرافدين – الاشخاص – الاسرة والزواج والميراث – الملكية ،

صفحة

الحياة التجـــارية والاقتصـــادية ــ قانون العقوبات واجراءات المحاكمة ــ السلطة والقوات المسلحة

الفن : الخصائص العـــامة ــ الفن المعمـــارى ــ آلنحت ــ التصوير والفنون الصغرى

الفصل الخامس : الكنعانيون ١١٤

المصادر : المصادر المباشرة ــ كشوف أوجاريت ــ المصادر غير المباشرة ــ الابجدية

التاريخ : فلسطين وسوريا فى التاريخ ــ حتى مجىء بنى اسرائيل ــ عصور بنى اسرائيل

الدين : الحضارة الكنعانية ــ الآلهة ــ الكهنة والطقوس

الادب : أساطير الآلهة ــ أساطير الابطال ــ أساس الاساطير اليونانية

الفن : الخصائص العامة ــ الفنون الكبرى ــ الفنون الصغرى

الفصل السادس : العبريون ١٣٧

التاريخ : من الاصول الاولى الى الخروج ــ فتح فلسطين ــ تأسيس الملكية ــ شاءول ، داود ، سليمان، المملكة المنقسمة والأنبياء ــ النفى والعودة من المنفى

الدين : من الاصول الاولى الى تأسيس المـــلكية ــ الملكية والانبياء ــ النفى والتقنين الدينى

العهد القديم : الادب العبرى ــ أسفار موسى الخمسة ــ الاسفار التاريخية ــ أسفار الانبياء ــ الاسفار الغنائية ــ أسفار الحكمة

النظم القانونية والاجتماعية : القانون العبرى ــ الاشخاص ــ الزواج والاسرة ــ الميراث ــ الحيـــاة التجـــارية والاقتصادية ــ قانون العقوبات ــ القضاة واجراءات المحاكمة

الفن : الفن المعمارى ــ الصور البارزة

صفحة

الفصل السابع : الأراميون : ١٧٥

التاريخ : المصادر ـ المرحلة الاولى ـ الاوج ـ الاضمحلال
اللغة

الحضارة : مقدمة ـ الدين ـ الادب ـ الفن ـ خاتمة

الفصل الثامن : العرب ١٨٨

عرب الجنوب : المصادر ـ التاريخ ـ الآلهة ـ الحياة الدينية ـ
الحياة السياسية والاجتماعية ـ الفنون

عرب الوسط والشمال : مقدمة ـ التاريخ ـ الديانات ـ
الادب ـ الفنون

محمد وظهور الاسلام : القرآن وبقية المصادر ـ الشباب
ونزول الوحي ـ بداية الدعوة ـ في المدينة ـ النجاح ـ
شخصية محمد ـ العرب يزحفون لفتح العالم (لم نترجم
هذا القسم لان القارىء العربي على علم واسع
بموضوعه)

الفصل التاسع : الاثيوبيون ٢١٢
الحبشة

التاريخ : المصادر ـ من الاصول الاولى الى دخول المسيحية ـ
من دخول المسيحية الى القرن السابع

الاديان : الوثنية واليهودية ـ المسيحية

الحضارة : الخصائص العامة ـ الادب ـ الفنون

الفصل العاشر : الخاتمة ٢٢٤

مراجع : ٢٢٨

(هنا تنتهي ترجمة النص)

هوامش المترجم

صفحة

هوامش الفصل الثانى (الممثلون) ٢٣٩

هوامش الفصل الثالث (المقدمة) ٢٤٦

هوامش الفصل الرابع (البابليون والأشوريون) ٢٤٨

هوامش الفصل الخامس (الكنعانيون) ٢٧١

هوامش الفصل السادس (العبريون) ٢٧٨

هوامش الفصل السابع (الأراميون) ٣٤٤

هوامش الفصل الثامن (العرب) ٣٥٣

هوامش الفصل التاسع (الاثيوبيون) ٣٧٨

ملحق : الادب الحبشى ٣٨٥

مراجع المترجم ٣٩٥

كشاف عام يشمل النص والزيادات ٤٠٨

كشاف لغوى ٤٢٢

الرسوم التى فى النص

صفحة

(١) تصميم القصر فى مارى (من O'Callaghan : Aram Naharaim) ١٠٨

(٢) تصميم معبد سليمان (من Waltzinger : Denkmäler Palästinas) ١٧٤

(٣) تصميم معبد مارب (من Bulletin of the American Schools of Oriental Research) ١٩٩

(٤) التصميم الأصلى لمعبد يحا (من Deutsche Axum-Expedition) ٢٢٢

* * *

الخرائط

(١) المنطقة السامية ٣٣

(٢) أرض الرافدين وسوريا ٦٠

(٣) فلسطين ١١٣

(٤) اليمن والحبشة ١٩٠

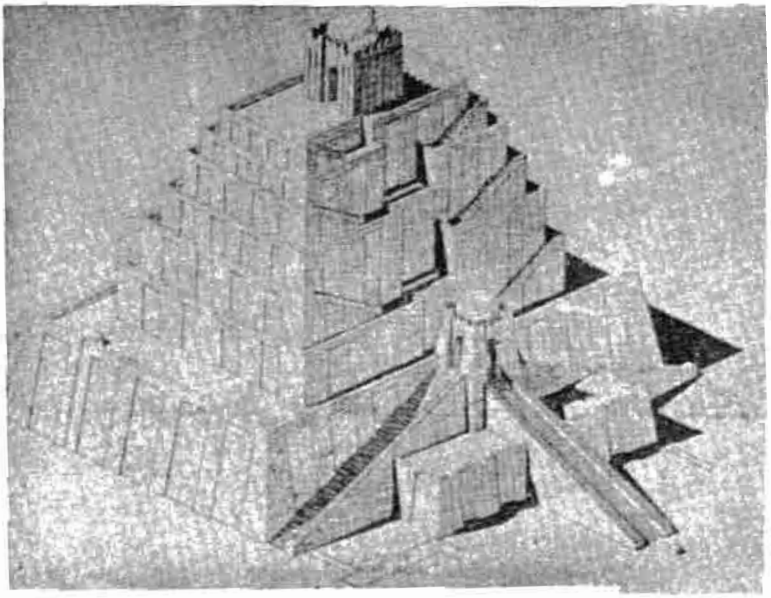

(١) زقورة
نبونيد (وضع Sir
Leonard Woolley
(المتحف البريطانى)

(٢) أسد
على باب فى نمرود
بالمتحف البريطانى)

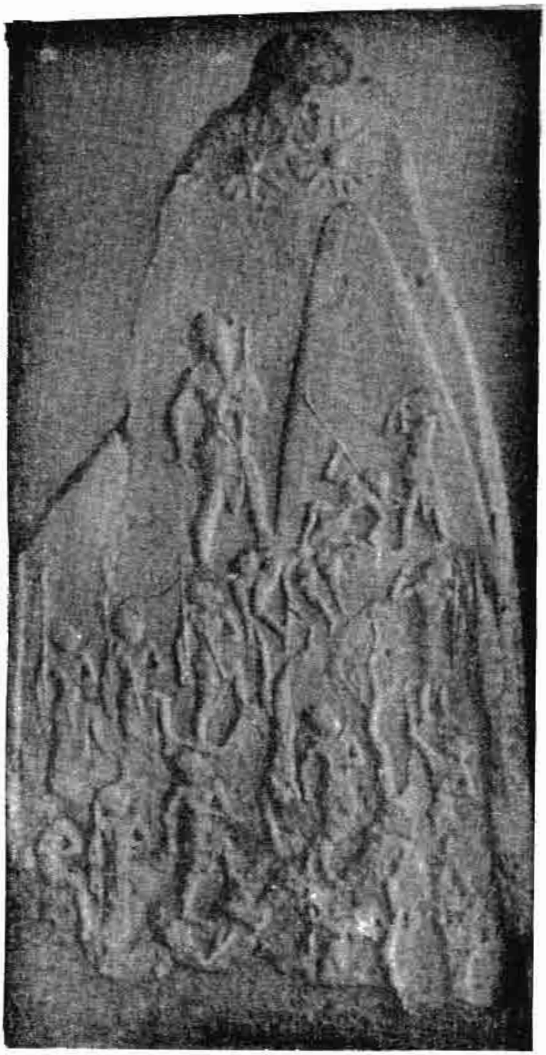

(٣) نصب نرام ـ سين (اللوفر)

(٤) منظر صيد من قصر أشور بانيبال (المتحف البريطانى)

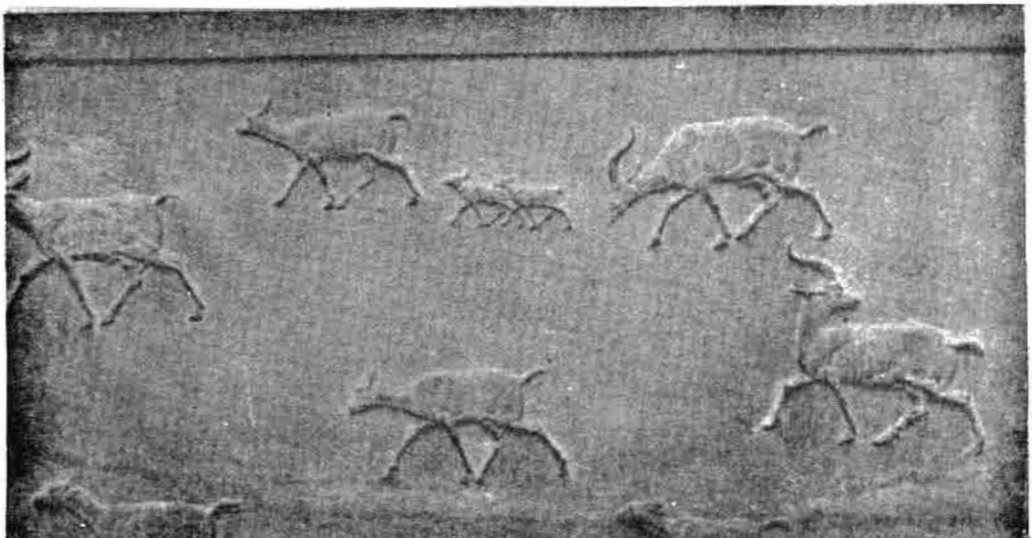

(٥) «موناليزا» (بتفضل من مديرية الآثار ببغداد) (صورة الغلاف)

(٦) الزنجى والأسد (بتفضل من British Museum Quarterly)

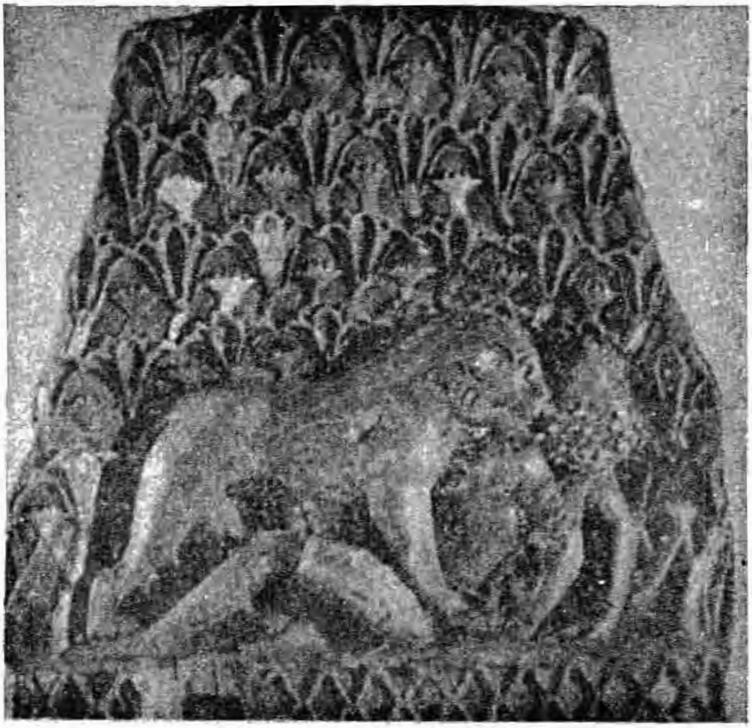

(٧) أختام من أرض الرافدين (المتحف البريطانى)

(٨) تمثال ادريمي (المتحف البريطاني)

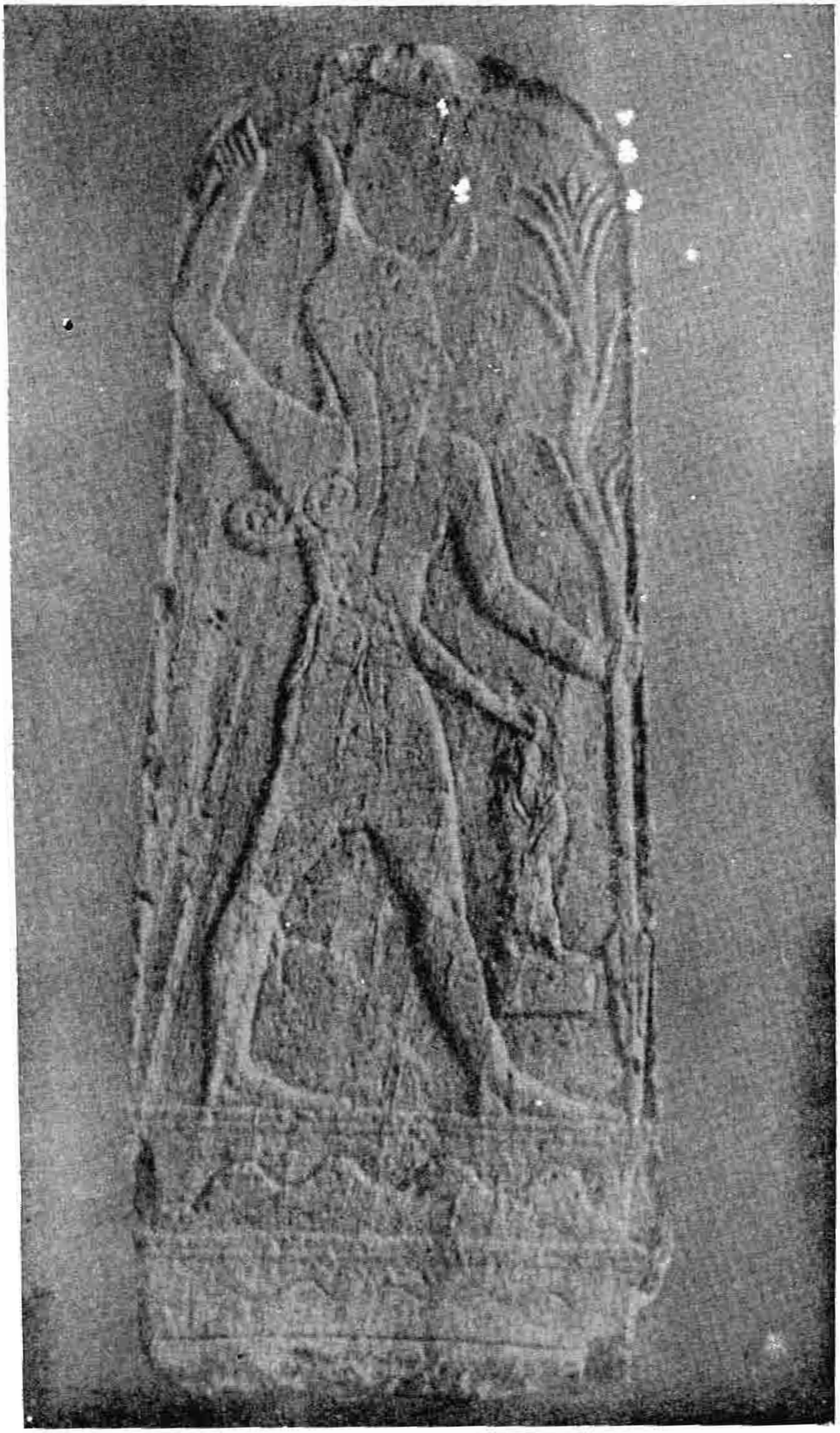

(٩) نصب بعل (اللوفر)

(١٠) طبق ذهبى من أوجاريت (اللوفر)

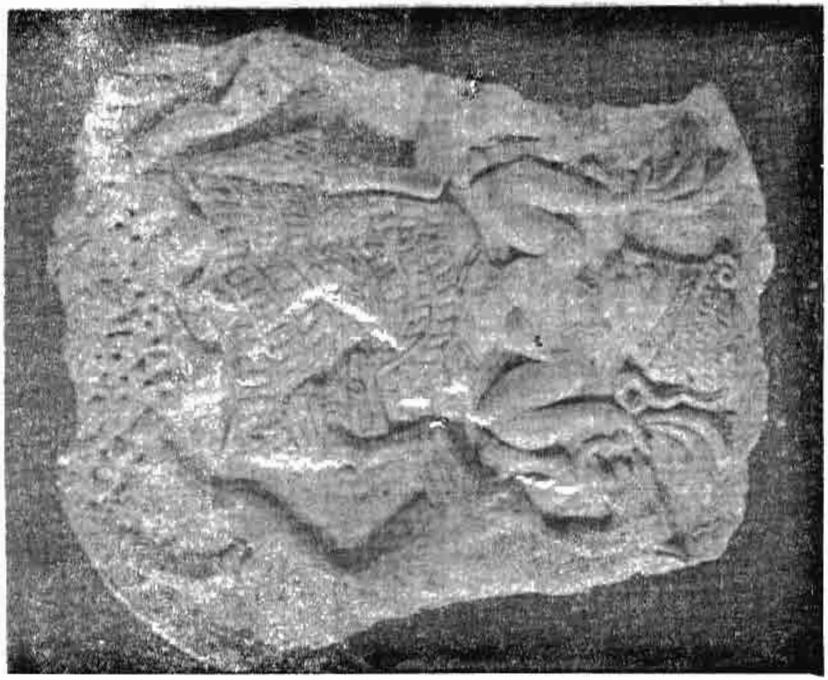

(١١) «الهة الحيوانات المتوحشة» اللوفر

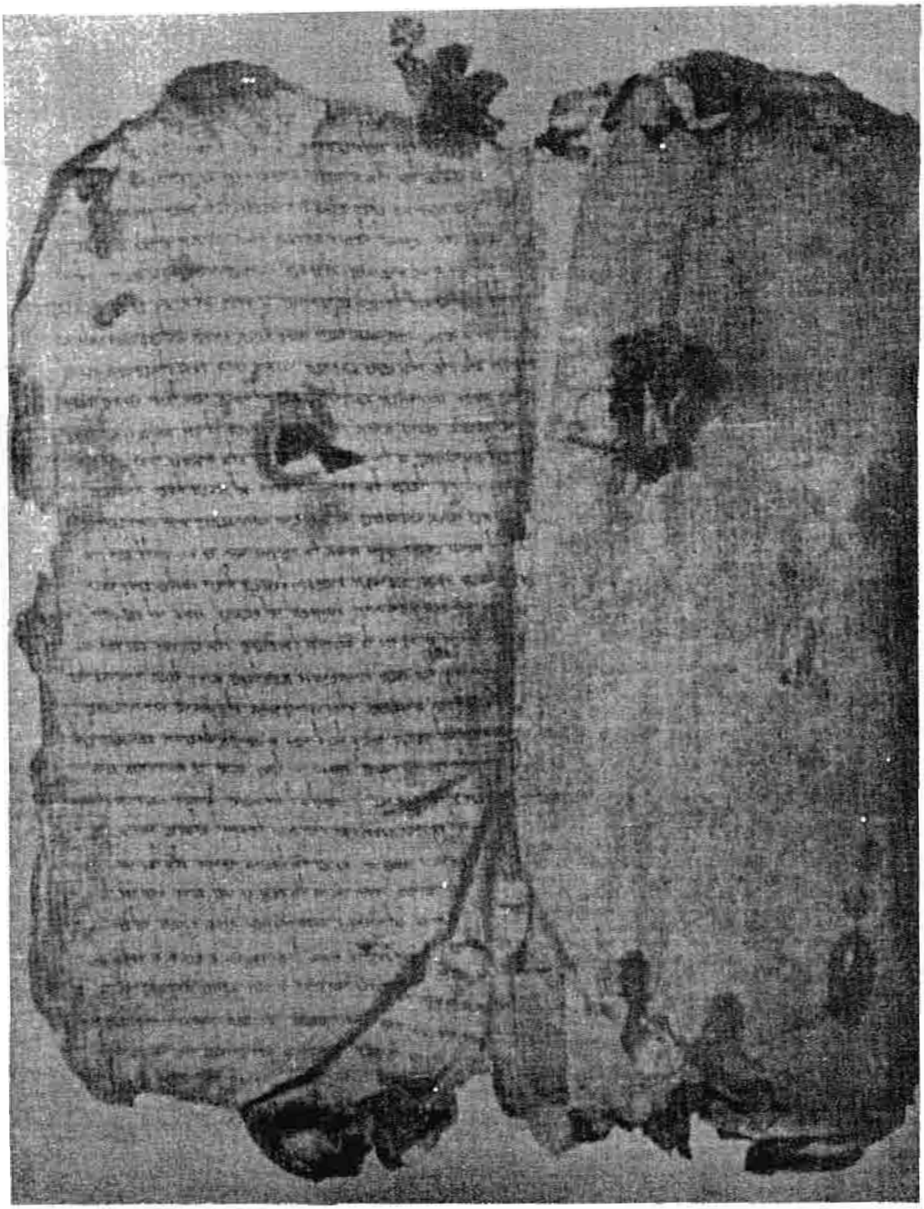

(١٢) احدى لفائف البحر الميت (الجامعة العبرية بالقدس)

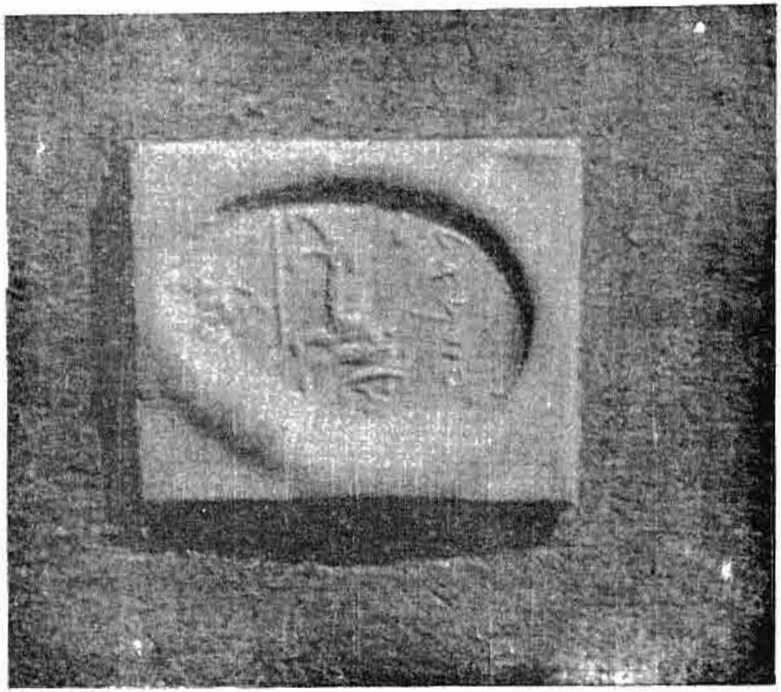

(١٣) خاتم عبرى (المتحف البريطانى)

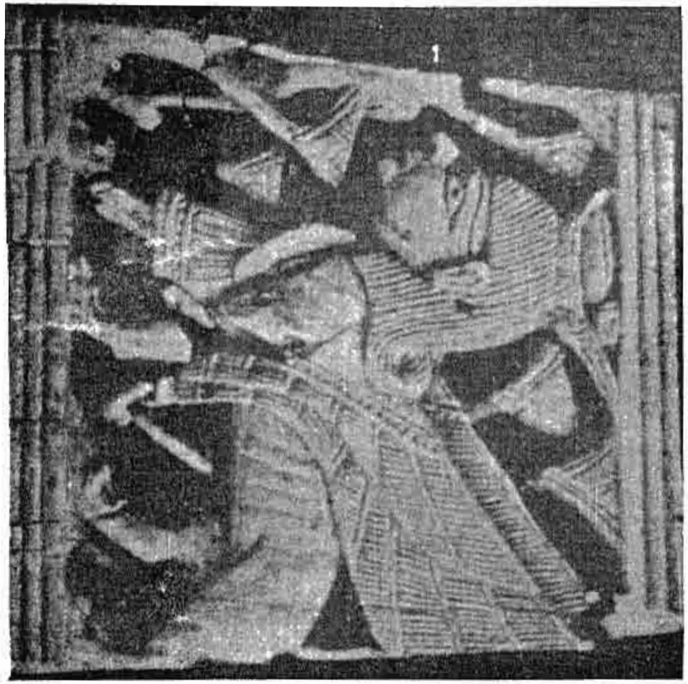

(١٤) لوحة من العاج من السامرة (المتحف الاثرى بالقدس)

(١٥) صورة بارزة من تل حلاف (المتحف البريطاني)

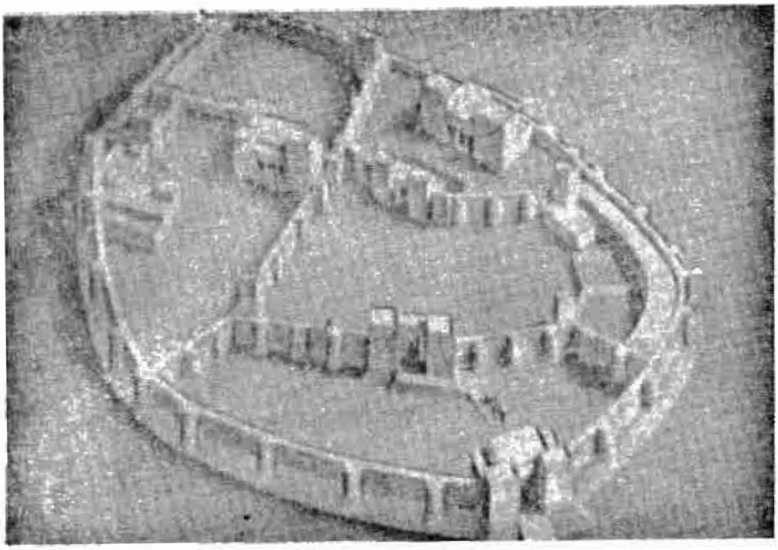

(١٦) قلعة سمأل (رسم موضوع ، من Koldewey : Ausgrabungen in Sendschirh)

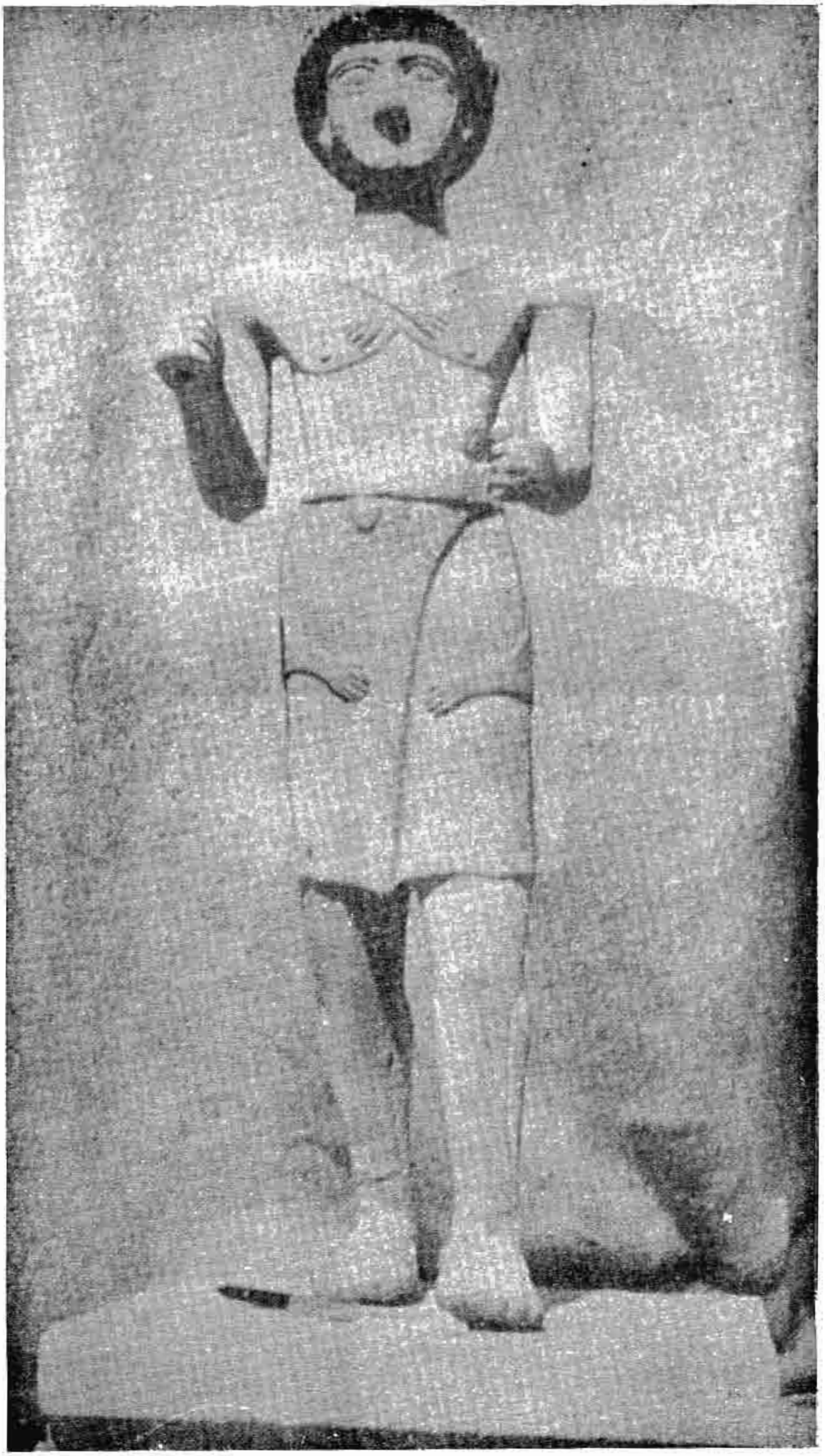

(١٧) تمثال برونزي من مارب (بتفضل من American Foundation for the Study of Man)

(١٨) حصان برونزى من جنوب الجزيرة العربية (بتفضل من Dumbarton Oaks Collection)

(١٩) صورة بارزة لجمل من جنوب الجزيرة العربية (المتحف البريطانى)

(٢٠) مخربشة صفوية
(المتحف البريطاني

(٢١) صورة بارزة من
تدمر (اللوفر)

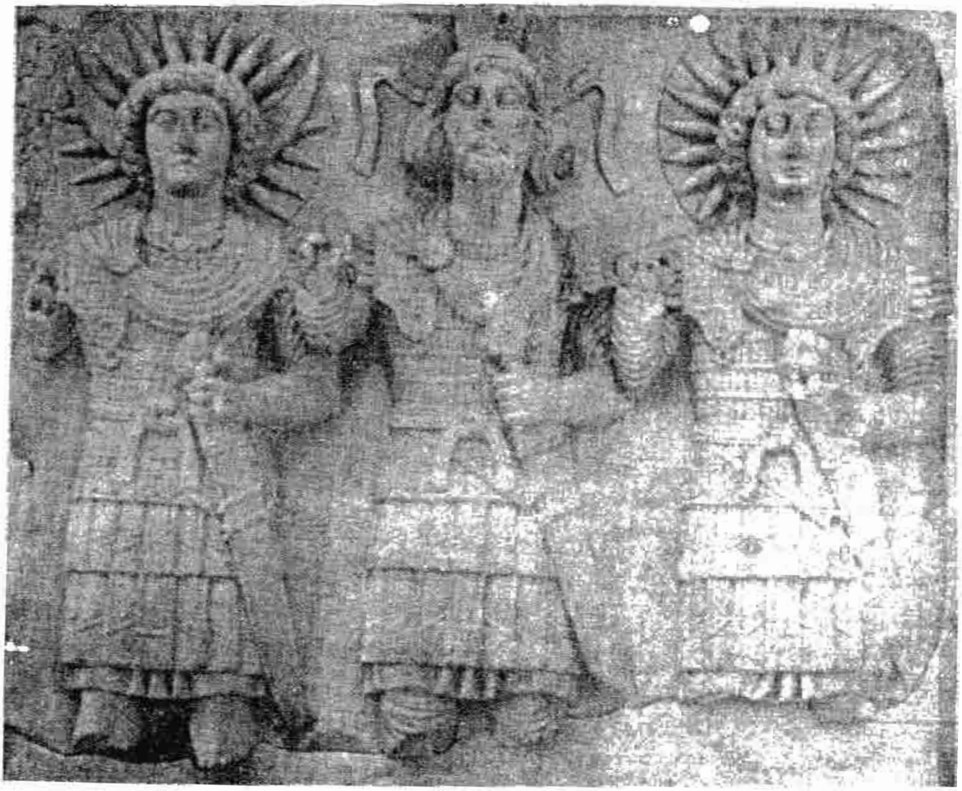

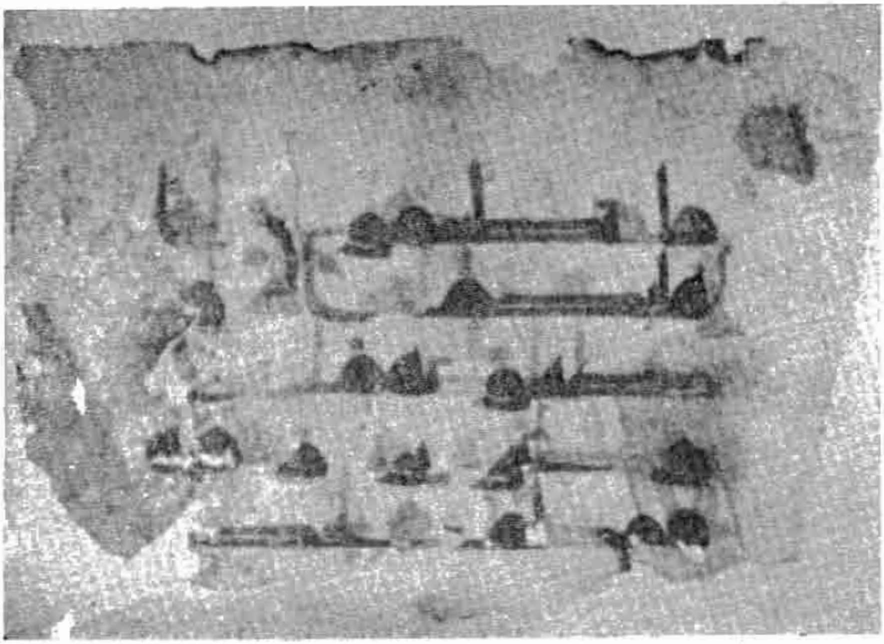

(٢٢) قطعة من مخطوط قرآني (مكتبة الفاتيكان)

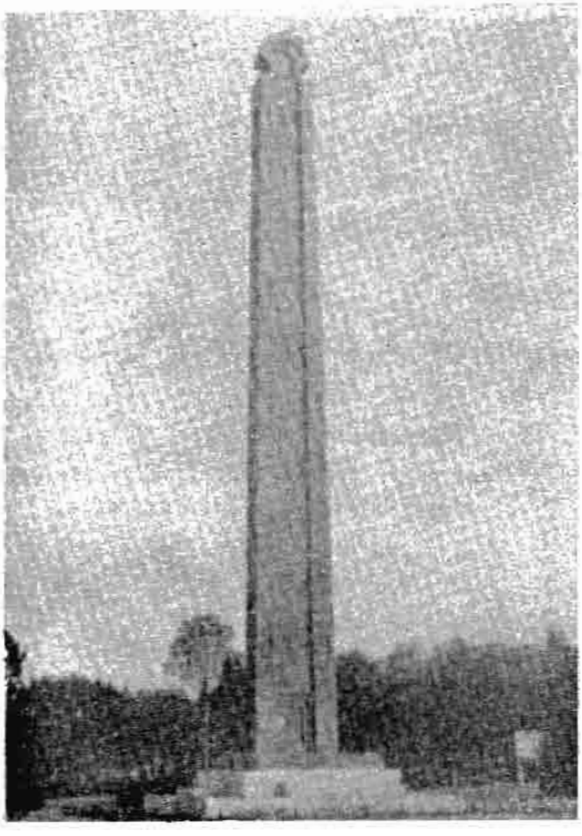

(٢٣) مسلة من أكسوم (روما ، تصوير Alinari)

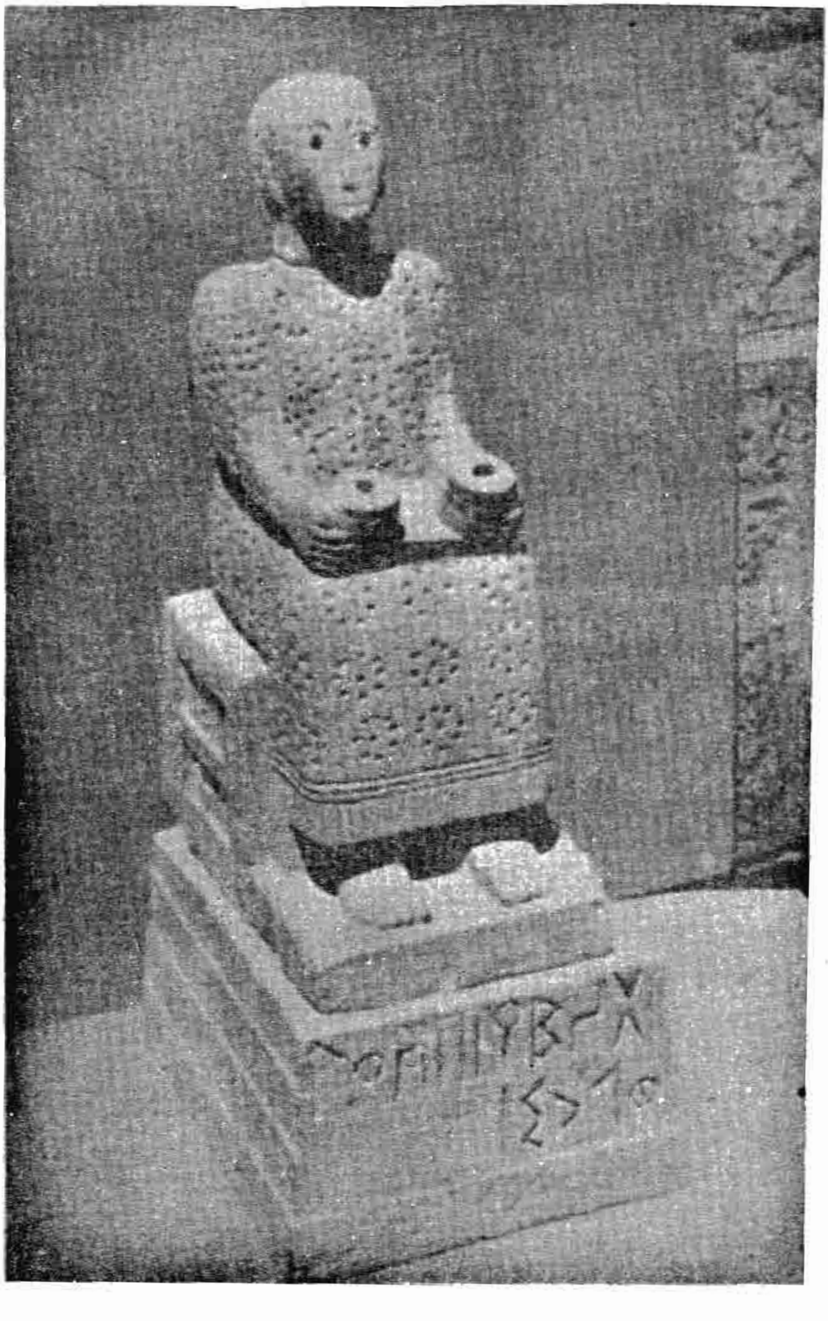

(٢٤) تمثال اثيوبى (ادارة الآثار بأديس أبابا)

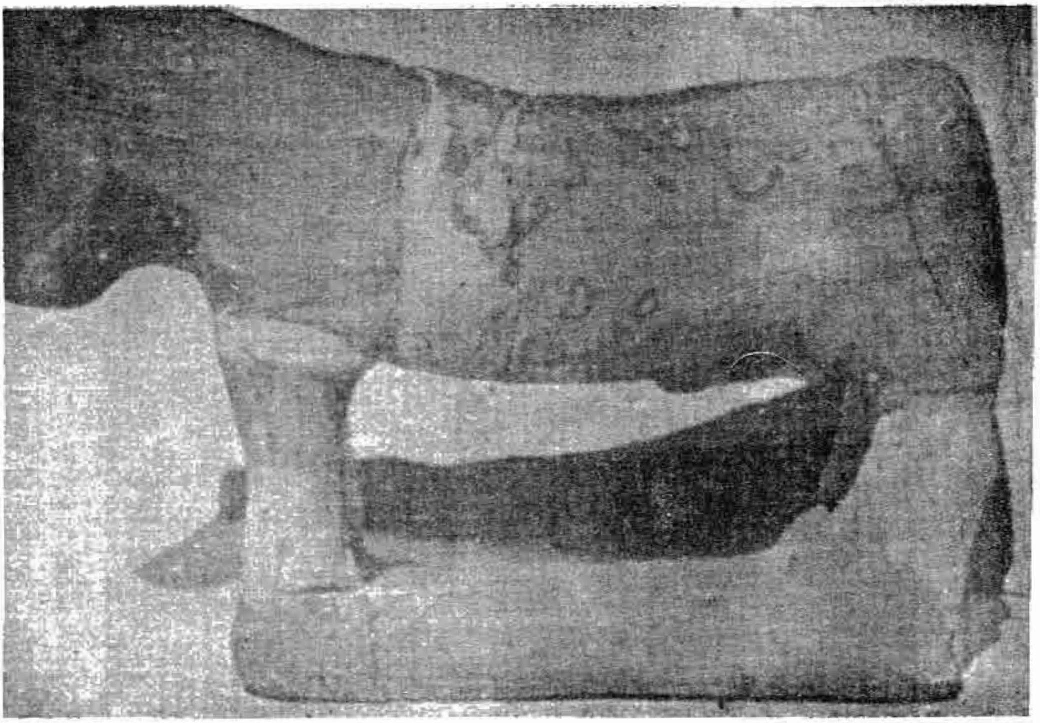

(٢٥) ثور مرمرى من Haulti (ادارة الآثار باديس ابابا)

(٢٦) لبؤة جوبدرا (من Deutsche Axum-Expedition)

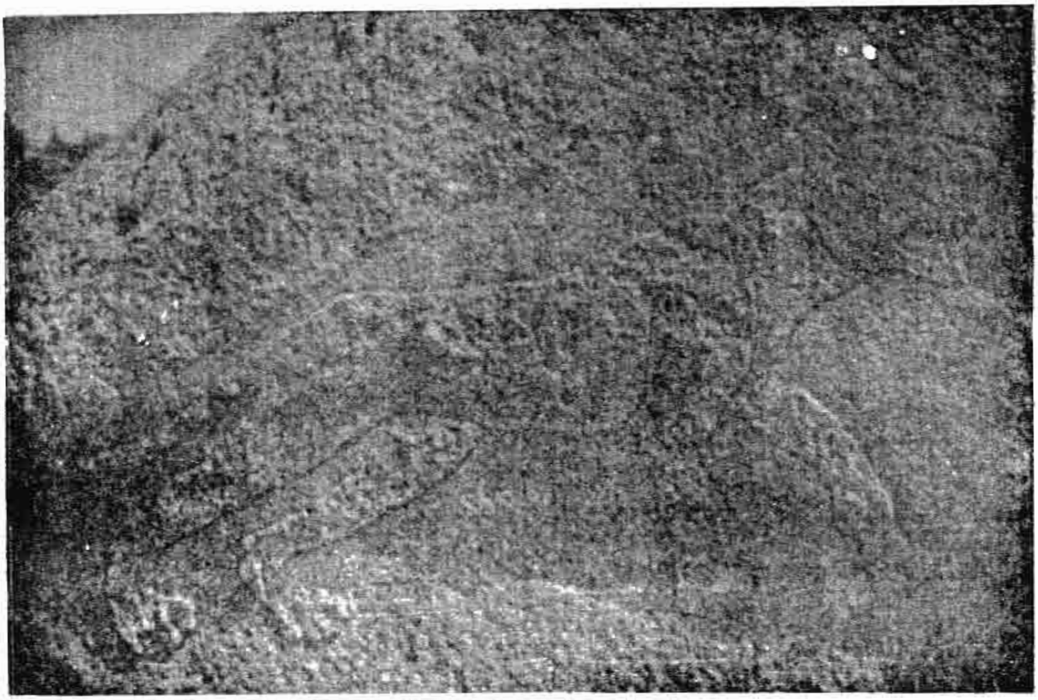

فاتحة المؤلف

بدأت قصة هذا الكتاب منذ عشر سنوات · فعندما كنت أدرس علم الآثار السامية فى جامعة روما ، وجدت نفسى أمام هذه الحقيقة : وهى أنه بينما نجد كتبا عامة مختلفة عن اللغات السامية من حيث هى مجموعة لغوية ، لا نجد كتابا من هذا النوع عن الشعوب التى كانت تتكلم تلك اللغات ·

ولكن هذه الشعوب توحد بينها روابط عدة من الأحوال الاجتماعية، والأفكار الدينية ، والصور الفنية · ولهذا بدا من الممكن بل من الواجب أن يوضع كتاب يرسم الخطوط الأساسية لصور حضارة هذه الشعوب ولصفاتها المشتركة المميزة ·

وظهر الكتاب بالايطالية عام ١٩٤٩ ، ثم صدرت منه طبعة ألمانية عام ١٩٥٣ ، وطبعة فرنسية عام ١٩٥٥ ، وطبعة ألمانية أخرى فى هذا العام نفسه · وكانت الحاجة قائمة الى طبعة انجليزية ؛ واننى لأشعر بسعادة فريدة اذ أقدمها الآن الى جمهور بريطانيا وأمريكا الذين تربطنى بهم ذكريات كثيرة أعتز بها · فأرجو من الزملاء الذين دعونى الى المحاضرة فى هذين البلدين ، ومن الطلاب الذين تتبعوا محاضراتى باهتمام وفطنة، ومن جميع الأصدقاء الذين شملونى بعطفهم السابغ ، أرجو من كل واحد من هؤلاء أن يعتبر هذا الكتاب رمزا لذكرى وعرفانى ·

ويجب على أيضا أن أسألهم التسامح · ففى عرض مختصر كهذا لا أستطيع أن أقدم أكثر من صورة عامة للملامح البارزة فى الحضارات

السامية القديمة · فليست هناك جدوى من اثقال النص بالأسماء والأرقام ؛ وانما الأولى أن نقتصر على العناصر البارزة ، على الجوانب المميزة من حياة الشعوب السامية وأفكارها ·

وكانت هناك أيضا مسألة الحدود الزمنية · فقصرت نفسى هنا على الفترة القديمة أوما يمكن تسميته بالفترة « الكلاسيكية » من الحضارات السامية · ويندرج فى هـذه الفترة كل الوجود التاريخى للبابليين والأشوريين والكنعانيين ؛ ولكن الحديث عن العبريين ينقطع عند زوال استقلالهم السياسى ؛ والحديث عن الأراميين ينقطع عند ظهور الهلينية ، والحديث عن العرب ينقطع عند بزوغ الاسلام ، فان الهلينية والاسلام يتجاوزان بنا حدود التاريخ القومى السامى · والحديث عن الاثيوبيين ينقطع عندما أدى الفتح الاسلامى للمناطق الواقعة شرقيهم وشماليهم الى عزلهم فى بيئة افريقية محلية · وأنا أسلم بأن هذا تحديد ناقص ، ولكن أما كان أى تحديد آخر ناقصا مثل هذا النقص أو أكثر ؟ هذا الى أن هذه المرحلة القديمة وحدها تعرض ، فى نظرى ، تلك الخصائص المشتركة التى تؤلف بين الشعوب السامية جميعا والتى تحدثنا عنها فيما مضى · فعندما تتجاوز الحضارات (السامية) حدود بيئتها الخاصة وتستوعبها دوائر حضارية أوسع ، تتجاوز بذلك نطاق مثل هذا الكتاب ·

ولى كلمة أخيرة : وهى أننى فى كل طبعة جديدة أراجع الكتاب فى ضوء التقدم المستمر للكشوف الأثرية وللعلم بوجه عام ، وفى ضوء أفكارى وأفكار الذين يتناولون الكتاب بالنقد والتمحيص · فكل طبعة اذن لا يقصد بها أن تكون ترجمة ، ولكن يراد منها أن تكون عملا جديدا ؛ وهذا يصدق بصفة خاصة على هذه الطبعة الانجليزية ·

روما ، ٣١ مارس ١٩٥٧ ·

فاتحة المترجم

ان كتاب موسكاتى الذى ننقله اليوم الى قراء العربية عن طبعته الانجليزية غنى عن التعريف ؛ فهو أول كتاب يتناول الحضارات السامية القديمة من حيث هى كل لا يتجزأ ووحدة لا تنفصم ، ويحدثنا عنها حديثا يجمع بين الجد والطلاوة ، والعمق والبساطة ، والشمول والايجاز · والقصد من الكتاب أن يكون أداة طيعة فى يد جمهرة القراء وعامة المثقفين ، ولكننى ضمين للمشتغلين بالدراسات السامية والتاريخ القديم أن يجدوا فيه بغيتهم ويقعوا فيه على طلبتهم ·

واذا كان الكتاب غنيا عن التعريف ، فان صاحبه علم من الأعلام ، يشغل مركزا من مراكز الصدارة بين علماء اللغات السامية · وقد أخرج لنا فيضا من الكتب والأبحاث فى الدراسات السامية وتاريخ الشرق القديم يضيق المقام عن حصرها ، فنكتفى بالاشارة الى بعض كتبه التى تهم القارىء العربى خاصة :

(1) Il profilo dell'Oriente mediterraneo, Rome 1956.

ظهرت ترجمة انجليزية لهذا الكتاب فى لندن عام ١٩٦٠ بعنوان :

The Face of the Ancient Orient

(وجه الشرق القديم) · وكم أود أن تظهر له أيضا ترجمة عربية ·

(2) **The Semites in Ancient History, Cardiff 1959.**

(الساميون فى التاريخ القديم)

(3) **An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Wiesbaden 1964.**

(مقدمة فى النحو المقارن للغات السامية)

اشترك موسكاتى فى تاليف هذا الكتاب مع فريق من العلماء ، وأشرف هو على اخراجه ·

* *

وكنت وأنا أترجم الكتاب تعن لى بعض الملاحظات الوجيزة ، فادرجها فى ثنايا النص بين أقواس على أنها بقلم المترجم · ولكن الكتاب ، بروحه الملهمة الموحية ، كان يحدونى دائما الى كتابة ملاحظات طويلة بل أبحاث مفصلة عن بعض المسائل التى قد تهم القارىء العربى ، فأفردت لهذه الملاحظات (أو الهوامش) قسما مستقلا يلى النص · ورتبت هذه الهوامش على حسب الفصول التى تتعلق بها ، وجعلت لكل منها الرقم الذى يقابله فى النص · وألحقت بهوامش الفصل التاسع فصلا عن الأدب الحبشى ترجمته عن نولدكه ، وبينت فى مقدمة هذا الملحق الدافع الذى دعانى الى ترجمته ·

وقد اعتمدت فى هذه الهوامش على طائفة كبيرة من المراجع الأجنبية ذيلت بها الكتاب ، ورتبت أسماء مؤلفيها على حسب الأبجدية اللاتينية ؛ ولكننى صدرت قائمة المراجع بكشف يتضمن أسماء مؤلفيها بالعربية مرتبة على حروف المعجم العربى ، وأمام كل اسم أصله الافرنجى · والسبب فى هذا أننى ، فى هوامش الفصول المختلفة ، اذكر أسماء المؤلفين مكتوبة بالعربية (تيسيرا على الطابع) ؛ فاذا رجع القارىء الى الكشف المذكور ، وجد الاسم الافرنجى فى يسر ، واستطاع أن يجده بعد ذلك فى قائمة المراجع · فاذا كان للمؤلف كتاب واحد اكتفيت باسم المؤلف (مكتوبا بالعربية) · أما اذا كان له أكثر من كتاب ، زدت بعد ذكر اسمه (١) اشارة الى أن المرجع المقصود هو المرجع الأول المذكور أمام اسمه فى قائمة المراجع ، أو زدت (٢) اشارة الى أن المرجع المراد هو المرجع الثانى ، وهكذا · مثال : فى الهامش الخامس من الفصل الرابع : شموكل ،

ص ١٩٢ و ٢٥١ ـ ٢٥٢ ؛ فاذا رجعنا الى الكشف عرفنا أن شموكل هو Schmökel ، والمرجع المقصود هو المرجع الوحيد المذكور له فى قائمة المراجع • مثال آخر : فى الهامش ٣٤ من الفصل الرابع : هايدل (٢) (ص ٣٨ ، الهامش ٧٨) ، أى المرجع الثانى المذكور أمام اسم Heidel فى قائمة المراجع •

وأملى كبير فى أن يكون ما أضـفته الى الكتاب اسـهاما منى فى دراسة الحضارات السامية القديمة ؛ فنحن العرب سـاميون أصلاء ، ولغتنا العربية أدق اللغات السامية نظاما ، فأجدر بنا أن يكون لنا نصيب وافر من الدراسات السامية •

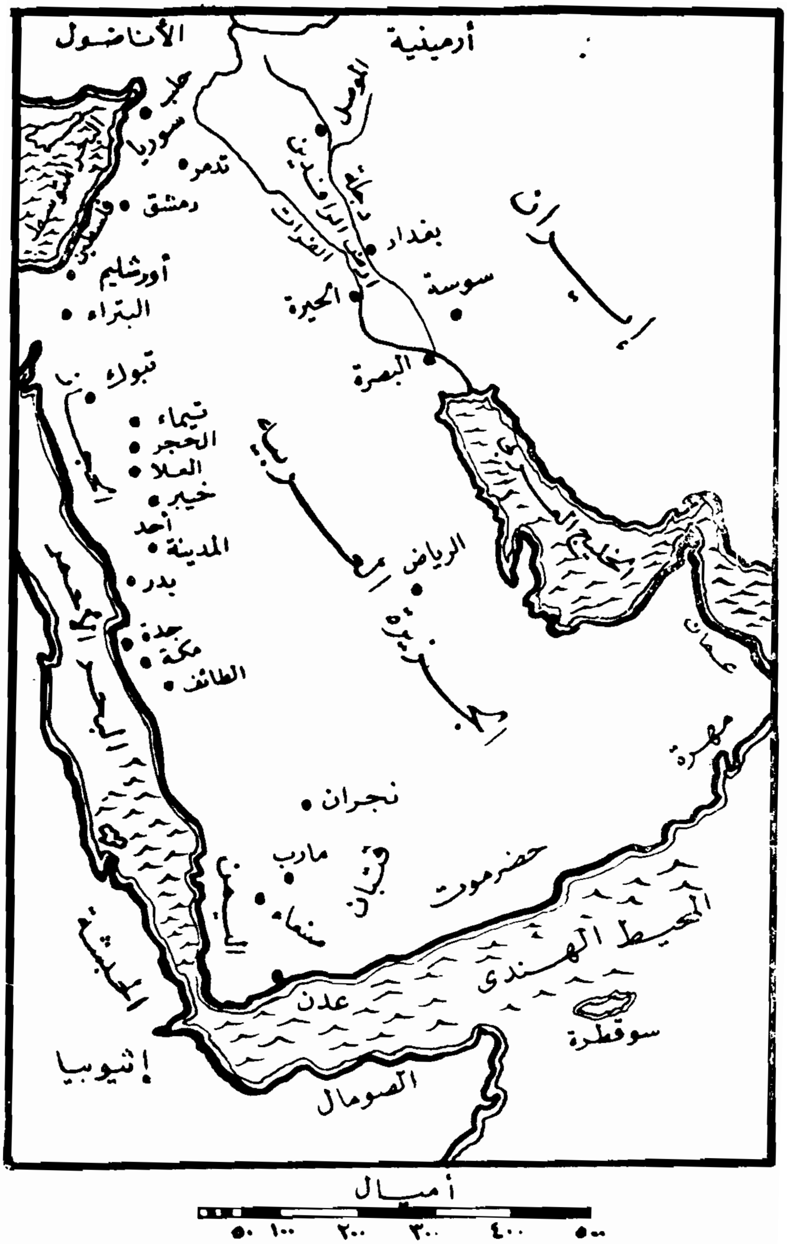

(١) المنطقة السامية

الفصل الأول

المسرح

تنتهى القارة الآسيوية الشاسعة فى طرفها الغـربى بشبه جزيرة واسعة يحدها البحر من ثلاث جهـات ، ويربطهـا بافريقية جسر من الأرض · هذه الجزيرة هى بلاد العرب ، وهى صحراء عظيمة أو منبسط من الأرض نصفه صحراء ، يحدها شمالا قطاع من الجبال يواجه شرقى البحر المتوسط ويسمى فلسطين فى الجنوب وسوريا فى الشـمال · وتحدها فى الشـمال الشرقى حدود طبيعية هى الانحناءة الكبـيرة التى تكونها جبال أرمينية وايران ؛ ولكن هنا نجد أنفسنا بعيدا عن متناول الصحراء ، فبين نهرى دجلة والفرات العظيمين الممتدين بين الصـحراء والجبال منطقة أخرى تمتاز بالخصب هى أرض الرافدين أو مابين النهرين·

هذه المناطق الثلاث : بلاد العرب ، وسوريا ـ فلسطين ، وأرض الرافدين ، تؤلف معا وحدة جغرافية كانت فى زمانها مسرحا لحدث هام فى رواية الانسانية · والشعوب التى أدت أدوار الممثلين فى فصول هذه الرواية انما أدت الأدوار التى لم يكن لها ، بمقتضى أحوالها الطبيعية ، مفر من أدائها · فالفروق التى فرضتها العوامل الجغرافية أدت الى انبعاث شعوب تميزت بعضـها عن بعض تاريخيا وسياسيا ، ولـكن الوحدة

الجغرافية الجوهرية جعلتها اجزاء لا يستقل بعضها عن بعض ، فكان لكل حركة تنشأ فى جزء منها آثار فى الأجزاء الأخرى ٠

***

ويتميز ساحل الجزيرة العربية كله بجباله التى ترتفع دون أن تبعد أبدا عن البحر ، ثم تنحدر الى الداخل نحو هضبه تنحدر فى رفق نحو أرض الرافدين والخليج العربى ٠ وفى أطراف هذه الهضبة ينمو زرع قليل هزيل ، ولكن تشغل باطنها أراض من الرمال شاسعة جرداء هى صحراء العرب ٠

والأنهار التى تنحدر من الجبال ليست كبيرة ٠ وبعضها يغور فى الأرض ليظهر من جديد على بعد كبير بين الرمال الجرداء ٠ وحول هذه الواحات تتركز حياة التجوال التى تحياها القبائل فى قلب الصحراء٠ فالماء لها هو حقا خير شىء ، وأنفس عناصر الطبيعة وأحبها الى القلوب ٠ فالواحات ذخر ادخرته الطبيعة وسط الصحارى الجافة التى قدرت لسكان الجزيرة ٠ ولكن قد يحدث أن يزيد السكان الذين يعيشون حولها عما تطيقه مصادر الثروة المتواضعة فيها ، فتضطر القبائل الى الانتشار بعيدا باحثة دون كلل عن قواعد جديدة ٠

ولكن بالقرب من الساحل أمكن قيام حياة أكثر استقرارا ٠ فالحجاز ، تجاه مصر ، له بعض الموانىء الصغيرة ، وواحاته الخصبة كانت منذ أقدم الأزمان موطنا لجماعات مستقرة تعيش أساسا على التجارة المارة بها على الطريق الممتد الى الشمال عبر مكة والمدينة الى فلسطين وسوريا ٠

والى الجنوب من ذلك اليمن الذى يواجه جزء منه ساحل افريقية الاثيوبى ، بينما يواجه سائره المحيط الهندى ٠ وهو أخصب مناطق الجزيرة العربية كلهاوقد سمى قديما«بلادالعرب السعيدة» **Arabia Felix** لغنى محاصيله وتنوعها ، ولاعتدال مناخه على النقيض الواضح من المناطق المستعرة الحر وراءه ٠ فلم يكن هناك بد من أن تقضى هذه الظروف ، منذ الألف الأول قبل الميلاد ، بقيام مجتمعات سياسية مستقرة فى تلك المنطقة ، امتد اثرها الى الساحل الاثيوبى المقابل فى صورة تجارة واسعة وموجات من المهاجرين المستوطنين ٠

ولكن الجزيرة العربية فى جملتها أقل المناطق التى نصفها غنى وثراء ٠ وأرضها الواسعة من الصخور الصحراوية والرمال التى تتخللها هنا وهناك رقع قليلة من الزرع ، ثم افتقارها على طول سواحلها المديدة

الى موانيء طبيعية صغيرة أو كبيرة فرضا عليها عزلة مطلقة ، فلم ينفع توسطها بين آسيا وافريقية فى أن يجعل منهـا طريقا للتجـارة أو ممرا للشعوب المهاجرة • فكان مجيء التجـار والجيوش وذهـابهم مقصورين على منطقة البحر المتوسط شمال الجزيرة العربية ، بينما ظلت الصحراء فى عزلة غير متأثرة باضطرابات التاريخ ، فاحتفظت دون تغيير تقريبا بالخصائص المميزة لسكانها ولطريقة معيشتهم • وحالت الدول القـويه الحاكمة فى الشـمال (بابل و أشور و بيزنطة و فارس) زمنا طويلا بين بدو الصـــحراء وبين الأراضى الخصـبة التى كانوا يشـتهونها ، ولكن أضمحلال سلطان بيزنطة وانهيار فارس فى القرن السـابع الميلادى اتاحا للعرب ، وقد وحد الاسلام بين صفوفهم ، أن ينطلقوا من صـحرائهم فى تلك الموجة الكبيرة التى قدر لها أن تكتسح ما أمامها فى عنف حتى تبلغ أواسط آسيا (شرقا) وفرنسا (غربا) •

* *

ولكن القطاع الجبلى الضيق الطويل الذى يحد الصحراء ممتدا على ساحل البحر المتوسـط يختلف عن ذلك اختلافا عظيما فى خصـائصه الطبيعية ، وفى أحداثه التاريخية تبعـا لذلك • فبينما الجزيرة العربية فقيرة فى الطرق والموانيء ، نجد الطبيعة قد هيأت سوريا وفلسطين لتكونا منطقة هامة للمواصلات ، فقدر لهما أن تشهدا حركة مرور مستمرة من شعوب كثيرة ومن صور حضارية عديدة • ففى العصور القديمة كانت هذه المنطقة ، لوقوعها بين القوتين السياسيتين الاقتصاديتين العظيمتين فى مصر وأرض الرافدين ، المنفذ والمحك الوحيـد لأطماعهما العسـكرية والاقتصادية • وفى العصور الوسطى اكتسحتها جيوش المسلمين الزاحفة على بيزنطة • وفى أيامنا هذه ظلت الهدف لجهود الدول الكبرى فى سبيل السيطرة على طرق المواصلات الممتدة من أوربا وافريقية غربا الى الشرقين الأوسط والأقصى •

والمظهر العام الذى تلوح به هذه المنطقة هو صفوف من الجبال تمتد حذاء البحر • ولكن يمتد على طول هذه الكتلة الجبلية منخفض عميق بارز المعالم ، يتبع تقريبا مجرى نهرين هما العاصى Orontes فى الشـــمال والأردن فى الجنوب • ونهر العـاصى ينبع فى الجزء الأعلى من سـوريا ، ويجرى بين حائطين من الجبال يرتفعان حتى عشرة آلاف قدم ، فالسلسلة الأقرب الى البحر تسمى جبال لبنان ، والسلسلة الأقرب الى الصـحراء تسمى جبال لبنان الداخلة Anti-Lebanon .

وتشتمل سلسلة جبال لبنان على غابات واسعة من أشجار الصنوبر والسرو والأرز ، وهذا أمر بالغ الأهمية من الناحية التجارية ، لأن أرض الرافدين ومصر تكادان تخلوان تماما من خشب البناء · وللساحل مرافىء طبيعية صالحة ، قامت فيها موانىء زاهرة · وقد كانت هذه المنطقة موطنا للفينيقيين ، ذلك الشعب التجارى البحرى العظيم الذى عرفه الزمان القديم ، والذى حملته مهارته وصلابة عوده وشدة حرصه على الاستيطان الى جميع شواطىء البحر المتوسط ، والى المحيط الأطلنطى وراءه ، والى مناجم القصدير فى بريطانيا ·

والى الشرق من نهر العاصى نرى جبال لبنان الداخلة تمتد جنوبا الى منطقة تتناثر فيها الواحات التى قامت حولها مدن هامة ، كانت من أشهرها مدينة تدمر ، وكانت مركز دولة مستقلة صغيرة ومحطا أساسيا على الطريق الهام الذى يربط سوريا بأرض الرافدين · والى الجنوب من ذلك تقع واحة دمشق ببساتين زهورها التى ترويها الأنهار المنحدرة من الجبال · وكان وجود هذه المدن بين دول أقوى منها كثيرا حائلا فى العادة بينها وبين تكوين دول سياسية قوية · ومن ثم مالت الى أن تظل دولا مستقلا صغيرة ، أهميتها تجارية أكثر منها سياسية · وهذا يصدق أيضا على مدن الساحل الفينيقى ، ولكن خضوعها لسيادة الدول العظمى خضوعا مقنعا بقناع خفيف لم يمنعها مطلقا من بلوغ سيادتها فى التجارة بحرا ·

وتمتد فينيقيا جنوبا وراء جبال لبنان حتى حدود فلسطين · وهنا أيضا نجد كتلة الجبال يشقها نهر هو الاردن الذى ترجع شهرته قبل كل شىء ، كما هى حال المنطقة بأسرها ، الى دوره فى التاريخ الدينى · وهو يتسع فى مجراه مرتين مكونا بحيرة طبرية فى الشمال والبحر الميت فى الجنوب · وبين بحيرة طبرية والبحر المتوسط تقع أرض الجليل ، والى الجنوب منها السامرة ، فاذا أوغلنا جنوبا وجدنا يهوذا ومدينتها أورشليم التى تقدسها الديانات السماوية الثلاث ·

وتقع أورشليم على ارتفاع يبلغ نحو ٢٦٠٠ قدم · والمنطقة المحيطة بها لا تتجاوز هذا الارتفاع كثيرا ، وهى تنحدر نحو البحر الى شاطىء رملى عليه مرافىء قليلة · وتزداد الارض حظا من الرمال كلما اتجهنا جنوبا نحو شبه جزيرة سيناء ، وهى منتهى فلسطين والقارة الآسيوية · وسيناء جسر يؤدى الى افريقية ، والى وادى مصر الغنى ، ولكن هذه الرحلة محفوفة بالصعاب ، ولهذا كان الرحالون يفضلون فى الغالب مجابهة أخطار البحر وركوب السفن الى مصر من الموانىء الفينيقية ·

ويمكن اعتبار فلسطين وسوريا أرضين خصبتين • وقد قامت فيهما الزراعة منذ أقدم الأزمان على مراحل متصلة ، فكانت شعوب من الرعاة تأتى من الصحراء ، وتأخذ نفسها شيئا فشيئا بأسباب الحياة المستقرة الزراعية • ولم يكن هذا التغلغل سلميا دائما ، وانما كانت هناك هجمات عنيفة من الصحراء اصطلحت مع هجمات جيـــوش الدول المجاورة على اخضاع هذه المنطقة لسلسلة من فترات التدمير والتخريب ، على نسق المصير الذى أورثه التاريخ فيما يبدو للعبريين الذين نعلم من أمورهم أكثر مما نعلم عن سائر شعوب هذه المنطقة •

* *

وقد سمى هيرودوت مصر هبة النيـــل ، ويمكن أن نطلق تسمية مماثلة على أرض الرافدين ، فنهراها قوام حياتها •

ولدجلة والفرات اليوم مصب مشترك ، ولكن لم يكن الأمر كذلك فى قديم الزمان ، وانمـا كانا يجريان متوازيين ويصـــبان منفصلين فى البحر ، وكان البحر فى ذلك الوقت يمتد شمالا أبعد مما يمتد الآن • فرسوب الغرين باستمرار عندما كان التيار الذى يحمله يبطىء بالقرب من المصب أدى على توالى القرون الى انحسار البحر باطراد ، وتكوين الدلتا التى صارت تلتقى فيها مياه النهرين • ولذلك وجدنا المدن القديمه التى كانت قد نشأت على السـاحل تبتعد شيئا فشيئا عن البحر الذى كانت تدين له بازدهارها ، ولم تلبث خرائبهـــا أن أحاطت بها رمال الصحراء •

وينبع هذان النهران العظيمان وســـط الثلوج الدائمة فى جبال أرمينية التى ترتفع فى بعض المواضع الى مايزيد على ثلاثة عشر ألف قدم • ومن هذا العلو ينحدر النهران صوب السهل ، وهنا ، حيث يأتى الرمل بعد الصخر ، يكبح تدفقهما العنيف ، فيعمدان الى الفيضان وتغيير المجرى ليجدا لقوتهما متنفسا • وتبلغ هذه الظواهر مداها فى الربيع والصيف، عندما يؤدى ازدياد الماء الى فيضانات مباغتة هوجاء ، فتصاب الارض المزروعة بأضرار بالغة • ولكن لم يلبث السكان أن وجهوا جهودهم الى تذليل هذا العنصر الهائج وتحويله الى مصدر رخاء ، فتولوا فى زمن بالغ القدم بناء شبكة من القنوات صممت لاستقبال مياه الفيضان وتوزيعها بنظام مرسوم • وأدب أرض الرافدين القديم حافل كله بذكرى هذا العمل العظيم ، وكان ملوك البـلاد فى جميع العصـــور يعتبرون رعاية شبكة القنوات من أكبر المآثر التى يحق لهم الفخر بها •

وتقع وراء المنطقة التى ترويها القنوات مستنقعات لا أول لها ولا اخر ، هى سهل خوان من مياه ضحلة ينمو عليها قصب هائل ، وتتخللها هنا وهناك جزر صغيرة من اليابسة . وقد رسم لنا أدباء أشور صورا للاجئين يفرون من الغزاة الى المستنقعات على أرماث صغيرة أو يختبئون فى مجاهل القصب .

والاختلاف الشديد فى الارض التى يعبرها النهران من الثلوج الدائمة الى الرمال المحرقة يتمشى والاختلاف فى مناخ البلاد . فأشور فى الشمال شديدة البرد فى بعض المناطق ، بينما تنوء بابل فى الجنوب من مايو الى نوفمبر بحرارة شديدة يزيد من هولها ارتفاع درجة الرطوبة ، فكان من الطبيعى هنا أن تعد الشمس عامل موت ودمار ومصدر عذاب للانسان والحيوان .

والجبال فى الشمال غنية بالمعادن ، فهى تشتمل على الذهب والفضة والقصدير والنحاس بوفرة بالغة ، وقد وصلت الينا عقود للحصول على المعادن التى تأتى بها القوافل من الشمال . وباطن الارض فى بلاد الرافدين غنى بموارد طبيعية أخرى كالنفط والقار ، وكان بناءو السفن الأشوريون فى قديم الزمان يستعملون القار على نطاق واسع . هذا الى أن تربة هذه المنطقة صالحة خاصة لزراعة الحبوب .

وكانت تنحدر أيضا من الجبال الى أرض الرافدين طرق المواصلات الممتدة من الشمال والشرق . ولهذا كان تاريخ هذه المنطقة الى حد كبير تاريخ الصراع للسيطرة على هذه الطرق ، ثم على الوادى الذى تؤدى اليه . وكان على ملوك أرض الرافدين أن يوجهوا الى الجبال دائما عنايتهم وحملاتهم ، ومن الجبال أتى الغزاة الذين قوضوا دول مابين النهرين .

***

وقد جعلت الطبيعة من سوريا وفلسطين ملتقى وميدانا لا فكاك منه لجميع الحركات المتعلقة بالتجارة أو الحرب أو الهجرة فى الشرق الادنى. فهذا القطاع الضيق من الارض كان من الناحية الجغرافية الصلة بين ثلاث قارات ، فالصحراء حصرت المواصلات البرية بين آسيا وافريقية فى قوس كبير يحف بالطرف الشمالى لرمال الجزيرة العربية ، بينما كان الطريق الى شرقى أوربا ينحرف الى شمال سوريا ، ومن هناك يعبر جبال طوروس الى آسيا الصغرى ميممة نحو القسطنطينية . وفيما يتعلق بطرق البحر لا تحتاج أهمية الموانىء الفينيقية الى شرح سوى مانلاحظه من أنها ازدادت بسبب الصعاب التى كانت تقيمها الجبال والصحارى فى وجه المواصلات البرية .

وكان الطريق البحرى خاصة أنسب الطرق وأكثرها استعمالا من سوريا الى مصر منذ قديم الزمان ٠ فقد كانت مزايا الموانىء الفينيقية أعظم فى نظر كثير من التجار الرحالين من أن يتخلوا عنها ويجازفوا بمجابهة الأخطار فى صحراء سيناء التى تعترض الطريق البرى الى افريقية ، على الرغم من أنه كان هناك طريق عبر تلك الصحراء يؤدى من سهل فلسطين الجنوبى الى دلتا النيل ٠ وكانت فلسطين فقيرة فى الموانىء ، ومن ثم نحا معظم التجارة البحرية الى استخدام الموانىء الفينيقية ٠

وليس الطريق من سوريا الى أرض الرافدين بالطريق الطويل ، فالمسافر اذا صعد حتى حلب لم يجد أمامه سوى رقعة ضيقة من الصحراء عليه اجتيازها قبل الوصول الى الفرات٠ فاذا بلغه كان له أن يسير حذاءه أو أن يعبره ويسير مع فروعه الشمالية نحو دجلة ٠ والى الجنوب من هذا الشريان التجارى كان هناك طريق للقوافل أقل أهمية ، يمتد من دمشق الى مجرى الفرات الأوسط شاقا الصحراء ومارا بواحة تدمر الخصيبة ٠

وكانت المواصلات مع الجزيرة العربية أشد صعوبة ٠ وكانت أعسر خطة بوجه عام الوصول عبر البحر الأحمر الى ساحل الجزيرة ، ثم التوغل منه الى داخل البلاد ، ولكن الجاليات التجارية فى الحجاز والدول الزاهرة فى اليمن السعيد جنوبا عرفت أيضا منذ أقدم الأزمان طريقا تجاريا آخر يمتد خلال المدينة ومكة موازيا ساحل الجزيرة على وجه التقريب ، ثم يتبع خط الواحات الى جنوب فلسطين ، ومن هناك يستمر حتى سوريا ٠ وكانت هناك طرق للقوافل أقل كثيرا فى الأهمية تشق عرض الجزيرة كله ، وتميل مع الهضبة المنحدرة فى رفق حتى تبلغ الخليج العربى وأرض الرافدين ٠

وشمال سوريا مقطوع عن آسيا الصغرى ، وعن أوربا تبعا لذلك ، بحاجز الجبال ، ولكن هناك طريقا يشق هذه الجبال مباشرة ، ويلتقى بالطريق الممتد شمالها ٠ وذلك هو الطريق الذى حاول العرب فى القرون الوسطى مرة بعد أخرى التوغل منه الى قلب الامبراطورية البيزنطية ٠

***

وقد تكيف تاريخ وحضارة الشعوب التى عاشت فى هذه المنـــاطق كلها بالأحوال الطبيعية لبيئتها ٠ فالحركات المختلفة للهـــجرة أو الفتح تأثرت بالعوامل الاقتصادية والمناخية التى تسيطر على حياة الناس ، واتجاه هذه الحركات انما حددته الخطوط الطبيعية للمواصلات ، وامتلاك

هذه الخطوط وما يستتبعه من سيطرة على الحياة كلها فى هذه المنطقة حددا سير التاريخ · فولدت دول ونمت فى محيط جغرافى قدر لها وحدة دائمة هنا أو انقساما أبديًا هناك · والصور التى اتخذتها حضارة هذه الدول عكست بيئتها ، واستمدت من هذه البيئة نواحى قوتها أو ضعفها ·

وفى الوقت ذاته كان ميزان الشعوب والدول والصور الحضارية القائمة فى هذا الزمن أو ذاك داخل هذه المنطقة خاضعا دائما لتأثيرات خارجية · فسكان هذه البلاد ، بحكم اقامتهم فى ملتقى القارات الثلاث التى كان يتكون منها العالم القديم وهى آسيا وافريقية وأوربا ، لم يكن لهم بد من أن يستوعبوا ويمزجوا وينقلوا العناصر الحضارية التى أسهمت بها تلك القارات جميعا ·

الفصل الثانى

الممثلون

فى المنطقة التى وصفناها فى الفصل السابق عاشت شعوب تتشابه فى خصائصها تشابها ملحوظا ، هى الشعوب التى نسميها الشعوب السامية ؛ عاشت فى تلك المنطقة منذ أوائل التاريخ ، ومن يدرى كم مر عليها من الزمن هناك قبل بدء التاريخ ٠

وقد سمى الساميون كذلك نسبة الى سام الذى ورد ذكره فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين فى التوراة ، وهو اصحاح يسجل الصلات بين الشعوب المختلفة التى كان يعرفها كاتبه ، يسجلها فى صورة سلاسل أنساب تنحدر من أبناء نوح ٠ ففى هذا الجدول من الأنساب نجد قائمة أبناء سام تضم أرام وأشور وعبر ، أى الأراميين والأشوريين والعبريين ٠ ولهذا استعمل العلماء الأوربيون قرب نهاية القرن الثامن عشر لفظ الساميين اسما مشتركا لتلك المجموعة من الشعوب التى ينتمى اليها الأراميون والأشوريون والعبريون ، والتى تتضح قراباتها من لغاتها دون لبس أو ابهام (١) ٠ وبعد ذلك اتسع استعمال اللفظ وعدل نتيجة لازدياد معلوماتنا بعد أن كشف علم الآثار عن شعوب أخرى لها صفات مماثلة ، وبعد أن صار من الممكن أن نحدد بقدر أعظم من الدقة

العلمية الصفات المميزة أو الأساسية التى تكون بها اللغة لغة سامية ، والشعب شعبا ساميا ، والحضارة حضارة سامية ·

وقبل القرن الثامن عشر كان يشار الى لغات آسيا وشعوبها باسم جامع هو اللغات أو الشعوب الشرقية · ولكن القرابة بين بعض اللغات السامية كانت تلاحظ من حين الى حين ، فقد كانت تلاحظ مثلا حين تجمع أحداث التاريخ بين الشعوب التى كانت تتحدث بتلك اللغات · فاليهود فى أسبانيا مثلا ، حين اتصلوا بالعرب المتوغلين فى أوربا عبر شمال افريقية ، استطاعوا ملاحظة الشبه بين لغتهم ولغة العرب الفاتحين ·

وكانت الجزيرة العربية ، وسوريا ــ فلسطين ، وأرض الرافدين ، الموطن التاريخى للشعوب السامية كما قلنا ، وقد أقامت هذه الشعوب فى تلك البلاد اقامة ثابتة متصلة · ولكن ليس معنى هذا أنها لم تنتشر وراء حدود تلك البلاد ، سواء فى غزوات تتفاوت فى مداها وطول زمنها أو للاقامة فى مناطق أخرى اقامة دائمة ·

فبعض أقوام الساميين أقاموا اقامة دائمة على الساحل الافريقى المواجه لليمن ، أى خارج النطاق السامى · فقبل بداية العصر المسيحى بزمن طويل أخذت قبائل عربية مختلفة تهاجر الى ذلك الساحل الافريقى، يجذبها اليه غنى البلاد الطبيعى ، وأنشأت هناك مراكز تجارية · فقامت بذلك موانىء عدة على طول ساحل البحر الأحمر ، بينما انتشر المهاجرون أيضا الى الداخل واقاموا فيه مستوطنين مستقرين ، فارضين حكمهم على السكان المحليين . فهذا هو أصل دولة اكسوم القديمة .

ومن الهجرات التى لم يقدر لها الثبات والدوام جميع المحاولات المختلفة للفتح العسكرى ، وأهمها الى حد بعيد فتوح الاسلام · ولكن لما اضمحلت بعد ذلك قوة المسلمين وتصدعت الامبراطورية العربية بقيت عناصر عربية ، أى سامية ، كثيرة فى لغات ودماء الشعوب التى اكتسحتها موجة الفتوح الاسلامية ·

وانتشر الساميون خارج وطنهم بطريقة أخرى هى اقامة المستعمرات. ومن الطبيعى أن يكون كبار المستعمرين بين الشعوب السامية هم ذلك الشعب الذى اشتهر طوال التاريخ القديم بشجاعته فى الملاحة ، ونعنى به الفينيقيين · فتأسيس قواعد فى نقط استراتيجية فى حوض البحر المتوسط كان فى الواقع ضروريا للمحافظة على تجارتهم ؛ ولهذا أسسوا

مستعمرات فى افريقية وأسبانيا وصقلية • والأحداث التاريخية التى اعتورت هذه المستعمرات بعد ذلك أدخلت عناصر سامية فى شئون أوربا ، حتى بعد مرور زمن طويل على زوال سلطان فينيقيا نفسها الى غير رجعة •

وأخيرا نرى انتشارا لعناصر سامية جنسية وحضارية فى فترة تخرج عن نطاق كتابنا هذا ، هو انتشار اليهود الذى بدأ حتى قبل تخريب الرومان لبيت المقدس ، وأوجد فى شتى أنحاء العالم جماعات يهودية تتمسك بتقاليدها تمسكا شديدا •

* *

وتتميز مجموعة الشعوب السامية عن غيرها بصفات معينة مشتركة بينها • وهذه الخصائص لغوية قبل كل شيء • فبين اللغات السامية من التشابه الكبير فى الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن معه أن ننسب تقاربها الى حدوث اقتباسات فيما بينها فى العصور التاريخية، وانما لا سبيل الى تفسير هذا التقارب الا بافتراض أصل مشترك لها (٢)

فالجانب الصوتى فى اللغات السامية يتميز بغنى ملحوظ فى طائفة الحروف الصامتة consonants ، ففيها حروف كثيرة مخرجها من الحنجرة والحلقوم واللهاة ، وفيها ما نسميه بالحروف المطبقة التى يصحب نطقها قبض للحنجرة • فهذه الحروف التى تتميز بها اللغات السامية ، والتى لا نكاد نجد لها نظيرا فى اللغات الأوربية ، يمكن أن تدرج كلها تحت صفة عامة هى أن اللغات السامية أكثر من غيرها رجوعا الى الوراء بما يمكن أن نسميه « مركز الجاذبية » centre of gravity فى نظام النطق •

ولكن نظام الحركات فقير فى أنماطه • ومما تمتاز به معظم اللغات السامية أن الحركات لا تكتب فيها (٣) ، وانما يستنبطها القارىء من وضع الحروف الصامتة لا غير • ولكن تكتب الحركات فى نصوص معينة تعلق أهمية خاصة على نطقها نطقا صحيحا ، وذلك كالتوراة العبرية والقرآن العربى •

وتقوم الصيغ على نظام « الجذور » وهى فى معظمها من ثلاثة حروف (٤) • فهذه الحروف تعبر عن المعنى الأساسى للكلمة ، ثم يحدد معنى الكلمة الدقيق ووظيفتها باضافة الحركات ، وكذلك باضافة مقاطع من حروف فى صدر الكلمة أو وسطها أو آخرها • فالحروف الثلاثة ك ـ ت ـ ب ، مثلا ، هى الجذر ، ومعناه الأساسى « الكتابة » • فالجذر

شيء تجريدى فى النحو ، ولكن الكلمات فى واقع اللغة تصاغ باضافة حركات أو مقاطع حروف فى الصدر أو الوسط أو الآخر . فنقول فى العربية كتب وكتبت وكاتب وكتاب ومكتب ، وهكذا طائفة عظيمة من الصيغ الفعلية والاسمية . والمعاجم الخاصة باللغات السامية لا ترتب على حسب الكلمات المفردة كمعاجم اللغات الأوربية ، ولكن على حسب الجذور. فالكلمة مكتب مثلا لا ترد تحت الميم ، ولكن تحت الجذر ك ـ ت ـ ب .

وكان الاسم معربا فى الأصل ، ولكن لم يحتفظ بنظام الاعراب الا قليل من اللغات السامية. فالاسم المفرد كان يرفع بالضمة ويجر بالكسرة وينصب بالفتحة ، والمثنى كان يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء المفتوح ما قبلها ، والجمع كان يرفع بالواو وينصب ويجر بالياء المكسور ماقبلها.

ويراعى فى الجر بالاضافة أن يكون المضاف ، وهو الاسم السابق للمضاف اليه المجرور ، خاليا من أداة التعريف ، وكثيرا ما تطرأ عليه تغييرات داخلية . فالموت فى العبرية فى حالة الافراد (٥) هو ham-mawc'h ولكن اذا أضفناه الى الملك (ham-mclckh) قلنا moth ham mclckh أى « موت الملك » .

واللغتان الساميتان الجنوبيتان ، أى العربية والحبشية ، تمتازان بنمط خاص من الجمع هو ما يسمى جمع التكسير . فالى جانب الجمع السالم الذى يعبر فيه عن الجمع بنهاية تلحق الاسم ، كما هى العادة فى اللغات الأوربية ، تصوغ هاتان اللغتان الجمع أيضا بتغيير الاسم تغييرا داخليا ، ويكون هذا عادة بتغيير الحركات . ففى العربية مثلا نجمع كتابا على كتب بتغيير الحركات وحدها . وهذا النوع من الجمع هو فى الواقع اسم جمع ، وهذا هو السبب فى أن هذه الظاهرة فريدة فى بابها على نحو ظاهر (٦) .

وطريقة الساميين فى بناء الكلمات قد يعجب منها المتكلمون بالانجليزية (والألمانية : المترجم) أقل مما يعجب منها المتكلمون باحدى اللغات الرومانسية مثلا، ففى الانجليزية صيغ فعلية مثل **sing-sang-sung** واسم مثل song ؛ حتى الجموع قد تصاغ على نحو مماثل كالجمع men للمفرد man . ولكن بينما نجد هذا النوع من البناء ، حتى فى الانجليزية ، مقصورا على كلمات معينة ، نراه شيئا طبيعيا فى اللغات السامية . ومن الأمثلة الطريفة أن الكلمة الانجليزية inch «بوصة» اقتبسها بعض العرب فى صيغتها المفردة فقالوا انش ، ثم جمعوها على أنش ـ بضم الألف والنون ، وهو جمع طبيعى واضح تماما فى نظر العرب.

ويمتاز الفعل السامى بسلسلة من الأوزان المزيدة التى تعبر عن معان مشتقة من المعنى الأساسى ، وتصاغ بتغيير الجذر تغييرات ثابتة ، وهكذا يعبر عن شــدة الفعــل أو تكراره ، وعن السببية ، وعن البنــاء للمجهول والمطاوعة والمشاركة فى الفعل ٠ والطبيعى ألا نشير الى الفعل السامى بصيغة مصدره ولكن بصيغة ماضى الغائب منه فهى أبسط صيغه. فاذا ترجمناه الى اللغة الانجليزية دللنا عليه بصيغة المصدر فى هذه اللغة فالفعل to write يعبر عنه فى العربية بالصيغة كتب ، وان كانت هذه الصيغة تعنى فى الواقع he has written ٠ فاذا مددنا الحركة الأولى قلنا كاتب ، وهى تدل على المشاركة ، أى أن يكتب شخصــان كل منهما الى الآخر ٠ واذا أضفنا فى الصدر «أ» وأسقطنا حركة الفــاء قلنا أكتب ، ومعناها أن يملى شخص على آخر شيئا يكتبه ٠ فليس من العسير أن نرى أنه يمكن احداث تغييرات كثيرة فى الجــذر ك ــ ت ــ ب ومعنــاه العــام «الكتابة» ٠

وللغات السامية نظام فى تصريف الفعل يختلف اختلافا تاما عما فى اللغات الهنــدية ــ الأوربيــة ٠ فليس فيها اطلاقا صيغ أزمنة بالمعنى الصحيح ، أى صيغ خاصة تدل على حدوث الفعل فى الحاضر أو الماضى أو المستقبل ؛ فهى لا تميز الا بين الحالة والحدث ، أى بين نشاط (مستمر أو اعتيادى) وحدث (تم) ٠ ولنمثل لذلك بالنظام المتبع فى العــربية وسائر اللغات السامية الغربية ٠ فاذا كان الحدث فى الزمن المشار اليه (وهذا الزمن يستنتج من السياق) تاما أو تم أو سيتم أو اعتبره المتكلم تاما ، أى اذا كان حقيقة تم وقوعها ، استعملنا الماضى ؛ ونظيره فى اللغة الانجليزية قد يكون ال pluperfect أو ال past أو ال perfect الذى يشير الى حدث مضى (I had written, I wrote yesterday, I have already written) وقد يكون نظيره ال perfect أو ال present الذى يشير الى حدث فى المستقبل (I will come when I have written this letter, He will find out when I write to him) وقد يكون نظيره ال future perfect (I shall have written before then)

ولكن اذا لم يعتبر الحدث فى الزمن المشار اليه حقيقة تم وقوعها ، بل اعتبر حدثا لم يتم أو حدثا اعتيــاديا أو حدثا يراد فعله ، استعمل المضارع ؛ ونظيره فى اللغة الانجليزية قد يكون فعلا دالا على حدث مستمر (I am — was — will be writing) أو عبارة دالة على حدث اعتيادى (I used to write, I write — wrote — will write every week) أو

عبارة دالة على عمل يراد أو كان يراد فعله
(I shall write, I was going to write)

ونظام التراكيب فى اللغات السامية يميز بين ما نسميه الجمل الفعلية والجمل الاسمية . ففى الجمل الفعلية ، وهى الصورة العادية للتعبير عن حدث أو مرحلة فى حكاية ، يوضع الفعل فى الصدر ، ثم يتبعه الفاعل ، مثل قال زيد لأبيه بتقديم قال على زيد ، بخلاف الوضع فى

Zaid said to his father

ولكن فى الجمل الاسمية يوضع المسند اليه فى الصدر ؛ وتكون بقية الجملة مسندا يخبرنا بشيء عن ذلك المسند اليه . وفعل الكينونة to be يفهم عادة من السياق ، فيقال زيد عاقل نظير Zaid is wise ؛ وتجد مثل ذلك فى بعض اللغات الأوربية .

والجملة عامة بسيطة التركيب (٧) . فاللغات السامية لا تميل الى الجمل الفرعية subordinate clauses ، ولكن تفضل وضع الجمل بعضها ازاء بعض ، على أن تستنتج من السياق العلاقة التى تربط احداها بالأخرى ، سواء كانت علاقة شرطية أو غائية أو سببية أو ما أشبه . ومن قبيل ذلك الجملة الحالية ، مثل « قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين » (٨) ، أى « مع أنه فضلكم .. » . ومن أبرز الأمثلة على هذا الحذف السامى لأدوات الوصل التى تتصدر الجمل الفرعية subordinating conjunctions حتى فى النص اليونانى للانجيل ، قول القديس بولس ما ترجمته حرفيا بالانجليزية : Thanks be to God that ye were servants of sin, ye became obedient...

بينما نجد الترجمة الانجليزية المنقحة للكتاب المقدس Revised Version تقول مسايرة للمعنى Thanks be to God, that *whereas* ye were servants of sin, ye became obedient...

(رسالة بولس الى أهل روما ٦ : ١٧) « فشكرا لله أنكم كنتم عبيدا للخطيئة ، ولكنكم أطعتم ... » .

هذه الخصائص اللغوية السامية التى وصفناها هى بالطبع مجرد نماذج من مجال أوسع كثيرا ، وهى تتسع أيضا للشواذ ، ولكنها تكفى صورة عامة للملامح المميزة فى المجموعة السامية من حيث هى أسرة لغوية خاصة . وقد تضم جميع العناصر المشتركة بعضها الى بعض ،

فيصاغ منها كيان نظرى للغة سامية أصلية (٩) ؛ وهذا دليل على الصلات الوثيقة بين اللغات السامية فى عصورها التاريخية ٠

ويمكن تقسيم هذه اللغات الى مجموعات رئيسية تصلح أساسا لتقسيم الشعوب التى كانت تتحدث بها ٠ فالمجموعة اللغوية السامية التى ينتمى اليها أقدم ما لدينا من نصوص هى المجموعة اللغوية الخاصة بالأكديين ، أى السكان الساميين لأرض الرافدين : البابليين والأشوريين. والمجموعة الثانية هى مجموعة اللغات التى تسمى الكنعانية ، لأنه كان يتحدث بها فى المنطقة التى تسميها التوراة كنعان ، وهى تشمل فلسطين وجزءا من سوريا ٠ والكنعانية من حيث هى مجموعة لغوية تستوى مع الكنعانيين من حيث هم مجموعة من الشعوب فى تعقيد التركيب وفى الشكوك التى تحيط بدعوى اعتبارها أو اعتبارهم وحدة خاصة ٠ والى هذه المجموعة اللغوية تنتمى العبرية ٠ وثمة مجموعة ثالثة هى المجموعة الأرامية ، وهى طائفة من اللهجات وجدت أولا فى سوريا ، ولكنها بعد ذلك توغلت بعيدا فى المناطق المحيطة بها ٠ والمجموعة الرابعة هى العربية ، وقد وجدناها قبل زمن محمد فى كثير من النقوش ، وخاصة باليمن ، ولكن استقر طابعها « الكلاسيكى » فى القرآن والأدب الاسلامى بعد ذلك ٠ والمجموعة الخامسة والأخيرة هى الاثيوبية التى كان يتكلم بها المستوطنون الساميون فى الحبشة ؛ وكانت الحبشية لغة واحدة فى العصور القديمة ، ولكن فى العصور الوسطى فقط ، أى فى زمن يخرج عن نطاق هذا الكتاب ، صارت مجموعة ، وذلك بانقسامها الى لهجات يتميز بعضها عن بعض تميزا واضحا ٠

***

وصفنا المنطقة الجغرافية التى كانت تسكنها الشعوب السامية ، والخصائص المشتركة للغاتها ٠ ولكن بقى هذا السؤال : الى أى حد يحق لنا الحديث عن « شعوب سامية » ؟ وبعبارة أخرى : لا ريب فى أن اللغات السامية تؤلف فيما بينها أسرة متميزة متحدة ، ولكن هل نستطيع ان نقول مثل ذلك عن الشعوب التى كانت تتحدث بها ؟

ليس هذا السؤال بالسهل اليسير ٠ فقد رأى كثير من العلماء أن فكرة « السامية » لا تصح الا فى الميدان اللغوى ، ولا يمكن على نحو صحيح اطلاقها على شعوب أو صور من الحضارة ٠ ولكن نادى آخرون بعكس ذلك ، مؤيدين دعواهم بالاشارة الى « الشبه العائلى » الملحوظ فى النظم الاجتماعية والدينية للشعوب التى تتحدث باللغات السامية ٠

ولكى نبت فى هذا الأمر ، علينا أن نحدد مدلول الشعب • فعلم الأجناس الحديث يعرف الشعب بأنه مجموعة من الأشخاص الذين قد يختلفون فى الجنس والموطن الأصلى ، ولكنهم ممتزجون فى وحدة متجانسة بفضل وحدة المسكن واللغة والتقاليد التاريخية والحضارية (١٠) •

فاذا طبقنا هذا التعريف على الشعوب التى تتكلم اللغات السامية وجدنا أنه يصدق فى وضوح ويسر على كل منها منفردا ، ووجدنا فضلا عن ذلك انه لا اعتراض من الناحية الجغرافية على تجانس المجموعة فيما بينها ، وأنه لم يعترض أحد أبدا على الاعتراف بوجود أسرة لغوية سامية • فبقى أن ننظر فيما اذا كان ذلك التعريف يصدق على التقاليد التاريخية والحضارية من حيث هى مبرر لدعوى الطبيعة « السامية » للأسرة كلها •

وسنرى فى الفصل القادم كيف أن الشعوب التى تتكلم اللغات السامية وفدت فى العصور التاريخية من الجزيرة العربية • فمصادرنا التاريخية تسجل هذه الهجرات ، وهى هجرات لم يكن بد منها ازاء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء ؛ فهذه الأحوال تؤدى الى ميل مستمر من قبائل الرعى البدوية الى الاستقرار فى المناطق الخصبة حول الصحراء ، والأخذ بأسباب الحياة الزراعية • ولهذا يبدو أن الشعوب السامية اللغة تؤلف كتلة واحدة ، لا باجتماعها فى صعيد جغرافى واحد والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب ، ولكن باشتراكها فى أصل حضارى تاريخى واحد أيضا • ومن هنا يبدو أنه يجوز لنا ألا نقصر الصفة السامية على الميدان اللغوى ، وأن نتحدث أيضا عن « الساميين » وعن الشعوب والحضارة السامية •

ولكن يجب أن نوضح هنا اعتبارا هاما ، وهو أنه ليس من الضرورى أن يكون شعب ساميا بالقدر الذى تكون به لغته سامية • فسكان الصحراء الذين احتلوا البلاد المجاورة فرضوا عليها لغتهم ، ولكنهم اختلطوا بالشعوب التى وجدوها فى تلك البلاد والتى أخذوا عنها حضارتها الى حد بعيد • فالشعوب التى تكونت على هذا النحو كانت ، على الرغم من أن لغاتها سامية وأنها تستقى حضارتها من التراث السامى المشترك ، شعوبا مستقلة قد تغلب عليها العنصر السامى ويبرز ولكنه لم يكن العنصر الوحيد • ولهذا يجوز ، مع هذا التحفظ ، أن نسميها «شعوبا سامية» ، ولكن ليس من الدقة أن نشير الى أفرادها دون تمييز باسم الساميين •

على أنه من الصحيح أنه كانت هناك وحدة حقيقية واشتراك فى التقاليد فى مجموعة الشعوب السامية ، ولهذا ليست دراسة هذه المجموعة جمعا معتسفا لعناصر لا ترتبط فيما بينها الا على نحو عارض ، وانما هى صورة لوحدة عضوية محددة فى نطاق التاريخ السياسى والحضارى للشرق الأدنى القديم ·

* *

ونأتى الآن الى مسألة الجنس · وهنا يجب أن نبين منذ أول الأمر أن هذه مسألة لا تؤثر فى تحديد الشعوب السامية من حيث هى كذلك، فأكثر الشعوب تماسكا وتجانسا قد تشتمل على عناصر جنسية شديدة التباين · ثم انه لا حاجة الى مناقشة نظرية « الجنس السامى » جنسا متميزا يشمل جميع الشعوب التى تتكلم اللغات السامية ، فهى نظرية تنتمى الى ميدان الدعاية السياسية التى عفت آثارها الآن أكثر مما تنتمى الى العلم الجاد ، وقد نبذها علماء الأجناس عن حق ·

ولكن يصح أن ننظر فى الأنماط الجنسية التى نجدها فى المنطقة السامية · ففى الوقت الحاضر يسود نمطان · أولهما النمط «الشرقى» أو « الايرانى » ، وهو النمط الوحيد السائد فى الجزيرة العربية وبعض مناطق فلسطين وسوريا وأرض الرافدين · وهو يتميز ببشرة بيضاء أو لوحتها الشمس ، وشعر أسمر ، وعينين داكنتين ، وشعر كثيف فى موضع اللحية وعلى الجسد ، وقامة متوسطة ، وبنية نحيلة ، ورأس طويل له مؤخرة بارزة ، ووجه طويل ، وأنف قوى أشم مستقيم أو محدودب ، وشفتين ممتلئتين ، وذقن بارز · وفى فلسطين وسوريا وأرض الرافدين نجد بجانب هذا النمط نمطا آخر أصله من الشمال ويسمى « الشبيه بالأرمنى » Armenoid · وهو يتميز ببشرة بيضاء باهتة ، وبنية قوية ممتلئة ، ورأس قصير شامخ له مؤخرة مسطحة ، وأنف قوى بارز مرتفع الأصل ، وشفتين رقيقتين · وبعض ملامح هذا النمط صارت تعد من الملامح المميزة لليهود ·

هذه المعلومات تتعلق بالوضع الحاضر · أما الوضع فى العصور القديمة فليس لدينا عنه سوى معلومات قليلة ، ولكن تشير هذه المعلومات الى أن النمط الايرانى أو الشرقى كان هو السائد أصلا فى المنطقة السامية كلها ، بينما لم ينفذ النمط الشبيه بالأرمنى الى المنطقة الا خلال الألف الثانى قبل الميلاد (١١) ·

فما هى النتيجة التى نستخلصها من هذا كله فيما يتعلق بالمشكلة التى نحن بصددها ؟ ان هذا ينطوى قبل كل شيء على نقض للنظرية التى تنادى بمجموعة جنسية تتفق والمجموعة اللغوية السامية • فالنمطان الجنسيان اللذان وصفناهما لا يقتصران على المنطقة السامية ؛ فالنمط الشرقى يمتد الى ايران وشمال افريقية ، والنمط الشبيه بالأرمنى يمتد الى الأناضول والقوقاز • ثم انهما لا يوجدان فى جميع المناطق السامية ، فالاثيوبيون فى الحبشة لهم نمط جنسى مختلف خاص بهم •

ولكن المهم فيما يتعلق بالمشكلة كما وضعناها هو الوضع الجنسى لسكان الصحراء العربية التى أتى منها الساميون ؛ وهنا نجد ، كما هو متوقع ، تجانسا جنسيا ملحوظا سببه انعزال الصحراء واطراد أحوالها• ولهذا يبدو أن الساميين كانوا فى الأصل مجموعة شعبية **ethnic group** يزيد من تماسكها تجانس فى جنس داخل نطاق النمط «الشرقى» الأبعد مدى، وذلك على الرغم من أنه ليس هناك قطعا شيء اسمه الجنس السامى •

الفصل الثالث

المقدمة

يبدأ التاريخ بظهور الوثائق المكتوبة ، وأقدم وثائق من هذا النوع وصلت الينا من أى شعب سامى تمثل لنا هذا الشعب وحدة قد تحددت وتميزت فى القطاع الخاص بها من المنطقة السامية · ولكن الشعوب السامية المختلفة تتشابه فيما بينها الى حد يكفى لتبرير الفرض القائل انها انتشرت من موطن مشترك قديم الى البلاد التى استوطنتها فى العصور التاريخية ·

ويحسن أن نوضح المدى الصحيح لهذا الفرض وللبحث فيه · فلا مجال هنا لتحديد « الموطن الأصلى » للساميين · وقد شهد الماضى محاولات عدة لهذا التحديد ، ولكن مثل هذا البحث يرجع بنا بعيدا وراء التاريخ ، ونتائجه لا يمكن الا أن تكون فرضية وموضع شك · فيجب هنا أن نقتصر على تحديد المنطقة التى صدرت عنها الهجرات السامية التى

سجلها التاريخ ، دون أن نحاول البت فيما اذا كانت تلك هى المنطقة التى بدأ فيها وجودهم شعبا أو فيما اذا كانوا قد هاجروا اليها فى العصور السابقة للتاريخ .

وحتى مع هذا التحديد لا نجد المشكلة سهلة . ففكرة شجرة الأنساب التى تصور توالد الشعوب واللغات شعبا عن شعب ولغة عن لغة لم تعد أمرا يقبل دون تمحيص . فمن الجلى أنه فى العصور السابقة للتاريخ ، كما هى الحال فى العصور التاريخية ، ربما كانت العلاقات بين الشعوب واللغات ذات طبيعة معقدة متغيرة نعجز كل العجز عن تتبعها ؛ ففكرة عملية التباين المطرد يجب أن نكملها ونقومها بفكرة عملية التمازج، حيث نجد العناصر اللغوية أو الجنسية تتدانى بفضل أسباب سياسية أو ثقافية ولا تتباعد .

وعلى الرغم من هذه التحفظات يصح بل يجب أن نسأل عن أصول الساميين ؛ ولكن يجب ونحن نجيب عن هذا السؤال ألا نغفل عن ذاك الذى قلناه .

وثمة حقيقة تبدو ثابتة الى حد كاف ، هى أن التاريخ يدلنا على أن الصحراء العربية كانت نقطة الانطلاق للهجرات السامية . والحركات الوحيدة التى سلكت الاتجاه المضاد كانت حركات دفاعية قليلة محدودة النطاق ؛ وجميع الحركات التى انطلقت من الصحراء كانت لشعوب لغاتها سامية . ولا يصح أن نعترض بأنه وقعت أيضا حركات من مكان الى آخر فى المناطق المستقرة ؛ فمن الجلى أن الساميين بعد ان نفذوا من الصحراء الى المناطق المستقرة واصلوا المشاركة فى الحركات التاريخية التى وقعت فى تلك المناطق ، وأن هذه الحركات اللاحقة لا علاقة لها بمسألة أصل الساميين .

ومن المهم أن نلاحظ أن وثائق التاريخ ليست الأساس الوحيد للرأى القائل ان الساميين جاءوا من الصحراء العربية . فمن الثابت أيضا أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء تجعل سكانها الرعاة البدو ينزعون ولا مناص الى التدفق على المناطق الزراعية المحيطة بالصحراء . ولا نزال نرى هذا النزوع فى أيامنا هذه . ولما كانت أحوال الصحراء لم يطرأ عليها فيما يبدو أى تغيير منذ فجر التاريخ ، فمن المنطقى أن نفترض أن هذا الميل كان يعمل عمله فى الأزمان القديمة أيضا .

ومن المهم خاصة ونحن نعالج هذا الموضوع أن نلاحظ أنه فى المنطقة السامية كلها تؤلف الصحراء العربية ما يسميه علم الأجناس وعلم اللغات

منطقة محمية · فهي أقل أجزاء تلك المنطقة جميعا اتصالا بغيرها ، وأقلها تأثرا بما يدور حولها · وهذا الوضع يؤدى الى المحافظة الجنسية واللغوية ، ففي مثل هذا الركن يجب أن نتوقع العثور على اقدم الصور والأشكال · وتؤيد اللغة العربية تأييدا تاما هذا الحكم السابق ؛ وليس ثمة ما يدعو الى الشك في صحته في المجال الجنسي ·

وهنا يجب أن نلاحظ أن الاستاذ أولبرايت **Albright (W.F.)** أعلن أخيرا أسبابا تدعوه الى الشك في أن الجمل ، الذى لا غنى عنه للحياة في الأجزاء الداخلية من الصحراء ، استؤنس قبل النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد · فاذا كان لهذه الشكوك ما يبررها ، فما هي التعديلات التي تفرضها على النظرية القائلة ان الساميين خرجوا من الصحراء ؟ لا أرى أنها تفرض تعديلات كثيرة ، وانما يجب ببساطة أن نفترض أنهم أقاموا فقط في الأجزاء الخارجية من الصحراء ، حيث يمكن الحياة حياة شبه صحراوية دون ابل · ولكن يجب أن نقول ان تلك الشكوك موضع جدال ، وان ثمة دلائل على وجود ابل مستأنسة في تاريخ متقدم على ذلك ·

وبلاد العرب ليست المنطقة الوحيدة التي افترض أنها المكان الذى جاء منه الساميون الى مواطنهم التاريخية ؛ فقد فكر البعض في سوريا ، والبعض في أرمينية (١) ، وآخرون في افريقية (٢) ؛ وأقام العالم الايطالي اجناتسيو جويدى **Ignazio Guidi** نظرية طريفة على أسس لغوية تجعل أصل الساميين في أرض الرافدين (٣) · ولكن من الصعب أن نوفق بين هذه النظريات وبين مجموعة الأدلة التاريخية والجنسية ؛ فيجب في ضوء معلوماتنا الحالية أن نقبل ولو على سبيل الافتراض العملي أن المنطقة التي انتشر منها الساميون كانت الصحراء العربية ولا سيما أطرافها ·

***

والأحوال التي عاش فيها الساميون القدماء ذات أهمية كبيرة لتفسير جميع التطورات اللاحقة التي شهدها تاريخهم السياسي والحضاري ؛ فقد وضعت أساس صفات الشعوب السامية ، وأثرت تأثيرا عميقا في نظرتها وسلوكها ·

وقد قلنا فيما مضى ان أحوال الصحراء لم تتغير الا قليلا من أقدم الأزمان التاريخية الى يومنا هذا · ومن هنا كانت المعلومات التي تمدنا بها الدراسة الجنسية لسكان الصحراء العربية اليوم عظيمة النفع في

تصورنا للماضى • ويمكننا أن ننتفع بالأدب العربى الذى يمدنا بأوصاف وافرة لحياة البدو ، وبالأدب العبرى مثل سفر التكوين حيث نشهد الانتقال من حياة البداوة الى حياة الاستقرار •

فبفضل هذه المصادر المختلفة نستطيع أن نرسم صورة واضحة وضوحا كافيا للأحوال الاجتماعية التى عاش فيها الساميون قديما • فهى كانت أحوال البدو الرعاة : البداوة الكاملة فى الأجزاء الداخلية من الصحراء ان كان استئناس الجمل جعل مثل هذا الأسلوب من الحياة ممكنا ، والبداوة الجزئية مع امتلاك قطعان الغنم والحمير بالقرب من أطراف الصحراء • ولا نزال نرى فى أيامنا هذه عملية التحاق القبائل شبه البدوية بالقبائل المستقرة ؛ فأحيانا تكون لقبائل الصحراء قواعد ثابتة يعودون اليها فى الربيع عندما تأخذ الشمس فى احراق العشب وتجفيف آبار القفار ؛ وأحيانا لا تكون لهم قواعد خاصة بهم ، وانما يتفقون مع القبائل المستقرة على أن تعطيهم الحق فى الرعى لقاء حماية يظلونهم بها• ويتم الانتقال الى الحياة المستقرة حين تكف قبيلة شبه بدوية أو جزء منها عن العودة الى الصحراء فى الشتاء ، وتقيم للزراعة فى القواعد الثابتة • **وهذا عامة تطور طبيعى سلمى ، ولكن قد تكون له مراحل من العنف •** وذلك حين لا تشاء القبائل المستقرة عقد اتفاق ، أو حين تحدث حركات عنيفة فى باطن الصحراء تكون لها آثار على أطرافها .

***

والأسرة هى الوحدة الأساسية فى نظام البدو الاجتماعى • والسلطة العليا هى سلطة الأب ، وان لم نعدم آثارا من نظام سلطة الأم **matriarchy** ، والميراث للذكور ، وحين يتزوج الأبناء يبقون هم وزوجاتهم فى الغالب فيتسع بيت الأب •

والبدوى متعدد الزوجات من حيث المبدأ ، ولكن الاعتبارات الاقتصادية تحد من هذا التعدد فى الواقع ، اذ ليس من اليسير اعالة أسرة كبيرة فى الصحراء ، وانما تسهل مواجهة الحياة فيها كلما خف عبء المرء • والتشريع المدون الذى يتعلق بالأسرة يبيح تعدد الزوجات ، ولكن دون أن يشمله برعاية خاصة ، بل هو فى بعض الأحيان يقيده بقيود •

ويفضل البدو اختيار زوجاتهم من قبيلتهم نفسها • فقوة التقاليد والرغبة فى نقاء الجنس ، وهما أمران لهما أهمية كبيرة فى الحياة القبلية، تجعلان من اتخاذ الزوجات الأجنبيات أمرا بغيضا • ويصور لنا سفر التكوين صورة أعنف فى هذا الصدد ، فهو يحدثنا عن الحزن الذى جلبه

عيساو على (أبيه) اسحاق و (أمه) ربقة حين أتخذ زوجتين حيثيتين (التكوين ٢٦ : ٣٤ ـ ٣٥) ؛ وعندما بدأ النظر فى زواج يعقوب ، الأخ الأصغر ، دعاه أبوه اسحاق الى أن يتخذ زوجة من بنات قومه (التكوين ٢٨ : ١ ـ ٢) ٠

وفوق الأسرة القبيلة ، وهى مجموعة أسر توحد بينها صلات القربى والمصالح المشتركة ، تعيش معا وتهاجر معا ٠ فالحاجة الى الأمان تخلق شعورا قويا بالتماسك ، وهذا من أهم الملامح المميزة للمجتمع البدوى ٠ وبسبب هذا التماسك تستنكر القبيلة بأسرها أى اعتداء يقع على فرد منها ، وتشارك جميعا فى واجب الثأر ٠ وقانون الثأر الذى يقول «العين بالعين والسن بالسن» ، هذا القانون الذى لا يلين والذى لا يخفف منه أحيانا الا امكان الدية ، قد صار اساسا لكثير من التشريعات المدونة للشعوب السامية ٠

ولم يكن بد من أن تكون حقوق الملكية بدائية محدودة ٠ ويمكن أن نقول صادقين ان البدوى يحمل معه كل ما يملك حيثما ذهب ٠ وممتلكاته الخاصة مقصورة على الأسلحة القليلة التى يحتاج اليها فى الدفاع عن نفسه (وهى الرمح والقوس والسهام) ٠ والخيمة التى يعيش فيها ملك مشترك للأسرة ، وأراضى الرعى ملك مشترك للقبيلة ٠ وقد وصف البدو بأنهم شيوعيون أرستقراطيون ، وهو تعبير موفق ؛ فالنظام الاقتصادى يستحق اسم الشيوعية ، ففيه تسود فكرة الجماعة ولا تعرف فى الواقع الملكية الخاصة ، ولكن الروح الاجتماعية بما فيها من احساس عميق بالكبرياء والشرف والتقاليد تجعل هؤلاء الرعاة الفقراء جديرين باسم الأرستقراطيين

وتمارس السلطة فى القبيلة الى درجة محدودة فقط ٠ فليس هناك « حكومة » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، ولكن هناك زعيما يختاره مجلس من شيوخ القبيلة لصفات شخصية فيه ٠ وهو «مقدم بين أنداد» **primus inter pares** ؛ والسلطة المحدودة التى يسبغها عليه المجلس مؤقتة ، وقد تنزع منه ٠ وهو يتولى القضاء ، ولكن فقط حين يحتكم اليه المتنازعون عن طواعية واختيار ٠

واذا القينا نظرة شاملة على ظروف الحياة فى الصحراء وجدنا أنها تبعث روحا من الحمية والنشاط وتنميها ٠ فالكفاح فى سبيل البقاء ، وما تفرضه الطبيعة من أخطار ومشاق ، كل هذا يكسب الشخصية صلابة ويذكى المواهب ٠ وكثيرا ما رأينا خلال التاريخ أن الصراع بين

الشعوب السامية والشعوب المجاورة يتخذ صورة صراع بين قوى حية غضة وأخرى منحلة منهكة .

***

وكان لظروف الحياة الاجتماعية ايضا اثر كبير فى مظاهر الحياة الدينية • وليس من اليسير بيان هذه الآثار ، فهو ينقلنا وراء حدود الدين السامى الى المشاكل الضخمة المتعلقة بأصل النظم الدينية الانسانية وتطورها •

ويمكن أن نعتبر أن عرب العصور السابقة للاسلام حافظوا فى حياتهم الدينية والاجتماعية على الأحوال السامية القديمة أكثر من أى شعب آخر ، كما احتفظوا دون تغيير يذكر بالأحوال المادية لحياة الصحراء • فايمانهم بآلهة محلية كثيرة تسكن الاشجار والنباتات والصخور والمياه لا بد أنه بالغ القدم مميز لحياة البداوة • ويمكن أن يقال هذا أيضا عن آلهة القبائل ، أى الآلهة الخاصة بجماعة أو أكثر ، فقد كانت عبادتها لاتكاد تستطيع الانتشار أو مد جذورها خارج حدود ضيقة، وذلك لانعزال عبادها • ولم يكن لهذه الآلهة مسكن ثابت ، كما أنعبادتها كانت تنقصها ولا بد مراكز وهياكل ثابتة ، وانما كانت تعبد فى أماكن مختلفة حسب تجوال القبائل ، وكان ينظر الى كل منها على أنه مرتبط بقومه ، بصلات من قرابة الدم أحيانا ، ويقوم منهم مقام الزعيم الأعلى والقاضى الأكبر • وفى بعض الأحوال كان بعض الآلهة القبلية يكتسب أهمية كبيرة لعلو شأن القبيلة التى ينتمى اليها ؛ ولكن عظم مكانته كان كذلك يتوقف دائما على ظروف سياسية •

وهناك آلهة كثيرة تشترك فيها عدة شعوب سامية ، ولكن ليس من المؤكد دائما امكان الرجوع بها الى المرحلة الأولى للدين السامى ؛ ولهذا نترك الحديث المفصل عنها للفصول التى تعالج الشعوب السامية شعبا شعبا • ويكفى هنا أن نذكر بعض الآلهة التى لقيت أوسع انتشار ، وهى ال ، ولعله فى الأصل اله السماء ، وبعل ، ولعله فى الأصل اله المطر المخصب ، وعشترت ، ولعلها فى الأصل نجم الصباح (كوكب الزهرة) ، ولكنها اعتبرت فيما بعد « الأرض الأم » ، وهى الهة قديمة فى الشرق الأدنى • ولابد أن جرمين آخرين من أجرام السماء ، هما الشمس والقمر ، كان لهما عبادة منتشرة قديمة •

وقد دار جدل بين كثير من العلماء حول رأى يفترض وجود اتجاه الى التوحيد بالله ، وحول العلاقة بين مثل هذا الاتجاه وأحوال الحياة فى

الصحراء . وهذا فرض يدعو الى الاهتمام ، ولكن ليس من اليسير تكوين حكم واضح عن مدى صحته .

وأشكال الطقوس المستعملة بين الساميين ، حتى بعد اقامتهم بين شعوب مستقرة ، تنم غالبا عن أصــولهم البدوية . مثال ذلك أن عيــد الفصح العبرى ، الذى صــار بقيــام المسيح من القبر أهم عيد مسيحى (عيد القيامة) ، يميزه ذبح حمل قربانا وأكل الخبز دون خمير ، وهما خصلتان ترجعان الى ظروف الحياة فى البادية حيث فرض التنقل الدائم أكل الخبز دون خمير ، كما أن الحمل يرمز الى ما كان يفعله الرعاة من تقديم باكورة ما تلد قطعانهم قرابين للآلهة . ولم تكن هناك حاجة الى هياكل أو مذابح ؛ فعبادة الآلهة كان يجب بحكم الضرورة أن تكون مما يمكن مزاولته دون الاستعانة بتلك الملحقــات التى لا تسمح بها أحوال المعيــشة فى البادية .

وبسبب الهجرة التاريخيــة المحتومة أخذ الســاميون يتحولون الى الحياة المستقرة . وأغرت خصوبة الأراضى المجاورة جماعات من البدو مرة بعد أخــرى على ترك الصحراء بحثــا عن حظ وافر من الرخاء . وهكذا اتصلوا بصور منظمة من المجتمعات المســتقرة ، ولكن تكيفهم بأســباب الحياة الجديدة لم يتم دون مصادمات وردود أفعال تعكس الروح البدوية المستقلة القديمة .

وقد وجد المهاجرون البدو أنفسهم بين شعوب تعيش منذ قرون فى ظل نظام سياسى من الحكم المطلق ، تحت حكام مستبدين يختلفون اختلافا تاما عن زعمائهم القبليين ، الذين كان الشيوخ يختارونهم وقد يعزلونهم، والذين كانت سلطتهم تتوقف من كل الوجوه على ارادة القبيلة . فبينما كانت الأحوال الاقتصــادية فى المجتمعات الزراعيــة تشــتمل على مزايا تستطيع اغراء البدو بتغيير طريقتهم فى الحياة ، لم تكن النظم السياسية تدعو أيضا الى القبول ؛ فلم يكن بد من أن ينظروا اليها على أنها انتقال الى حال أسوأ ، وعلى أنها غرم وثمن روحى باهظ يدفعونه لقاء التحسن المادى ؛ ولهذا كان هؤلاء القادمون الجدد فى كثير من الأحيان قوة مدمرة هدامة فى مجتمعات الشرق القديم .

وقد اختلف مدى اندماج المهاجرين البدو فى المجتمعات المستقرة من شعب الى شــعب ؛ فبعضهم كالبــابليين والأشوريين تركوا أســاسا أساليبهم الأولى فى التفكير والحياة ، ولكن آخــرين كالعــرب والعبريين احتفظوا طوال تاريخهم فى اصرار بآثار من العداء القديم لكل صورة من صور الحكم المطلق .

ولهذا عندما اتحدت قبائل اسرائيل فى مملكة ، قوبل هذا التركيز للسلطة بمعارضة شديدة من فريق من الشعب ، بينما احتمله آخرون على أنه مجرد شر من أصل أجنبى لا مفر منه . ثم انه خلال تاريخ الملكيه حاول ممثلو الدين اليهودى تضييق السلطة الملكية والسيطرة عليها ؛ وبدا على الكهانة والنبوة الى حد ما أنهما رد فعل ضد الملكية المطلقة . وأنهما من هذا الوجه تعبير عن التراث القديم وحلقة اتصال بروح الاستقلال البدوية .

ويتميز تاريخ العرب كذلك بسمات ترجع الى النظام الديمقراطى القديم . ففى الأيام الأولى احتفظ الخليفة الى حد كبير بصفات الزعيم القبلى ، فكان يبادر الى مقابلة كل طارق ، والتشاور مع كل شخص . واتخاذ قراراته بالحكمة والرأى السديد اللذين يرجع اليهما الفضل فى انتخابه . وبمرور الزمن أخذت السلطة تزداد استبدادا ، وتنتقل شيئا فشيئا الى أيدى الوزراء . فتحولت الدولة العربية الى امبراطورية اسلامية تتجاوز حدود الشعب العربى .

وهكذا ظلت الأحوال القديمة لحياة البداوة توجه وتؤثر فى المجرى التاريخى للتطور السياسى والحضارى للشعوب السامية .

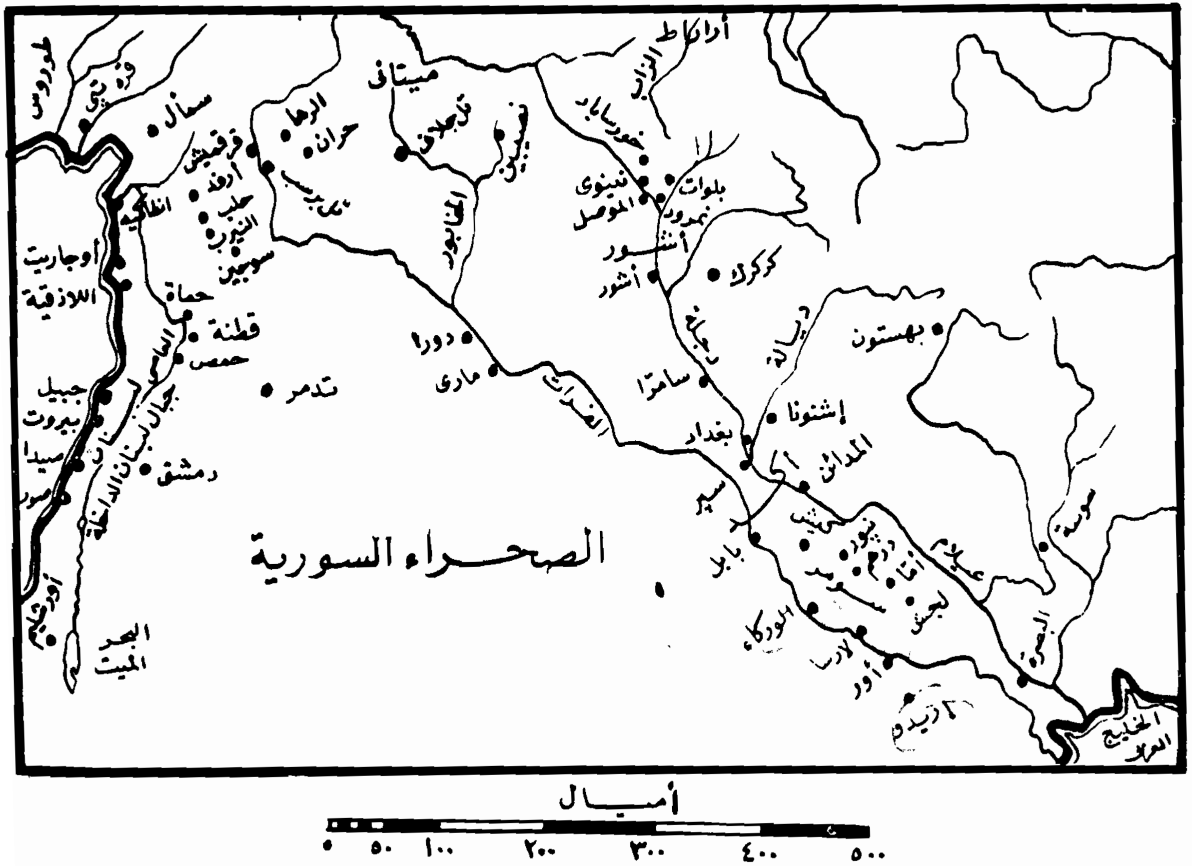

أرض الرافدين وسوريا

الفصل الرابع

البابليون والآشوريون

الكشوف

ان أقدم هجرات للشعوب السامية سجلها لنا التـاريخ كانت فى اتجاه وادى الرافدين ؛ فثمـة أدلة على حدوثهـا منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، واستمرارها بعد ذلك من حين الى حين ، وقد أدت الى تكوين دول سامية قوية واسعة النطاق ٠

ومعرفتنا بحضارة أرض الرافدين حديثة نسبيا ٠ فحتى منتصف القـرن الماضى كانت معلوماتنا المباشرة عنهـا قليلة ، وكان ما نعـرفه مقصورا على ما كان يمكن جمعه من الكتـاب المقـدس وقصص الرحالين الناقصـة ، وكان الاعتقـاد السـائد فعلا أن الامبراطوريات الكبيرة التى شهدتها أرض الرافدين قديما قد اختفت الى الأبد تحت الرمال ٠ ولكن حوالى عام ١٨٥٠ بدأت الحفائر المنظمـة تنظيما منهجيا تسـفر عن نتائج

باهرة ؛ وكان بوتـا Botta (Paul Emile) (الفـرنسى : المترجـم) فى خورساباد (١) ، ولايارد Layard (Austen Henry) (الانجليزى : المترجم) فى نينوى (وكلخ : المترجم) (٢) ، بين الأثريين الأوائل الذين وفقوا توفيقا كبيرا ٠ فكشفت بقايا معابد وقصور ، وأزيح التراب عن تماثيل ضخمة وأختام ونقوش ، وكانت الكشوف تزداد باتصال البحث والتنقيب ٠

وكانت الصعاب التى لم يكن بد من التغلب عليها متعددة ، ولاسيما فى المراحل الأولى ، فنقص الأموال والعداء الذى كانت تظهره السلطات المحلية صريحا الى حد كبير أو قليل كانا العامل الأول فى بطء عمل المنقبين واعتماده على الصدف ٠ ولم يكن يمكن ارسال الآثار المكشوفة كلها الى أوربا ، فقد كانت مياه دجلة ابان فيضانه تبتلع بعضها عند نقله ، وكان غلاة البـدو يحطمون بعضها أو يرمونه فى النهـر ، فقد كانوا يقاومون بالسلاح نشاط الأجانب الذى كانوا يرون فيه انتهاكا للحرمات ٠

ولكن أهمية النتائج التى أسفرت عنها الحفائر الأولى لم تلبث أن حدت بالمؤسسـات العلميـة الأوربية الى أن تشـمل المشروع بالتـأييد والتشجيع ، فأمكن مواصلة العمل على نطاق أوسع وبكفاية أعظم ٠ فزاد ما كان يكشف من مدن قديمة ؛ وكشفت معها آثار فنية بالغة الروعة ، ووثائق مكتوبة كثيرة كثرة متزايدة هى ألواح من القرميد عليها نقوش تتكون من علامات كالمسامير ٠

ومن المستحيل أن نورد هنا ولو صورة عامة عن التـاريخ الطويل المجيد لعلم الأشوريات ٠ فيكفى أن نقول ان أحدث مراحله هى من أبهى المراحـل التى مر بهـا : ففى مارى (٣) كشف الأثرى الفـرنسى بارو Parrot (André) عام ١٩٣٣ سلسلة من المعابد والقصـور والتماثيل وأكثر من عشرين ألف لوح تحمل نقوشا اقتصادية ودبلوماسية ؛ ولاتزال الحفائر جارية هناك حتى الآن (٤) ٠ وفى نمرود (٥) اسـتأنف الأسـتاذ (الانجليزى : المترجم) مالوان Mallowan (M.E.L.) الحفائر التى شهدتها تلك المنطقة فى الماضى ، فكشف مبانى ومنحوتات جديدة ، ومن كشوفه التى تستحق الذكر خاصة مجموعة رائعة من العاج المنحوت ٠ وفى منطقة كركوك كشف الأستاذ (الأمريكى : المترجم) بريدوود Braidwood (R.J.) عن حقيقة سلسلة من الأماكن الأثرية الموغلة فى القدم ، تمكننا من تتبع الخطوط الأساسية للأحداث التى شهدتها أرض الرافدين قبل التاريخ ٠

وقد وجدت الكنوز الأدبية والفنية التى كشفت عنها الحفائر فى أرض الرافدين طريقها الى مختلف المتاحف الكبيرة ٠ وكان السـابق فى هذا

الميدان متحف اللوفر بباريس ، فاستطاع أن يجمع مجموعة رائعة تمثل جميع عهود الحضارة البابلية الأشورية • والمتحف البريطاني في لندن غني خاصة بالوثائق التي ترجع الى العصور المتأخرة ، ولكنه أقل غنى بالآثار التي ترجع الى العهود القديمة • وفي القسطنطينية أيضا مجموعة من الطراز الأول ، كما أن متحف بغداد أصبح في السنوات الأخيرة بالغ الأهمية في هذا المضمار •

***

وقصة تفسير الوثائق التي كشفت في أرض الرافدين لها أهميتها الخاصة ، وذلك للصعوبة البالغة التي يتسم بها نظام الكتابة الذي استعملته •

وقد بدأ فك طلاسم هذه الكتابة بمساعدة نقش مكتوب بثلاث لغات • فان رولنسون (H.C.) Rawlinson القنصل البريطاني في بغداد في ذلك الوقت ، وكان منذ زمن طويل دائب البحث عن النصوص الفارسية والأشورية في أرض الرافدين وفوق هضبة ايران ، كشف بالقرب من بهستون Behistun في فارس نقشا مسماريا مكتوبا بثلاثة أنواع مختلفة من الكتابة • وكان أحد النصوص الثلاثة بالكتابة الفارسية ؛ ولما كان العلم قد أحرز تقدما من قبل في فك طلاسم هذه الكتابة ، فقد أمكن استعمال هذا النص مفتاحا لتفسير أشد هذه النصوص تعقيدا وكان مكتوبا بالكتابة البابلية (٦) •

وقد عالج العلماء المشكلة من اتجاهات مختلفة ، واقترحت فروض مختلفة ؛ وفي عام ١٨٥٧ أجرى اختبار بارع أظهر مدى التقدم الذي أحرز في هذا المضمار فقد عهدت الجمعية الآسيوية الملكية The Royal Asiatic Society في لندن الى أربعة من علماء الأشوريات بترجمة نص واحد ، كل على حدة • فكانت الترجمات الأربع متطابقة تقريبا ؛ وبذلك اتضح أن الترجمة لم تكن من قبيل الظن العارض ، وأن نقوش أرض الرافدين قد أسلمت أخيرا مفاتيح أسرارها •

وما لبث أن اتضح أن أرض الرافدين طبقت نظاما واحدا للكتابة على لغتين مختلفتين تمام الاختلاف ، لم تكن احداهما سامية ، وانما كانت لغة السومريين ، وهم الشعب الذي كان يسكن البلاد في الألف الثالث قبل الميلاد ؛ وكانت اللغة الأخرى لغة البابليين والأشوريين ، ذينك الشعبين الساميين اللذين جاءا في موجات متعاقبة وأقاما في وادي الرافدين •

وبعد أن فهم نظام الكتابة فهما كافيا ، تيسر تفسير اللغتين البابلية والأشورية بمعرفة اللغات السامية الأخرى ٠ ولهذا لم يكن هذا الجانب من العمل أمرا شديد التعقيد ، فاللغة نفسها أى الأكدية ليست بالغة الصعوبة اذا قورنت بغيرها من اللغات السامية ٠

ولكن على الرغم من أن اللغة نفسها لم تكن بالغة الصعوبة ، كان نظام الكتابة ، وهو سومرى الأصل ، شديد التعقيد ٠ فعلاماته مستنبطة من صور الأشياء ٠ وهذا النوع من الكتابة ، الذى استعمله المصريون القدماء ، يسمى تصويريا pictographic ، لأنه يدل على الشيء برسم صورة له أو لجزء مميز من أجزائه ٠ فلكتابة « سمكة » مثلا ترسم صورة لها ، ولكتابة « ثور » ترسم صورة لرأسه وقرنيه ، ولكتابة « قمح » ترسم سنبلة ٠ وكان يدل على الأفعال بضروب من الأساليب البارعة ؛ فصورة القدم تعنى «الذهاب» ، وصورة رأس (الصواب : فم (المترجم) الرجل مع اضافة العلامة الدالة على الخبز أو الماء تعنى « الأكل » أو «الشرب» ، وهكذا ٠ ولم يكن من اليسير رسم صور دقيقة أو خطوط مقوسة على الصلصال الأملس ؛ فحولت الرسوم المختلفة الى مجموعات من الخطوط على نمط خاص تمثل فقط الفكرة التى كانت تدل عليها أصولها ، ومن ثم سميت رموزا ideograms

وكانت العلامات ترتب فى الأصل فى خطوط رأسية ، تبدأ عند الطرف الأيمن العلوى للوح ٠ ولكن أراد الكتاب التيسير على أنفسهم ، فصاروا يديرون اللوح يسرة تسعين درجة ، فكانت الكتابة تبدأ فى الركن الأيسر العلوى ، وترتب فى خطوط أفقية تقرأ من اليسار الى اليمين كما فى الانجليزية (٧) ٠ والأكدية من اللغات السامية القليلة التى تكتب على هذا النحو ؛ فان الاتجاه المضاد ، الذى يسير من اليمين الى اليسار ، هو المفضل لدى الساميين ٠

ولكن اقتصار الكتابة المسمارية على هذه العلامات كان ينطوى على نقص خطير ، فهى لم تكن تستطيع التعبير مثلا عن كثير من الأفكار المجردة أو عن الصيغ المختلفة للفعل ٠ ولكى تتغلب على هذا النقص مرت بتطور بالغ الأهمية ، فقد بدأت تستعمل العلامات لا للتعبير عن معانى الصور التى اشتقت منها هذه العلامات ، ولكن للتعبير عن الوحدة الصوتيه المتعلقة بها ٠ ولنمثل لذلك بالكلمة الدالة على «اللبن» فى اللغة السومرية وهى ga ، فان العلامة الدالة على « اللبن » صارت تستعمل لكتابة المقطع ga بغض النظر عن معناه ٠ وعلى هذا المنوال أمكن كتابة مقاطع

أخرى ، وأمكن بضم بعضها الى بعض كتابة كلمات (أو أجزاء كلمات كما فى صيغ الأفعال) دون الرجوع الى الرموز ideograms فلكتابة الكلمة gaz مثلا ومعنـاها «كسر» ، كانت تكتب العلامة ga (الدالة على «اللبن») ، ثم العلامة az (الدالة على «الدب») ، فتتكون بذلك ga-az

هذه الصورة الجديدة من الكتابة ، التى نشـأت على هذا النحو ، تسمى صوتية phonetic وكان اختراعها خطوة واسعة الى الأمام نحو تبسيط نظام الكتابة والوصول به الى التمام · ولكنها كانت أيضا شديدة الصعوبة· فالقيم الرمزية ideographic للعلامات لم تختف تماما ؛ فكانت كثير من العلامات تفسر اما على أساس رمزى واما على أساس صوتى ، حسب السياق · هذا الى أن معظم الرموز ، وهى وافرة الكثرة ، تتألف من علامات لكل منها أكثر من قيمة صوتية · مثال ذلك العلامة المشتقة عن قدم الانسان ، فهى قد تقرأ gin « سار » أو gub «وقف» أو tum «حمل» ، كما يمكن أن تقرأ قراءات أخرى · ولكى تتيسر قراءة العلامات قراءة صحيحة ، كانت تضاف علامات تحديدية determinatives (تدل على طوائف المعانى) (٨) ، أو مكملات صـوتية phonetic complements (تعطى جزءا من المقابل الصوتى للمعنى المقصود) (٩) · وكان يمكن الاسترشاد بسياق الكلام حتى بدون هاتين الوسيلتين ؛ ولكن من اليسير أن نرى أن حل النقوش ، ولا سيما اذا لم تصل الينا واضحة المعالم ، هو فى كثير من الأحيان لغز من الألغاز ؛ فالواقع أن نظام الكتابة الذى عرفته أرض الرافدين هو من أصعب النظم التى استعملت فى العصور القديمة ·

فهذا النظام البعيد كل البعد عن الملاءمة العملية مصدر حيرة لنا ، نحن الذين تعودنا على أبجدية تتكون من عدد قليل من العلامات · ولكنه مع ذلك يمثل تقدما كبيرا فى فن الكتابة· وقد قدر لشعوب سامية أخرى، فى عصر متأخر ، أن تعطى العالم ذلك الاختراع العظيم القيمة ، الا وهو الأبجدية ·

التـاريخ

ان العامل الغالب فى تاريخ غربى آسـيا فى العصـور القديمة هو نشـاط الشـعوب التى كانت تقيم فى وادى الرافدين · وكانت هـذه الشعوب ، بحكم موقعها الجغرافى ، تنجذب بالطبع نحو المحيط الهندى ، ولكنها كانت تضغط أيضا فى اتجاه جبال ايران وأرمينية من ناحية ، وفى اتجاه حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى · وكان تأثير جيوشها وصور حضـارتها فى كلا هذين الاتجـاهين فاصـلا فى احكام التوازن الحضارى والسياسى فى الشرق الأدنى ، وبذلك أصبحت أرض الرافدين مركزا طبيعيا من مراكز السلطان فيه ·

وكان البناة الأساسيون للحضارة والتـاريخ فى أرض الرافدين شعبين ينتميان الى أصلين مختلفين كل الاختلاف ، أبدعا ما تضمه تلك المنطقة من آثار فنية وأدبية كبيرة، ونعنى بهما السومريين والأكديين(١٠) وقد عاش هذان الشعبان مختلطين بعضهما ببعض الى حد كبير ، فكانت حضارة أرض الرافدين وتاريخها نتاج شعب مركب يستحيل فى كثير من الأحيان التمييز فى وضوح بين العنصرين الأساسيين اللذين يتألف منهما ·

***

ومن المحتمل أن السومريين كانوا يقيمون فى جنوب أرض الرافدين منذ العصور السابقة للتاريخ ، وقد بلغوا هناك فى عصر متقدم مرتبـة عالية من الحضارة · فقد بدءوا شق القنوات ، واستغلال التربة بعقل وتدبير ، واقامة المعابد والتماثيل · وتعطينا بعض هذه التماثيل صـورة

هامة عن ملامح السومريين ، وهى تتميز بجبهة منخفضة مائلة الى الخلف، وأنف بارز أقنى ؛ وفى العصور المتقدمة نرى شعرا طويلا مفروقا ولحية عريضة ، ولكننا نجد فيما بعد رءوسا ووجوها محلوقة الشعر ٠

وقد تركت الحضارة السومرية طابعها المباشر أيضا فى أشور وسوريا ومصر ، ولكن لم يقابل هذا اتساع فى النفوذ السياسى٠ فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائما من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة ٠ فقد كانوا منقسمين الى دول فى مدن ، كان ملوكها هم أيضا الكهنة والممثلين للآلهة المحلية ٠ وتاريخ المدن السومرية قصة متصلة من التنافس ، كان التوازن المتراوح هو الوضع الطبيعى فيها ، ولكنه كان ينقطع من حين الى حين بغلبة مدينة أو أخرى غلبة قصيرة الأمد ٠ وكانت الدولة الوحيدة التى بلغت مكانة مرموقة هى تلك التى وفق الملك لوجلزجيزى Lugalzaggisi الى انشائها حول مدينته أما Umma (تل جوخة الآن : المترجم) ٠ ولكن بعد أن احتفظ بسيادته سنين عدة ، غلبته أخيرا دولة سامية ، وكان ذلك حوالى ٢٣٥٠ ق٠م ٠

وكانت جماعات الساميين ، قبل ظهورها على المسرح السياسى بزمن ، تقيم فى أرض الرافدين حول أطراف المدن السومرية ، وتعيش على الرعى وفق تقاليدها القديمة ٠ وكان أول عمل كبير أثبتت به وجودها هو ذلك النصر الذى قضت به على مملكة لوجلزجيزى وأقامت مكانها دولة أكد السامية٠ ولكن يجب أن نلاحظ أن التاريخ يذكر أمراء ذوى أسماء سامية قبل ذلك ببضعة قرون ٠

وقد أدت الدراسات الحديثة المبنية على وثائق جديدة حصلنا أخيرا عليها (ولا سيما وثائق مارى وقائمة الملوك الأشوريين التى كشفت فى خورساباد) الى الأخذ بتواريخ جديدة للشرق الأدنى أقل ايغالا فى القدم؛ وهذا التأريخ الجديد يجعل أسرة أكد فيما بين ٢٣٥٠ و ٢١٥٠ ق٠م على وجه التقريب ٠ فهذا التاريخ «القصير» ، مع ما يقترن به من أسماء الملوك التى حددها أولبرايت وكورنيليوس (.F) Cornelius يلقى أكبر القبول فى الوقت الحاضر ، ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن هناك نظما تأريخية أخرى ترجع بهذين التاريخين الى الوراء بضع عشرات من الأعوام ٠

وكان مؤسس دولة أكد هو سرجون Sargon المشهور ، الذى تقول عنه الأساطير انه كان بستانيا من قبل ، وانه ترك وهو طفل رضيع على مياه النهر (١١) ، ولكن أنقذ بمعجزة ٠ وتحدثنا المصادر التاريخية أنه مد سيطرته فشملت اقليم بابل كله وأشور وسوريا ، بل تغلغلت فى

آسيا الصغرى أيضا • وفى عهده صارت للدولة ادارة منظمة مركزية ، أصبحت مثلا تحتذيه الدول اللاحقة • ونرى فى هذا الوقت ظهور الميل الى الملكية العالمية ، ذلك الميل الذى سيتخلل فيما بعد كل تاريخ غربى آسيا حتى العصر الاسلامى •

ولم تلبث قصة سرجون أن شملتها كما رأينا الأساطير والخرافات؛ ولكن الأعمال التى حققها فعلا وطدت دولة بابل قرنين من الزمان الى أن اكتسحتها جحافل الجوتيين الهمجية التى انحدرت من الجبال القائمة فى الشرق • وكان ما تلا ذلك من خضوع بابل لهؤلاء الغزاة فرصة استعادت بها المدن السومرية قوتها من جديد • وكانت تلك الفترة هى التى ظهر فيها الأمير السومرى جوديا Gudea ، أمير لجش Lagash (١٢) ، وكان حاكما مشهورا محبا للسلام ومن كبار بناة المعابد •

ولكن لم تطل هذه الفترة السومرية ؛ فحوالى ٢٠٠٠ ق•م أثبت شعب سامى جديد وجوده فى فلسطين وسوريا ، وفى أرض الرافدين فى الوقت نفسه• ونعنى بهذا الشعب الأموريين (١٣) الذين أسسوا سلسلة من الدول ، منها مارى على الفرات الأوسط وأيسين Isin ولارسا Larsa (سنكره الآن : المترجم) فى جنوب أرض الرافدين وفى آخر الأمر ظفرت احدى هذه الدول الأمورية بالصدارة وهى التى تسمى الدولة البابلية الأولى (حوالى ١٨٣٠ ـ ١٥٣٠ ق•م) •

وكان سادس ملوك هذه الدولة هو حمورابى المشهور (١٤) ، الذى عاش حوالى ١٧٠٠ ق•م • وكان عهده بداية فترة أخرى من الازدهار العظيم • ففى الميدان السياسى ، امتدت سلطة بابل الى أشور وجزء من سوريا • وفى المجال الدينى ، يرجع الى حمورابى خاصة الفضل فى علو شأن الاله مردك ، الذى أصبح زعيم الآلهة واتخذ الصفات التى كانت حتى ذلك الوقت خاصة بالآلهة السومرية القديمة • وفى الميدان الاقتصادى ، نظم حمورابى البلاد من جديد وأصلحها بالتوسع العظيم فى الزراعة وشق الكثير من القنوات الجديدة • وعلى ضفة أهم هذه القنوات أقام نقشا يقول : « حمورابى فيض الشعب » •

وقد ازدهر الأدب أيضا فى هذه الفترة ازدهارا عظيما ؛ ولكن شهرة حمورابى ترجع قبل كل شىء الى أنه وضع مجموعة من القوانين حظيت بشهرة كبيرة فى شتى ربوع أرض الرافدين • وهذه المجموعة تصنيف للقوانين التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وهى تشمل قوانين السومريين والتقاليد القضائية للشعوب السامية• والمعروف عن حمورابى

أنه كان يظهر اهتماما فعالا بكل ما كان يجرى فى مملكته ؛ وقد بقيت لنا رسائله الى ولاته ، وهي تشهد بكمال ادارته الشخصية لشئون الدولة ٠

وقد انتهت الدولة البابلية الأولى حوالى ١٥٣٠ ق٠م ، حين أغار عليها الحيثيون ، وهم من شعوب آسيا الصغرى ، فكانت غارتهم رغم قصر أمدها بداية فترة من السيطرة الأجنبية ، هي الفترة التى أخذت فيها « شعوب الجبال » تسيطر على الشرق الأدنى ، وكان فريق على الأقل من الطبقة الحاكمة فى هذه الشعوب من أصل هندى ـ أوربى ٠

***

ولم يكد الحيثيون ينسحبون حتى دانت بابل لسيطرة أجنبية أخرى ، هى سيطرة الكاشيين ، وهم شعب من الشرق ، يبدو من أسماء آلهته أنه كان يضم عناصر هندية ـ أوربية ٠ وكانوا يعيشون فى بابل نتيجة فترة طويلة من التغلغل السلمى ، ولكنهم أفادوا من الفترة التى ساد فيها الحيثيون ، فاغتصبوا السلطة واحتفظوا بها بضعة قرون حتى حوالى ١١٦٠ ق٠م ٠ وكان مستوى حضارتهم أقل كثيرا من حضارة البلد الذى غلبوه ، فأدت سيطرتهم الى اضمحلال شديد فى حضارة أرض الرافدين ٠ ولكنهم كانوا على حظ كاف من التبصر جعلهم يقدرون تفوق رعاياهم الروحى ، ويحاولون احترام أساليبهم والأخذ بها ، بل ان بعض العلماء فى السنوات الأخيرة لفتوا النظر الى اتجاه فى تلك الفترة نحو اعادة الحضارة السومرية ٠

وبينما كان الكاشيون يسيطرون على بابل ، كان شعب سامى يتقدم نحو الصدارة فى شمال أرض النهرين ، ونعنى به الأشوريين ٠ وكانت أشور قبل كل شيء قوة عسكرية ، وكانت شهرتها ترجع أولا الى ما كان يتحلى به جيشها من حظ كبير من التنظيم والتماسك ٠

وكانت الدولة الأشورية قائمة فعلا منذ بضعة قرون ٠ فقد حكمت فى تلك الأرجاء عند ملتقى القرن التاسع عشر بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد أسرة أكدية أسسها الوشوما Ilushuma ، ثم تبعتها أسرة أمورية أسسها شمشى ـ أدد Shamshi-Adad الاول ، الذى تدل وثائق مارى على أنه كان معاصرا ومنافسا لحمورابى ٠ وقد جاءت بعد هذه المرحلة المتقدمة من دولة الأشوريين فترة طويلة من الاضمحلال انتهت بها فى القرن الخامس عشر الى أن تصبح تابعة لدولة الحوريين فى أرض ميتانى Mitanni (١٥) ٠ ولكن فى القرن التالى ، عندما قضى الحيثيون على سلطان ميتانى ، استطاعت أشور أن تنهض من جديد وتصبح شيئا فشيئا دولة عظيمة ٠ فسياسة السعى الى الاستقلال التى بدأها الملك

اشور أبلط Ashuruballit (الأول : المترجم) انتهت فى عصر تكلتى ـ نينرتا Tukulti-Ninurta (الأول : المترجم) (١٢٤٣ ـ ١٢٠٧ ق·م) الى اخضاع كل المنطقة المحيطة بأشور وتخريب مدينة بابل ·

وبعد تكلتى ـ نينرتا توقف التوسع الأشــورى قرابة قرن ، ثم استؤنف بعزم جديد على يد تجلت ـ بيلسر Tiglath-Pileser الأول (١١١٦ ـ ١٠٧٨ ق·م . المترجم) ، مؤسس الامبراطورية الجديدة ، التى امتدت الى البحر الأسود والبحر المتوسـط غربا واقليم بابل جنوبا · ولكن ضغط الأراميين كبح أشور بعد تجلت ـ بيلسر قرنا ونصف قرن من الزمان ، ثم جاءت بعد ذلك موجة فتح جديدة ، فأعاد أشور نصربال Ashurnasirpal الثانى (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق·م : المترجم) الامبراطورية الى اتساعها القديم، وبلغ بها تجلت ـ بيلسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق·م) غاية قوتها · وكانت سياسة أشور تتبع خطوطا أساسية ثلاثة : ففى الشمال كان ملوكها يرمون الى السيطرة على الممرات الجبلية لحماية أنفسهم من التهـديد بالغزو من ذلك الطريق ؛ وفى الغــرب فرضوا على ســوريا وفلسطين الجزية ، وسيطروا على الطريق المؤدى الى مصر والبحر ؛ وفى الجنوب كانوا يعاملون دولة بابل الشقيقة التى تفوقهم فى مضمار الحضارة بحكمة دبلوماسية مكنت تجلت ـ بيلسر الثالث أخيرا من أن يجلس على عرش بابل أيضا· وقد تابع سرجون الثانى (٧٢١ـ٧٠٥ ق·م : المترجم) بنجاح ســـياســة تجلت ـ بيلسر الثــالث ؛ وعنــدما وفق اسرخدون Esarhaddon الى فتح مصر نفسها ، لاح زمنا قصيرا (٦٧١ ـ ٦٥٣ ق·م) كأن كفاح آلاف السنين بين دولتى الوادين قد انتهى الى الأبد (١٦) ·

وكان أشور بانيبال Ashurbanipal (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق·م) ، الذى اشتهر فى الأساطير باسم سردانابالوس Sardanapalus ، آخر كبــار الملوك الأشوريين · فان خلفاءه لم يلبثوا أن تهاووا أمام هجوم الميديين ، الذين زحفوا من هضبة ايران ، واستولوا عام ٦١٢ على نينوى ، عاصمة الأشوريين ، وخربوها تخريبا · وهكذا بادت الامبراطورية الأشورية ، وابتلعت الرمال قصورها العظيمة والمكتبة الفخمة التى جمعها أشوربانيبال فى صبر تمجيدا لشـــعبه ، ثم انطوت تلك الرمال على سرها آلافا من السنين · وهكذا تحقق ما قاله أنبيــاء اليهــود ، الذين لم يكفوا ، حتى حينما كانت أشور فى ذروة مجدها ، عن التنبؤ بسقوط عدوتهم القوية·

***

وكانت بابل قد صــارت ، بعد عصر الكاشيين وعقب بضــع دول وطنية ، جزءا من الامبراطورية الاشورية ؛ فلما اضمحلت أشور ، أعان

ذلك بابل على النهـوض من كبوتها · وكان للميـديين عند فتح نينوى حليف بابلى هو القائد العسكرى نابوبولصر Nabopolassar الذى أسس الدولة الكلدانية فى بابل (٦٢٥ ـ ٥٣٨ ق·م) (١٧) · وبهذه الدولة انتقل السلطان الى الأراميين ، الذين كانوا طوال عدة قرون يتغلغلون فى بابل تغلغلا مطردا· وقد مد نبوخذ نصر Nebuchadnezzar (١٨) ، ابن نابوبولصر ، فتوحات بلاده الى حدود مصر ، وفى عام ٥٨٦ استولى على أورشليم ، عاصمة مملكة يهوذا ودمرها تدميرا ·

وتمثل التوراة نبوخذ نصر فى صورة المحـاربين · ولكنه اكتسب مجدا خالدا فى بلاده بفضل أعماله السلمية قبل كل شىء ، فقد زاد المعابد والقنوات والطرق أضعافا مضـاعفة ، واستعادت بابل فى عهده رونقها القـديم · وتسـجل الحـوليـات البـابليـة (التى نشرها وايزمـان Wiseman (D.J.) عام ١٩٥٦) (١٩) أعمـاله الحـربية ، كما يروى اكسونوفون Xenophon وهيرودوت بناءه التحصينات الهائلة ، ومنها سور عظيم صارت به مدينة بابل منيعة على الغزاة ·

ولكن كان هذا كله عبثا · فان كورش Cyrus وقومه الفرس ، الذين خلفوا الميديين على السلطان فى آسيا الصغرى ، لم يلبثوا أن وجهوا اهتمامهم الى بابل ، حيث صحب الاضمحلال السياسى نمو فى سلطان كهنة مردك· وكان المؤرخون الىعهد قريب ينظرون الى نبونيد Nabonid (٥٥٥ ـ ٥٣٩ ق·م : المترجم) آخر ملوك الدولة الكلدانية ، على أنه رجل مولع بدراسة الآثار لم يكن يحس بالعاصفة الوشيكة الهبوب ، ولكنهم ينظرون اليه الآن على أنه رجل بذل جهدا أخيرا لاعادة أقدم صور العبادة البابلية · ولكن الفرس ، يناصرهم كهنـة مردك ، لم يتركوا له وقتـا لتحقيق ما يريد · فقد بدأت الحرب عام ٥٣٩ ، وبسقوط السور العظيم ودخول كورش مدينة بابل زال سلطانها الى الأبد ·

واذا نظرنا نظرة شـاملة الى التـاريخ القـديم لأرض الرافدين ، لوجدناه يتميز بوحدة ملحوظة ، أى أن قوى سياسية كبيرة استطاعت القيـام فى تلك الأرجاء واتخـاذها مركزا للتوسع · ولكن الدول التى نشأت على هذا النحو كانت معقدة التركيب · ففى الألف الثالث نجد السومريين ، الذين كانوا حتى ذلك الوقت أصحاب سيادة لا ينازعهم فيها أحد ، يتصلون بمهاجرين الى البلاد ، ثم ينزلون لهم عن سيادتهم شيئا فشيئا ، ولكن مع التأثير فى ثقافتهم وحضارتهم تأثيرا عميقا · وفى الألف الثانى صار السلطان فى يد الساميين ، ثم انتقل (مع تقلبات مختلفة)

من الجنوب الى الشمال أى من بابل الى أشور ، بينما كانت عناصر أجنبية تتغلغــل فى الوادى حينــا بعد حين . ثم يجىء الألف الأول بعد بلوغ الساميين أوج سلطانهم فى الشــمال ، فيشــهد اضمحلالا مطردا لهذا السلطان أمام غزاة غير ساميين . وكان هؤلاء الغزاة ينزلون من جبالهم المرة بعد المرة ويكتسحون ما أمامهم ، فكان ســكان الوديان يوجهــون اهتمامهم دائما الى الجبال عاملين على حماية أنفسهم من هذا الخطر . وقد كان النصر لمن آثرتهم الطبيعة ؛ وحوالى ٥٠٠ ق.م انتهى تاريخ أرض الرافدين بلدا مستقلا ، وتركزت القــوة الســياسية منذ ذلك الحين فى مناطق أخرى ، ولم تعد أرض الرافدين سوى عنصر على حاشية الصراع بين قوى أخرى .

الدين

كانت حضارة أرض الرافدين من نمط بالغ الرقى ، يختلف اختلافا ملحوظا عن التراث السامى المشترك وحضارة الأمم السامية الأخرى ٠ فعندما نزل المهاجرون الساميون فى وادى الرافدين واجهتهم حضارة قديمة ثابتة الأركان فريدة الطابع ؛ فلم يكن أمامهم بد من أن ينوبوا شيئا فشيئا فى بيئتهم الجديدة ، على الرغم من أنهم أسهموا بنصيب من الحضارة يحمل طابع حياتهم الأولى ٠ وكان معنى هذا ابتعادهم شيئا فشيئا عن أحوال العيش والحضارة التى كانت تحيط بالشعوب السامية الأخرى ، تلك الشعوب التى لم ينتقل أى منها ، ما عدا الاثيوبيين ، الى بيئة تختلف جغرافيا وتاريخيا عن بيئته الأولى قدر اختلاف البيئة التى انتقل اليها الأكديون عن البيئة التى نزحوا منها ٠

وأهم ما يميز الحضارة البابلية الأشورية ، اذا قورنت بالنظم السامية الأصلية ، هو انتقالها من البداوة الى حياة الاستقرار ٠ فأحوال الساميين التاريخية والحضارية كانت تتأثر تأثرا عميقا بثبوت حضارتهم على حال واحدة عند استقرارهم فى مواطن ثابتة بعد أن كانت حضارة متقلبة ؛ وصور تكيفهم ببيئتهم الجديدة كانت تحددها صلاتهم بالشعوب الأخرى ٠

وكان السومريون هم الشعب غير السامى الذى اختلط به الساميون المنتقلون من البداوة أكبر الاختلاط ، وكان أولئك السومريون قد بلغوا من الحضارة مبلغا يسمو كثيرا على مابلغه الوافدون الجدد٠ وكان استيعاب الساميين لعناصر الحضارة السومرية متصلا واسع النطاق الى حد صارت

معه جوانب عدة من الحضارة البابلية الآشورية تعتمد اعتمادا مباشرا على تلك العناصر . ولم تتح لنا معرفة النصوص السومرية والقدرة على تفسيرها الا منذ عهد قريب ؛ وكلما ازددنا علما بما فى هذه النصوص ، ازداد وضوحا أن كثيرا من تقاليد الأكديين وأفكارهم ليست خاصة بهم وحدهم ، وانما هى نتاج تركيب جديد لعناصر سومرية . والحق أن الأكديين وهم يستوعبون الحضارة السومرية أظهروا روحا ونظرة خاصتين بهم ، ولكنهم كانوا أسرى لسحر حضارة السكان القدماء ، وهى أسمى من حضارتهم وأكثر أصالة ، وكانوا فى ذلك كما كانت روما بالنسبة الى اليونان .

وما ان نشأت الحضارة البابلية الأشورية نتيجة لعملية الاستيعاب المعقدة هذه حتى أخذت هى أيضا تؤثر تأثيرا بعيدا فى جميع المناطق المحيطة بها، فأصبحت أرض الرافدين مركزا حضاريا انتشرت منه الأفكار الكونية والأسطورية والعلمية . وان جانبا كبيرا من أدب الشعوب السامية الأخرى وعاداتها صدى مباشر لصوت أرض الرافدين . ولم تقتصر أفكار أرض الرافدين على العالم السامى ، وانما تغلغلت فى آسيا الصغرى ، وبلغت بلاد اليونان نفسها . وتدل الدراسات الحديثة دلالة تزداد وضوحا يوما بعد يوم على أن الحضارة اليونانية ، رغم أصالتها فى جملتها ، تدين بكثير من أفكارها لشعوب أرض الرافدين .

والجوانب التى سنتناول منها الحضارة البابلية الأشورية هى الدين والأدب والقانون والفن . وليست هذه الجوانب وحدات متميزة منفصلة تماما ، وانما هى متداخلة تؤلف معا وحدة مركبة . وهذه ظاهرة طبيعية فى الشرق الأدنى القديم ، حيث لم تكن هذه الجوانب من الحضارة واضحة التميز كما هى فى عالمنا الحديث . فلم يكن يفرق عندئذ مثلا بين الأدب الدينى والادب الدنيوى ، أو بين القانون المدنى والقانون الدينى .

وكان الدين هو العامل المسيطر فى كل ركن من أركان الحياة الانسانية . وكانت نظرة أرض الرافدين الى الأدب والقانون والفن هى نظرة الشرق الأدنى كله قديما ، فلم يكن ينظر اليها الا فى نطاق الدوافع الدينية ، وكانت هذه الدوافع متغلغلة فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فكانت قوام الجوهر العميق لتلك الحياة . ولعل هذا أبرز خصائص الحضارة فى الشرق الأدنى القديم. فكان الدين خلاصة القيم الانسانية ، أما التأمل الفلسفى المستقل والابداع الفنى فلم يتيسرا الا بعد ذلك على يد اليونان .

وطابع التوفيق بين الأشياء المختلفة الذى يميز حضارة أرض الرافدين لا يتجلى فى شىء كما يتجلى فى نظمها الدينية • فآلهتها السامية هى الى حد كبير آلهة سومرية تقبلها الغزاة المنتصرون مع بعض التعديل، وهى ظاهرة تتكرر كثيرا خلال التاريخ • هذا الى أن الآلهة البابلية والأشورية نفسها امتزجت وتفاعلت بعد ذلك بعضها ببعض بتغير الأزمان واختلاف الأحوال السياسية فى أرض الرافدين •

والدين الأكدى وافر الآلهة • وخصائص آلهته من نوع مماثل لخصائص الانسان ، لا تختلف عنها الا فى انها أكثر كمالا وتجريدا • ولباس الآلهة كلباس البشر ، ولكن ثياب الآلهة أبهى من ثياب الأمراء ويصدر عنها بريق يخطف الأبصار • وللآلهة أسر وأسلحة ، وصراعها كصراع الناس ولكنه بالطبع على نطاق أعظم وأهول • ولعل هذه النظرة الى الآلهة أقرب الى نظرة هوميروس فى أشعاره منها الى نظرة الأديان السامية عامة ؛ والدور الذى لعبته العناصر السامية فى هذا كله هو ، كما قلنا ، موضع شك ، وهو قطعا ليس بالدور الكبير •

وكان الثالوث الأسمى بين آلهة أرض الرافدين يتكون من السماء متجسمة فى أن Anu (٢٠) ، والهواء متجسما فى انليل Enlil (٢١) ، والأرض متجسمة فى انكى أو ايا Enki (Ea) (٢٢) • وكان هناك ثالوث آخر من أجرام سماوية هى الشمس والقمر وكوكب الزهرة « نجم الصباح » (٢٣) • وبتطور الدين صار لكل اله نجمه الخاص ، وبتقدم علم التنجيم زادت عبادة النجوم •

وكان أدد Adad الها آخر من آلهة الطبيعة ، يمثل العاصفة ، سواء فى مظهرها اللين السخى من مطر وفيضان يسبغان على النبات الحياة ، أو فى مظهرها العنيف المدمر من برق واعصار يحرمان الانسان ثمار عمله الدائب (٢٤) • وكانت النار تعبد أيضا فى شخص الاله نسكو Nusku (٢٥) •

وكانت الدورة الطبيعية فى حياة النبات وخصوبة الأرض تبجلان خاصة فى شخص الالهة عشتر ، التى كانت رمزا للأرض الأم ؛ وكان ذلك متفقا مع فكرة تنتمى كما سنرى الى شعوب كثيرة فى غربى آسيا• وكانت عبادة هذه الالهة بالغة الأهمية داخل حدود أرض الرافدين وخارجها ، وقد نشأت حولها سلسلة طويلة من الأساطير • وكانت تكرس لها ، من حيث هى الهة الحب ، دعارة الطقوس الدينية ؛ وكان هذا النوع

من الدعارة واسع الانتشار فى عبادة الخصوبة · وكانت عشتر أيضا الهة الحروب والمعارك ·

وكان يرتبط بها الاله الشاب تموز ، وهو ذو طبيعة الهية انسانية معا · وكان يموت ويولد من جديد عاما بعد عام ، يرمز بذلك الى ذبول الحياة فى النبات وميلادها من جديد · وثمة أسطورة بالغة الدلالة من الناحيتين الدينية والشعرية تقص علينا نزول الالهة عشتر للاتيان به من دار الموتى (٢٦) ·

وكان لكل من بابل وأشور اله من نوع آخر ، قومى الطابع ، تتوقف أهميته طبعا على الموقف السياسى · فكان فى أشور الاله أشور ، وكان فى بابل مردك المشهور الذى بلغ السيادة فى دولة حمورابى · وكانت تربط بهذا الاله أو ذاك الروايات المتواترة عن أصل العالم وتنظيمه ، وكانت الالهة الأخرى جميعا تصور على أنها تابعة له تساعده فى مهمته الضخمة : مهمة خلق الكون وتدبير أمره (٢٧) ·

* *

وكانت الحياة اليومية التى يحياها البابليون والأشوريون تظللها دائما مخافة الشياطين · وكانت هذه الشياطين مخلوقات عجيبة ، يمكنها أن تتشكل فى أية صورة وأن تنفذ من أى جسم وأن تتحرك فى كل مكان دون أن يراها أحد · وكانت تفضل عامة الأماكن المهجورة المظلمة ، والخرائب ، والمدافن ، وكل مكان آخر يبعث على الرهبة · وكانت تدل على وجودها بأصوات حيوانية ، تبعث الفزع الشديد فى الأماكن الموحشة.

وفن أرض الرافدين ، وهو صورة صادقة لحياة الشعب ، غنى بصور الشياطين ؛ وهى تجمع عادة بين أجسام الانس ورءوس الحيوان ، أو تربط بين أعضاء حيوانات مختلفة على نحو رهيب ·

وكانت الشياطين فى الغالب أرواحا شريرة صعدت من جوف الأرض ؛ وكان بعضها أرواح الموتى الذين لم يدفنوا فى قبور ، فكانوا يهيمون من مكان الى مكان لا يهدأ لهم قرار ، وينتقمون لأنفسهم على مصيرهم التعس بمهاجمة البشر ومضاعفة الكوارث ·

وان أبرز ما يميز السيكولوجية الدينية لأرض الرافدين فيما يتعلق بالشياطين هو أنه كان ينظر الى الانسان على أنه لا عاصم له منها فعلا· فحتى المرء الذى يحيا حياة طاهرة ، ولا يسىء الى اله من الآلهة ، يمكن دائما أن يقع فريسة لمكائد ساحر شرير ، أو أن يتصل عن غير قصد

بكائن أو شيء نجس ، فالانسان يمكن أن يكون ضحية بريئة لقوى شريرة. وان مثل هذه النظرة الموغلة فى التشاؤم لتدل على ضعف كبير فى الأفكار الخلقية ، وعلى انعدام الايمان بجزاء عادل فى حياة أخرى على ما نقدمه من أعمال فى هذه الدنيا .

ولكن كانت الخطيئة أقرب الطرق التى يستطيع بها الشيطان دخول جسم الانسان . وكانت الخطيئة صنوفا عدة ، كاهمال الطقوس الدينية والسرقة والقتل . ولم يكن ثمة تمييز بين الذنوب الخلقية والذنوب المتعلقة بالطقوس الدينية ؛ فكان ينظر اليها كلها على أنها من نوع واحد، وذلك بسبب الدور الغالب الذى كانت تلعبه الأفكار الدينية فى نظام الحياة اليومية كله .

وكان المرء اذا أذنب ينبذه الاله الذى يظله بحمايته ، فيصير الطريق مفتوحا أمام الشياطين ، فتنتهز هذه الفرصة للدخول فى جسم الانسان. وما يلبث وجودها فيه أن يعلن عن نفسه بظواهر كريهة مختلفة ، كالأصوات تتردد فى البيت ، ولفحات الريح ، والرؤى المفزعة .

ولكن كان المرض أشيع مظهر لوجود الشيطان فى جسم الانسان. وربما كان شيطان الحمى أهول الشياطين عند أهل الرافدين ، وكانت له رأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط ؛ وكان صوته كصوت النمر الأرقط والأسد ، وكان يمسك بيديه أفاعى هائلة ، وكان كلب أسود وخنزير يداعبان ثدييه . وهكذا كان المريض صاحب اثم ، وكان مرضه راجعا الى وجود شيطان فى جسمه .

وكان من الطبيعى أن يصل الطب فى أرض الرافدين من هذا الى أن علاج المرض هو فى طرد الشيطان . وفى سبيل هذا الغرض كانت تتبع اجراءات مفصلة معقدة . فكان يجب على المريض أولا تعيين الشيطان الذى سبب له المرض . وهنا كان يجد العون من الأفكار السائدة ؛ فأسماء الشياطين التى تقيم فى مختلف أجزاء الجسم كانت معروفة منذ وقت طويل ، وأولها أشكو **ashakku** ، شيطان الرأس ، الذى كان يسبب الصداع (٢٨) ؛ وكان سكان البلاد يخشون الصداع خشية بالغة . فاذا ظلت حقيقة الشيطان موضع شك ، عمد الى تدبير احتياطى ، وهو أن يتلو المريض اعترافا طويلا بالآثام التى قد يكون اقترفها ، فيتأكد ذكره للاثم الذى ارتكبه فعلا .

وكان من الضرورى بعد ذلك طرد الشيطان ؛ وكان يتولاه كاهن

متخصص فى هذا الأمر ، وذلك بالرقى والأعمال السحرية التى تتطلبها الحالة ·

***

وكان الكاهن المتخصص فى مساعدة المريض على هذا النحو يسمى آشب ashipu ، أى المعوذ (٢٩)· وقد وصلت الينا تميمة بابلية من البرونز تحمل صورة غريبة لعملية تعويذ · فعلى ظهر التميمة نرى الشيطان من ظهره بجناحيه وأطرافه ورأسه ، وهى تمت كلها الى عالم الحيوان · أما وجهه المروع فيبدو فى أعلى وجه التميمة · وترى على وجه التميمة أيضا صور تمثل سلسلة من المناظر : ففى الصف الأعلى نرى تحت رموز الآلهة شياطين الحمى السبعة ، وفى الصف الأوسط نرى المريض راقدا على فراشه ، يحيط به الكهنة فى ملابسهم التقليدية ، أما الصف الأسفل فيمثل منظرا حيا نرى فيه الشيطان وقد طرد من جسم المريض ولاذ بالفرار ·

وكان قوام عملية التعويذ تلاوة عبارات سحرية مع أداء طقوس معينة · وكانت المراسم تبدأ بدعاء للآلهة يصف الكرب الذى يعانيه الآثم وأمله فى الغفران · وكان يرش على المريض ماء مقدس ؛ وتلقى قطع من اللحم حتى يمسك بها الشيطان فيفك قبضته عن جسم المريض ·

فهذا كله يدل على انتشار استعمال الرقى والسحر فى أرض الرافدين انتشارا واسعا · ومن أمثلة ذلك العلاج من لدغة العقرب ؛ فهو يبدأ بتلاوة الرقى فوق الجزء المصاب ، ثم يأخذ المريض فى فمه سبع حبات من القمح الخالص مع بعض الأعشاب الجبلية ، ويمضغ هذا كله ؛ وبعد ذلك يذهب الى النهر ويغطس فيه سبع مرات ، وفى المرة السابعة يبصق ما فى فمه فى الماء ·

وكان هناك طائفة أخرى من الكهنة ، يسمى الواحد منهم بارو baru ، عليهم تفسير ارادة الآلهة والتنبؤ بها (٣٠) ، تلك الارادة التى تقرر مصير الأمور فى هذا العالم · فهذه الوظيفة الثانية من وظائف الكهنة ، وهى ليست أقلها شأنا ، تدل على التطور العظيم الذى بلغه النظام الكهنوتى والتأثير البالغ الذى كان للكهنة على حياة الناس فى أرض الرافدين ·

وكان التنبؤ يتم خاصة بفحص كبد الحيوان · فقد كان البابليون والأشوريون يعلقون أهمية خاصة على هذا العضو ، ويخصصون فرعا كاملا من العلم لدراسته · وقد وجدت نماذج من الصلصال عليها بيانات

مفصلة لجميع مناطق الكبد ، وملاحظات على دلالة كل قطاع • فاذا أراد الملك مثلا معلومات عن المستقبل دعا الكاهن العراف ، فيذبح الكاهن قربانا من الحيوان ، هو عادة من الغنم ، ويرد على الملك حسب ما يراه من دلالات فى كبد ذلك الحيوان •

وكانت بقية أعضاء الحيوان الداخلية تفحص أيضا للاستعانة بها فى العرافة • ومما كان يستدل به أيضا فى هذا الصدد طيران الطيور ، وظهور حيوانات معينة ومسلكها ، وولادة الأطفال • فكان يقال انه اذا لم تكن للطفل المولود أذن يمنى كان ذلك نذيرا بسقوط الدولة ، فاذا لم تكن له أذن يسرى كان ذلك بشيرا بأن الآلهة استجابت لدعوات الملك وأنه سينتصر على أعدائه• وكان كل شيء تقريبا مما يقع فى نطاق ملاحظة الانسان ، سواء أكان حيا أم جمادا ، يصلح مادة لاستطلاع الغيب •

وكان التنجيم صورة أخرى من صور التنبؤ • فحركات الأجرام السماوية ، واجتماعاتها ، ولونها ، كان هذا كله يتخذ أساسا للتنبؤ بالحوادث المستقبلة ، التى كانت ترتبط فى ذهن أهل الرافدين بالظواهر السماوية •

وقد أدت ملاحظة الأفلاك الى تطور عظيم فى المعلومات الخاصة بالفلك فى أرض الرافدين ، ولا سيما خلال العصر الكلدانى • فلدينا عدة جداول من المعلومات الفلكية ، تبرهن على معرفة بالظواهر السماوية واسعة الشمول • وكان للبابليين منذ أقدم العصور مراصد حقيقية مقامة على رءوس أبراج المعابد ؛ وكانوا يقيسون مدارات النجوم بالساعة المائية ، ويسجلون تسجيلا صحيحا حركات الشمس والقمر ، فصارت لهم فى القرن السابع قبل الميلاد القدرة على التنبؤ بما ينتابهما من خسوف أو كسوف • وأطلقوا على مجموعات الكواكب المختلفة أسماء أخذها عنهم اليونان فيما بعد ، فاليونان يدينون لبابل بجزء كبير من معلوماتهم الفلكية وكان علم الفلك الأساس الذى بنى عليه التقويم ، وهو من اثنى عشر شهرا قمريا •

ويدل قياس الأبعاد الظاهرة بين النجوم وغير ذلك من الحسابات الفلكية ، وبعضها بالغ التعقيد ، على تقدم فى معرفة الرياضيات • وكان أهل الرافدين يعرفون النظام الستينى والنظام العشرى • وكانوا يستطيعون الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة ، ومضاعفة الأس ، واستخلاص الجذور ، وحل المعادلات المركبة ، وفى الهندسة كانوا يستطيعون قياس المساحات والأحجام •

هذه المجموعة من المعارف الفلكية والرياضية هي ولا ريب من أعظم ما أسهم به أهل الرافدين ، ولا سيما البابليون ، في تاريخ الحضـــارة • وكان نهوضهم بهذه العلوم وثيق الاتصال ، كما رأينا ، بدينهم ، ولاسيما بفن العرافة •

والى جانب المعوذ والعراف نجد الـكاهن (كلو kalu) المكلف بأداء الطقوس الجنازية وانشاد المراثي (٣١) • وكان الموتى يدفنون في توابيت من الخزف أو في حصائر من القصب ، وكانت توضع الى جانبهم أشياء أو مؤن مختلفة •

هذه العادة تتفق وفكرة أهل البلاد عما وراء القبر • وهذه نقطة ذات أهمية خاصة ؛ فهي تدل على الايمان بحياة أخرى بعد الموت ولكن دون ابراز لفكرة الثــواب والعقاب ، وتعكس بوجه عام نظرة ســلبية متشائمة الى الحياة الآخرة •

فكان المعتقد أن روح الانسان بعد الموت تنفذ من القبر وتنزل الى العـالم السـفلي (أرلو arallu) ، وهي مدينة كبـيرة يلفهـا التراب والظلام ، ويعيش فيها الموتى عيشة حزينة كئيبة ، يشربون الماء القذر ويأكلون التراب • ولا يمكن التخفيف من هذا البلاء الا بالقرابين يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه الذين لا يزالون في قيد الحياة • أما الموتى الذين لا يرعاهم أحد ، والموتى الذين لم يدفنوا في القبور ، فانهم يهيمون دون أن يقر لهم قرار ، ويعودون الى الأرض من حين الى حين في صورة أرواح شريرة تزعج الناس • وليس في الأدب الأكدي سوى اشارات عابرة قليلة عن الفرق بين مصير الأخيار ومصير الأشرار ؛ فهو يحدثنا مثلا عن وجود جزيرة لمن باركتهم الآلهة يأتي اليها الآلهة بنفر قليل من المختارين بعد أن تهبهم الخلود •

* *

وكانت طقوس أرض الرافدين بالغة التعقيد ، تشتمل على تفصيلات محددة في صرامة ودقة [illegible] يدل على مدى تطور الناحية الشكلية من الدين ، [illegible] بين في الوقت نفسه سيادة الدين المطلقة على كل جانب آخر من جوانب الحياة الاجتماعية •

وكان تقديم القرابين أشيع الطقوس الدينية وأغلبها في الاستعمال. وكانت القرابين تقدم لأغراض مختلفة : للتكفير عن الذنوب ، أو اكتساب رضا اله من الآلهة ، و تدشين معبد جديد أو تمثال جديد ، الخ ؛ هذا

عدا القرابين العادية التى كانت تقدم كل يوم فى المعابد فى أوقات محددة.

وكانت القرابين فى الغالب من الحيوانات والسوائل . وكان الحمل والجدى أكثر الحيوانات استعمالا فى هذا الصدد ، وكان النبيذ والجعة واللبن والعسل والزيت أكثر السوائل استعمالا . وكان القربان من الأضاحى أو غيرها يوضع على مذبح أمام تمثال الاله أو الآلهة ، ويبدأ الحفل الدينى بالصلوات تصحبها بعض الطقوس العملية والرش بالماء المقدس . وكانت أجزاء معينة من القرابين ، مخصصة للاله أو الالهة تحرق (أو تسكب) تكريما له أو لها ، وكانت أجزاء أخرى تؤول الى الكهنة ، ويرد الباقى الى صاحب القربان . وكان هناك فيما يبدو كهنة مخادعون ، يجنون الربح من غير جهد بالاستيلاء على القرابين التى يؤتى بها اليهم واحلال قرابين أخرى أقل قيمة محلها . وكانت المعابد تتلقى مقادير كبيرة من السلع المختلفة الأنواع ، وكانت ادارة هذه السلع مسألة معقدة كما يتبين من سجلات الحسابات التى كشفت بين الآثار .

وكانت المبالغة فى مراعاة الطقوس تنعكس أيضا فى التقويم المقدس ، وكان يضبط أيضا بطائفة كبيرة من القواعد المفصلة . فكانت أيام السنة تقسم عامة الى ايام مواتية وأخرى غير مواتية ، وكان أداء الأعمال العامة والخاصة المختلفة فى أيام معينة يصرح به أو يحرم وفق هذا التقسيم .

وكانت الأعياد الدينية هى أعياد الآلهة ، وكان الناس يشاركون فيها بالمسرات والطقوس . وكانت أهم هذه الأعياد أعياد الآلهة حماة المدن المختلفة ، وكان من أبرزها عيد العام الجديد فى مدينة بابل . وكان هذا العيد يشمل احتفالا مهيبا يبدى الملك فيه خضوعه للاله . وكانت وفود ضخمة من الحجاج تهرع الى المدينة من كل صوب ، وكان الاله ينعم بالقرابين والناس بالمآدب . وكانت الدعوات ترسل دعاء بعد دعاء الى مردك ، الاله الأسمى للمدينة ولكل المنطقة التى سادت فيها الدولة البابلية الأولى . وفى ذلك اليوم كان الاله يقرر فى احتفال مهيب مصائر الدولة طوال العام الذى يستهله ذلك اليوم .

وكانت تصحب الصلوات حركات مختلفة . فكانت تؤدى عادة وقوفا أمام الاله مع رفع اليد اليمنى . ويبدو أن عادة الصلاة مع مد الكفين مفتوحتين نحو الاله من أصل سامى . وكانت هناك صلوات عامة وأخرى خاصة ؛ ومن الطبيعى أن تكون الصلوات الخاصة أكثر تفصيلا وأشد اصطباغا بالجوانب الشخصية ، وان يكون للصلوات العامة أسلوب أعم وأكثر ايغالا فى النواحى الشكلية .

الأدب

يختلف الأدب البابلى الأشورى اختلافا ملحوظا فى صورته ومادته عن آداب الأمم السامية الأخرى . فالأساطير ، التى تندر ندرة بالغة بين هذه الأمم عامة ، نجدها مزهرة مونعة فى أرض الرافدين ، التى أفردت أدبا شعريا رائعا لقص مغامرات الآلهة والأبطال .

ولكن هذا الاختلاف عن بقية الآداب السامية يمت الى الظاهر أكثر مما يمت الى الحقيقة . فالجزء الأكبر من الأساطير الأكدية ليس الا نسخة جديدة من الروايات السومرية ، التى تعد اذن الأساس الحقيقى لأدب أرض الرافدين (٣٢) . فقد كان الأكديون يكنــون احتراما عظيمـا لروايات أسلافهم ، الذين ورثوا عنهم حضارتهم ؛ ولم يكونوا يجدون حرجا فى أن يعيدوا نشر ما سطره غيرهم من الناس . والحق أنه يمكن القول ان فكرة الملكية الأدبية كانت غريبة كل الغرابة على عقليــة الشرق الأدنى القديم ، ومنه أرض الرافدين . فاسم المؤلف نفسه لم يكن أمرا ذا بال ، ولهذا كان الانتاج الأدبى فى الغالب مجهول الصاحب .

وقد لعبت قوة التقــاليد دورا كبيرا فى الأدب ، وحددت طبيعتــه المحافظة بل الجامدة . فالأعمال الأدبية القديمة كانت تعد قدوة لا يمكن الاتيان بأحسن منها ، ولهذا كان كل جيل من الفنانين يطمح قبل كل شىء الى استيعاب خصائصها ثم اخراجها من جديد . ومن الطريف أن نلاحظ أن المؤلفين لم يكونوا يترددون فى أن يكرروا مرات عدة خــلال العمل الأدبى الواحد صــورة أو فقرة ترضى نفوسهم . فالمحــادثات أو الرسائل ، مثلا ، كانت تعاد بحذافيرها كلما وردت اشارة اليها . ويمكن

أن نقول عابرين ان هذه العادة عون كبير لنا الآن فى سد فراغ النصوص الناقصة ٠

ومبدأ التكرار هو أيضا أساس القالب الشعرى ؛ فهو لا يتميز بالقافية أو يقاس بالوزن ، ولكن يقوم على تتابع عبارات متوازنة ، أى على تكرار أفكار معينة ، سواء أكان التوازى parallelism عن مساواة ومشابهة أم عن تضاد ٠

والخلاصة أنه كان ثمة ميل الى المبالغة فى وضع المقاييس ، والى تكرار الأنماط والأشكال المقبولة ؛ ولم يكن الفنان يريد ترك الطرق المألوفة ليحاول التعبير عن نفسه ، وانما كان يميل الى اخفاء شخصيته وراء الصور التقليدية ؛ فكان الفن شكليا خاليا من الطابع الشخصى ، وكان محافظا الى درجة الجمود ٠

***

والملاحم الدينية الكبيرة التى تقص أساطير الآلهة فى أرض الرافدين تكشف عن اهتمام بالأصول الأولى للانسان ومآله الأخير ؛ فجزء كبير منه يتناول خلق الكون وما ينتظر الانسان وراء القبر ٠

فأسطورة الخلق تتضمنها قصيدة أكدية طويلة تسمى «انوما ايلش» Enuma Elish ؛ ويتكون هذا الاسم من أول كلمتين فيها، ومعنى أولاهما «عندما» ومعنى الثانية «فوق» ٠ وترجع النسخة الأكدية لهذه الملحمة الى عصر الدولة البابلية الأولى ، وكان يراد بها تمجيد مردك وتصويره كبيرا للآلهة وخالقا للكون ٠

تقول القصيدة انه لم يكن فى البدء شىء سوى محيط شاسع من المياه يمثله الهان : أحدهما ذكر يسمى أبسو Apsu ، والآخر أنثى تسمى تهامة Tiamat (٣٣) ٠ أنجبا آلهة عدة لم تلبث أن ثارت على أبويها ٠ فذبح أبسو ، ولكن واصلت تهامة المعركة ، وولدت فى سبيل الدفاع عن نفسها أمساخا بشعة كثيرة ذات أنياب سامة : الصل ، والتنين ، والأسد الكبير ، والكلب المجنون ، والرجل العقرب . والشياطين الأسود والذبابة التنين ، والقنطور Centaur .

فلما رأت الآلهة هذا التهديد اختارت من بينها زعيما وبطلا لها هو الاله الشاب مردك ، فاتخذ أهبته للقاء تهامة :

٣٥ ــ صنع قوسا ، وجعلها سلاحه ،

٣٦ ـ وركب فيها السهم ، وثبت وترها ٠
٣٧ ـ ورفع الهراوة ، وأمسكها بيمناه ،
٣٨ ـ وعلق القوس والجعبة الى جانبه ٠
٣٩ ـ وأقام البرق أمامه ،
٤٠ ـ وملأ جسده بشعلة ملتهبة (٣٤) ٠
٤١ ـ وصنع شبكة ليطوق بها تهامة ،
٤٢ ـ وأقام الرياح الأربع حتى لا يهرب من تهامة شيء :
٤٣ ـ ريح الجنوب ، وريح الشمال ، وريح الشرق ، وريح الغرب ٠
٤٤ ـ ووضع الى جانبه الشبكة ، منحة أبيه أن (٣٥) ٠
٤٥ ـ وخلق إمخلو Imkhullu ريح الأذى ، والعاصفة ، والاعصار ،
٤٦ ـ والريح المضاعفة أربع مرات ، والريح المضاعفة سبع مرات والريح المدمرة ، والريح التى ليس لها ضريع ٠
٤٧ ـ واطلق الرياح التى خلقها ، الرياح السبع ٠
٤٨ ـ فنهضت خلفه لتثير جوف تهامة ٠
٤٩ ـ ورفع الرب العاصفة الدوارة (٣٦) ، سلاحه الشديد البأس ،
٥٠ ـ واعتلى عربة العاصفة المخيفة التى لا تقاوم ٠
٥١ ـ وطهم أربعا وشدها اليها :
٥٢ ـ المدمر ، والقاسى ، والدائس ، والسريع ٠
٥٣ ـ وكانت أسنانها حادة تحمل السم ،
٥٤ ـ وكانت مدربة على نشر الخراب ، قد تعلمت التهديم ٠٠٠
٥٧ ـ وكان يرتدى درعا يثير الرعب ،
٥٨ ـ وكانت تحيط برأسه هالة تبعث الخوف ٠
٥٩ ـ ومضى الرب قدما وتابع سيره ،
٦٠ ـ ويمم وجهه نحو تهامة الهائجة ٠
٦١ ـ وكان يحمل بين شفتيه تميمة من صلصال أحمر ،
٦٢ ـ ويقبض فى يده على نبات لافساد السم ٠٠٠ ٠٠٠
٨٩ ـ وصاحت تهامة عاليا فى غضب ،
٩٠ ـ وارتعشت رجلاها حتى جذورهما ،
٩١ ـ وتلت تعويذة ، وظلت تنفث سحرها ،
٩٢ ـ وشحذت آلهة الحرب أسلحتها ٠

٩٣ ـ وتقدما للقاء : تهامة ، ومردك أحكم الآلهة ،
٩٤ ـ وتدانيا للقتال ، واقتربا للصراع ٠
٩٥ ـ فرمى الرب شبكته ، وطوقها بها ،
٩٦ ـ وأطلق فى وجهها ريح الأذى التى كانت تتبعه ،
٩٧ ـ ولما فغرت تهامة فاها لتفترسه ،
٩٨ ـ أطلق ريح الأذى لئلا تستطيع اطباق شفتيها ٠
٩٩ ـ وملأت الرياح الهائجة بطنها ،
١٠٠ ـ فانتفخ جسمها ، وفتحت فاها .
١٠١ـ وأطلق سهما ، فمزق بطنها ،
١٠٢ـ وهتك أحشاءها ، وشق فؤادها (*) ٠

ولما هزم مردك على هذا النحو الهة الماء المسخاء ، شق جسدها بسيفه شقين ، صنع من أحدهما قبة السماء ومن الآخر الأرض ، وبذلك قسم المياه الى مياه فوق الجلد firmament وأخرى تحته ، فقد كان الاعتقاد شائعا أن المطر هو فيض المياه التى تحتفظ بها السماء ٠

وبعد أن صنع مردك السماء والأرض ، وضع النجوم فى السموات العلى ٠ وهنا نجد فراغا طويلا فى النص ، وهذا الجزء الضائع يتناول على الأرجح خلق النبات والحيوان ٠ أما الجزء التالى الذى يمكن قراءته من النص فنرى فيه مردك يأخذ التراب ويمزجه بدم الاله كنجو Kingu (٣٧) الذى كان قد ذبح فى المعركة ، ويصنع منه الانسان على أن يكون خادما للآلهة . وعندما تم الخلق ، احتفلت الآلهة بانتصار مردك وخلعت عليه خمسين لقبا من القاب التشريف .

هذه الملحمة جمعت الى حد كبير من أفكار سومرية مع تطبيقها على الاله الجديد الذى فرضته الدولة البابلية على أرض الرافدين ٠ ولعلها تتضمن أيضا أسطورة من أساطير الطبيعة يرمز فيها انتصار مردك على تهامة الى انتصار الشمس زمن الربيع على عواصف الشتاء ، وهى تعبر قطعا عن احدى الأفكار الأساسية التى سادت دنيا البحر المتوسط قديما ، وهى انتصار الكون كلا منظما على الفوضى ، فقد كان ينظر الى الخلق على أنه اشاعة النظام فى الفوضى التى كانت سائدة من قبل ٠

ولكن فكرة تتابع الفصول أوضح فى أسطورة أخرى من تلك

(*) انوما ايلش ، اللوحة الرابعة ، السطور ٣٥ ـ ١٠٢ فى مواضع عدة .
(المترجم . زدنا على المؤلف بأن وضعنا امام كل سطر رقمه) .

الأساطير التى تتناول ما وراء القبر ، وهى أسطورة نزول عشتر الى العالم السفلى أو أرلو · تنزل الهة الحب اليه ، وتطلب مقابلة ملكته ارشكيجل Ereshkigal وفى طريقها الى الملكة تمر بسبعة أبواب ، وكان عليها أن تخلع ثوبا من ثيابها السبعة عند كل باب حتى تستطيع المرور منه · وعندما تدخل على الملكة تحييها هذه بستين مرضا تصيبها بها · وفى تلك الأثناء يؤدى غياب ملكة الحب الى توقف كل تجدد للحياة على الأرض ، فتقلق الآلهة وترسل الى ارشكيجل تسألها اطلاق عشتر . وبعد أن يرش ماء الحياة على عشتر ، تمضى راجعة الى الأرض ، وتستعيد أثوابها عند مرورها مرة أخرى خلال الأبواب السبعة ، وبعودتها تتجدد الحياة على الأرض ·

وثمة أسطورة أخرى تتعلق بما وراء القبر هى أسطورة نرجل Nergal وارشكيجل ، ملكة العالم السفلى · تقول الأسطورة ان الملكه لم تستطع حضور مأدبة للآلهة ، فأرسلت وزيرها نمتر Namtar ليطالب بنصيبها من الطعام والشراب · فلقى استقبالا كريما من الآلهة جميعا ، عدا نرجل الذى لم يشأ الوقوف احتراما له · فتأمر الملكة وزيرها أن يأتى بالاله العنيد الى العالم السفلى · فينزل اليه نرجل ، ولكنه يتغلب على الحرس ، ويمسك بارشكيجل من شعرها ، ويجرها من العرش · فتسأله الرحمة ، وتعرض عليه الزواج منها · فيقبل العرض ، ويصبح بذلك ملكا على العالم السفلى · ويبدو أن هذه القصة قد نشأت لتبرر ماينسب الى نرجل من سيادة على العالم السفلى ، ففى هذه الحالة ، كما فى حالات أخرى ، اختلق أساس أسطورى لتبرير فكرة شائعة (٣٨) ·

وكانت أسطورة جلجاميش أبرز أساطير الأبطال ، فامتدت عبر حدود أرض الرافدين الى أساطير الشعوب المجاورة · ولعلها أقدم من أسطورة انوما ايلش نفسها .

جلجاميش رجل يبحث عن الخلود . وتتميز الملحمة بأن موقفها من الحياة ذاتى جديد نسبيا ، وهو فى أساسه شديد التشاؤم ، فالأبطال أنفسهم لا يستطيعون الفرار من الموت ، و « طرق المجد لا تؤدى الا الى القبر » . والقصة التى تقصها القصيدة قد لا تكون أسطورية فى جميع تفاصيلها . فهى تصور البطل ملكا على مدينة أرك Uruk (٣٩) ، وكان هناك فعلا ملك عليها يسمى جلجاميش ، فلعل مغامراته بعد أن ضخمتها الأساطير هى منشأ تلك الأسطورة .

كان جلجاميش هو الرجل الذى رأى كل شىء ، وعرف الأسرار

الخفية واكتشف سر الحكمة ، ولكنه كان يضطهد شعبه ، فأرادت الآلهة أن تقيم منافسا يناوئه . ولم يكن بين الأحياء ند له ، فخلقت الآلهة من يضارعه وسمته انكيدو Enkidu ولكن البطلين ، بعد مغامرات مختلفة ، يصبحان صديقين ، ويقومان معا بأعمال فذة مروعة . وبعد انتصارهما على المسخ المخيف الذى يسكن غابة الأرز ، تعجب الالهة عشتر نفسها بجلجاميش ، وتعرض عليه الزواج منها ، ولكنه يرفض العرض ، ويعيرها بقصص غرامها الكثيرة المتسمة بالقسوة غير آبه لغضبها . وهذه قصة ذلك الغزل الفريد :

١ ــ غسل شعره القذر وصقل أسلحته ،
٢ ــ ونفض شعر رأسه فوق ظهره .
٣ ــ وخلع ثيابه القذرة وارتدى ثيابه النظيفة ،
٤ ــ ولبس العباءة وربط الحزام .
٥ ــ ولما لبس جلجاميش تاجه ،
٦ ــ رفعت عشتر العظيمة عينيها الى جمال جلجاميش :
٧ ــ « تعال يا جلجاميش وكن زوجى .
٨ ــ هبنى منحة حبك . (٤٠)
٩ ــ لتكن زوجى فأكون زوجتك .
١٠ ــ سأطهم لك عربة من اللازورد والذهب ،
١١ ــ لها عجلات من الذهب وقرون من الحجارة الكريمة . (٤١)
١٢ ــ تشد اليها شياطين العاصفة كالبغال الضخمة ،
١٣ ــ وتدخل بيتنا وسط عبير الأرز .
١٤ ــ فاذا مادخلت منزلنا ،
١٥ ــ قبلت العتبة والمنصة قدميك .
١٦ ــ وينحنى أمامك الملوك والحكام والأمراء ،
١٧ ــ ويأتون اليك بنتاج الجبال والسهول جزية .
١٨ ــ وتلد عنزاتك ثلاثا فى كل مرة ، وتضع نعاجك توائم ،
١٩ ــ ويتفوق حمارك فى الحمل على البغل ،
٢٠ ــ وتشتهر عرباتِ جيادك بسرعة العدو ،
٢١ ــ لن [illegible] تحت النـ[illegible] مثيل . »
٢٢ ــ [illegible] جلجاميش فـ[illegible]
[illegible] مخاطبا عشتر العظيمة :
[illegible] ماذا يجب ان أعطيك اذا اتخذتك زوجا ؟
[illegible] هل على أن أعطيك زيتا لجسمك وثيابا ،

٢٦ ـ وخبزا وزادا ،
٢٧ ـ وطعاما صالحا للآلهة ،
٢٨ ـ وشرابا مناسبا للملوك ؟
٣٢ ـ ماذا أكسب من زواجك ؟
٣٤ ـ انك باب خلفي (٤٢) لا يمنع الريح والعاصفة ،
٣٥ ـ وقصر يهدمه الأبطال .
٤٢ ـ من من عشاقك احببت الى الأبد ؟
٤٣ ـ من من رعاتك سرك دائما ؟
٤٤ ـ تعالى أحدثك عن قصة عشاقك .
٤٦ ـ ان تموز ، حبيب شبابك ،
٤٧ ـ كتبت (على الناس) بكاءه عاما بعد عام . (٤٣)
٤٨ ـ وأحببت الطائر « صبي- الراعى » المتعدد الألوان ،
٤٩ ـ ثم ضربته وكسرت جناحه .
٥٠ ـ وهو الآن جالس بين الأحراش يصيح « ياجناحى ! »
٥١ ـ واحببت الأسد الكامل القوة ،
٥٢ ـ وحفرت له سبع حفر ثم سبعا أخرى .
٥٣ ـ واحببت الجواد ، الرائع فى المعارك ،
٥٤ ـ وكتبت عليه السوط والمهماز والدرة (٤٤) ،
٥٥ ـ وقضيت عليه بأن يعدو سبعة أميال ،
٥٦ ـ وأن يعكر (الماء) قبل شربه
٥٧ ـ وقدرت النحيب لأمه سيليلي Silili
٥٨ ـ واحببت راعى القطيع ،
٥٩ ـ الذى كان لايفتأ يجمع لك أقراص الخبز أكواما ،
٦٠ ـ ويذبح لك الجديان كل يوم ،
٦١ ـ ثم ضربته وحولته الى ذئب ،
٦٢ ـ يطارده (الآن) صبيانه ،
٦٣ ـ وتعقر كلابه رجليه .
٧٨ ـ فاذا أحببتنى ، فستعاملينني مثلهم . (*)

وتضطرب نفس جلجاميش بعد ذلك اذ يمرض انكيدو ويموت . فيدرك جلجاميش أنه صائر الى الموت لا محالة يوما ما . ويقع فريسة لرعب لا يستطيع الفكاك منه . فيهرب من مكان الى مكان فى الريف .

(*) جلجاميش ، اللوحة السادسة ، السطور ١ ـ ٧٨ فى مواضع عدة ، والنص فى بعض المواضع مشوه يحيط به الغموض . (المترجم : زدنا على المؤلف بأن وضعنا أمام كل سطر رقمه) .

لماذا كتب على الانسان الموت ؟ ان جلجاميش نفسه لا يستطيع ادراك كنه هذا السر · ويصمم جلجاميش على الذهـــاب الى شيخ حكيم يدعى أتنابشتم Utnapishtim وهبته الآلهة منحة الخلود ، ليسأله عن سر الحياة والموت ·

وكانت الرحلة طويلة شاقة . وبعد أن يعبر البطل مياه الموت ، يصل أخيرا الى مســكن الشيخ ، ويطلعه على ما يكربه ، وهنـــا يعلم أن الأعمال الجريئة العديدة التى حققها كانت عبثا ، وأن كل ألوان السرور التى كان ينعم بها قد انتهت ، وأن الأسى قد أصابه . فقد أجابه الشيخ فى مرارة : هـــل تبقى أعمال الانســـــان الى الأبد ؟ ان الحب والكراهية لايلبثان أن يصيرا الى انتهاء ، والنهر لا يرتفع الا ليهبط من جديد · والحياة والموت تقررهما الآلهة ، ولكن الآلهة لاتطلعنا على اليوم الذى نموت فيه .

ويقول الشيخ انه ظفر بالخلود زمن « الفيضان الكبير » ، الذى أنقذ منه نفسه وأسرته ودوابه وما يملك ، والصــورة التى يعطيها عن هذه الأحداث تشبه تلك التى نراها فى التوراة ·

وبعد ذلك يتحدث أتنابشتم عن نبات يصنع العجائب ، له القدرة على اعادة الشباب ، ويوجد فى قاع البحر · فيغوص البطل الى القاع ، ويأتى بالنبات . ثم يستأنف الرحلة من جديد ، ولكن فى خلال الرحلة ينزل الى مجرى ماء ليغتسل ، وبينما هو هنـــاك تجتذب رائحة النبات أفعى ، فتأخذه وتذهب به · وهكذا لا ينال جلجاميش الخلود ·

ويتقرر مصير جلجاميش . وهنا تخالجه الرغبة فى أن يعمل على عودة صديقه الميت انكيدو من العالم السفلى ليحدثه عن الحياة وراء القبر . وتنتهى القصيدة نهاية كئيبة وهى ترسم الصورة القلقة التى يتسم بها العالم الآخر ·

ويبدو من الدراسات التى قام بها الأستاذ كرامر **Kramer (S.N.)** أخيرا أن آخر اللوحات الاثنتى عشرة التى تتألف منها هذه الملحمة ، أى اللوحة التى تسجل هذا اللقاء بين جلجاميش وانكيدو ، اضافة متأخرة لا تنتمى الى القصــيدة الأصلية · وتدل هذه الدراســات أيضا على أن الملحمة ربطت بين عدد من الأفكار السومرية ، وصاغتها فى اطار منتظم·

وثمة قصيدة أخرى ، هى التى تقص أسطورة أدبا **Adapa** ، التى تعالج على نحو مختلف فكرة سعى الانسان وراء الخلود وفشله فى ذلك

لغير ذنب جناه (أى اننا لا نجد هنا فكرة تقابل فكرة الخطيئة الاولى عند العبريين) .

كان أدبا صياد سمك ، وكان ابنـا للاله ايا . وفى يوم من الايام عصفت «ريح الجنوب» وقلبت قاربه ، فأمسك بها فى سورة غضبه وكسر جناحيها . ولما دعاه أن ، الاله الأكبر ، ليفسر مسلكه ، خشى أبوه ايا أن يحاول الاله الغاضب قتله بالسم ، فنصحه أن يرفض كل ما يعرض عليه من طعام أو شراب . ولكن أن أعجب أيما اعجاب بحكمة أدبا ، حتى انه عرض عليه طعام الخلود وماءه . ولكن رفضهما أدبا عملا بنصيحة أبيه ، فضاعت عليه الى الأبد حياة الخلود .

وثمة بطل آخر حاول الصعود الى السـماء ، هو الملك الاسطورى ايتانا **Etana** . ولم يكن له ولد ، فرغب فى «عشب الولادة» ، وقصد فى سبيله الى السماء على ظهر نسر كان قد أنقذه من احدى الأفاعى ، ولكن هذه الرحلة الطائرة المحفوفة بالمخاطر لم تحقق غرضها .

وقد شاعت فى فن الرافدين أفكار مأخوذة عن هذا الادب . فوجدنا خاصة نبات الحياة أو شجرته يتمثل كثيرا فى صورة نخلة عادية ترمز الى تجدد الحياة تجددا أبديا .

***

والشعر الغنـائى فى أرض الرافدين دينى كله ، فلدينا ترانيم ومزامير غفران وصلوات تعبر فى صور مختلفة عن عبـادة الآلهة ، تلك العبادة التى كانت بمثابة الجوهر من حياة تلك الشعوب . وتجرى كثير من هذه القصائد الغنائية على أنماط ثابتة ، ولكنها لا تخلو من الروح الغنائية الحقيقية والشعور الانسانى . والفكرة التى تقوم عليها دائما هى تمجيد الآلهة ، وذكر صفاتها وأعمالها المجيدة ولفتاتها الرحيمة . وفيما يلى مثال ماخوذ عن ترنيمة لشمش اله الشمس :

اله يا شمش ، يا ملك اسماء والأرض ،
يامن توجه كل شىء فى حل رسائل
ياشمش ، انك بيدك اعادة الميت الى الحياة
وتحرير الاسير من قيده .
انك قاض لا سبيل الى افساد ذمته ،
ومرشد لبنى الانسان ،

وابن رائع
للاله نمرصت ،(٤٥)
ابن عظيم القوة والنبل ،
نور البلاد ،
وخالق كل ما فى السماء وما فى الارض ،
هذا هو انت يا شمش (*) .

وهذا دعاء من سرجون الثانى ، ملك أشور ، الى الاله نينيجيكو Ninigiku (وهو اسم للاله ايا)(٤٦) :

ايه يانينيجيكو ، يا اله الحكمة ،
أنت يامن كونت العالم ،

لتنبثق ينابيعك لسرجون ، ملك العالم ، وملك أشور ، وحاكم مدينة بابل ، وملك سومر وأكد ، ومشيد هيكلك ،

لتأت ينابيعك بماء الرخاء والوفرة ، ولترو أرضه ·
اجعل الخبرة العريضة والفهم الواسع
نصيبه المكتوب له ،
وحقق لعمله التمام ،
واجعله يبلغ ما يرمى اليه ·(**)

وعلى أسس الروايات السومرية القديمة أقيم أدب عريض للتعليم والحكمة ، يتناوب فيه النثر والشعر ، غنى بالنصائح والأمثال المنطوية على حكمة رائعة · وهذه بعض النصائح ، وهى تروع المرء بدعوتها الخلقية الرفيعة :

لا تسىء الى خصمك ،
أحسن الى من يسيىء اليك ،
عامل عدوك بالعدل ···
التقوى تولد السعادة ،
وتقديم القرابين يطيل الحياة ،

(*) انظر فالكنشتاين A. Falkenstein وفون سودن W. von Soden فى كتابهما : Sumerische und akkadische Hymnen und Gebete زيورخ — شتوتجارت ١٩٥٣ ، ص ٢٢١ .

(**) المرجع نفسه ، ص ٢٧٩ .

والصلاة تكفر عن الذنوب • (*)

وهذه بعض الأمثال :

لم يجف حوضي ، ولهذا لا أشعر بظمأ شديد •

اذا لم أكن قد ذهبت أنا نفسى ، فمن ذا الذى كان سيذهب الى جانبى ؟

كرس المعبد قبل أن يبدأ بناءه •

اذا ذهبت وآخذت حقل العدو ، جاء العدو وأخذ حقلك •

يأكل ثور الغريب الحشيش ، ولكن يربض ثور المالك فى المرعى(**)

وثمة فكرة سومرية قديمة ظهرت من جديد بين البابليين والأشوريين ، ثم بين العبريين ، هى ما يلاقيه الرجل التقى من ألوان الشقاء • وفى أدب الرافدين عمل أدبى يعالج هذه الفكرة ، ويمكن تشبيهه بسفر أيوب • لماذا يمتحن الرجل الطيب بالشقاء ؟

بلغت غاية العمر ومضيت الى ما وراءها ،
وتلفت حوالى ، فاذا شر فوق شر • (٤٧)
ضيقى يزداد ، والعدل لا أراه ••
ولكن لم أفكر أنا نفسى الا فى الصلاة والتضرع ،
وكان التضرع ديدنى ، وتقديم القرابين عادتى ،
وكان يوم عبادة الآلهة فرح قلبى ،
ويوم موكب الهتى(٤٨) كسبى وثروتى ،
وتبجيل الملك غبطتى(٤٩) ،
والموسيقى الصادحة له مسرتى(***)

وكان الجواب الأول لمشكلة الشقاء هو أن المرء ليس فى موقف يستطيع معه الحكم على الخير والشر • وكان الجواب الثانى هو الحث على الأمل أن ت ب الآلهة الشقى وهو فى دمة الشقاء •

وان جزءا كبيرا من الأدب النثرى الأكدى دينى أيضا فى محتواه • ولدينا منه قبل كل شىء نصوص كثيرة من نصوص الطقوس ، تصف

(*) انظر المراجع فى برتشارد Ancient : J.B. Pritchard Near Eastern Texts... ، برنستون الطبعة الثانية ١٩٥٥ ، ص ٤٢٦ •

(**) المرجع نفسه ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ ، III, I •

(***) المرجع نفسه ، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ •

أعمال الكهنة والاحتفالات المقدسة ، ولاسيما الاحتفال بالعام الجديد فى مدينة بابل. ولدينا بعد ذلك الرقى والتعاويذ التى رأينا فى فصل الدين أهميتها فى مقاومة الشياطين. وتشتمل هذه النصوص على فقرات شعرية فى صورة ترانيم وصلوات ترتل خلال الطقوس. وهناك نوعان رئيسيان من التعاويذ يسمى أولهما مقلو maqlu ، والثانى شربو shurpu . وكلتا هاتين الكلمتين تعنى «الاحراق» ، وذلك لأنه كان يصحب الرقى احراق شيء ما على سبيل السحر . وكان هناك أيضا أدب استنبائى عريض ، يحتوى على النداءات والصلوات الخاصة التى كان يتجه بها الأمراء الى الآلهة يستنبئونها عن المستقبل ، ولا سـيما فيما يتعلق بالمشروعات الحربيه ، ولدينا أيضا الاجابات التى كانت ترد بها الآلهة على الأمراء . وكانت تماثل ذلك فى الوفرة نصوص العرافة ، وهى مصوغة فى أسلوب القوانين ، أى فى صورة سلسلة من القضايا تبدأ بمقدمات أولها كلمة shumma « ان » (الشرطية) ، ثم تقرر النتائج التى تستنبط فى كل حالة . وكان فرع خاص من هذا الادب يتناول فحص الكبد ، وقد تحدثنا عنه فى موضع سابق من هذا الفصل .

ولم تنتـج أرض الرافدين أدبا تاريخيا ، بمعنى عرض الاحداث الماضية وتحليلها عرضا ، تحليلا يستندان الى العقل والاستدلال ، وكل ما لدينا حوليات chronicles أى قوائم بألقاب مختلف الملوك وحملاتهم والاحداث السياسية فى السنوات المختلفة . وكان الملوك يسجلون أعمالهم الفذة فى نقوش رسمية ، ولكننا نجد نقوش الملوك البابليين منذ حمورابى لاتكاد تذكر الحملات الحربية ، بينما تفصل الحديث عن الاعمال السلمية كحفر القنوات واقامة المعابد ، ولهذا لا بد لنا من الرجوع الى الحوليات المعاصرة لتكملة ما نعرفه عن تاريخ هؤلاء الملوك . وهذه الخصيصة التى يتميز بها الملوك البابليون ترجع الى فكرتهم الخاصة عن الملكية . ومن جهة أخرى نجد روح الشمال الحربية تنعكس أيضا فى النقوش الاشورية فهى تورد لنا بيانات مفصلة عن حملات الملوك الحربية ، وكان ذلك يتم أحيانا فى عدة نشرات متلاحقة .

وفى الأدب الأكدى جانب هام أفرد للمسائل اللغوية . فقد ترك لنا البابليون والأشوريون قوائم علامات ، ومعـاجم بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى . فالقوائم تورد العلامات المسمارية المختلفة وتبين قيمها، والمعاجم تورد الكلمات المتقابلة فى لغتى البلاد ، أى السومرية والأكدية .

وهناك أيضا معاجم خاصة بالمترادفات ، ولكن بمعنى للترادف أوسع من معناه الآن ٠

ولدينا أخيرا رســـائل فى الفلك والرياضيات والجغرافيا والطب والكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات، وهى مجموعة تروع المرء حقا بسعتها وتنوعها ٠

النظم القانونية والاجتماعية

كانت النظرة القانونية لأهل الرافدين علامة ثابتة مميزة لمنحاهم فى التفكير ، خلفت طابعها على جميع صور حياتهم الاجتماعية . فثمة ميل طبيعى الى التمييز والتقنين يكمن وراء النظام التشريعى الضخم الذى نهضت به الحضارة البابلية والأشورية ، والذى كان بدوره احدى الوسائل الأساسية التى امتدت بها تلك الحضارة الى البلاد المجاورة .

ونحن نلحظ فى هذا المجال خاصة ذلك الامتزاج بين العناصر السومرية والسامية الذى يميز حضارة الرافدين عامة أبلغ تمييز ؛ ولكن من الصعب هنا أيضا فصل العناصر التى خلفها السومريون عن العناصر السامية الأصل ، وان كنا نستطيع تبين بعض الملامح البدوية فى تشريعات وعادات معينة .

والاكتشاف الأكبر فى ميدان القانون بأرض الرافدين هو قانون حمورابى ، الذى كشف فى أول هذا القرن بين أطلال سوسا Susa وكان قد نقله اليها ملك عيلامى بعد غزوة لبابل . وهو مكتوب على نصب كبير ، ترى فى جزئه الأعلى صورة بارزة للملك واقفا أمام الهه (٥٠) . ويجرى النقش تحت الصورة ، وهو يبدأ بمقدمة يمجد فيها الملك المهمة التى ألقتها الآلهة على عاتقه من نشر العدل فى الأرض ، والدفاع عن الفقير ضد الغنى وعن التقى ضد الآثمين . وتلى ذلك مجموعة القوانين ، ثم تأتى أخيرا خاتمة يمجد فيها الملك مرة أخرى عمله ، ويرجو أن يجد فيه المضطهدون كلمات عزاء وعدل .

وقد عد قانون حمورابى زمنا طويلا انتاجا مبتكرا الى حد كبير ،

ولكن عدل هذا الحكم بعد أن اكتشفت مجموعات أقدم من القوانين ، هي قانون بيـــلالاما Bilalama ملك اشـــننا Eshnunna قبل زمن حمورابي بنحـو قـــرنين ، ويشتمل عليه لوحـــان كشـــفا بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ (٥١) ؛ ثم هناك قانون آخر بالسومرية يســـاويه في القـــدم وهو قانون لبت ـ عشـــتر Lipit-Ishtar (٥٢) ، وقد عثر عليه في أربع قطع بمدينة نبور في آخر القرن الماضي ، ولكن لم تعرف حقيقته أو تفسر الفاظه الا أخيرا ؛ وهناك أخيرا قوانين بالســومرية هي أقدم من هذا كله ، ونعـــني بهـا قـوانين أور ـ نمـــو Ur-Nammu مؤسس الدولة الثالثـة في أور ، وهي ترجع الى حوالى ٢٠٥٠ ق٠م ، وقد عثر عليها عام ١٩٥٢ ٠ فهـذه الكشوف الجديدة تدل على أن أهمية قانون حمورابي ترجع الى أنه جمع ما كان متوارثا من قبل وقننه أكثر مما ترجع الى اصالة محتوياته ٠ ولكن لا يغير هذا من أن قانون حمورابي حظى بأسرع انتشار وصيت ، وأثر في كل ما تلاه من قوانين ٠

ولدينا أيضا مجموعة من القوانين الأشورية ، ترجع الى الامبراطورية الوسطى ؛ وهي أشد صرامة الى حد كبير من قوانين حمورابي وأدنى منها كثيرا في المستوى الحضاري ٠ ولدينا أخـــيرا قوانين ترجع الى الدولة البابلية الحديثة ٠ وثمة اختلافات ملحوظة بين القوانين البابلية والقوانين الأشورية ، وكذلك بين قانون عصر ما ، وقانون عصر آخر ٠

ولدينا عدا القوانين عقود ، وأحكام قضائية ، وتقارير عن محاكمات، وحسابات وايصـــالات ، ووثائق مالية وغير مالية ، تكمل ما نعرفه عن التشريع في أرض الرافدين ، وتبين تعقيد النظام القانوني والمســـتوى العالي الذي بلغه في تطوره ٠

***

ويبدو المجتمع البابلي في قانون حمورابي منقسما الى ثلاث طبقات ٠ فأفراد الطبقة العليا ، ويسمى الواحد منهم awilu(m) (أويل) ، هم « الأشراف » ، وهم يتمتعـون بحـرية كاملة وبجميع حقـوق الرعـوية وامتيازاتها ٠ والطبقة الثانية تتكون من مواطنين يســـمى الواحد منهم mushkenu(m) (مشكين) ويمكن أن نسميهم « العامة » ؛ وكانوا أحرارا ، ولكنهم كانوا يخضعون لقيود قانونيةمعينة ولا سيما فيما يتعلق بتحويل الملكية المنقولة ٠ والطبقة الثالثة هي طبقة « العبيد » ، ويسمى الواحد منهم wardu(m) (ورد) ٠ وكان المجتمع الأشوري ينقسم أيضا

الى ثلاث طبقات تقابل أعلاها وأدناها مثيلتيهما فى المجتمع البابلى ، ولكن لا نعرف على وجه اليقين طبيعة الطبقة الوسطى ٠

وتختلف الطبقات الثلاث بعضها عن بعض فى الوضع القانونى ٠ مثال ذلك أن الاساءة الى العامة عقوبتها أقل قسوة الى حد كبير من عقوبة الاساءة الى الأشراف ، أو يعاقب عليها تبعا لمبدأ مختلف :

« اذا أفسد شريف عين شريف آخر ، فليفسدوا عينه ٠

واذا كسر عظم شريف آخر ، فليكسروا عظمه (٥٣) ٠

واذا أفسد عين رجل من العامة أو كسر عظمه ، فليدفع منا من الفضة » (*) ٠

وهنا نجد قانون العين بالعين والسن بالسن مطبقا على الأشراف وحدهم ، وسنتكلم عنه مرة أخرى فى القسم الخاص بالقانون الجنائى ٠

وكان ينظر الى العبيد بالطبع نظرة أدنى من النظرة الى الأحرار :

« اذا أعطى شريف المهر من أجل ابنة شريف آخر ، ولكن أخذها آخر عنوة دون استئذان أبيها وأمها وفض بكارتها ، كان ذلك جريمة يعاقب عليها بالموت ووجب موته ٠ »

« اذا فض شريف بكارة أمة لشريف آخر فليدفع ثلثى منا من الفضة ، ولتبق الأمة ملكا لسيدها » (**)

وكان العبيد يعدون مجرد عقار منقول يملكه سادتهم ٠ والنفع الوحيد الذى كان ينطوى عليه مركزهم هو الحماية التى كان يكفلها لهم سادتهم لهذا السبب نفسه ٠

* *

وفى نطاق الأسرة كانت للأب سلطة عليا وان لم تكن مطلقة ٠ وكانت الزيجات تعقد بعقود مكتوبة لا تصح بدونها فى نظر القانون ٠ وقانون حمورابى صريح فى هذا الصدد :

« اذا اتخذ رجل زوجة ولكن لم يعقد معها عقدا مكتوبا ، لم تكن تلك المرأة زوجا له » (***) ٠

(*) قانون حمورابى ، المواد ١٩٦ ــ ١٩٨ ٠

(**) قانون بيلالاما ، المادتان ٢٦ و ٣١ ٠

(***) قانون حمورابى ، المادة ١٢٨ ٠

وكانت تسبق الزواج هدية يقدمها العريس الى والدى العروس ، وهى بقية من العادة القديمة : عادة شراء العروس . وكان الغرض من هذه الهدية أن تكون ضمانا ضد نقض أحد الطرفين للعقد (قانون حمورابى ، المادتان ١٥٩ و ١٦٠) .

وكان الرجل يتخذ عادة زوجة ثانية اذا كانت الأولى عاقرا . وهذه الزوجة الثانية كانت فى الغالب من الاماء ، ولم تكن لها حقوق الزوجة الحرة ، ولكن كانت حالتها مرضية الى حد معقول .

وكان الطلاق مباحا ، وكان يتم آليا فى حالات معينة كما اذا غاب الزوج غيبة طويلة أو رفض اعالة زوجه . وكان العقر من الأسباب المبيحة للطلاق فى قانون حمورابى ، ولكن فى هذه الحالة كانت المرأة تحتفظ بالمهر الذى دفعه الزوج ، وتعوض عن « الدوطة » التى جاءت بها من بيت أبيها (المادة ١٣٨) . وكان يحق للمرأة أيضا طلاق زوجها اذا أهملها أو هجرها ؛ وفى هذه الحالة كان يحق لها أن تتزوج ثانية .

وكان الزنا والاغتصاب يعاقب عليهما بأقصى شدة (قانون حمورابى ، المادة ١٢٩) ، وكان نظيرهما فى ذلك الاعتداء على الأقارب الأدنين .

وتدلنا قوانين أشور على أن الحجاب كان عادة للسيدات ذوات المكانة والنساء المتزوجات فى تلك المنطقة منذ الألف الأول بل قبله ، ولكنه كان محرما على الاماء والعاهرات ، اذا لبسنه وقعن تحت طائلة عقوبات شديدة .

ونستنتج من هذا كله أن وضع المرأة فى أرض الرافدين كان يدعو الى الرضا نسبيا ؛ فعلى الأقل أدت زيادة نفوذ القانون فى الظروف الاجتماعية الجديدة الى تقدم كبير بالنسبة الى الحالة التى كانت عليها الحياة فى الصحراء .

وكان حق الوراثة فى بابل قائما على أساس البنوة القانونية . وكان الميراث يقسم دون تمييز بين الأبناء الشرعيين أو الذين صاروا شرعيين ، سواء أكانوا من الزوج الأولى أم من غيرها ، وسواء أكانوا أبناء بالولادة أم بالتبنى . وكانت البنات يستبعدن من الميراث الا اذا لم يكن هناك ورثة ذكور ، ولكن كان لهن حق معين فى الانتفاع بالملك ، وان كان موقوتا بحياتهن ؛ وكان لهن فضلا عن ذلك الحق فى « دوطة » عند زواجهن . وكان الوريث لا يحرم الميراث الا لأسباب خطيرة يوافق عليها القاضى .

ولم تكن تستعمل الوصايا المكتوبة ، ولكن كان الغرض منها يتحقق الى حد ما بعقود التبنى ، فقد كان الأولاد المتبنون يصبحون بها ورثة شرعيين ، وكان يحق للأب المتبنى أن يعلق صحة عقد التبنى على تنفيذ شروط معينة ٠

وقد تطورت فكرة الملكية تطورا ملحوظا فى أرض الرافدين ، اذ حلت محل السلع المنقولة القليلة التى يملكها سكان الصحراء ممتلكات جالية مستقرة تشمل عقارات منقولة كالحبوب والذهب والفضة والقوارب وأمثال ذلك ، وعقارات ثابتة كالبيوت والحدائق والحقول ٠ وكانت العقارات الثابتة تسجل فى الوثائق الادارية ٠ وكان يضفى وضع خاص على العقارات الثابتة التى تقطعها الدولة لطوائف معينة من رعاياها ؛ وكانت هذه القطائع تستتبع الالتزام بالخدمة العسكرية ، كما كانت تستتبع على حسب الاحوال نصيبا مفروضا من غلة الأرض يقدم الى الدولة ٠

وان جزءا كبيرا مما وصل الينا حتى الآن من وثائق الحضارة البابلية يتكون من عقود تشهد على التقدم العظيم فى الحياة التجارية الذى صاحب التوسع الكبير فى الملكية ، كما تشهد على النظام القانونى الدقيق الذى كان ينظم المعاملات القانونية ٠ فلدينا عقود تتعلق بالودائع ، والنقل من مكان الى مكان ، وشراء العقار أو بيعه أو تحويله ، والقروض التى تؤدى عنها فائدة ، والتاجير ، والمشاركة ٠ ويضع قانون حمورابى شروطا معينة للعقود ، كما فى حالة تأجير الأرض (المادتان ٦٠و ٦٤) ، وهى حالة تدعو الى الاهتمام ٠

وتكشف لنا الوثائق فى جملتها عن الحياة الاقتصادية فى أرض الرافدين ٠ فالزراعة كانت العمل الأساسى للسكان ٠ وكانت الأرض بالغة الخصب مادامت تسقيها شبكة محكمة من القنوات ، ومن ثم كان الملك والشعب معا يوجهان أكبر عنايتهما الى ضبط المياه وتوزيعها ، تلك المياه التى يدين لها الوادى برخائه وحياته نفسها ٠ وكانت القفار الرملية التى تبدو مجدبة لانفع فيها تستحيل الى سهل أخضر حالما ترويها المياه ، فلا يمضى وقت وجيز حتى تمتد فيها أشجار النخيل ، التى كانت المصدر الأكبر لثروة البلاد ٠ وكان الشعير أهم حبوب أرض الرافدين ،

ولكن كان يزرع أيضا القمح والشيلم · وكانت الخمر معروفة منذ أيام السومريين · وكان يزرع أيضـا السمسم لما فيه من زيت ، والرمان ، والتوت ·

ولم تعن أشور عناية بابل بزراعة الحبوب · ولكن كان جزء كبير منها أرضا جبلية تغطيها الغابات ، التى كانت مصدرا للخشب يبنى به وتصنع منه الآلات · وكانت الحجـارة شديدة الندرة فى بابـل ، ولكنها كانت أقل ندرة فى أشور ، حيث بنيت بها معابد كثيرة بل بيوت خاصة أيضا · وكان على بابل أن تلجأ الى الآجر ، فكانت صناعته أهم صناعة فيها كما يتبين من العقود الكثيرة التى تتعلق به ·

وعلى الرغم من أن تربية الماشية لم تعد للساميين فى أرض الرافدين كما كانت لاجدادهم فى الصحراء ، احتفظت بأهميتها الخاصة ، وحققت تقدما عظيما ، وخضعت مزاولتها لأحكام القانون · وكانت تربى الماشية التى تدر اللبن لتكفل انتاج اللبن والزبد والجبن ·

ولم تكن القنوات أسـاس الرخاء الزراعى فحسـب ، وانما كانت أيضا الطرق التى تسلكها التجارة · فكانت البراغ barges الكبيرة المحملة بالزيت والحبوب وغيرها من السلع المختلفة تجرى فيهـا دون انقطاع · وكانت القنوات أيضا معبرا لكثير من المسافرين، وكثير من مواكب الآلهة· وكان أهل الرافدين يكثرون من استعمال قوارب الجلد ، فينفخونها عند الاستعمال · وكانت تقوم على ضـفاف القنوات مخازن ومراكز تموين كبيرة ، وكان رخاء المدن نفسها يرجع الى قربها من الماء ·

وكان رجال القوافل يتولون التجـارة مع المناطق التى لايمـكن الوصول اليها بالبحر أو النهر · فكانوا يبدءون رحلاتهم من رأس الخليج العربى ، ويعبرون شبه الجزيرة العربية أويدورون مع ساحلها قاصدين الى اليمن السعيد خاصة · وفى الشمال كانت تقوم الى جانب منابع دجلة والفرات طرق أخرى تمتد الى آسيا الصغرى ، حيث عاشت جالية أشورية كبيرة من التجار · ونفذت السلع المصنوعة فى بابل الى مدن الهند حيث أتى بها التجار بحرا أو خلال فارس ·

هذا الكيان المتشعب النشيط للحياة الاقتصادية فى أرض الرافدين يبعث على الاعجاب ، ولاسيما اذا لاحظنا أنه أقيم فى وقت لم يكن قد قام فيه بعد ، فى جزء كبير من دنيا البحر المتوسط ، أى شـكل من أشكال المجتمع يمكن مقارنته بمجتمع الرافدين ·

* *

وكان القانون السومرى ألين صور القانون جميعا فى أرض الرافدين وكان القانون الأشورى أصرمها • أما قانون حمورابى فكان يشغل مكانا وسطا بين هذين الطرفين •

وقد فرضت عقوبة الموت على كثيرمن الجرائم الكبرى ، ففرضت قبل كل شيء على مرتكب النميمة وشاهد الزور ، ولكن فرضت أيضا على من يسرق أو يسلب أو يتسلم سلعا مسروقة •

وكان قانون العين بالعين والسن بالسن أساس التشريع المتعلق بطبقة الأشراف ؛ ولم يكن يخفف هذا القانون الا فى حالة العامة أو العبيد • وكانت عبارة « العين بالعين والسن بالسن » المحور الذى يدور عليه قانون حمورابى ؛ وقد أوردنا فيما مضى المواد ١٩٦ ـ ١٩٨ ، وهى مثال لتطبيق هذا القانون على الأشراف وتخفيفه بالنسبة الى سائر طبقات المجتمع •

وتبين أحدث الكشوف أن قانون العين بالعين والسن بالسن قد استحدثه فيما يحتمل الشعب السامى الذى أقام الدولة البابلية الأولى ، أو على الأقل لم يكن له مكان فى التقاليد القضائية السابقة • فقوانين بيلالاما لا تتحدث الا عن دفع التعويضات ، وكذلك الحال مع قوانين أور ـ نمو التى كشفت حديثا :

« اذا فقأ أحد بالسلاح عين ٠٠ آخر ، فليدفع منا من الفضة •

واذا جدع أحد بآلة ٠٠ أنف آخر ، فليدفع ثلثى منا من الفضة»(*)•

وكان قانون العقوبات يفرض عقوبات أيضا على أصحاب المهن اذا أحدثوا ضررا عارضا وهم يزاولون عملهم • فالجراحون ، مثلا ، كانوا ، حسب قانون حمورابى ، يعاقبون أو يكافأون تبعا لنتائج عملياتهم ، مع الاختلافات المألوفة فى التقدير حسب الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها المريض (المواد ٢١٥ ـ ٢٢٠) • وقد يبدو لنا هذا أمرا لايستند الى العقل ، ولكن كان ثمة عقاب أقرب الى المنطق هو عقاب المهندسين المعماريين على الضرر الذى ينجم عن فساد البناء (المواد ٢٢٩ ـ ٢٣٢) •

وكانت هناك عقوبات أخف على الأخطاء الهينة ، مثل ترك حرث الأرض أو حرثها على غير ماينبغى من الاتقان •

وكان القانون الأشورى ، كما لاحظنا من قبل ، أشد قسوة من

(*) قوانين أور ـ نمو ، السطور ٣٣٠ ـ ٣٣٤

القانون البابلي • فنجد في أشور ، الى جانب العقوبات السائدة في بابل، قطع الأصابع والأنف والثديين والأذنين . وهذه أمثلة لذلك :

« اذا تسلم عبد أو أمه من امرأة شريف شيئا مسروقا ، فليقطعوا من العبد أو الأمة الأنف والأذنين عوضا عما سرق ، وليقطع الشريف أذني زوجه ...

واذا ارتكبت امرأة شريف سرقة في بيت شريف آخر ، وكانت قيمة الأشياء المسروقة تتجاوز خمسة أمناء من الرصاص ، فليقسم صاحب الأشياء المسروقة قائلا : « لم أسمح لها بأخذها ؛ لقد حدثت سرقة في بيتي » • فاذا وافق الزوج على تخليص امرأته ، فليرد ما سرق ويخلصها، وليقطع أذنيها • واذا لم يوافق ، فليأخذها صاحب الأشياء المسروقة ويجدع أنفها » (*) .

وكانت قضايا المحاكم تنظر أمام قضاة يحتكم اليهم الخصمان اذا لم يستطيعا الوصول الى اتفاق خارج المحكمة • فكان القضاة يفحصون ظروف القضية فحصا مبدئيا ، ثم يسمحون لكل من المتخاصمين بشرح وجهة نظره • وكانت الأدلة التي يستشهد بها وثائق مكتوبة ، أو أقوال شهود ، أو شهادات مصحوبة بقسم يؤدى امام الكهنة ، أو ما يسمى بامتحان النهر « قضاء الاله » ، وهو أن يقذف بالمتهم في الماء فاذا طفا كان على حق ، واذا غاص كان على باطل • وكان القضاة بعد نطق الحكم يفرضونه على الخصم الخاسر بأن يضطروه الى التنازل كتابة عن أي مطلب في المستقبل • فهذا مظهر للطريقة التي تطور بها القانون القضائي من صورته الشخصية الأولى ، فبعد أن كان القاضي حكما ليست له سلطة الالزام ، صار تنفيذ القانون خدمة عامة يؤديها قضاة يعينهم الملك ولأحكامهم قوة ملزمة •

وكان يحق للأشراف والعامة ، وكذلك للنساء المتزوجات ، رفع القضايا في المحاكم ، ولكن لم يكن يحق ذلك لأفراد الأسرة الخاضعين لسلطة الأب •

وكانت السلطة العليا في دول الرافدين تضفي على الملك ، يتلقاها مباشرة من الاله ؛ وكان الملك ، وفقا للمعتقدات السومرية القديمة ، ممثلا للاله ووكيلا عنه ومشيدا مكرسا لمعابده يحب السلام • وقد استحدثت دولة أكد السامية تأليه الملك نفسه ، وهو أمر لم يكن نادرا في الشرق الأدنى القديم (نجده مثلا في مصر) ؛ ولكن اندثرت هذه العادة قبل

(*) Middle Assyrian Laws اللوحة A ، المادتان ٤ و ٥

عصر حمورابى ، ومنذ ذلك العصر أخذت النظرة السومرية تتجلى مرة أخرى فى أوصاف الملوك البابليين • ولكن كانت الحال على خلاف ذلك فى أشور ، حيث ظل الملك ممثلا للاله ، ولكنه كان يتحلى قبل كل شيء بصفات المحاربين •

وكان من المستحيل بسبب الطابع الدينى الذى تتسم به جميع صور الحياة الاجتماعية أن تكون هناك سلطة سياسية متميزة تميزا واضحا • وكان الملك فى الوقت نفسه الرئيس الأعلى للكهنة ، وكان بصفته هذه يشرف على أهم الوظائف الدينية • ولكن نشب فى بعض الأوقات صراع بين الملك والكهنة ، وكان هذا وبالا على الدولة •

وكان يتجمع حول سلطة الملك عدد ضخم من الوظائف والموظفين ، كما هى الحال فى كل امبراطوريات الشرق الأدنى القديم تقريبا • فكان القصر الملكى الكبير وحدائقه الشاسعة مركزا لمدينة داخل المدينة ، وكان يدبر أمر سكانها وزراء وموظفون ومفتشون وعمال وكهنة وطوائف أخرى كثيرة • وكان هذا كله مخالفا تمام المخالفة للبساطة التى كان يتحلى بها الوضع البدوى القديم ، حيث كان الزعيم يعيش بين أبناء قبيلته فردا منهم دون أبهة أو جهاز للحكم •

وفى أشور كان لرئيس الوزراء ، وهو رأس الادارة المدنية ، أهمية ملحوظة ، كما أن الأهمية البالغة للأمور الحربية فيها جعلت لقائد القوات المسلحة و « وزير الحرب » مكانة مرموقة أيضا •

وقد ترك لنا فنانو الرافدين صورا عدة تبين فى جلاء طبيعة المعدات الحربية • فكانت عدة الجند الدفاعية الترس والخوذة ، وسلاحهم الرمح والبلطة ؛ وقد جاء الساميون بالقوس والسهم ، وكانا من الأسباب الأساسية فى انتصارهم على فيالق السومريين • وكانت العربات الحربية سلاحا تكتيكيا هاما ، وكان يجرها فى العصور المتقدمة نوع من الحمير ، ولكن استعيض بالخيل بعد ذلك عندما أخذت تستوردها أرض الرافدين خلال الألف الثانى قبل الميلاد •

وعمليات الحصار التى تصورها الرسوم البارزة فى أرض الرافدين تشبه مثيلاتها فى العصور الوسطى • فكان المهاجمون يستعملون آلات الحصار والخنادق ، ويحاولون دخول القلعة بالحفر تحت الأسوار ، وكان المدافعون يستعملون الأقواس والسهام ويقذفون المهاجمين بالنار والسوائل المغلية • وكان النهب والتخريب يأتيان فى أعقاب الفتح ،

وكان النبلاء او المقتدرون فى الشعب المغلوب ينفون من البلاد منعا لنشوب ثورة بعد انسحاب الجيوش المنتصرة ٠

ولم يكن من الممكن أن تقل السفن فى بلد يشقه طولا نهران كبيران، وله ساحل يطل على البحر ٠ وكانت فى السفينة الحربية عدة صفوف من المجدفين ، وكان لمقدمتها طرف حاد طويل ٠ وكأن الجنود بتروسهم كالحصن فوق ظهر السفينة ٠ وكان الأسطول التجارى يضم سفنا من أنواع مختلفة ، وكانت أرض الرافدين تمتاز خاصة بالأرمات الكبيرة التى كان يستعملها تجار الشمال لنقل الحجارة ٠ وكان التجار بعد أن ينحدروا مع النهرين على هذا النحو ويفرغوا حمولتهم ، يفككون الأرماث ، ويبيعون الحجارة والخشب معا ، فقد كان أهل الجنوب يفتقرون اليها فى البناء ؛ وكان التجار يعودون بعد ذلك الى الشمال مع القوافل ٠ وكان الجند والتجار معا يستعملون قوارب الجلد التى أشرنا اليها من قبل ٠

الفن

كان فى الشرق الأدنى القديم مركزان فنيان أساسيان . فأما فى الحضارتين العظيمتين بوادى النيل ووادى الرافدين ، وكان لهما تأثير مباشر فى الانتاج الفنى للمناطق المحيطة بهما . فالمستوى الرفيع الذى بلغه المصريون وأهل الرافدين فى تطورهم السياسى والحضارى لم يكن بد من أن ينعكس فى فنهما ، ففى العصور القديمة كان فن الشعب يتأثر بازدهار الدولة ووحدتها أكثر مما يتأثر بهما الآن .

وربما كان الفن المصرى أرفع من فن الرافدين فى قيمته الذاتية ، ولكن قوة الظروف جعلت لفن الرافدين أثرا أكبر خارج حدوده ، فقد صار مثلا تحتذيه الشعوب المجاورة ، كما انتشر بعيدا وراء حدود الشرق القديم .

وهنا ، كما فى سائر حضارة الرافدين ، كان امتزاج العناصر البابلية والأشورية بالعناصر السومرية امتزاجا تاما يستحيل معه فى كثير من الاحيان أن نميز العناصر السامية حقا . وهذا هو السبب الرئيسى للفرق العظيم فى هذا الصدد بين الأكديين والشعوب السامية الاخرى التى لا يتميز انتاجها الفنى عادة بالوفرة أو الأصالة . فهنا أيضا يقف أهل الرافدين فى طبقة منفصلة عن سائر الشعوب السامية ، ونجد لهم شخصية متميزة خاصة بهم وان ظلوا جزءا من الكتلة السامية . وهنا كذلك نجد حركة الساميين تعكس اتجاهها ، فقد نقل فن الأكديين فى اعقاب جيوشهم الى بقية أبناء الساميين القدماء .

والأثر العام الذى يوحى به فن الرافدين أنه تذكارى احتفالى. فهو لم يكن يرمى الى التعبير الشخصى التلقائى عن نفس الفنان الفرد ، ولكن كان يقصد الى الاحتفال الرسمى بالأحداث الكبرى ، والى عرض المثل العظمى التى يتعلق بها الشعب كله . ولهذا كانت الموضوعات الغالبة عليه تمجيد آلهة الشعب ، ووصف حروبه ، وذكر انتصاراته . فلم يكن الفنان يسعى الى التعبير عن رؤى عينيه وعرض الأشياء كما يراها هو ، ولكنه كان يصور الأشياء بدقة فى نطاق الاطار المنتظم للأساليب الفنية التقليدية . فلعله من الأقرب الى الصواب أن نقول انه لم يكن فنانا بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، وانما كان صانعا ماهرا .

وفى فن من هذا النمط لا نجد الا مجالا ضيقا للانفعالات والعواطف وحركات الروح الانسانية . فالشخصيات التى يصورها جامدة هادئة ، بل ان ملامحها تقليدية ينقصها الطابع الشخصى . والروح التمثيلية أو الغنائية معدومة . والسعى وراء التناسب وتناسق الأشكال أدى الى تقرير قواعد ثابتة واللجوء الى التكرار ، ففى الأختام مثلا نجد المنظر الذى يصوره أحد الجانبين منقولا بأمانة على الجانب الآخر . وادراك المعانى الكلية conception حل محل الادراك الحسى perception فتصوير المرئيات بأبعادها المختلفة لاموضع له . وكل جزء من المجموعة ، بل كل عضو فى الجسم الانسانى ، يوضع فى موضعه المقرر داخل نطاق الصورة العامة ، مقابل الأجزاء الأخرى ، دون رعاية للمنظر فى جملته كما يبدو للعين .

ففى مثل هذه الأحوال لانكاد نستطيع الحديث عن وجود تطور فنى بالمعنى الصحيح ؛ فعلى الرغم من أن مرور الزمن أتى بتغيرات فى الذوق وفى اختيار مادة الموضوع ، لا نجد الا فى القليل النادر آثارا لتجديد واع ؛ بل ان الفنان يبدو سعيدا بطمس شخصيته وراء الأنماط التقليدية .

وقد أدى الطابع التقليدى لفن الرافدين الى استعمال الرمز استعمالا واسعا ، فصار الجزء المميز يستخدم للدلالة على الكل بأسره . فالجبل مثلا يرمز اليه بحجارة وضع أحدها فوق الآخر ؛ والماء يرمز اليه بخطوط متموجة تقطعها هنا وهناك دوامات صغيرة أو صور أسماك .

والميدان الوحيد الذى لم تغلب فيه التقاليد الفنية على الميل التلقائى لتصوير الواقع هو تصوير الحيوان ، وهنا بلغ فن الرافدين أوجا من الكمال لم يسم عليه فى حالات كثيرة أى فن آخر . فثمة تماثيل وصور

محفورة تتسم بواقعية قوية معبرة ، نجد فيها أن التقاليد أو الأشكال الجامدة لم تعرقل اطلاقا قدرة الفنان على الملاحظة ومهارته فى تصوير أشكال الحيوان وحركاته ٠

والطابع الاحتفالى التذكارى الذى يتسم به الفن البابلى الأشورى يتمشى ومدى التحول الذى أحدثته فى البابليين والأشوريين الحضارة الساكنة static للشرق الأدنى القديم ، وهى تختلف اختلافا كبيرا عن الدينامية dynamism النسبية التى أضفاها على معظم الشعوب السامية تراث البداوة من الاستقلال والاقدام ٠

***

وكانت المبانى الكبيرة فى أرض الرافدين قديما تروع النفس بضخامتها وفخامتها ، لابلطفها ورشاقة خطوطها ٠ وكانت مادة البناء الآجر فى الغالب ، فقد كانت الأحجار معدومة فى بابل ، ولا توجد الا فى مناطق معينة من أشور ٠ هذا الى أن البناء بالآجر كان فيه اقتصاد كبير فى النفقات ، لأن البلاد كانت غنية بالآجر ، وكانت الأيدى العاملة يكفلها غالبا استخدام أسرى الحرب ٠

ومن حسن حظ علماء الآثار أن المبانى كانت من الآجر ، فلو كانت من الحجارة لما بقى الا القليل من مدن القدماء العظيمة أو لما بقى منها شىء لأن الشعوب التى جاءت بعدهم كانت ستتخذ أطلال هذه المدن مصدرا تستمد منه الحجارة للبناء ٠ هذا الى أنه عندما يتهدم مبنى من الآجر يسقط الجزء الأعلى أولا ، فيكون غطاء واقيا للجزء الأسفل ، يحفظه سليما نسبيا زمنا طويلا ٠

وآثار الفن المعمارى فى أرض الرافدين قلاع وقصور ومعابد ٠ وهى مبنية بطريقة بناء المنازل الخاصة ، ولكن على نطاق أوسع ، أى فى صورة سلسلة من الحجرات تجتمع حول فناء واحد أو أكثر ٠ وقصر مدينة مارى مثال طيب لهذا النمط ٠

وكانت الجدران تبنى بطبقات من الآجر يربطها ملاط من الطين ، فتصير كتلة صلبة متسقة لاينفذ منها الماء ٠ ولم تكن فى الجدران نوافذ ، والا لأضعفت بنيانها ، فكان سطح الجدران وحدة متصلة ، ولكن كانت تعترضه انخفاضات للزينة اذا انعكست عليها الشمس أخرجت صورة جميلة من الأضواء والظلال ٠ وكانت أبراج صغيرة تدمج فى البناء على مسافات منتظمة ، فتضفى عليه اتساقا ٠

وكان الشيء الوحيد الذى يشذ حقا عن رتابة الجدران الخارجية هو المدخل الذى يتوسط البناء ، وهو فخم أنيـــق يعلوه عقد ، ويرى على جانبيه فى الغالب تماثيل حارسة لأسود أو ثيران عظيمة لها رأس انسان ٠

وكانت المبانى فى الغالب من طابق واحد ، ولكن كانت لها سقوف مسطحة بها شرفات ، وكان السكان يستطيعون الجلوس أو الســير فى الهواء الطلق فوق هذه السقوف ٠ وكانت هناك أيضا سقوف مقببة أو مخروطية فى أعلاها فتحة يدخل منها الضوء والهواء ٠

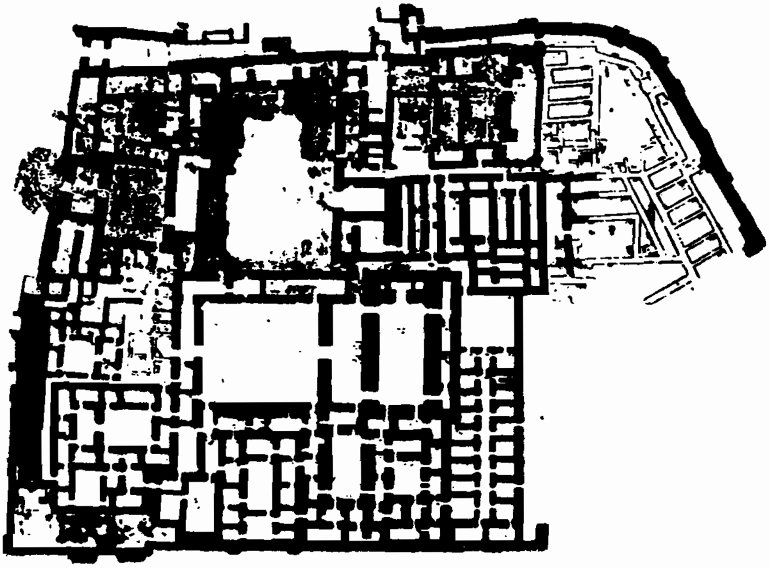

الشكل الأول ـ تصميم القصر فى مارى

ولم تكن الأعمدة مجهولة فى أرض الرافدين ، ولكن كان من اللازم أن يكون العمود من الحجارة اذا أريد أن يكون عنصرا فى البناء ٠ ولكن ندرة الحجارة أدت الى أن يكون استعمال العمود لأغراض الزينة خاصة ، فسلبه هذا الاستعمال ميزته الأساسية ٠ وان عدم استخدام الأعمدة فى رفع البناء هو الذى جعل لمبانى أرض الرافدين مظهرها الضخم الثقيل ، ولا سيما فى بابل ٠ ولكن وجود الحجارة فى أشور أتاح بناء أفنية خارجية للقصور على هيئة « البواكى » (bit khilani)

وكثيرا ما كان السطح الداخلي للحائط يغطي بالمرمر ، ويزين بنقوش بارزة جميلة . والمساحات التى لم تكن تغطى على هذا النحو كانت كثيرا ماتزين باستعمال الآجر المختلف الألوان منظوما فى شكل معين . وكانت هناك جدران مغطاة بالصور الملونة .

وأكبر أمثلة لهذه الخصائص جميعا هى القصـــور الملكية الكبيرة للملوك الاشوريين فى مدن أشور ونمرود وخورسا باد ونينوى . وقصر سرجون الثانى فى خورسا باد هو أكثرها شهرة وأقلها اندثارا . والمبانى التى أنشأها نبوخذ نصر فى بابل وصلت بهذه المدينة الى ذروة البهاء .

وكانت المعابد فى أرض الرافدين منذ العصور القديمة على نوعين : « المعبد المنخفض » وهو مبنى على الأرض مباشرة ، و « المعبد العالى » ، وهو مبنى على مصطبه تكون أساسا له . ومن أبرز ما اســـتحدث فى « المعبد لعالى » برج المعبد (ألزقورة ziqqurat) ، وهو على شكل هرم مدرج تتراوح « طوابقه » بين ثلاثة وسبعة . وأشهر زقورة هى تلك التى فى مدينة بابل ، واســـمها اتمنانـكى E-temen-an-ki (٥٤) أنظر اللوحة الأولى . وقد اكتشفت أخيرا فى مارى زقورة أخرى ترجع الى حوالى ٣٠٠٠ ق.م ؛ وهى مبنية من الآجر المطبوخ فى الشمس ، ولهذا سماها علماء الحفائر (الفرنسيون : المترجم) le massif rouge (الكتلة الحمراء) .

* *

ولم تكن التماثيل واســعة الشـيوع بين البابليين والأشــوريين . ويبدو أن فنانيهم ، رغم ولعهم بتصـوير الجسم الانسـانى فى الرسوم البارزة ، لم يكونوا يجرؤون عادة على محاولة تصويره بحجمه الطبيعى . وعندما كانوا يفعلون هذا كانت موضوعاتهم لاتكاد تخرج عن أجسام ملوك أو آلهة ، تبدو فى أوضاع ثابتة ، عاطلة عن التعبير ، جامدة فى وقارها ، ينقصها الطابع الشــخصى . بل ان ملامح الجسم تتخذ طابعا تقليديا، ولهذا لا يمكن فى كثير من الأحوال التثبت من شخصية صاحب التمثال الا برمز ما أو بالنقش المحفور على التمثال . ويبدو الجســم ساكنا ، وتتدلى الذراعان على جانبيه أو تتقاطعان فوق الصدر فى وضع خشوع . وأحسن الأمثلة على هذا النوع من التماثيل فى العصور القديمة تمثال « ابخ ــ ال » ملاحظ العمال ، وقد كشف فى مارى ؛ ومن أمثلة العصور المتأخرة تمثال الملك الأشورى أشور نصربال فى مدينة نمرود .

وعلى العكس من الأشكال الانسانية ، نجد أن الأسود والثيران والحيوانات العجيبة الضخمة التى تحرس أبواب المعابد والقصور تنم عن درجة عالية من الواقعية • فالاجسام نحيلة ، مملوءة قوة ، تبين المستوى الرفيع الذى كان يمكن أن يبلغه فن الرافدين في جملته لو لم تشله التقاليد الشكلية • انظر اللوحة الثانية •

والصور البارزة تكون الجزء الأكبر من أعمال النحت فى أرض الرافدين • وقد بلغت درجة عالية من الجودة الفنية بما فيها من جمال ودقة وأشكال رشيقة ، وما فيها من تعبير فنى عن خلجات النفس يقارب مانراه فى عصورنا الحديثة • وقلما عرف العالم صورا بارزة تضارع تلك التى أبدعها فنانو الرافدين منذ آلاف السنين •

وأجمل رسم بارز قديم وصل الينا من الفن الاكدى هو نصب نرام ــ سين Naram-Sin وهو يرجع الى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد • وهو تذكار لانتصار حربى أحرزه ذلك الملك • والمنظر المرسوم جبل يصعده نرام ــ سين ، خفيف الحركة ولكنه مع ذلك جليل مهيب ، يحمل قوسا وسهاما ، ويلبس خوذة يعلوها قرنان هما رمز ملكه • ويرى عدوان أمامه ولكن على مستوى أدنى رمزا لحطتهما ، أحدهما منحن على الأرض وقد اخترق رمح عنقه ، والآخر قد عقد يديه فى ضراعة وتوسل • ويرى جند الملك يصعدون الجبل وراءه ، حاملين رماحا طويلة تعلوها أعلام ، وأجسامهم مرنة توحى بأنها تتحرك • وترى اشجار على الجبل هنا وهناك • وليس فى جسم الملك أو الأجسام الأخرى أى أثر من الجمود المألوف فى فن الرافدين ، بل ان الشكل كله يشد العيون الى أعلى دون فكاك ، والمنظر بأسره تسوده واقعية حية هى خروج موفق علىالصور التقليدية للجسم الانسانى فى فن الرافدين • أنظر اللوحة الثالثة •

وقانون حمورابى المشهور محفور على نصب يعلوه رسم بارز يصور الملك واقفا فى خشوع أمام الاله • والملك ذو لحية ، وعلى رأسه عمامة ؛ والاله ذو لحية بالغة الطول ، ويلبس تاجا فيه خمسة أزواج من القرون ؛ ويخرج من كتفيه لسانان من النار ، كل منهما ذو ثلاث شعب • وهو يحمل الصولجان فى احدى يديه • وهذا المنظر مثل احتذى فى كثير من الرسوم البارزة الأخرى فى أرض الرافدين •

وقد بلغ الفنانون الأشوريون غاية الكمال فى الصور البارزة وبعض حجرات القصور الملكية فى بلاد أشور ترى على جدرانها سلاسل من الصور البارزة من المرمر أو غيره من الحجارة ، تصور حياة الملوك

وأعمالهم المجيدة . والأجسام الانسانية هنا لا تزال مقيدة بالأساليب التقليدية ، ولكن مناظر الحيوانات لايسمو عليها شيء لما فيها من واقعية حية تجمع بين الانسجام في التركيب والرشاقة ودقة التفاصيل . وأرفع ما لدنيا من صور بارزة أشورية هي مناظر الصيد في قصر أشوربانيبال وهي تصور السمك والسرطان البحري ، وكلاب الصيد وهي تعدو ، وقنص الأسود وغيرها من الحيوانات المتوحشة . وألم الأسد وهو يموت ورعب الحيوانات بينما يطاردها الصياد ، يصوران بحيوية في التعبير ليس لها ضريع . أنظر اللوحة الرابعة . وهناك منظر آخر ، مسرحه أراضي القصب ، ترى فيه الطيور محلقة هنا وهناك في الهواء ، والخنازير البريه على الارض ، وهو منظر يترك في الذاكرة أثرا لاتبليه الأيام . وأعظم ميزة لصور أشوربانيبال البارزة ما فيها من جدة وفردية بالغتين تضفيان على كل حيوان صورة وحياة خاصتين به وحيوية تنعكس وتتجسم في الصورة العامة . وصاحب هذه الرسوم كان قطعا فنانا كبيرا بأقصى ما في كلمة الفنان من ناحية انسانية ودلالة معنوية ، فنانا ترفعه شخصيته فوق حدود بيئته الضيقة .

والموضوعات الدنيوية (غير الدينية) ، كموضوعات الرسوم البارزة التي تحدثنا عنها ، متوافرة في الفن الأشوري ، بل غالبة عليه ، وهي تكسبه طابعا خشنا عسكريا يتمشى تماما وعقلية الشعب الأشوري .

***

ولدينا الآن قطع قليلة نحكم منها على التصوير بالألوان في أرض الرافدين ، وقد باد الباقي بالطبع . والمفروض أن موضوعاته ووظيفته كانت ولابد متفقة بوجه عام مع ما للرسوم البارزة من موضوعات ووظيفة . وقد رسمت بألوان زاهية رسوم زخرفية وأجسام رجال وحيوانات . ونحن نعرف أن الأصباغ البيضاء والحمراء والسوداء والزرقاء والخضراء والصفراء كانت مستعملة . وأجمل ما كشف حتى الآن من صور ملونة على الجدران هي تلك التي كشفت في ماري ، وهي تمثل موكبا دينيا ، وقد بقيت لنا عدة أجزاء منه . ويبدو أن المنظر الأساسي يصور تنصيب الالهة عشتر للملك على العرش ، في اطار خلاب من حيوانات ذوات أجنحة والهات تحمل أوعية يتدفق منها الماء رمزا للخصوبة .

ولننتقل الآن الى الفنون التطبيقية . ففن صناعة الخزف كان يمارس منذ العصور السابقة للتاريخ ، ويمكن اتخاذ أطواره مقياسا

زمنيا • وقد وجدت أوان من الخزف المصقول ، وكذلك زخارف خزفية في صورة أشكال هندسية أو أجسام حيوانات • وأشهر نماذج لفن صناعة المعادن فى أرض الرافدين هي الرسوم البارزة الكبيرة المصنوعة من البرونز على أبواب مدينه بلوات (٥٥) ، وهي تصور الأعمال المجيدة التى قام بها الملك الاشورى شلمنصر الثالث ؛ وهناك أيضا تماثيل صغيرة من البرونز • وللحفر فى العاج آثار كثيرة تصور أجسام بشر وحيوانات ، كما فى مدينة نمرود حيث كشفت حفائر الأستاذ مالوان بعض النماذج الرائعة ، ومنها صورة جميلة لوجه امرأة تعلوه ابتسامة لطيفة ، ولهذا أطلق عليها اسم « مونا ليزا» **Mona Lisa** (٥٦) ؛ ومنها أيضا صورة زنجي يصارع أسدا فى حقل من زهور اللوتس • أنظر اللوحتين الخامسة والسادسة • وهناك أخيرا حلي رائعة الصنع ، لا تقل جودة بحال من الأحوال عن صناعة أيامنا هذه •

وصناعة الأختام فى أرض الرافدين تستحق تنويها خاصا • فالشرقيون عامة استعملوا الأختام كثيرا ، وكانت بمثابه علامات شخصية مميزة • وفى أرض الرافدين خاصة ، حيث لم يترك نظام الكتابة مجالا كبيرا للخطوط الشخصية المتميزة ، جرت العادة بالتوقيع على الوثائق بالاختام • وكانت الأسطوانة هي الصورة السائدة للخاتم ، وكان يحفر ثقب فى الأسطوانة على طول محورها ، يمكن ادخال حبل فيه ، فتحمل الاسطوانة معلقة فى الرقبة • وكانت المناظر المرسومة على الاسطوانة ذات طابع دينى فى الغالب ، وكانت النقوش تسجل اسم صاحب الاسطوانة واهداء للاله • وقد شاعت خاصة موضوعات أخذت فيما يبدو عن ملحمة جلجاميش ، ولا سيما صراعه مع الوحش ؛ ومن الموضوعات المألوفة الأخرى مناظر المآدب وعبادة الشجرة المقدسة • أنظر اللوحة السابعة •

وكان فن صناعة الأختام فى جملته فرعا من فن حفر الصور البارزة فكانت الأفكار السائدة فى الفن الأول وخواصه الفنية صورة مصغرة من نظائرها فى الفن الثانى •

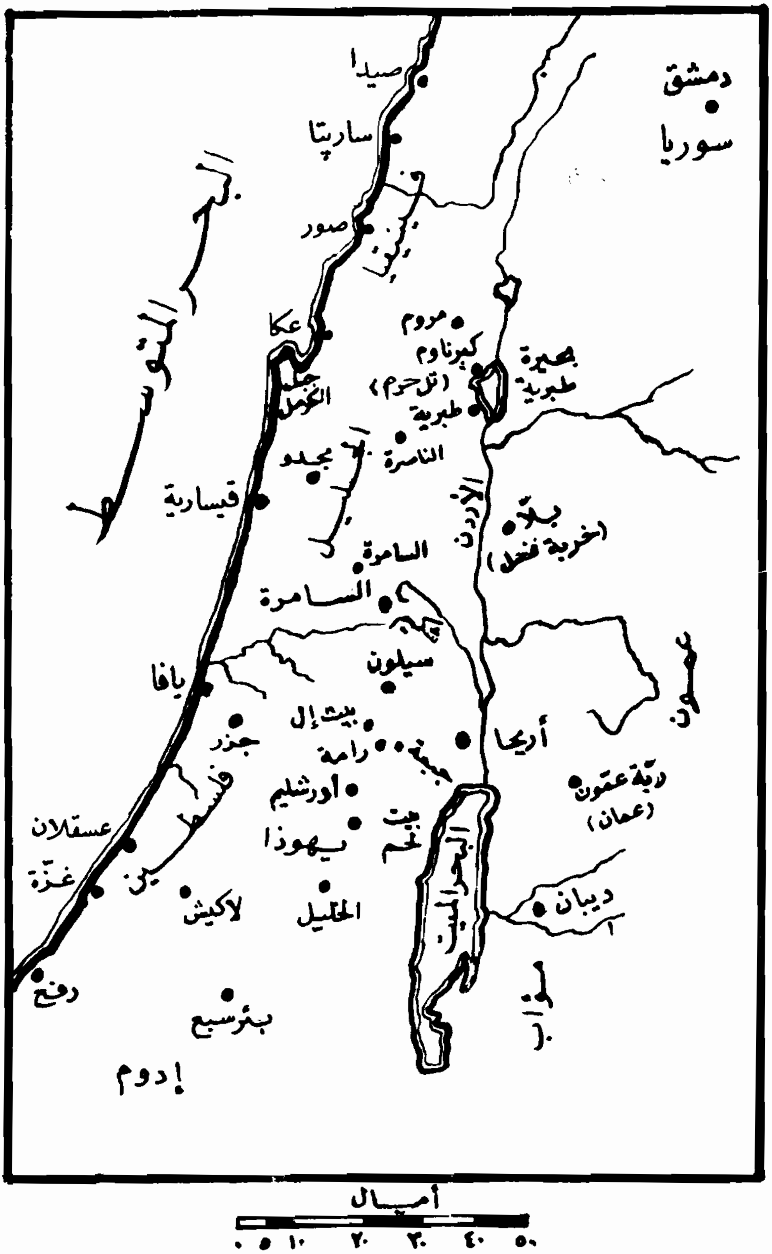
دمشق
سوريا
صيدا
ساربتا
صور
فينيقيا
عكا
جبل الكرمل
البحر المتوسط
مروم
كبرناوم
(تل حوم)
بحيرة طبرية
طبرية
الناصرة
مجدو
الجليل
قيسارية
السامرة
السامرة
بلا
(خربة فحل)
الأردن
سيلون
يافا
بيت إل
جزر
رامة
جبعة
أريحا
أورشليم
ربة عمون
(عمان)
بيت لحم
يهوذا
فلسطين
عسقلان
غزة
لاكيش
الخليل
البحر الميت
ديبان
رفح
بئرسبع
إدوم
أميال
٠ ٥ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠

(٣) فلسطين

الفصل الخامس

الكنعانيون

تسمي التوراة المنطقة المكونة من فلسطين وفينيقيا كنعان ، وتسمي سكانها الكنعانيين . ومن ثم تعارف العلماء على اطلاق اسم الكنعانيين على أسلاف اسرائيل وجيرانهم الساميين الذين استوطنوا الظهير hinterland السورى ، مع استثناء الأراميين .

ولكن يجب أن نسلم بأن هذه التسمية لا تبعث على الرضا من نواح عدة . فانه يبدو من تمحيص المصادر أن لفظي كنعان والكنعانيين كانا يعنيان قبل كل شيء فينيقيا والفينيقيين ، ولم يستعملا الا في عصر متأخر للدلالة على مدلولين أوسع نطاقا ، أحدهما جغرافي والآخر جنسي . هذا الى أن حدود تلك التسمية ليست محددة تحديدا يدعو الى الرضا ، فهذه الحدود واضحة بعد مجيء القبائل الأرامية ، ولكن هذا الحدث متأخر نسبيا ، وكان لفظا كنعان والكنعانيين يطلقان قبل ذلك على المنطقة السورية ـ الفلسطينية بأسرها وعلى سكانها . ثم ان الكنعانية من حيث هي مجموعة لغوية ليست وحدة حقيقية : فلفظ كنعاني يطلق ، كما لاحظ الأستاذ فريدرش Friedrich (J.) عن حق ، على أى عنصر لغوى سوري ـ فلسطيني لا ينتمي الى الأرامية ؛ وهذه السلبية في الدلالة تتفق وما قلناه عن المعنى الجنسي للكلمة .

فمن المستحسن ولاريب أن يعالج في المستقبل تاريخ سوريا وفلسطين ، أو « سوريا » بمعناها الواسع (وهو اصطلاح موفق أخذ به الجغرافيون) ، على أنه موضوع واحد دون أية حدود صناعية • ولا يعنى هذا أن ذلك التاريخ وحدة بسيطة ، فان هذا بعيد عن الواقع ، ولكنه يعنى أنه اما أن يعالج المرء تاريخ العناصر الفردية ، وهنا لا حاجة به الى اصطلاحات كلفظ الكنعانيين ، لأنه يتناول في هذه الحالة الفينيقيين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين الخ ، واما أن يعالج تاريخ المنطقة كلا واحدا ، وفي هذه الحالة لابد له من تناول « السوريين » بمدلولهم الواسع من حيث هم وحدة لا سبيل الى انكارها بين الشعوب الكبيرة التي تحف بهم من كلا الجانبين ، وهنا لا معنى للتمييز بين عنصر واحد • أي الأراميين ، وبقية العناصر مجتمعة ، أي الكنعانيين •

ولا حاجة بنا الآن الى نبذ استعمال ذلك الاسم ، ولكن يجب أن نكون على بينة من أنه ليس الا عنوانا تقليديا ندرج تحته ما نزعمه من وصف تاريخ الشعوب السامية في سوريا وفلسطين ، على أن نعالج معالجة أوفى في فصلين قادمين أهم عنصرين كنعانيين ، أي العبريين والأراميين •

المصادر

ان المصـادر المبـاشرة لما نعرفه عن الكنعانيين هى قبل كل شيء النقوش التى كشفت فى منطقة سوريا وفلسطين . ومن المحتمل أن أقدم هذه النقوش هى النقوش السينائية ، التى يمكن نسبتها الى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد . ولكن هـذه النقوش غامضة (١) ، وأقدم النصوص التى ترجمت منها ترجمة يمكن التعويل عليها تنتمى الى بداية النصف الثانى من الألف الثانى نفسه ، وهى الفترة التى ترجع اليها النصوص الوفيرة التى كشفت فى أوجاريت **Ugarit** ، وهى نصوص تحدونا أهميتها الى أن نعالجها وحدها فى القسم التالى . أما النقوش التى تنتمى الى عصور متأخرة فهى تزداد كثرة كلما قرب عهدها ، فقد وصلت الينا نقوش من المؤابيين والأدوميين والعمونيين ، ثم من الفينيقيين خاصة ، وهم الذين أدى توسعهم الاقتصادى والتجارى الى انتشار لغتهم فيما وراء حدود وطنهم الأصلى ، وهو ما نراه مثلا فى النقش الذى كشف عام ١٩٤٧ فى قره تبى (٢) **Karatepe** بآسيا الصغرى ، وما نراه على وجه أوضح فى النقوش التى كشفت فى المستعمرات الفينيقية بالبحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما قرطاجة .

ولدينا الى جانب الوثائق المكتوبة مخلفات أثرية لها أهمية كبيرة ، وان كانت لا تقارن بنظائرها فى أرض الرافدين . وهنـا أيضـا أدت الكشوف الحديثة الى زيادة معلوماتنا وتعديلها . فقد كان يظن مثلا فيما مضى أن العبـادة الكنعانية كانت تؤدى دائمـا فى العراء عنـد أعمدة القرابين ؛ ولكننا نعلم الآن أن هذا الرأى بنى على معلومات ناقصة ، لأنه لم يتفق فيما مضى كشف معبد بالمعنى الصحيح . ولكن كشفت الآن فى

كثير من المدن الكنعانية الأساسية ، مثل ألالاخ Alalakh (٣) وأوجاريت مبان استعملت قطعا للعبادة ٠

وهذا يؤدى بنا مرة أخرى الى أوجاريت ، وهى أهم كشف أثرى فى سوريا وفلسطين فى العصور الحديثة ، وهى تستحق الحديث هنا فى شيء من التفصيل ٠

***

تتخلل الجزء الشمالى من الساحل السورى سلسلة من التعرجات نشأت عنها موانيء صغيرة كثيرة ٠ فعلى مقربة من أحد هذه الموانيء ،وهو « مينة البيضاء » (الميناء الابيض) (٤) ، شمال اللاذقية بنحو عشرة أميال ، كان أحد الفلاحين يحرث حقله فى أبريل من عام ١٩٢٨ ، فاصطدم حد المحراث بشيء صلب فى بطن الأرض ، فنظر الرجل يتبين الامر ، فرأىشيئابدا له جزءا من قبر خرب ٠ وأرسل خبر الكشف الى ادارةالآثار Service des Antiquitesفى بيروت ، فجاء أحد رجالها وتأكد من الكشف بل علم أيضا بسؤال سكان المنطقة أن مخلفات أثريه مختلفه كشفت قبل ذلك فى المنطقة نفسها ٠ فبدأت الحفائر فى بداية عام ١٩٢٩ ، واكتشف الباحثون أن تلا يبعد نحو نصف ميل عن الشاطيء ، ويقوم بين فرعى نهر (يسمى نهر الفد : المترجم) يلتقيان بعد ذلك ويصبان فى البحر ، يغطى بقايا مدينة قديمة ٠ والاسم العربى الحديث لهذا التل هو رأس الشمرة (٥)، ولكن لم يلبث علماء الآثار أن وجدوا أن الخرائب التى يغطيها هى خرائب أوجاريت ، وهى مدينة قديمة تذكرها وثائق مصر وأرض الرافدين والحيثيين ٠ وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخاريه وتماثيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية ، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية ٠ وكان التوفيق عظيما الى حد دعا الى تنظيم بعثة للحفر عاما بعد عام تحت ادارة الأثرى الفرنسى شيفر (C.F.A.) Schaeffer وقد توقف العمل عام ١٩٣٩ لاندلاع الحرب ، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠ ، ولا يزال جاريا ٠ والواقع أن الحفائر لم تتناول حتى الآن الا جزءا صغيرا نسبيا من المدينة القديمة ٠

وكانت النصوص التى كشفت فى رأس الشمرة مكتوبة بلغات عدة : الأكدية والمصرية والحيثية والحورية ثم لغة أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت ٠ ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة ٠ وربما ظن العلماء أن هذه المهمة ستكون شاقة كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال ، ولا سيما أن الكتابة المستعملة كانت مجهولة ؛ ولكن الواقع أن هذه المشكلة حلت فى وقت قصير جدا (٦) ٠ فقد لوحظ توا أنه على

الرغم من أن طابع الألواح والحروف المستعملة هو طابع نظائرها فى أرض الرافدين ، كان عدد الحروف المختلفه التي امكن تمييزها في النصوص قليلا الى حد لا يكفي لتكوين قائمة علامات تصويريه ولكن يكفي لتكوين أبجديه . وكانت النصوص تشتمل على علامات للفصل بين الكلمات ، وكان يبدو على الكلمات أنها تتكون في الغالب من ثلاثة حروف أو أربعة ، فأوحى هذا بأن اللغة قد تكون سامية . ثم افترض أن حروفا معينة ترمز الى حروف الجر السامية المشتركة ، وأن كلمات معينه هى أسماء آلهة ، فساعدت مثل هذه الافتراضات على نسبة قيم فرضية الى حروف معينة . ولم يلبث استنباط القيم الناقصة ومحاولة اقامة نص سامي كامل أن أديا الى النتيجة المبتغاة .

وقد كشفت في رأس الشمرة عدة مئات من الألواح والكسر fragments أحدثت ثورة فى معلوماتنا عن الأدب الكنعانى ، فان الوثائق الكنعانية التي كانت لدينا حتى ذلك الوقت كانت قليلة قلة بالغة . والمجموعة الأساسية في نصوص أوجاريت هى مجموعة الملاحم وشعر الأساطير ؛ وأبرز ما فيها قصة بعل وأخته عنت ، وقصة أقهت ، وقصة كرت . وقد شاء سوء الطالع أن تصل الينا النصوص فى حالة بعيدة عن الكمال ، ولهذا كانت في ترجمتها فجوات عدة . هذا الى أن ترتيب الألواح ليس أكيدا فى كثير من الأحيان ، وكذلك ترتيب الأحداث episodes فى دورات cycles الملاحم .

وثمة وثائق أوجاريتية أخرى من نمط ادارى أو دبلوماسى أو دينى . ولنلاحظ ، بين النصوص المكتوبة بلغات أخرى غير الأوجاريتية ، النصوص القضائية والسياسية المكتوبة بالأكدية ؛ ففى عام ١٩٥٣ كشفت وثائق ملوك أوجاريت ، وهي تشتمل على رسائلهم الى ملوك الحيثيين وغيرهم من الدول .

ولا بد أن هذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى ١٣٥٠ ق.م (٧) وهى ترجع الى ما بين ١٥٠٠ و ١٤٠٠ ق.م على وجه التقريب ولكن فى كثير من الأحوال بالطبع قد تكون الوثائق التى لدينا نسخا أو نشرات جديدة من وثائق أقدم .

وتوحى الينا هذه النصوص بأن محتوياتها لا تضم تراثا أوجاريتيا خالصا ، بل تمثل جانبا من التراث المشترك للحضارة الكنعانية . ولكن ثمة مزيجا ضخما معقدا من عناصر تنتمى الى أصل أجنبى فى بابل أو مصر أو بلاد الحيثيين أو بحر ايجه ، وهو ما يعكس الطبيعة المركبة التوفيقية للحضارة التي تنتمى اليها هذه النصوص . فاذا أضفنا الى هذا

كله نقط الاتصال الكثيرة الهامة التي تربط النصوص الأوجاريتية بالعهد القديم ، تيسر لنا فهم الاهتمام البالغ الذي أثارته الكشوف ومدى اثارتها لانتباه العلماء .

..

وهناك معلومات اضافية عن الكنعانيين يمكن استقاؤها من سلسلة من المصادر غير المباشرة .

وأهم هذه المصادر هو العهد القديم ، وكان فى الواقع المصدر الوحيد تقريبا قبل بضع عشرات من السنين . فقد ترك لنا الاسرائيليون روايات عدة عن الاحداث التي ألمت بالشعوب التي عاشوا بينها وكانوا معها على اتصال مستمر ، وعن عقائد تلك الشعوب خاصه . ولم يمنع الموقف العدائى الذى كان يقفه المؤرخون اليهود من أن تكون كتاباتهم وافية معتمدة معا فى نقط عدة .

وهناك أيضا معلومات يمكن جمعها من الآداب والوثائق التى خلفتها الامبراطوريات العظيمة التي قامت في أرض الرافدين ومصر ، اللتين كانتا على صلة مستمرة بمنطقة آسيا وفلسطين التى تقع بينهما ، والتى اكتسحتها جيوشهما مرات عدة . وأهم مصادر أرض الرافدين فى هذا الصدد وثائق مارى الخاصة بالنصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد ، وهي تمدنا بمعلومات كثيرة عن الدول والحكام فى أرض الرافدين والجزء الشمالى من سوريا . أما النصف الثاني من الألف الثاني نفسه فلدينا عنه رسائل تل العمارنة فى مصر ، وهى تضم الرسائل التى تبادلها الفرعونان أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع مع أمراء سوريا وفلسطين .

وثمة مصادر مصرية هامة أخرى هى روايات الفراعنة عن حملاتهم العسكرية فى آسيا . بل ان هناك نصوصا غير النصوص التاريخيةالمحضة تمدنا بمعلومات عن فلسطين وسوريا . فالنصوص المسماة « نصوص اللعن » تحوى أسماء ملوكآسيويين ودول آسيوية ؛ وترجعهذه النصوص الى أول الألف الثانى قبل الميلاد ، وقد كتبت على تماثيل صغيرة كسرت لأغراض سحرية . وقصص الرحلات والمغامرات ، كقصة سنوحى المعروفة تحوى صورا طريفة عن الحياة فى فلسطين وسوريا كما كانت تبدو فى نظر المصريين الذين كانوا أوفر حظا من الحضارة .

ولدينا عن فينيقيا مصدر كان مباشرا فى الأصل ، ولكنه انتقل الينا من طريق مصدر آخر فأصبح غير مباشر ، ونعنى به حوليات صور التي روى فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus شذرات منها .

وهناك مصدر غير مباشر آخر هو تاريخ فينيقيا الذى كتبه فيلون الجبيلى Philo of Byblos وهو كاتب عاش حوالى ١٠٠ ق٠م وكتب باليونانية وصفا لعقائد قومه الدينية ٠ ولم يرد الينا من كتابه سوى فقرات نقلها عنه يوسيبيوس Eusebius أسقف قيسارية ، والفيلسوف فرفريوس Porphyry ولا يزعم فيلون نفسه أنه مصدر مباشر فى هذا الصدد ، لأنه نقل مادته كما يقول عن كاهن فينيقى قديم يدعى سنخونياثون Sanchuniathon وكان العلماء يشكون فى صحة هذا القول ، ولكن النصوص التى كشفت فى أوجاريت أيدت الى حد كبير صدق فيلون ، فقد تبين أن ماكتبه يتفق فى نقط عدة وما فيها من روايات مباشرة عن الدين الفينيقى ، ومن ثم صار الوجود التاريخى لسنخونياثون أقرب الى الاحتمال ٠

* *

قلنا فيما مضى ان الأبجدية ظهرت لأول مرة فى المصادر الكنعانية ؛ ولا ريب فى أن هذا الاختراع أعظم ما أسهمت به شعوب سوريا وفلسطين قديما فى مضمار الحضارة ٠

واختراع الأبجدية هو المرحلة الأخيرة فى سلسلة طويلة من التطور تبدأ بشىء لا يستحق اسم الكتابة ، وهو استعمال المرئيات لتمثيل أشخاص أو أشياء أو أحداث أو أفكار معينة أو التذكير بها ٠ وأول نمط من الكتابة يستحق هذا الاسم هو « الكتابة التصويرية » ؛ وقد رأينا من قبل كيف أن شعوب أرض الرافدين أقامت مثل هذا النظام ، ثم خطت خطوة أبعد هى استحداث نظام صوتى تقوم فيه علامات مختلفة مقام مقاطع مختلفة . وقد تطورت الكتابة الهيروغليفية المصرية تطورا مماثلا، بل أنها مضت أبعد من ذلك بقصر القيمة الصوتية لعلامات معينة على لحرف الأول فقط acrophony فأنشأت نوعا من الكتابة الأبجدية ، ولكنه ظل مجرد عنصر مساعد ثانوى فى نظام من الكتابة تغلب عليه الصبغة التصويرية والمقطعية ، ويحتفظ بالتعقيد والغموض اللذين يتسم بهما مثل هذا النظام .

وقد أتت أقدم وثائقنا الأبجدية من منطقة سوريا وفلسطين ٠ فنقوش سيناء التى سبق ذكرها ، والتى لفت فلندرز بترى (W.M.) Flinders Petrie الأنظار اليها فى أول هذا القرن ، هى أبجدية فيما يبدو ٠ وهى تشمل علامات تنطوى على شبه معين بالكتابة الهيروغليفية المصرية ، ولكن لا يمكن تفسيرها على أنها هيروغليفية ٠ ولهذا

بذلت محاولات لتفسيرها على أنها علامات أبجدية نشأت عن قصر القيمة الصوتية لعلامات معينة على الحرف الأول فى لغة سامية ما ، اذ المعروف أن المناجم التى وجدت فيها النقوش كان يعمل فيها عمال ساميون • وأحدث هذه المحاولات هى التى قام بهـــا الأستاذ أولبرايت عام ١٩٤٨ ، وهو يعتبر هذه النقوش صورة من الكتابة الأبجدية الكنعانية • وكان الرأى فيما مضى أن هــذه النقوش ترجع الى بداية الألف الثـانى قبل الميـلاد ، ولكن ينسبها أولبرايت الى حوالى ١٥٠٠ ق٠م مســـتندا الى أدلة أثرية وتاريخية •

وقد كشفت أيضا نقوش أبجدية فى جنوب فلسـطين ووسـطها • وأقدم هــذه النقوش هى التى عثر عليهـــا فى جزر (٨) ولا كيش (٩) وشكيم (١٠) ، وهى ترجع الى القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد ، ولكن لا يزال تفسيرها موضع بحث • وأقدم الوثائق الأبجدية التى كشفت فى فينيقيا هى وثائق اوجاريت ، ولكن هذه لمـــا رأينا مسمارية الطابع ؛ وأقدم نقش فينيقى ابجـدى فلســـطينى الطابع هو النقش المكتوب على تابوت أحيرام ، وهو يرجع الى نهاية الالف الثانى قبل الميلاد • وصورة الأبجدية التى كتب بها هذا النقش تشبهأبجدية النقوش الفلسطينية شبها مباشرا ، وفيها أيضا شبه أبعد بالابجدية السينائيه •

وبهذا تكتمل صورة ما لدينا من مادة لحل تلك المســـألة الهامة : مسألة أصل الأبجدية • وثمة رواية يونانية قديمة شاع الايمان بها فى العالم اليونانى الرومانى ، تنســب هذا الاختراع الى الفينيقيين • ومن المقطوع به أن الصورة الفينيقية للأبجدية هى التى سادت فى العالم السامى، وانتشرت فيما وراءه باعثة الأبجديتين اليونانية واللاتينية • ومن المقطوع به أيضا أن الأبجدية ولدت فى منطقة سوريا وفلسطين ؛ ولكن ليس من المقطوع به الى هذا الحد أن الاختراع الأصلى يرجع الى الفينيقيين خاصة ، وان كانت هناك حجج عدة تؤيد هده النسبة • وقد يكون اســـتعمال المصريين لطريقة قصر القيمة الصوتية لعلامات معينة على الحرف الأول هو الذى أوحى بذلك الاختراع (١١) ، فقد كانت الموانىء الفينيقية أوثق أرجاء سوريا وفلسطين اتصالا بمصر • هذا الى أن أرجح تفسير للنماذج الأصلية التى أقيمت على أساسها الحروف ، على فرض أن الحروف نشأت عن نماذج ، هو التفسير الذى يشتق تلك النماذج من رموز هيروغليفية مصرية • أما أن يكون الأصل مسماريا ، فهو احتمال أضعف ، وان كان من الممكن أن النماذج استقيت من أكثر من مصدر ، فلدينا فى أوجاريت كتابة أبجدية من نمط مسمارى •

التاريخ

حينما كنا نصف الخصائص الجغرافية للمنطقة الساحلية السورية الفلسطينية ، كنا كمن يذكر مقدما مصيرهـا التـاريخي ، فقد حددته الظروف الطبيعية • فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات فى هذا القطاع الضيق من الأرض كان يعنى أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات ، دون أية فرصة دائمة لانشـاء نظم سياسية قوية • كان أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبيرة التى كان يقع بينهـا • وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليه مرة بعد أخرى ، لأنه كان منطقة جذابة في حد ذاتها لخصبها ، يمكن دخولها من كل جانب والانتقال منها في كل اتجاه ، وكانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسـيا الصغرى والبحر المتوسـط ، فضلا عن الصحراء التى جاء منها البدو الساميون •

فتاريخها اذن متقطع تماما ، يتكون من تغيرات قومية وسياسية مستمرة تحير المتتبع ، وتستعصى على ما يحاوله المؤرخ من تنظيم • وهو لهذا كله أشد ما يكون اثارة للاهتمام ، ويكفى فى هذا الصدد شيء واحد هو أنه يقدم الأساس الذى قام عليه تاريخ اسرائيل • ولم يكن العبريون حين فتحوا فلسطين حوالى آخر الألف الثانى قبل الميلاد أول شعب سامى فى ذلك الميدان ، فقد أقامت فيه شعوب سامية أخرى قبلهم بزمن طويل •

***

وليس لدينا معلومات عن أول توغل للشعوب السامية فى سوريا وفلسطين • ويبدو أن الشعوب السامية كانت هناك فعلا فى العصر الذى

تبدأ عنده وثائقنا التاريخية ؛ ومهما يكن من أمر ، فان أسماء الأنهار والجبال والمدن فيهما سامية الى حد كبير .

وكانت تلك الشعوب ، وهي أقدم من سجلهم لنا التاريخ من سكان تلك المنطقة ، تنتظم من الناحية السياسية في دول قائمة في مدن حصينة مبنية فوق أراض مرتفعة ، ولكن لا بد أن جزءا كبيرا من السكان خارج المدن ظلوا بدوا ، ينتقلون من مكان الى مكان ، ويضغطون على المراكز المستقرة .

وتدل المصادر المصرية ، مؤيدة بالآثار ، على أن مصر نعمت منذ أوائل التاريخ بسيادة سياسية واقتصادية على المنطقة كلها ، وكانت تعزز هذه السيطرة من حين الى حين بشن حملات عسكرية وجبى الجزية ، وهو ما يدل فى الوقت نفسه على الظروف المضطربة السائدة .

وفي أول الألف الثاني قبل الميلاد تمدنا « نصوص اللعن » المصرية بسلسلة من أسماء دول وحكام فى سوريا وفلسطين . وأسماء الأعلام هي من النمط الخاص بالأموريين ، ذلك الشعب الذى كان يسكن فى الفترة نفسها أرض الرافدين . فمن المعقول اذن القول انهم عاشوا طبقة حاكمة على رقعة عريضة من الأرض تمتد من أرض الرافدين الى فلسطين . وكان الأموريون أيضا منتظمين من الناحية السياسية فى دول صغيرة ، وكانوا لا يزالون تابعين لمصر ، الا فى أقصى الشمال حيث كانت دول مثل حلب وقطنة وقرقميش داخلة فى نطاق نفوذ أرض الرافدين .

ولنلفت النظر هنا الى الفرق بين سياسة المصريين وسياسة دول الرافدين في سوريا وفلسطين . فهذه الدول كانت تحاول ما استطاعت تحقيق فتوح دائمة ، ولم تكن تتردد فى سبيل هذه الغاية حتى عن نفى جماعات ضخمة من الشعب المغلوب . أما المصريون فكانوا يقنعون بفرض جزية على الأمراء المحليين أو ، على الأكثر ، بالتحكم فى نشاطه من طريق « مقيمين » مصريين . وكانت أهدافهم اقتصادية لا سياسية ، ومن ثم كانت خططهم أقل صرامة الى حد كبير .

وقد انتكست السيادة المصرية حين خضعت مصر نفسها لحكم الهكسوس (حوالى ١٦٧٠ – ١٥٧٠ ق.م) . ولا يزال أصل الهكسوس موضع خلاف ، وكل ما هو مقطوع به أنهم جاءوا من الشرق ، وأنه كان فيهم عرق سامي .

وبانتهاء عهد الهكسوس استعادت مصر سيطرتها القديمة ، الا أنه

قامت فى الشمال قوة منافسة جديدة هى الحيثيون ، الذين انتشروا من الأناضول ووطدوا أقدامهم أيضا فى شمال سوريا ٠ وكان حكم الحيثيين أخف وطأة من الحكم المصرى ، فى الشكل على الأقل ، فالدول المحلية الصغيرة التى كانت تدور فى فلك الحيثيين كان لها وضع الحلفاء ، تربطها بهم معاهدات ثنائية ، وتحتفظ باستقلالها الكامل فى ظاهر الأمر ٠

أما الفترة التى سبقت ظهور اسرائيل مباشرة ، أى القرنان الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، فلدينا عنها مادة وفيرة أتاحتها وثائق تل العمارنة وأوجاريت ٠ وكانت مصر تمر بفترة من الأزمات ، فاستغلت الدول السوريه الفلسطينية ــ القدس وجزر وشكيم ومجدو وعكا وصور ودمشق وصيدا وجبيل وغيرها ــ هذه الفرصه لزيادة استقلالها٠ وكانت فى حالة حرب دائمة على نحو أو آخر فيما بينها ، ولكن لم توفق أى منها الى الظفر بالغلبة ٠ وكانت أكبر دولة قامت فى ذلك الوقت هى دولة أمرو فى الشمال ٠ ويرجع الفضل فى توفيقها الى قدرتها على ضرب المصريين والحيثيين بعضهم ببعض ٠

ولكن لم يقدر لهذه الحال البقاء طويلا ، فحوالى ١٢٠٠ق٠م ، بعد مناوشات تمهيدية مختلفة ، هجم على الشرق الأدنى كله غزاة من البحر ٠ وقد قضى « أقوام البحر » هؤلاء على الامبراطورية الحيثية ، واضطروا مصر الى ترك سوريا وفلسطين ، وأقام فريق من الغزاة ، هم الفلسطينيون فى فلسطين اقامة دائمة ، ولكن انسحاب القادمين الجدد من مناطق أخرى فى سوريا وفلسطين ترك فراغا سياسيا لم يلبث أن ملأه سيل من الشعوب السامية ٠ ففى الجنوب كانت القبائل العبرية أهم الغزاة ؛ ولكن ظهر معها أيضا المديانيون والأدوميون والمؤابيون والعمونيون ، وفى الشمال صارت الغلبة للأراميين ٠

* *

وكان التنظيم السياسى لهؤلاء الساميين الجدد ، فيما نعرف ، يشبه ذلك الذى كان سائدا من قبل فى المنطقة ، أى أنه كان يقوم على أساس دول محلية صغيرة ٠ ولكن أفادت احدى هذه الدول من ضعف جاراتها ووهن الدول الكبرى ، فوحدت المنطقة كلها تحت حكمها . تلك هى المملكة العبرية ، وحوالى ١٠٠٠ق٠م اتحدت سوريا وفلسطين لأول مرة فى التاريخ تحت حكم دولة محلية ٠

ولكن ظلت المدن الفينيقية مستقلة فى الجوهر ، واتبع العبريون نحوها سياسة قوامها العلاقات الودية ٠ وكان ذلك يرجع الى الموقف

السلمى الذى وقفته تلك المدن ، التى كانت منهمكة كل الانهماك فى التجارة ولم تكن لها مطامع سياسية · ونحن نعرف أنه فى فينيقيا نفسها نعمت صيدا بمركز خاص من السيادة حتى حوالى ١٠٠٠ ق٠م ، وتلتها فى ذلك صور · وكان أبرز خصائص النشاط التجارى للفينيقيين تاسيسهم سلسلة من المستعمرات على طول سواحل البحر المتوسط · فمنذ ١٠٠٠ق٠م٠ ظهرت قواعد فينيقية فى جزر بحر ايجه وكيليكيا Cilicia ومالطة وصقلية وسردينيا وشمال افريقية وأسبانيا · وكانت قرطاجة أهم هذه المستعمرات ، وقد أسستها صور قرب نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ·

ولم يكن سلطان مملكة اسرائيل سوى فترة مؤقتة فى مجرى التاريخ · فقرب نهاية القرن العاشر قبل الميلاد بدأت الدول الكبرى تضع أيديها مرة أخرى على سوريا وفلسطين ، وانقسمت الدولة العبرية الى دولتين ، واستأنفت الدول الصغرى المختلفة وجودها المستقل · ولكن لم يقدر لهذا الاستقلال السياسى البقاء طويلا · فان التوسع الأشورى منذ القرن الثامن أدى الى ضم الدول السورية واحدة بعد الأخرى ، وفى القرن السادس واصل البابليون هذه الخطة فى فلسطين · وعندما سقطت بابل فى يد الفرس عام ٥٣٨ أصبحت المنطقة كلها ولاية تابعة للامبراطورية الفارسية ، وظلت منذ ذلك الوقت ولاية لامبراطورية بعد أخرى ·

الدين

حدد تاريخ الكنعانيين شكل حضارتهم . فالعبور المستمر لتلك الشعوب الكثيرة وتفاعلها بعضها مع بعض أديا الى صورة مختلطة من الحضارة ، تتكون من عناصر متباينة عديدة . وقد غلب الأثر السامي بفضل ما أسهمت به الشعوب السامية في سوريا وفلسطين من ناحية ، وما أسهم به البابليون والأشوريون من ناحية أخرى ، فقد جلب هؤلاء أهم عناصر حضارتهم الى كنعان خلال زحفهم المتصل نحو البحر المتوسط ومصر .

وكان في الحضارة الكنعانية أثر أساسي آخر هو أثر مصر ، التي كان يصدر عنها ضغط مقابل من الناحية الأخرى . وكانت العلاقات بين مصر وكنعان في مجالي السياسة والتجارة معا وثيقة متصلة واسعة النطاق ، فلم يكن ثمة بد من أن تترك طابعها على فن الكنعانيين ودينهم وأدبهم . وهناك أخيرا الشعوب غير السامية التي اندفعت الى سوريا وفلسطين من آسيا الصغرى والبحر ، فقد أدت نصيبها في الحضارة الكنعانية ، وهيأت في بعض الأحيان ، كما في أوجاريت ، قيام مراكز عالمية حقا .

ولكن ظلت الأحوال الاجتماعية والحضارية أقرب الى أحوال البدو الساميين القدامى منها الى أحوال البابليين والأشوريين . ولم يكن ثمه مفر من ذلك، فالساميون فى أرض الرافدين، بعيدا عن قواعدهم القديمة، أدرجوا أنفسهم فى بيئة سياسية حضارية وطيدة الأركان منذ عهد طويل ، لها طابع فردى شامل ، قد أقيمت على تقاليد تختلف عن تقاليدهم

كل الاختلاف ، ولكن البدو القادمين الى كنعان من الصحراء لم يخضعوا لمثل هذا التأثير في بيئتهم الجديدة ، وانما استطاعوا الاحتفاظ بقدر أكبر من فرديتهم وتقاليدهم القديمة • والحق أن أحوال وطنهم الجديد والطريقه التي دخلوه بها لم تكن مواتية للانتقال التام الى صور الحياة المستقرة ، أو الاندماج السلمي في الأحوال التي كانت قائمة من قبل •

ولهذا يمكن القول اجمالا ان الحضارة الكنعانية أقرب الى الطابع السامي من حضارة أرض الرافدين في نواح عدة ، وان كانت دونها في وحدة الملامح وأصالة الطابع •

***

وأول ما يروع المرء في الدين الكنعاني أنه أدنى كثيرا من دين أرض الرافدين في المستوى الحضاري ، ويتجلى هذا بأجلى صورة في قسوة بعض طقوسه واهتمامه الغليظ بالعناصر الجنسية •

ومما يسترعي الانتباه أيضا أن آلهته ذات طبع غير محدد أو ثابت • فالآلهة الكنعانية كثيرا ما تتبادل صفاتها ووظائفها وصلاتها ، بل جنسها أيضا ، حتى ليصعب أحيانا أن نعرف حقيقة طبيعتها وصلاتها بعضها ببعض • وهذا يرجع من ناحية الى انعدام الوحدة بين الكنعانيين ، ومن ناحية أخرى الى أنه لم يكن ثمة طبقة من الكهان منظمة تنظيما كافيا تستطيع تنظيم الدين كما في أرض الرافدين •

وكان لكل مدينة آلهتها الخاصة ، ولكن كان لهذه في الغالب مكان بين الآلهة التي يعبدها الجميع • وكانت تمثل وظيفة معينة من وظائف الآلهة المشتركة أو مظهرا معينا من مظاهرها • ويتمثل هذا على أحسن وجه في نصوص أوجاريت، فهي تذكر آلهة وأحداثا تتعلق بالآلهة لا تتصل دائما اتصالا مباشرا بعبادات تلك المدينة •

وكان ال رأس آلهة الكنعانيين (١٢) • وليس هذا الاسم علما في الأصل ، ولكنه اسم سامي عام معناه « الله » • وقد استعملته أيضا شعوب كثيرة علما على الاله الأكبر • وقد ظل الاله الكنعاني ال ، كالاله البابلي آن، شخصية بعيدة غامضة بعض الشيء ، فهو يسكن بعيدا عن كنعان « عند منبع النهرين » • وذكره في الأساطير أقل من ذكر الآلهة الأخرى، وزوجه هي الالهة « أثرت » المذكورة أيضا في التوراة باسم أشير (١٣) •

وكان بعل أبرز الالهة الكنعانية ، وهو مركز مجموعة أخرى من الآلهة • وكلمة « بعل » أيضا اسم عام في الأصل معناه « سيد » ، ولهذا

أمكن اطلاقه على آلهة مختلفة · ولكن بعل الأكبر كان اله العاصفة والبرق والمطر والاعصار · كالاله هدد لدى البابليين والآراميين ·

وثمة أسماء آلهة كنعانية أخرى مشتقة من الاسم « ملك » · فهذا الاسم يظهر بين العمونيين علما على الههم القومى ، وذلك فى الصيغة ملكوم · واله صور يشتق اسمه من الكلمة نفسها ، فهو ملقرت (اختصار ملك قرت : المترجم) أى « ملك المدينة » (١٤) ·

وبعل هو العنصر المذكر فى مجموعة آلهة الدورة النباتية ، التى نجدها أيضا فى روايات دينية ساميه أخرى · وترتبط به فى هذه المجموعة الهتان من الهة الخصب هما عنت وعشترت · وثانية هاتين الالهتين · وهى ترد فى التوراة باسم عشترت او جمعا باسم عشتاروت، هى صنوعشتر فى ارض الرافدين ، ولها نفس خصائصها الى حد كبير · وتجمع هاتان الالهتان بين صفتى البكارة والامومه ، رغم تعارض هاتين الصفتين فى الظاهر (١٥) · والصور التى تمثلهما تبرز الملامح والرموز الجنسية · وعنت وعشترت الهتا الحرب فى الوقت نفسه ، وكثيرا ما يصورهما الأدب والفن قاسيتين متعطشتين الى الدماء يسرهما تذبيح الرجال (١٦) ·

وتكتمل مجموعة آلهة الخصوبة بالاله الشاب الذى يموت ثم ينهض من جديد كما يفعل النبات · وكان هذا الاله يعبد فى جبيل باسم أدونيس ..donis ، وهذا الاسم مشتق من كلمة سامية معناها « سيد » (١٧) ، وكانت له نفس خصائص الاله البابلى تموز ·

وكان للشمس والقمر مكان محدود على نحو ظاهر بين القوى الطبيعية المختلفة التى كانت تؤلهها كنعان · ويرجع هذا من ناحية الى نسبة خصائص الشمس والقمر الى آلهة أخرى · على أنه من المقطوع به أن أهمية الشمس والقمر كانت تقل شيئا فشيئا بين الشعوب السامية (١٨) ·

ثم ان الكنعانيين عبدوا آلهة عدة أخذوها عن المصريين أو البابليين، وهنا يتجلى الطابع المركب التوفيقى الذى تتسم به حضارتهم · وقد حدث ارتباط واندماج فيما بعد بين الآلهة الكنعانية وآلهة اليونان ·

***

ولا يمكننا الآن التحقق من حياة الكنعانيين الدينية الا على نحو جزئى ناقص · فلدينا قدر معين من المعلومات المباشرة نستمده من وثائق

أوجاريتية قصيرة أمكن قراءة جانب منها فقط ، ولكن لايزال أكبر مصدر لنا في هذا الصدد ما في العهد القديم من معلومات غير مباشرة ٠

ويبدو أن الـكهانة بلغت في تطورها مرتبة عاليـة بعض الشيء ، ولكنها بالطبع لم تبلغ من التنظيم حدا يمكن مقارنته بما بلغته الـكهانة في أرض الرافدين ٠ فهناك ذكر للـكهنة الـكبار وسدنة المعابد والنساء النادبات والبغـايا المقدسات ٠ وكان ثمة عـدد غير قليل من المتنبئين ، وتشـير نصوص أوجاريت الى بعض طقوس التنبؤ ٠ ولدينا أخيرا طائفة خاصة هي طائفة الأنبياء ، وليست لدينا المعلومات الضرورية التي تمكننا من فهم مكانهم ووظيفتهم في الدين الكنعاني فهما تاما ، ولكنهم يمثلون مظهـــرا من مظاهر الدين الكنعـــاني له نظير بين الاسرائيليين يدعو الى الاهتمام البالغ ٠

ولم تكن كل أماكن العبادة أو معظمها في صورة المعابد المعروفة ، فقد شـاعت هيـاكل العراء ، وهـو ما يتوقع من دين أقرب الى الطبيعة والفطرة ، وكانت تقـام بالقرب من الأشجار أو الينـابيع أو خاصة على التلال ، وهـذه هي « الأماكن المرتفعة » التي تتحدث عنها التوراة (في العبرية « باموت » : المترجم) ٠ وكان هيكل العراء يتكون من أرض محاطة بسياج تضم مذبحا، وفيها قبل أي شيء آخر حجر مقدس أو حجران يعتقد أنه أو أنهما مسكن الاله ٠

وكانت القرابين الكنعانية تضم ضحايا من البشر ، الى جانب قرابين الحيوان المألوفة ٠ وكانت القرابين الآدمية تقدم مثلا في الكوارث العامة الهائلة على أنهـا أعظم قربان يمكن أن يقـدمه الانسان الى الآلهة ٠ وقد تردد القول ان الكنعانيين كانوا يقدمون قرابين من الأطفال عنـــد تشييد المباني ، ولكن هذا أمر غير مقطوع به ، وليس ثمة أدلة مقنعة على وجود هذه القرابين ، اذ ليس في الهيـــاكل العظمية التي كشفت أثر يدل على الموت قتلا ٠

وكانت هنـاك عادة أخرى تنم كذلك عن مستوى ديني منخفض ، هي زنا الطقوس ٠ وكانت هـذه العادة جزءا من عبـادة الخصـوبة التي ذكرناها من قبل عند الحديث عن آلهة كنعان ٠ وقد بطل استعمالها فيما بعد ، بفضل تطور الدين الكنعاني ٠

ويستدل على عبادة الموتى في المنطقة كلها بالهدايا التي كانت توضع في القبور ٠ وهذا يشير الى الايمان بحياة أخرى بعد الموت ، ولكن ليس لدينا من الوسائل ما نحدد به طبيعة هذه العقيدة على نحو دقيق ٠

١

الأدب

يقتصر الأدب الكنعاني في جملته على القصائد التى كشفت فى أوجاريت • وقد قلنا من قبل انه لا تزال فيها مواضع غموض كثيرة ، وان ترتيب الألواح ليس واضحا فى جميع الاحوال • ولدينا فيما عدا هذا بعض الروايات traditions الفينيقية التى وصلت الينا من مصادر تنتمى الى تاريخ متأخر ، ولكنها مع ذلك عظيمة القيمة •

وملحمة الاله بعل والالهة عنت هى أهم القصائد الأوجاريتيه ، وذلك لطولها وأهمية موضوعها • وهى تبدأ بقصة الصراع بين بعل واله البحر « يم » ، وهو ينتهى بانتصار بعل ، ثم تمضى الملحمة فتروى بناء قصر لبعل والاحتفال المهيب بافتتاحه • والنقطة التى تدور حولها الملحمة هى ذبح بعل ، والنزول به الى مملكة الموتى • وكان يحكم هذه المملكة الاله موت ، ولعل معنى اسمه فعلا « الموت » • ويؤدى اختفاء بعل الى توقف الحياة على الأرض ، وهنا تأتى الالهة المحاربة عنت بالاله موت وتذبحه :

٢٧ ــ تقترب منه عنت العذراء (١٩)

٢٨ ــ وكما (يهفو) قلب البقرة الى عجلها ، وقلب

٢٩ ــ الشاة الى حملها ، كذلك (يهفو) قلب

٣٠ ــ عنت الى بعل • وتمسك

٣١ ــ بموت ، ابن ال (٢٠) ، وبالسيف

٣٢ ــ تشقه ، وبالمذراة تذروه ،

٣٣ ــ وبالنار تحرقه ،

٣٤ ــ وبالرحى تطحنه ، وفى الحقل

٣٥ ـ تبذره ، فتأكل قطعه
٣٦ ـ الطيور ، وتفنى أجزاءه
٣٧ ـ العصافير جزءا جزءا (٢١) (*)

وهكذا يعود بعل الى الارض ، وتعود معه الخصوبه والوفرة • وليس في الاسطورة وحدة موضوعيه كبيرة ، فهى أقرب الى ان تكون سلسله من القصص تربط بينها وحدة أبطالها • ويبدو على الأرجح أن القصه تقوم في معظمها على دورة الفصول • فبعل هو اله المطر والخصب ، ويحكم الارض من سبتمبر الى مايو ، وموت هو اله الجدب والموت ، ويحل محل بعل في الصيف ، ولكن يطرد مرة أخرى بقدوم الخريف (٢٢) •

ومن أساطير الآلهة أيضا قصيدة « السحر والغروب » (٢٣) • والجزء الاول منها يورد الطقوس والترانيم التى تصحب احتفالا دينيا يقام في موسم حصاد العنب ، والجزء الثانى يقص ميلاد الهين ، أبوهما ال ، واسماهما « السحر » و « الغروب » (٢٤) • وقد بين الاستاذ جاستر (T.H.) Gaster ، الذى يرجع اليه خاصة الفضل في تفسير هذه القصيدة ، أنها نص « libretto » احتفال موسمى في قالب مسرحية ، وهو يرى أن جزءا كبيرا من الأدب الاسطورى في أوجاريت وفي الشرق الأدنى القديم عامة نشأ على هذا النحو ، ولكن أضفت عليه يد التنقيح فيما بعد صورة مختلفة (٢٥) •

ولم ترد الينا أسطورة الخلق الكنعانية الا في الصورة المتأخرة التى يوردها فيلون الجبيلي • فهو يقول انه كانت في البدء ريح عنيفة ثائرة ، وفوضى مظلمة ظلت قرونا لا حصر لها • ثم اتحدت الريح والفوضى ، فنشأت عن ذلك كتلة مائية اتخذت شكل البيضة • وانشقت البيضه شقين ، فظهرت بذلك السماء والأرض والكواكب وصنوف الحيوان • وفي هذه القصة وجوه شبه عدة بقصة الخلق البابلية وقصة الخلق في التوراة •

وأبرز أساطير الأبطال الكنعانية هى قصيدة أقهت الأوجاريتية • فدانيال ملك قديم ، لم يكن له ولد • وأخيرا تعطيه الآلهة ابنا ، هو أقهت • وتعرض الالهة عنت الخلود على أقهت مقابل قوسه التى يستخدمها في الصيد ، فتقول له :

٢٦ ـ اطلب الحياة يا أقهت ، يا أيها البطل ،
٢٧ ـ اطلب الحياة فأعطيك اياها ، والخلود
٢٨ ـ فأسبغه عليك ، وأجعلك تعد مع بعل

(*) النص ٤٩ ، اللوحة الثانية ، س ٢٧ ـ ٣٧ (ط جوردون Gordon) •

٢٩ ـ السنين ، فتحصى مع ابن ال (٢٦) الشهور ٠
٣٠ ـ وبعل عندما يهب الحياة يولم وليمة ، يولم لمن يحييه ،
٣١ ـ ويسقيه ، ويعزف ويغنى له ،
٣٢ ـ وينشد له فى عذوبة ٠ فهكذا أعطى الحياة
٣٣ ـ لأقهت البطل ٠٠٠ ٠٠٠ (*)

ولكن يجيب أقهت بانه لا يستطيع الخلود ، فهنا نجد الفكرة القديمة، فكرة حرمان الانسان الحياة الخالدة٠ وبذلك لاتنال عنت القوس ، فتسعى للانتقام من أقهت على يد وزيرها يطبن ٠ الذى يقتل الشاب ٠ ويعلم دانيال بموت ابنه من طائفة من النذر ، فيسلم نفسه للحزن ٠ وتسعى بغت ، أخت أقهت ، للثأر له ، ومن المحتمل فيما يبدو أنها ذبحت يطبن وأن آقهت عاد الى الحياة ، ولكن ضياع بعض أجزاء النص لا يجعل ذلك أمرا مقطوعا به ٠

وهناك فيما يحتمل أساس تاريخى لملحمة أخرى ، هى ملحمة كرت ٠ وكان ملكا فقد أسرته كلها ، فظهر له الاله ال فى حلم ، وأمره بتسيير حملة الى أرض أدم ، ليقهر ملكها ويتزوج ابنته فتنجب له ذرية جديدة ٠ والقصيدة تصف تنفيذ هذه الخطة ٠ ويفتح كرت أدم ، وعندما يأتى اليه رسل الملك المغلوب يعرضون الهدايا الثمينة ، يطلب الزواج من الأميرة، ويرفض كل شىء آخر :

٢٨٨ ـ ٠٠٠ ٠٠٠ هب
٢٨٩ ـ لى « حرى » العذراء (٢٧) ،
٢٩٠ ـ الرقيقة ، بكر أولادك ،
٢٩١ ـ التى مثل رقة عنت
٢٩٢ ـ رقتها ، ومثل وسامة
٢٩٣ ـ عشترت وسامتها ،
٢٩٤ ـ التى مقلتاها (٢٨) كفصوص اللازورد ،
٢٩٥ ـ وجفناها (٢٩) كأقداح (٣٠) المرمر (٣١) ،
٢٩٦ ـ التى وهبها « ال » فى حلمى ،
٢٩٧ ـ أبو البشر فى رؤياى ،
٢٩٨ ـ حتى يولد ولد لكرت

(*) أقهت ٢ ، اللوحة السادسة ، س ٢٦ ـ ٣٣ ٠ (المترجم : العلماء مختلفون فى ترجمة السطور من ٣٠ الى منتصف ٣٢ ، وقد اثبتنا ترجمة المؤلف ، وهى تتفق وترجمة جنزبرج فى كتاب برتشارد ص ١٥١) ٠

٢٩٩ ـ وغلام لعبد
٣٠٠ ـ ال ٠٠٠ ٠٠ (*)

وتصبح الأميرة زوجا لكرت ، وتتحقق النبوءة • ونهاية الأسطورة غامضة : يمرض كرت ، ولكن يبدو أنه انقذ بتعويذة من التعاويذ .

وهذه القصيدة تؤدى بنا الى مسألة من أهم المسائل التى أثارتها الكشوف الحديثة أمام المستشرقين • ففكرة القيام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها تذكرنا ولاريب بالالياذة ، كما أن بعض الشخوص والمواقف والتعابير فى الأدب الأوجاريتى تنم عن صلات بالأساطير اليونانية القديمة • ومن الصعب أن نبت فى مسألة العلاقة بين الأدبين بأن نجعل أحدهما معتمدا على الآخر • والأرجح أن مجموعة من الأفكار الأسطورية انتشرت فى منطقة شرق البحر المتوسط كلها ، وأثرت فى أدب الشرق الأدنى واليونان • ومن الممكن أن كريت كانت الصلة بين المنطقتين ، وقد يكون فى ذلك تفسير لاسم البطل فى ملحمة كرت •

ولا يزال البحث فى هذه الذخيرة الأدبية القديمة التى عرفتها منطقة البحر المتوسط فى مراحله الأولى ، ولا تزال نقط كثيرة فروضا تحيط بها الشكوك • ولكن يبدو أن ثمة أساسا سليما لرأى أبدى أخيرا ، ولا سيما اذا اتسع نطاق البحث فشمل أدبين مماثلين آخرين هما الأدب المصرى وأدب الأناضول • هذا الرأى هو أن فكرة البطل الهائم التى نجدها فى الأودسا نراها قبل ذلك فى الأدب المصرى ، وأن بعض الأساطير اليونانية كقصيدة هزيود « أنساب الآلهة » Theogony أو قصة أطلس Atlante لها نظائر جلية لدى الحيثيين • هذا الى أن الصلات بين فنون الشرق الأدنى وكريت وبلاد اليونان القديمة تزداد الآن وضوحا يوما بعد يوم •

ويمكن القول فى اطمئنان ان هذه الدراسات ستحقق تقدما عظيما فى المستقبل القريب ، وستبين ارتباط الحضارة اليونانية ارتباطا عضويا بالأسس الأدبية والدينية والتاريخية التى سبقتها وجاورتها ، ويمكن التنبؤبأنه سيكون من نتائج هذا البحث الربط بين أدب الشرق الأدنى القديم والأدب اليونانى الرومانى ربطا وثيقا ، وبأن الحضارة الكنعانية ستكون على أعظم قدر من الأهمية فى هذا البحث •

(*) كرت ٢٨٨ ـ ٣٠٠ (المترجم : حسب طبعة جوردون ، أو I K vi 23-35 حسب طبعة درايفر) .

الفن

ان سورياوفلسطين أفقر من أرض الرافدين كثيرا فى الآثار الفنية. فنمو امبراطوريات مستقرة مزدهرة فى أرض الرافدين أتاح قيام تقاليد فنية متجانسة متميزة زاهرة ، بينما عرقل الانقسام والاضطراب السياسيان قيام مثل هذه التقاليد فى سوريا وفلسطين ، بل انه كلما أمكن تحقيق بعض التقدم فى هذا السبيل كبحته موجات الغزو والتخريب المتتابعة وحلت عراه وقوضت آثاره مرة بعد مرة ، وفى الوقت ذاته وجدنا العناصر الجديدة التى جاءت بها هذه الغزوات تكسب التطورات الفنية طابعا مركبا غير متجانس تتعاقب فيه تأثيرات أرض الرافدين ومصر والحيثيين وبحر ايجه أو تمتزج بعضها ببعض .

فالفن فى سوريا وفلسطين يمتاز اذن بفقره وجمعه بين عناصر أجنبية . وكان هذا أمرا محتوما من الوجهة التاريخية ، اذ لم يمكن أن تقوم فى هذه المنطقة قوة سياسية موحدة دائمة ، بل ان جزءا كبيرا من هذه المنطقة ، ولا سيما فينيقيا ، لم يكن يهتم أصلا بانشاء مثل هذه القوة أو انشاء وحدة حضارية ثابتة تبعا لذلك ، فقد كان منهمكا فى المطامع التجارية .

***

وكان هناك فى الواقع فرع من الفن المعمارى شجعت عليه خاصة أحوال كنعان التاريخية ، هو بناء الحصون للدفاع عن المدن ضد هجمات البدو المحيطين بها. ولكن لم تكن لهذه الأبنية قيمة فنية كبيرة ، فالحصون

التى كشفت تتكون فقط من بضع طبقات من الكتل الحجريه الغليظة الكبيرة ·

ولم يبق شيء كثير من الأبنية المدنية الكنعانيه ، ولكن الحفائر فى أوجاريت وألالاخ كشفت عن بعض القصور الملكيه · وكانت هذه تبنى على نمط نظائرها فى أرض الرافدين ، اى فى صورة فناء أو اكثر تحيط به الحجرات ، ولكن كانت أضيق نطاقا ·

وكانت الأبنية الدينية ، كما رأينا ، تتكون فى الغالب من أراض فى العراء تحيط بها أسوار ، وتضم مذبحا وحجرا أو أكثر من الحجارة المقدسة · ولكن كان للمدن الكبيرة معابد مسقوفه أيضا ، بناؤها أقرب فى نظرنا الى نمط أرض الرافدين منه الى أنماط الشعوب الأخرى المجاورة ·

وآثار النحت الكنعانى تنقصها التماثيل الكبيرة ، والتماثيل القليلة التى وصلت الينا ، كتمثال ادريمى Idrimi الذى كشف أخيرا فى ألالاخ - غليظة الصنع الى حد بالغ. انظر اللوحة الثامنة . ولكن التماثيل الصغيرة كثيرة ، والنمط الغالب عليها هو جسم الأنثى العارى ، بولغ فيه عمدا فى تجسيم مظاهر الأنوثة ، وجعلت اليدان على الثديين فى الغالب، وهذه التماثيل الصغيرة تمثل الهه الخصوبة التى رأينا أهميتها فيما مضى ونحن نعالج الدين الكنعانى ·

وكان حفر الصور البارزة فنا مزدهرا نسبيا فى كنعان أيضا ، كما كان فى سائر انحاء الشرق الأدنى القديم . فثمة انصاب محفور عليها ، كالنصب المشهور للاله بعل فى أوجاريت (اللوحة التاسعه) ، او ذلك النصب الذى كشفته أخيرا الحفائر الاسرائيلية فى حاصور (٣٢) ، وهو مهم من الناحية الدينية ، اذ عليه رسم يمثل ذراعين مرفوعتين دعاء وابتهالا ،وفوقهما رمز للشمس يحف به هلال · ولكن الجزء الاكبر من الرسوم البارزة الكنعانية زخارف على أشياء صغيرة ، وهذه وجد أهمها فى أوجاريت ، مثل الطبق الرائع الذى رسم عليه بالذهب البارز منظر صيد (اللوحة العاشرة) ، أو الفنجان الذهبى الذى رسمت عليه صور بارزة لثيران وأسود وحيوانات غريبة ، أو الرسم العاجى البارز الذى يصور « الهة الحيوانات المتوحشة » (اللوحة الحادية عشرة) · وكل هذه الآثار تظهر على نحو ملحوظ الطابع المركب للفن الكنعانى عامة ، ففيها نجد الامتزاج بين التأثيرات المتباينة أشد التباين قد بلغ أقصى غايته ·

وقد ترك لنا الفينيقيون كثيرا من التوابيت الحجرية ، وعلى سطحها الأعلى قالب لرأس انسان · وكثير من هذه التوابيت وجد فى صيدا ·

وقد وجدت آثار قليـــلة للتصـــوير بالألوان فى غرف القبـــور الفينيقية تحت الأرض ، وكانت جدرانها محلاة بألوان زاهية يغلب عليها اللونان الأحمر والأخضر مع زخارف من أكاليل الزهور والطير ، ومن البشر والحيوانات أحيانا ٠ وقد رأى رينان (E.) Renan فى القرن المـاضى كثيرا من هذه القبور فى سوريا ، ولـكن السكان المحليين هدموها كلهـا تقريبا ، فلم يتركوا لنا الا بقايا متناثرة هنا وهناك ٠

***

وقد بلغ الكنعانيون غايتهم فى الفنون التطبيقية ، ففيهـا أضفت مهارة الفنان فى كثير من الأحيان جمالا جديدا على النماذج الأجنبية التى شاع تقليدها ، ووجد الفنان لخياله مجالا أفسح وأرحب ٠

وانتشار اســتعمال الأختــام أدى بالطبع الى تقـــدم كبير فى فن صناعتها ، وهـــذا ينطبق أيضـا على الحلى وغيرها من أدوات الزينة التى وجدنا آثارا منهـا تنطوى على قيمة فنية رفيعـــة ، وتبدو كأنها من صنع أيامنا هذه ٠ وعلى الأوسمة والأساور والخواتيم الذهبية نجد صور النخيل ورءوس الأسود والوعول والطيور ، وكانت صورا أثيرة ٠ وكانت القلائد وعقود اللؤلؤ والأقراط أنماطا أخرى للزينة يجلها الناس ويجدون فى السعى وراءها ٠

وفى العصور المتـــأخرة بدأ الفينيقيون يسكون العمـلة ، وكانت التجارة تزاول قبل ذلك بالمقايضة ٠ والمعتقد أن كروسوس Croesus ، ملك ليديا ، هو الذى استحدث صب السبائك الذهبية ذات الوزن الواحد وطبع الصور عليهـــا ٠ ونجد على نقود المدن الفينيقية ، وهى قائمـــة على تقليد النقود اليونانية ، رموز آلهـــة تلك المدن ورموزا بحرية وأجســام حيوانات ٠

وربما كان فن صناعة الزجاج أهم الفنون التطبيقيـــة الفينيقية ٠ ومن المحتمل فيما يبدو أن هذا الفن اختراع مصرى ، ولكن انتشار أنواع الزجاج المختلفة وجميع صـــنوف الأوانى الزجاجيـــة يرجع الى التجـــار الفينيقيين ٠ وقد أدى تقبـــل الأسواق لهذه السلع الى تقـــدم صناعتها ، فصارت من أهم صناعات الفينيقيين ومصادر ثروتهم ٠ وتنطوى الأوانى الزجاجيـــة الفينيقية على مهـــارة عظيمـــة ، وعلى تنوع وجلاء كبيرين فى الأشكال والألوان ٠

الفصـل السـادس

العبريون

رأينا فيما مضى أن غزو أقوام البحر وما صحبه من اضمحلال الدول الكبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد اديا الى تخفيف الضغط الأجنبى على منطقة سوريا وفلسطين ، كما أديا تبعا لذلك الى أن تقوم فيها دول محلية أكثر قوة واستقلالا مما أمكن قيامه من قبل • وكان تأسيس هذه الدول على يد شعوب سامية كانت تعيش فى المنطقة قبل ذلك بزمن ، ولكنها لم تستطع اثبات وجودها الا بفضل تلك الظروف المواتية • وكان العبريون فى فلسطين والأراميون فى سوريا أهم هذه الشعوب • وقد اقتضت طبيعة الأشياء أن يظل للموقف التاريخى ، الذى أتاح لهذه الشعوب اثبات وجودها ، أثر فى الأحداث التى تقلبت عليها ، ثم فى اضمحلالها الذى لم يكن منه بد بعد أن نهضت الدول الكبرى من كبوتها •

فتاريخ العبريين والأراميين هو من الناحية السياسية فترة متواضعة الأهمية ، اذا قورن بتاريخ الامبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى قديما، ولا تصح مقارنته فى الواقع الا بتاريخ الشعوب السامية الأخرى فى المنطقة نفسها • ولكن للعبريين والأراميين أهمية من نواح أخرى • وسنتحدث عن الأراميين فيما بعد ، أما هنا فسنتناول تاريخ العبريين وحده •

احتفظ العبريون بكيانهم أمة حتى يومنا هذا · ولا يرجع الفضل فى ذلك الى سلطان سياسى ، وانما يجب البحث عن أسبابه ودواعيه فى الدين العبرى ، وفى التمسك بالعقيدة القديمة التى هى فى الوقت نفسه سمة شعب متميز ، لأنها تقوم على فكرة عهد بين الله وشعب اسرائيل · وكانت هذه الفكرة معوانا على الاحتفاظ بذلك الدين ، لأن المحن التى تعرض لها الشعب العبرى خلال تاريخه كانت من هذه الوجهة مظاهر عابرة لغضب الله ، جوزى بها الشعب لآثامه ، ولكن المضى فى الولاء لله كفيل بعودة رضاه عندما يشاء ·

هكذا كان الأنبياء العبريون القدامى يفسرون صروف الدهر التى دارت على شعبهم · ولا شك فى أن هذه الفلسفة الخاصة للتاريخ هى التى أكسبت تعلق العبريين بعقيدتهم وبتقاليدهم القومية ذلك الطابع الفريد من التشبث والاصرار · وقد احتفظت اليهودية بطابع الدين القومى ، وأبقت على الشعور القومى للمؤمنين بها ، ولكن المسيحية والاسلام دينان عالميان يتجاوزان حدود الأوطان .

التـــاريخ

ان مصدرنا الأساسى عن تاريخ الشعب العبرى هو العهد القديم ، أى مجموعة الأسفار المقدسة التى تقص ذلك التاريخ وتفسره ٠ وليست المعلومات التى يقدمها العهد القديم على نسق واحد فى جميع فصوله من حيث مداها وطبيعتها ، ولكن يمكن القول مع ذلك ان التاريخ العبرى مدعم فى جملته بوثائق كافية ٠ فبينما كان المرء طوال عدة قرون وحتى عهد قريب لا يعرف عن حضارة الشرق الأدنى القديم عامة سوى مايقصه علينا العهد القديم ، أو لا يعرف غيره الا القليل ، كان التاريخ العبرى معروفا على نطاق واسع ، وكان مادة من مواد التربية والثقافة الدينيتين فى العالم الأوربى ٠

ولكن هناك مشاكل مختلفة تتعلق بمصادر أسفار العهد القديم وزمن وضعها وطريقة تصنيفها ، ولا سيما الأسفار الخمســة الأولى أو التوراة ، تجعل من تاريخ العبريين ، فى مراحله الأولى على الأقل ، موضعا للجدال ٠ وسنعود فيما بعد الى الحديث عن تلك الأسفار الخمسة ٠

وما تقوله التوراة عن أصول العبريين الأولى يدور حول ثلاث حقائق جوهرية : أولها ظهور الجماعة العبرية الأولى فى جنوب أرض الرافدين ، فسفر التكوين يقص علينا كيف هاجر ابراهيم من أور Ur ، وصعد فى نهر الفرات حتى حران ، ومن هناك نزل الى فلسطين ، وكيف وعــده الله تلك الأرض ٠ والحقيقة الثانية هى اقامة العبريين فى مصر ، وقد انتهت باضطهادهم على يد أحد الفراعنة وخروجهم من مصر بقيادة موسى٠ والحقيقة الثالثة هى الرحلة من مصر الى فلسطين ، وفى خلالها ظهر رب

الأجداد لموسى باسم يهوه ، وجدد العهد بينه وبين ذرية ابراهيم ، وأعلن الشريعة •

تقول الرواية ان موسى توفى وأرض الميعاد على مرأى منه ، وانه ترك فتحها لخليفته يشوع • وتصور لنا الرواية تغلغل العبريين فى فلسطين فى صورة سلسلة من الحملات ، وجهت الى وسط المنطقة وشمالها وجنوبها • وتنسب هذه الأحداث الى النصف الثانى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد استنادا الى ذكر اسرائيل (فى نقش : المترجم) على نصب أقامه الفرعون مرنبتاح Mer-ne-Ptah (١) والى أدلة أثرية تشهد بتدمير بعض المدن ، وان وجدنا هنا بعض المشاكل وبعض النقط الغامضة•

وليس من الضرورى أن تكون حركة التغلغل العبرى حركة فتح عنيف لاغير ، فربما تم جانب منها بالتغلغل السلمى • وقد لاءم القادمون الجدد ، وهم من البدو ، بين أنفسهم وبين بيئتهم الجديدة شيئا فشيئا ، وانتقلوا من حياتهم القديمة الى الحياة الزراعية المستقرة • وقد استوطنوا مدنا معينة ، ولكنهم كانوا يقيمون خاصة فى المناطق الريفية ، وكانت تضم أراضى كثيرة لم يفتحوها بعد •

ومن المحتمل أن القادمين الجدد وجدوا ، الى جانب الكنعانيين والجماعات غير السامية من السكان ، جماعات عبرية أخرى استقر بها المقام من قبل فى فلسطين فى المنطقة الوسطى ، ولم تشارك فى حركة الخروج من مصر • وقد اكتمل الامتزاج بين هؤلاء العبريين والقادمين الجدد ، ولم يلبث أن زال كل أثر لما بينهما من فروق ولكن الامتزاج مع الكنعانيين كان تدريجيا استغرق بضعة قرون ، فحصن أورشليم لم يستول عليه الا فى زمن داود •

وكان النظام الاجتماعى العبرى القديم يقوم على القبيلة ، وتقص علينا التوراة توزيع الأرض المفتوحة على القبائل الاثنتى عشرة • وكانت القبائل بدورها تنقسم الى عشائر تشبه العشائر gentes الرومانية •

وكانت القبائل العبرية متجمعة حول هيكل مركزى فى سيلون(٢)، وهو نظام قارنه بعض العلماء (٣) بمجلس الأمفكتيون amphictyony اليونانى (٤) ، اذ يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية • وكانت سلطة الكاهن الأكبر عظيمة ، ولكن من المبالغة أن نزعم وجود حكومة ثيوقراطية ، فان سلطته لم تكن سياسية • وفى ابان الأزمات كان ينهض زعماء محليون ويتصدرون للقيادة ، وهؤلاء هم القضاة الذين سميت باسمهم حقبة من تاريخ العبريين تشمل تقريبا القرنين اللاحقين لاحتلال

فلسطين · وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة ، وهي في هذا الصدد تذكرنا بسلطة زعماء القبائل في النظام البدوى الذى تتميز به الحياة السامية في مراحلها الأقدم عهدا ·

وكانت سلطة القضاة تعتمد أساسا على رضا الله عنهم وتأييده لهم، ومن ثم سميت هذه الفترة بحق عصر الرضا الربانى chrismatic age ومن أشهر شخصيات هذه الفترة دبورة التى قادت هى وباراق ست قبائل(٥) الى الفوز على الكنعانيين فى مجدو (تل المتسلم الآن : المترجم) ، وجدعون ، قاهر المديانيين ، وشمشون ، بطل الكفاح ضد الفلسطينيين ·

ولم يتسع الوقت للفاتحين لتوطيد انتصارهم الأول فى فلسطين · فقد شن الفلسطينيون هجوما مضادا أخذ يتغلغل من المنطقة الساحلية الى الداخل حتى بلغ قلب اسرائيل ، فهدم هيكل سيلون وسبى تابوت العهد · وفى هذه الأثناء كان المديانيون والمؤابيون والعمونيون والأراميون لا يكفون عن الاغارة على حدود اسرائيل ، وكانت الفرقة تمزقها من الداخل · وفى ختام الألف الثانى قبل الميلاد كانت اسرائيل فى اضمحلال يكاد يكون تاما ، ولكن أنقذها من ذلك رد فعل في صورة دعوة الى الوحدة الوطنية أدت الى قيام الملكية ·

***

وكانت فترة الملكية الفترة الفاصلة فى تاريخ اسرائيل · فالمثل الذى ضربته الشعوب المحيطة ، وحاجات الدفاع عن النفس اقامت الوحدة السياسية بين القبائل العبرية فى وقت كان فيه الموقف التاريخى مواتيا على نحو فريد لاقامة مملكتها وتوسيعها · ولكن تلك المملكة كانت قائمة على أساس غير ثابت ، وسياسة التركيز والتوطيد التى اتبعها ملوكها العظام لم تستطع تماما القضاء على عوامل الهدم داخلها ·

وكان أقوى عوامل الهدم هذه ، التنافس بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب ، وهو تنافس لم يقض عليه أبدا ، بل قضى هو نفسه على الدولة· فاختيار رجل مثل شاءول ينتمى الى أصغر قبيلة وأقربها الى وسط البلاد (٦) هو أولا الذى أتاح انشاء المملكة ، ويأتى بعده أن انشاءها كان أهون الشرين · وقد حافظ داود ، خليفة شاءول ، على تماسك المملكة بسياسة من المحاباة لقبائل الشمال ، فقد كان هو نفسه من الجنوب · وهكذا استطاع أن يسلم لخليفته سليمان مملكة غير منقسمة ، وقد ظلت كذلك خلال عهد سليمان المزدهر ، ولكن عند موته عاد التنافس القديم من جديد وشطر المملكة شطرين ·

هذا الى أن تقاليد العبريين البدوية لم تكيف نفسها وفق الملكية فى يسر ، فعلى الرغم من أن الملكية كانت أمرا لا مناص منه لكى تشغل اسرائيل مكانا فى الميدان السياسى للشرق ، كانت روح أهلها الديمقراطية الاستقلالية تعرقل الملكية وتنال منها ٠ وقد استعان معارضو السلطة الملكية بالسلطة الدينية ، فأوجدوا داخل الدولة ثنائية أخرى الى جانب ثنائية الشمال والجنوب ٠ ولم يلبث شاءول أن اصطدم بالكهنة ، وكان هذا هو السبب الأساسى لسقوطه ومجيء داود بعده ٠ وقد أدرك داود وسليمان القوة المركزية الدينية وسلطة الكاهن الأكبر ، فاتبعا السياسة التى يتبعها الملوك والأباطرة دائما فى مثل هذه الأحوال ، وذلك أن بسطا « حمايتهما » على الدين . وألحقا الكاهن الأكبر ببلاطهما ، وجاهدا ليجعلا الهيئة الدينية ادارة من ادارات الدولة ٠

وكان أثر هذه السياسة هو أيضا ذلك الأثر الذى أورد لنا التاريخ أمثلة كثيرة أخرى له ، فقد سلك الكهنة بطبقاتهم المختلفة مسلك موظفى الدولة ، فانصبت الكراهية عندئذ على الدولة والدين الرسمى معا ٠ وحدث صدع بين الدين الرسمى والآمال الدينية لأولئك الذين كانوا ينظرون الى الدين على أنه أكثر من شكل جامد ٠ وتطور التوتر الى معارضة ، وكان الأنبياء بعد انقسام المملكة لسان هذه المعارضة ٠ فقيام الأنبياء كان مظهرا تلقائيا لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التى فرضها الحكم الملكى على الدين ٠ وكان الأنبياء يدعون الى التمسك بالأفكار القديمة ، وكانوا من أوائل المنادين بتلك الفلسفة للتاريخ التى قلنا فيمامضى انها تنتمى الى جوهر الدين العبرى ٠ فقد رأوا أن الاضمحلال السياسى الذى تبع انقسام المملكة هو أثر سخط الله على شعبه العاصى ٠

ويبدأ تاريخ المملكة الموحدة بشاءول حوالى عام ١٠٢٠ ق٠م٠ ويمكن أن يقال عنه انه كان مهيئا بطبيعته للنجاح فى ظروف عصر القضاة ، وللفشل فى أحوال عصر الملوك ، فقد كان شخصية محاربة متهورة طاغية، حظها من الروح الدبلوماسية قليل ٠ وهذا هو السر فى مصيره المحزن ٠ فقد وفق توفيقا رائعا فى توحيد جميع القبائل تقريبا تحت زعامته ضد الفلسطينيين ، وقادها الى النصر ، فكوفىء على ذلك بالملكية ، ولكن عجزه عن السيطرة على الفئات المتعارضة داخل مملكته منعه من توطيد انتصاراته أو سلطته ، وأدى الى سقوطه ٠ وكان نزاعه مع داود ، زوج ابنته ، من أهم عوامل سقوطه ، فانصداع مابينه وبين داود أبعد عنه تأييد طبقة الكهنة القوية ٠ وقد قتل وهو يحارب الفلسطينيين الذين كانوا يفيدون

من تفكك الدولة ليفتحوا من جديد المنطقة الواقعة غربى الأردن ، ويعيدوا سلطانهم على القبائل العبرية .

ولكن أعاد داود الى اسرائيـل حظها الضائع ، وكان جلوسـه على العرش حوالى ١٠٠٠ ق.م. وكان قد بدأ بتكوين دولة صغيرة خاضعة للفلسطينيين . ولكن مقدرته فى الحرب والسياسة معا اكسبته الاستقلال، وأقامته ملكا على اسرائيل مكان أسرة شاءول . وبالاستيلاء على القدس واستعادة تابوت العهد صار للدولة الناهضة من جديد مركزها السياسى والدينى ، وبسلوك سياسة قوية موجهة توجيها موفقا صارت لها السيطرة على فلسطين والمناطق الصحراوية المحيطة بها وجزء كبير من سوريا .

ولكن مقدرة داود نفسها لم تكف لحفظ السلام فى الدولة ، بل انه فى وقت من الأوقات ، حين تزعم ابنه ابشالوم الثورة ضده ، اضطر الى الفرار الى ما وراء نهر الأردن لينجو بنفسه ، وكان عليه بعد ذلك أن يقـاتل للعودة الى العرش (٧) . ولكن عهـده كان فى جملته عهد يسر ورخاء ارتفع به اليهـود فى العصـور الكئيبة اللاحقة الى مرتبـة العصر الذهبى . وقد بلغت فيه الحياة السياسية التجارية درجة عالية من التقدم، واحتفظ الدين الى حد بعيد ببساطته الأولى ونقائه القديم .

وكان سليمان بن داود (٩٦١ ــ ٩٢٢ ق.م) (٨) شديد الاختلاف عن أبيه . فقد أحدث تغييرا جوهريا فى كل حياة المملكة ، وأعاد تنظيم المملكة على نمط الممالك المطلقة السلطان فى الشرق الأدنى القـديم . فالأبهة والترف فى البلاط ، وكثرة الزوجات والجوارى التى كانت تتطلبها اعتبـارات الدبلوماسية والسمعة والتى قدر ، كما تقول التـوراة ، أن تشغل قلب الملك ، ثم ازدياد مؤامرات القصور ، كل هذا يمثل نظاما يختلف تمام الاختلاف عن أساليب العبريين فى الحياة والتفكير ، نظاما لم يكن بد من أن يعجل انتهاجه بوقوع أزمة .

وقد امتاز عهد سليمان بتقدم تجارى عظيم ، كفلته السيطرة على الطرق التجـارية فى سوريا وفلسطين وعلى الطريق المؤدى الى البحـر الأحمر . وبين أعماله ، التى قام بكثير منها مشتركا مع الدول الفينيقية البحرية ، رحلة الى « أوفير » ، وربما كانت هذه على ساحل الصومال(٩). ويتحدث سفرا الملوك أيضا (١٠) عن اتجاره فى الخيل وعربات الحرب ولابد أنه كان محتكرا لهذه التجارة فعلا ، لأن مزاولتها بين مصر وسوريا كانت تعتمـد بالطبع على الطرق البرية ، وهـذه كانت جميعـا فى يد اسرائيل . والاصطبلات الملكية الكبيرة التى كشفت فى مجدو تؤكد مدى اهتمام سليمان بتربية الخيل (١١) .

وثمة كشف أثرى آخر يلقى بعض الضوء على الحياة الصناعية فى اسرائيل ، فقد كشف الدكتور جلوك Glueck (N.) فى عصيون جابر ، على ساحل البحر الأحمر ، مناجم للنحاس ومصانع لتكريره ، يدل بناؤها على تقدم كبير فى العلم والخبرة الفنية (١٢) ٠

ولم يكن بد لهذا الازدهار من جانب معتم ٠ فالزيادة العظيمة فى سعة البلاط وفخامته ، وفى اتساع وظائف الدولة وتعقدها ، وفى عدد الأعمال العامة التى اضطلع بها سليمان وفخامتها ، هذه الزيادة اضطرت سليمان الى اقامة نظام من الضرائب ألقى على شعبه عبئا ثقيلا على أى تقدير ، وزاد من ثقله واستنكار الشعب له أن الضرائب من أى نوع لم تتطرق الى طريقتهم فى الحياة والتفكير الا قبل ذلك بزمن قصير ٠ والواقع أنه بلغ من شدة هذه الضرائب أن البلاد ، رغم مظاهر الرخاء ، كانت تسير نحو أزمة اقتصادية ، فكان للعامل الاقتصادى أن يلعب دورا هاما فى الأزمة السياسية التى تلت فعلا موت سليمان ٠

وكان انشاء المعبد الكبير فى أورشليم أشهر ما قام به سليمان من أعمال عامة ٠ وقد ضم هذا العمل الفخم عناصر فنية من كنعان ، فينيقية وغير فينيقية ، وكذلك من مصر وأرض الرافدين ٠ والدين اليهودى نفسه لم يظل بعيدا عن مثل هذا التأثر ، فالرواية اليهودية تنعى على سليمان أنه أدخل صورا أجنبية من العبادة ، ولسنا ندرى أتجاوز هذا نطاق الحيل الدبلوماسية أم لا ، ولكنه كان ، رغم المنافع التى قد يكون جلبها من ناحية السياسة الخارجية ، خطوة هددت بالخطر الوحدة القومية للشعب العبرى ٠

***

وانتهى نفوذ العبريين السياسى بموت سليمان ٠ واندلع التنافس القديم بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب على نحو عنيف فى ثورة يربعام (الأول ، حوالى ٩٣٣ ـ ٩١٢ ق٠م : المترجم) ، التى أدت الى انشقاق المملكة شقين ٠ وكانت المملكة الشمالية ، أى اسرائيل ، أكبر وأقوى عسكريا الى حد بعيد ، ولكن كانت المملكة الجنوبية أقل انكشافا ، وكانت أورشليم ، المركز الدينى ، عاصمة لها ٠

وقد صحب انقسام المملكة اضمحلال دينى ٠ فقد أعاد يربعام فى الشمال الهيكلين القديمين فى مدينتى بيت ايل (١٣) ودان (١٤) ليجابه نفوذ أورشليم (١٥) . وفى الجنوب ، ظل ملوك يهوذا مخلصين للمعبد

الكبير ، ولكنهم غضوا النظر عن عبادة آلهة دخلت فى عصر سليمان فقدر للمملكتين معا أن تشهدا دخول عبادات وطقوس وثنية ٠

هذه الأحوال هى السبب فى قيام الأنبياء ٠ وكان يميز دعوتهم العداء للتطور السياسى الدينى الذى شهده عهد الملكية ، وادى الى تلوث دين يهوه القديم وفساده ٠ وقد ندد الأنبياء بالبدع الوثنية ، وبذلك عارضوا السلطة الملكية معارضة صريحة ٠ وقد لاحظ العلماء بثاقب نظرهم أن هذه النبوة تعبير عن انبعاث روح الحرية الموروثة عن حياة البداوة تلك الروح التى رأت فى الملكية بدعة منكرة ونظاما منقولا عن العالم الخارجى المعادى لاسرائيل ٠

وقد قدر لتاريخ العبريين السياسى حتى النفى الى بابل ، أن تلازمه دون فكاك دعوة الأنبياء ، فقد تابعوا تقلباته جميعا ، ونددوا دائما بسياسة الحكام ٠ وكانوا يدعون الى نقاء القلب وتواضعه ، واستقامة السلوك ، والاخلاص للعهد المعقود مع الله ، ويفسرون مصائب الدولة اليوم أو غدا (كما يتنبأون) بأنها نتيجة لانحراف الناس عن الولاء لله بعد أن أضلهم الحكام ٠

وقد ظهرت طليعة الأنبياء الكبار فى مملكة اسرائيل فى القرن التاسع قبل الميلاد ، حين قام فيها الياهو (١٦) واليشاع (١٧) ٠ واليهما يرجع رد الفعل ضد وثنية أحآب (حوالى ٨٧٦ ــ ٨٥٤ ق.م : المترجم) ، والقضاء فى عهد يهو (حوالى ٨٤٢ ــ ٨١٥ ق٠م : المترجم) على صور العبادة الوثنية ٠ ولكن لم تكن لهذا الاصلاح نتائج باقية ، فان الانحرافات القديمة لم تلبث أن عادت الى الظهور ، وتدلنا الكشوف الأثرية على كثرة الأشجار المقدسة من النمط الكنعانى ، ومذابح البخور ، والتماثيل الصغيرة للالهات ، والتمائم ٠ وقد عاقب أنبياء جدد فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، هم عاموس وهوشع وميكا (ميخا) ٠ وكانت دعوة الياهو واليشاع بالعمل أكثر منها بالقول ، فلم يخلفا لنا أسفارا مكتوبة تعبر عن دعوتهما ، ولكن سمى هؤلاء الأنبياء الجدد « بالمنشدين الجوالين » rhapsodists ، لأنهم كانوا ينذرون الناس وينصحونهم بمواعظ وصلت الينا فى تلك الأسفار من العهد القديم التى تحمل أسماءهم ٠

وكانت حياة مملكة اسرائيل تدور حول عاصمتها السامرة (١٨) ، وكانت مزدهرة تنعم بالرخاء خلال عهد أحآب ، ولكن اضطر يهو الى التذلل لملك أشور شلمنصر الثالث ، وحد الأراميون فى دمشق من سلطان خليفته يهوآحاز (١٩) ، فلم يتجاوز ملكه الفعلى العاصمة الا قليلا ٠ وفى

عهد يربعام الثانى (٧٨٣ ـ ٧٤٣ ق٠م : المترجم) شهدت اسرائيل آخر فترات أمجادها ، ثم جاء الاضمحلال الأخير ٠ فالامبراطورية الأشـورية كانت تتسع منتصرة لتبلغ ذروتها ، وبعد مقاومة قصيرة تقلب فيها الحظ استسلمت مملكة اسرائيـل أخيرا باستيلاء سرجون على السامرة عـام ٧٢٢ ق٠م ٠

وكان تاريخ يهوذا ، كتاريخ اسرائيل ، يتحكم فيه التنافس بين مصر ودول الرافدين ٠ فبعد فترة قصيرة من المجد فى عهد عزياهو (٢٠) ، صارت يهوذا فى عهد حزقياهو (٢١) تدفع الجزية لأشور ، على الرغم من تخليص أورشليم من قوات سنخريب المحاصرة لها عام ٧٠١ ق٠م ٠ وكان اضطهاد الأنبياء على أعنفه فى عهد منشى ٠ فقد حاول التقرب الى الأشوريين بادخال كثير من العبادات الوثنية الأجنبية (٢٢) ٠ ولم يلبث أن حدث رد فعل ضد ذلك فى عهد يوشياهو (٢٣) ، فقد قام باصـلاح دينى شامل عاد فيه الى وحدانية متشددة وثبت الطقوس الدينية ، ولكن بعد ذلك بقليل ضمت يهوذا الى امبراطورية نبوخذنصر ، اذ وقعت بين شقى الرحى : مصر وقوة بابل الصاعدة ٠ وثارت أورشليم مرتين ، وفى المرة الثانية (٢٤) ، عام ٥٨٦ ق٠م ، أخذت عنوة ودمرت فى عنف ، ونفى خيرة الشعب الى بابل ٠ وكان هذا بداية عصر المنفى Exile ٠

ويبرز نبيان خلال التاريخ العاصف لمملكة يهوذا : اشعيا ، وقت سقوط اسرائيل ، وارميا (٢٥) ، حين سقطت أورشليم هى أيضـا ٠ فالخراب الذى تنبأ به اشعيا حـل زمن ارميا ٠ وقد شمل كلا النبيين باستنكاره شعوبا أخرى بل الانسـانية عامة ، فكان ذلك ايذانا بالاصرار على فكرة حكم يهوه للعالم بأسره ، ذلك الاصرار الذى برز خاصة فى عهد المنفى ٠ وكان تشاؤم ارميـا العميق واستسـلامه الكئيب آخر تعبيرات الفكر العبرى ، والنفى على الأبواب :

٢١ ـ لذلك قال الرب : هأنذا أجعل لهذا الشعب حجرات عثرة ، فيعثر فيها الآباء والأبناء معا ، ويهلك الجار وصاحبه ٠

٢٢ ـ هكذا قال الرب : هاهو ذا شعب قادم من أرض الشمال ، وامة عظيمة تهب من أقاصى الأرض ٠

٢٣ ـ يشـدون على القوس والرمح ، وهم قساة لا يرحمون ، صوتهم يهدر كاليم ، وعلى الخيل يركبون ، وهم مصطفون رجلا واحـدا للمعركة ضدك يابنت صهيون ٠

٢٤ ـ سمعنا خبرهم ، فارتخت أيدينا ، وأمسك بنا ضيق ووجع كوجع الماخض ·

٢٥ ـ لا تخرجوا الى الحقل ، ولا تذهبوا فى الطريق ، لأن للعدو سيفا ، والخوف محيط من كل جانب ·

٢٦ ـ يا ابنة شعبى انتطقى بمسح وتمرغى فى التراب ، وأقيمى لك مأتما كمأتم الولد الوحيد ، مناحة مرة ، لأن المخرب سيأتينا بغتة (*) ·

والتفت المنفيون فى مهانتهم السياسية الى دينهم يلتمسون فيه العزاء ، فقامت نهضة روحية عميقة · وأملهم فى غد أفضل تبدى فى نمو فكرة المسيح المخلص ، وهى فكرة كانت قائمة فعلا من قبل ·

هذه المرحلة الجديدة من مراحل الدين العبرى تعبر عنها رؤى حزقيال ، نبى المنفى . فالدين « الوسمى » قد زال مع الدولة ، وزال بزواله ما أثاره من قلق وصراع ، فانضمت عندئذ الرواية النبوية الى السلطة الكهنوتية فى جهد دائب لوضع صيغ جديدة للرواية القديمة · فوجدنا الوحدانية العالمية ، بعد أن تحررت من قيود المشاكل السياسية الضيقة ، تتحد مع الأمل فى حياة دينية جديدة تدور حول المعبد بعد أن يبنى من جديد ·

ويظهر نبى كبير سماه الباحثون فى العهد القديم اشعيا الثانى لأن نبوءاته ضمت الى نبوءات اشعيا ، وهو يدعو الى الوحدانية الخلقية النقية ، ويرى فى الشقاء وسيلة للتطهر أتاحها الله · فهنا ، كما فى سفر أيوب ، تصل اسرائيل الى فكرة التطهر catharsis التى تحدد نهاية تاريخها القديم ·

وفى عام ٥٣٨ ق·م فتح الفرس بابل ، وسمح كورش لليهود بالعودة من المنفى وبناء المعبد من جديد · ولكن منذ ذلك الحين ، فيما عدا فترة المكابيين القصيرة والحكم الاسمى لأسرة هيرود (٢٦) ، صارت فلسطين تحت سيطرة دول أجنبية بل تحت حكمها المباشر ، وبمجىء العصرين الهلينستى والرومانى خرجت فلسطين عن نطاق التاريخ السامى المحض ·

(*) ارميا ٦ : ٢١ ـ ٢٦ (النص الانجليزى لما يستشهد به من آيات العهد القديم منقول عن « الترجمة الانجليزية المنقحة » English Revised Version)

الدين

ان احتفاظ الدين العبرى بكيانه عبر العصور يجعل لدراسته طرافة وأهمية خاصتين · والفترة التى نشغل بها هنا ليست الا جزءا من الحياة التاريخية لليهودية ، ولكنها فى أساسها فترة البناء والتكوين ، فصار عمل الأجيال بعدها الحفظ والصون لا التطوير والبناء ·

وتختلف الآراء بصدد أقدم مرحلة فى الميدان الدينى كما اختلفت حول أقدم مرحلة فى الميدان التاريخى · والمشكلة هى أن نضع كل عنصر من العناصر المختلفة المكونة للدين العبرى فى مكانه الصحيح من عملية تطور ذلك الدين · ويمكن القول ان النظـام الدينى العبرى كان كاملا فى جوهره ، ولا سيما من ناحية الطقوس ، قبل انشاء الملكية · وكان دخول العبريين فلسطين نقطـة تحول فى تاريخ تكون النظـام الدينى العبرى ، فقد تحولوا بعد دخولهم من حياة البداوة والرعى الى الحيـاة الزراعية المستقرة ، وان لم يكن هذا التحول قاطعا أو كاملا ·

***

وبداية التراث الدينى القديم ايمان الشعب باله واحد له ، هو يهوه الذى أعلن توراته ، أى قانونه ، بلسان موسى · ولا يعرف معنى الاسم يهوه على وجه اليقين ، وفى الآية المشهورة من سفر الخروج (٣ : ١٤) يفسره بعض العلماء بأن معناه « هو الذى يكون » ، ويفسره آخرون بأن معناه « هو الذى يوجد » (بكسر الجيم) أى « الخالق » ، وهناك أيضا تفسيرات أخرى (٢٧) · ورب العبريين محجوب عن عين الانسان الا فى حالات

معينة وأشكال خاصة ، ويجب ألا يصور بأية صورة ، وليس له مسكن ثابت ، ولكن يمكن أن يكون فى كل مكان ، فانه اله شعب بدوى ، وهو لا أسرة له ، وليس بذكر أو أنثى ، وهو مقدس وعادل ، وقد عقد عهدا خاصا مع اسرائيل ، وجعل من اسرائيل شعبه المختار ٠

وبدون معبد أو مذبح كان اله اسرائيل يظهر وسط السحب ، ويبدى قوته فى البرق والعاصفة ٠ وكان يقود شعبه فى تجوالهم مستقرا فوق « تابوت العهد » ، وهو صندوق مصفح بالذهب ، يعلوه تمثالا ملكين من طائفة « الكروبيم » (٢٨) ، ويحمله بنو اسرائيل معهم ، فاذا استقر بهم المقام وضعوه فى خيمة ، ولم يستبدل معبد بهذه الخيمة الا حين جاء عصر سليمان ٠

والشعب البدوى لا يستطيع متابعة طقوس دائمة منتظمة ، وانما يحتفل بالأحداث الكبيرة فى حياة الرعى ٠ ولعل تقديم قرابين الحملان فى الربيع أقدم هذه الاحتفالات ، وتربطه الرواية اليهودية بخروج العبريين من مصر ، ولهذا صار عيد الفصح ، ويتصل به أكل الخبز دون خمير ، وتربط الرواية اليهودية هذا أيضا بالهرب من مصر (٢٩) ٠ وهناك عيدان آخران ينتميان الى بيئة زراعية هما :

١ ــ شابوعوت « الأسابيع » ، بعد الفصح بسبعة أسابيع ، وهو عيد سمى بعد ذلك فى اليونانية pentecoste «الخمسين» ، أى اليوم الخمسين بعد الفصح ، وهو عيد للحصاد (٣٠) ٠

٢ ــ سكوت « المظال » ، وهو عيد للعنب (٣١) ٠

وللصيام أصل موغل فى القدم ، وأهم صيام هو صيام التكفير (كبور) فى اليوم العاشر من السنة (٣٢) .

وكان يحتفل بيوم كل أسبوع على أنه يوم راحة ، وهو السبت ، وقياسا على ذلك كان يجب أن تستريح تربة الأرض سنة كل سبع سنوات ، وكانت هذه السنة تسمى سنة السبت ، ولم يكن يبذر أو يحصد فيها شيء ٠ وبعد سبع دورات تضم كل منها سبع سنوات تأتى سنة اليوبيل ، وفيها يجب رد جميع الأراضى الى أصحابها الأصليين(٣٣) ٠

وكان الختان عادة عبرية قديمة ، ولكن كانت تمارسه شعوب أخرى مجاورة ، وليس من المقطوع به أنه من أصل سامى ٠

وكان اللاويون يتولون أعمال الكهنوت ، وربما كانوا قبيلة

فيما بينهم ، قد يضم اليها أعضاء جدد لا ينتمون اليها بالميلاد • وكان للمتنبئين المحترفين سلطة معينة منذ أقدم الأزمان ، وقد قدر لهذا النظام فيما بعد أن يكون له أثر عظيم فى قيام الأنبياء •

وبعد أن استقرت القبائل العبرية في فلسطين ، أخذت عناصر مختلفة عن الحضارة الكنعانية • فسفر القضاة يستنكر صراحة الابتعاد عن شريعة موسى (الاصحاح الثانى ، الآيات ١١ ـ ١٣) (٣٤) • ولكن في الوقت نفسه أدى الاتصال بالشعوب الأخرى الى تدعيم اخلاص العبريين ليهوه الها قوميا لهم ، ونظر الى أحداث عصر القضاة على أنها الصراع بين يهوه وآلهة الكنعانيين •

وفي عهد شاءول وداود شهدت الملكية تدعيما ملحوظا لدين يهوه • وبنقل تابوت العهد الى القدس تركز الدين القومى فى العاصمة القومية • وفى عهد داود اتفقت مثل الكهان مع مثل الملك ، وبفضل هذا الانسجام نعمت اسرائيل زمنا بالسلام والازدهار الدينيين • ولكن سياسة سليمان وضعت حدا لهذا التحالف ، فعلى الرغم من أنه قدم ليهوه أرفع آيات الاجلال اذ بنى له المعبد ، فان قبوله صورا أجنبية من العبادة كان لابد أن يحدث صراعا بين الولاء السياسى والولاء الدينى ، ويؤدى الى أزمة سياسية دينية •

وقد شهد عصر المملكتين نتيجة هذا الصراع المزدوج ، وهى اضمحلال السلطة السياسية وقيام قوة دينية جديدة هى قوة الأنبياء وقد جاءت حركة الأنبياء لتكبح وتبطل عملية الاندماج فى الدين الكنعانى التى كانت تسير بالتدريج ، ولتهيب بالمؤمنين أن يعودوا الى التقاليد القديمة ، ولتكفل بذلك استمرار دين يهوه وتثبيت دعائمه ، كأنما تحتاط لليوم الذى صار فيه دين يهوه القوة الوحيدة التى منعت الانحلال التام للشعب العبرى ، فلولا دين يهوه لزال هذا الشعب الى الأبد •

وقد تحدثنا من قبل عن دور الأنبياء السياسى ، فبقى علينا هنا أن نتحدث عن دورهم الدينى • ويسمى النبى فى العبرية « نابى » ، وقد اختلفت الآراء حول هذه الكلمة ، ولكن يبدو أن أصح تفسير لها هو « المدعو » ، أى من يدعوه الله • فالله يختار النبى ويوحى اليه ليحمل رسالته الى الناس ، والنبى يكرس نفسه كلها لله . ومن هنا كان يسمى فى كثير من الأحيان « رجل الله » •

وهكذا كانت النبوة فضلا يسبغه الله • فكانت ، كما تقول التوراة ، تأتى الى النبى من تلقاء نفسها ، على غير توقع أو رغبة فى كثير من

الأحيان . فهي اذن ظاهرة جبرية . ولكن ليس معنى هذا أنها على النقيض من الكهانة فقد أوضح الأستاذان جونسون Johnson (A.R.) وهالدار Haldar (A.) [٣] أن الأنبياء كانوا فى كثير من الأحيان يتحدون فى جماعات ويكونون فريقا من رجال المعبد .

فمن تلقى دعوة النبوة ذهب الى السوق أو المعبد أو القصر ، ونادي بما دعي اليه ، سواء أكان سامعه من علمة الناس أم كاهنا أم ملكا . وكانت دعوته تدور حول محورين أساسيين : فكان من جهة يدعو فى اصرار الى الوحدانية الخالصة ، ويرفض كل نوع من أنواع التساهل أو التراضى مع العبادات الأجنبية أو الوثنية ، وكان من جهة أخرى يدعو الى صلاح الأخلاق ، ويندد بذلك التهاون الخلقى الذى لم يكن فى حقيقة أمره سوى نتيجة للتهاون الدينى . ولم يكن فى دعوته الى نقاء العبادة أو صفاء السلوك يغفل عن تأكيد دعوته بالتنبؤ بالعقاب الذى سيقع اذا لم يسمع قوله ، فهذه خلاصة نظرة الأنبياء الى سير التاريخ .

وكان النبى يسعى الى أن يحقق فى نفسه النقاء وطهر العيش اللذين كان يدعو غيره اليهما فى قوة والحاح . وكثيرا ما اعتزل الأنبياء فى الصحراء يحيون فيها حياة النساك ، أو عاشوا على نحو آخر عيشة تقشف وزهد . وكان يسود تفكيرهم كله شوق الى بساطة العيش القديمة ، ذلك المثل الأعلى البدوى الذى ظل قوة حية فى كثير من الشعوب السامية . ومن الجلى أن ظاهرة كالنبوة لها طبيعتها الشخصية القوية لا يكفى تفسيرها على نحو كاف بالشوق والنزوع الى أحوال الماضى ، فالأفكار والأعمال التى صدرت عن عاموس وارميا واشعيا وكثيرين غيرهم دخل فى صنعها قدر كبير من العبقرية الأصيلة لا يكفى معه مثل ذلك التفسير ، ولكن يمكن أن نقول بوجه عام ان دعوتهم صدرت عن عاطفة تميز الرعاة القدامى الذين منحتهم الصحراء القدرة على رؤية مثل أعلى دينى أعظم وأبسط من ذلك الذى ساد الممالك المتكلفة المتصنعة ، وان هذه العاطفة استهوتها تلك الدعوة فاستجابت لها .

وقد ذكرنا فيما مضى انقسام حركة النبوة الى مرحلتين : الدعوة بالأعمال والدعوة بالأقوال ، وعرضنا فى ايجاز لتاريخ كفاحها ضد محاولات التوفيق بين دين يهوه وغيره وضد الفساد الدينى . ويجب الآن أن نبين فى اجمال تطور أفكار الأنبياء الدينية الأساسية .

فرؤيا الياهو على جبل حوريب ، كما يصفها سفر الملوك الأول (١٩ : ١١ ـ ١٣) (٣٥) ، تظهر فى وضوح ازدياد الناحية الروحية فى

فكرة الله . فهو لا يزال شخصيا personal ، ولكن أخذ يقل شيئا فشيئا تصوره بصور الانسان ، واخذت مظاهره تنتقل خطوة بعد خطوة الى ميدان الخيال الشعرى .

وهناك أفكار دينية كثيرة صورت قديما فى جلاء الى حد ما ، فصارت الآن أكثر تحديدا وتعريفا ، وذلك من فكرة الخلق ، وما كان الانسان فيه من نعيم أول الأمر ، وعواقب خطيئة آدم ، الى ما ينتظر المرء وراء القبر . وهناك خاصة فكرة كانت تبرزها الأزمات السياسية من حين الى حين ، فلما زال ملك اسرائيل ويهوذا خرجت الى الصدارة فى وضوح وجلاء ، وهى فكرة المسيح المخلص . وهذا تعبير اشعيا عنها :

١ ـ وسيخرج قضيب من جذع يسى (*) ، ويثمر غصن (٣٦) من أصوله .

٢ ـ وتحل عليه روح الرب : روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة وتقوى الرب .

٣ ـ وتكون سعادته فى تقوى الرب ، فلا يقضى بنظر عينيه (٣٧) ولا يحكم بسمع أذنيه .

٤ ـ ولكن يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم بالانصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض (٣٨) بقضيب فمه ، ويميت الخبيث بنفخة شفتيه .

٥ ـ ويكون البر ازار متنيه ، والأمانة مئزر حقويه .

٦ ـ فيسكن الذئب مع الحمل ، ويربض النمر مع الجدى ، والعجل والشبل والماشية المسمنة (٣٩) معا ، ويسوقها صبى صغير .

٧ ـ والبقرة والدبة ترعيان ، وتربض أولادهما معا ، والأسد كالبقر يأكل تبنا .

٨ ـ ويلهو الرضيع على حجر الصل ، ويمد الفطيم يده الى كن الأفعوان .

٩ ـ لا يسوءون ولا يفسدون فى جبل قدسى كله ، لأن الأرض امتلأت بمعرفة الله كما تغطى المياه البحر .

١٠ـ ويكون فى ذلك اليوم أن أصل يسى القائم لواء للشعوب ستسعى اليه الأمم ويكون محله مجدا (**) .

(*) يسى أبو داود .

(**) اشعيا ١١ : ١ ـ ١٠

وكان أمل المسيح المنتظر شوقا الى عودة ملك داود ، الذى كان يعد عصر ذهبيا تزول به مصائب الحاضر ، وقد استمر هذا الأمل طوال هذه المرحلة الأخيرة من التفكير الدينى العبرى ، وصار نقطة البداية للوحى المسيحى ٠

والتطلع الى المسيح المنتظر ليس فى جوهره سوى التوكل العبرى الدائم على ميثاق الله ٠ فالميثاق الذى عقده الله مع ابراهيم يكرر ويجدد طوال العصور ، وهو فى مرحلته الأخيرة هذه يعد الاسرائيليين ــ جزاء صبرهم ووفائهم وقت المحنة التى جرتها عليهم عودتهم الى الآثام ــ بقدوم زمن سعيد يزول فيه كل خوف ويسود العالم الأمن والحب ٠

***

وفى زمن النفى طهرت مثل اسرائيل الدينية وسمت من عدة وجوه ٠ فزوال الشعب كتلة سياسية متميزة أتاح للفكر العبرى أن يدرك ويؤكد على نحو أوضح من أى وقت مضى أن يهوه هو الاله الواحد الأحد للعالم والبشر جميعا ٠ ثم ان شقاء النفى وانقطاع طقوس المعبد جعلا الاسرائيليين يعودون الى الله ويشغلون بالمعنى الباطن للدين ٠ وفسرت مصائب الشعب على أساس دينى بأنها تجربة للتطهير تهيىء الشعب للنهوض من جديد عن جدارة واستحقاق ٠

والى جانب هذا البعث فى الشعور الدينى حدث تطور واحكام فى الدين المقنن الموضوع فى صيغ ثابتة ٠ وممثل هذا الربط بين مثالية النبوة وتقنين الكهنوت هو حزقيال الكاهن النبى ٠ ومن النتائج الطبيعية لأحوال النفى أن وجه الكهان اهتمامهم الى دراسة الشريعة دراسة منظمة، فأدى بهم هذا الى أن يتولوا نشر الأسفار المقدسة ٠ فجمعت هذه المصادر التقليدية لتاريخ العبريين ودينهم ، ورتبت فى أقسام كبيرة ثلاثة : التوراة والأنبياء والكتابات ، حتى تنقل نقلا أمينا الى الأجيال التالية ٠

ولما عاد الاسرائيليون من المنفى بعد انتصار كورش ، وبنوا المعبد من جديد ، بدا أن هناك أملا فى أن تتحقق آمال أهل المنفى ، وتخرج خططهم الى الوجود ، ولكن لم يقدر لهم أن يتركوا فى سلام ٠ فقد تتابعت اضطرابات وأزمات واصلاحات جديدة ، وانتهى فى الواقع تاريخ الشعب اليهودى وحدة مستقلة ، فنهضة المكابيين لم تكن سوى مرحلة عابرة ٠ ويمكن أن نميز بين اتجاهين دينيين بارزين بين اليهود وهم على عتبة مصيرهم الجديد : اتجاه له طابع نبوى ، واتجاه آخر له طابع كهنوتى ٠

فالاتجاه الأول أقرب الى النفس وأشمل للبشر ، والاتجاه الثانى أكثر اهتماما بالظاهر وتعلقا بالقومية • وقد قدر لليهودية أن تتطور بالتفاعل بين هاتين القوتين • فالروح الوطنيــة قدر لها المحــافظة فى حرص عن الأشكال القديمة طوال العصــور ، ونظرة النبوة قدر لها أن تتطور الى حركة شاملة للعالم ورثتها المسيحية •

العهد القديم

رأينا أن تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته عامة يتميزان بغلبة الدوافع الدينية على غيرها من جوانب الحضارة ، ولكن قلما نجد دينا آخر بلغ ما بلغه دين العبريين فى استيعاب جميع العناصر الحضارية الأخرى والسيطرة عليها واستبعاد ما لا يتمشى معه منها ٠

ولنورد مثالا يوضح هـذه النقطة ٠ فتحريم الدين لأى تصوير أو تمثيل لله قضى على امكان التطور الفنى ، الى حد اضطر معه سليمان عند بناء معبده الى الاستعانة بالفنانين الأجانب ٠ فلم يمكن تطور التصوير أو النحت فى مثل هذه الأحوال ، لأنهما يستمدان وحيهما من الموضوعات الدينية قبل كل شيء ٠

ومنذ أقدم العصور كان الجهد الأساسى للعبريين جيلا بعد جيل موجها الى حفظ الاسفار التى تضم تاريخهم القومى ودينهم ونقلها الى الأجيال اللاحقة ٠ وقد وصلت الينا نتيجة جهدهم الدائب فى صـورة كتاب أو ، بالأحرى ، مجموعة كتب هى أعظم عمل أدبى للشعب العبرى فى العصور القديمة ، ونعنى به العهد القديم ٠

ولم تحفظ على هذا النحو جميع آثار الأدب العبرى القديم ٠ فأسفار العهد القديم نفسها تشير الى المصادر التى استمدت منها مادتها ٠ هذا الى أن المخطوطات العبرية التى كشفت أخيرا بالقرب من البحر الميت تضـم ، عدا بعض نصوص العهد القديم ، كتابات أخرى ليست فيـه (انظر اللوحة الثانية عشرة) ٠ والسبب الرئيسى الذى دعا العبريين الى أن يحفظوا فى العهـد القديم الأسفار التى يضمها دون غيرها هـو أن

الغرض من تصنيفه كان دينيا لا أدبيا . فاختيرت الكتب التى تصلح للتعليم الدينى ، أى التى تشتمل على تعاليم دينية وتاريخ دينى ، وأدرج فى التاريخ الدينى تاريخ الشعب اليهودى من حيث هو تاريخ للعهد بين الله واسرائيل .

هذه النظرة الى التاريخ ، التى تكلمنا عنها من قبل ، أدت الى أن تعرض تعاليم التوراة فى صورة يمكن أن نصفها بأنها صورة قصصية ، لا على نحو منهجى . فالتعاليم القانونيــة والخلقية والتعليمات العمليــة ودعوات الأنبياء عرضت فى الغالب حسب ورودها فى وضعها التاريخى .

* *

يبدأ العهد القديم بأسفار موسى الخمسة Pentateuch . وأول هذه الأسفار ، وهو سفر التكوين ، يحدثنا عن أصل العالم والبشر ، ويتتبع تاريخ الانسان حتى تكون نواة الشعب العبرى بابراهيم وأسرته ، ويحكى هجرات أجداد العبريين الى فلسطين وأخيرا الى مصر . والسفر الثانى ، وهو سفر الخروج ، يسوده شخص موسى ، ويحكى قصة الفرار من مصر واعلان الشريعة من جبل سيناء . والسفران التاليان ، سفر اللاويين وسفر العدد ، يحتويان على مزيد من أحكام الشريعة ، وأغلبهـا مما يمت الى الطقوس ، ويواصــلان حكاية التجوال فى الصــحراء حتى الوصول الى الضفة الشرقية لنهر الأردن . وآخر الأسفار الخمسة ، وهو سفر التثنية ، يورد أحكاما أخرى للشريعة على أنها آخر ما فرضه موسى قبل موته وأرض الميعاد على مرأى عينيه .

هذه هى الصورة التى وصلت بها الأسفار الخمسة الينا . وهذه الأسفار هى القاعدة الأساسية للعهد القديم والدين العبرى بأسرهما ، ولكنها تنطوى على أخطر المشاكل النقدية . وتفسير أقدم تاريخ سياسى ودينى للعبريين يعتمد كله أخيرا على تاريخ تأليفها ، وتحديد مصادرها وتأريخها ، والقيمة التى تعلق عليها ، فلا عجب اذا كانت موضوع جدل معقد طويل .

وتنسب الرواية اليهودية والمسيحية القديمة تأليف الأسفار الخمسة فى صورتها الحالية الى موسى ، وهذا يجعلها فى صدر العهد القديم من حيث ترتيب التأليف والترتيب الزمنى لمادتها أيضا ، وكذلك ظن أن بقيه أسفار العهد القديم ألفت بالترتيب الذى نراها عليه الآن .

ولكن صعوبة قبول هذا الترتيب فى التأليف أدت ، قرب نهــاية القرن الثامن عشر ، الى فحص نقدى شامل للمسألة . وأوفى بيان لنتائج

الأبحاث التى تلت ذلك هو الذى صدر عن العالم الألمانى المشهور يوليوس فلهاوزن Julius Wellhausen • ويمكن أن نقول ، دون أن نخوض فى تفاصيل آراء فلهاوزن ومؤيديه ، أنهم عكسوا الترتيب التقليدى لتأليف أسفار العهد القديم ، فنسبوا الى زمن يلى موت موسى بعدة قرون تأليف الأسفار الخمسة الأولى خاصة ، أو بالأحرى الأسفار الستة الأولى Hexateuch لأن كتاب يشوع يدرج فى هذه المجموعة نفسها على أنه جزء منها • والاختلافات فى الأسماء التى يشار بها الى الله ، وتكرار بعض القصص ، والفروق البينة فى اللغة والأسلوب بين أجزاء مختلفة من هذه المجموعة ، كل هذا أقنع العلماء الناقدين بأن الأسفار الخمسة المنسوبة الى موسى كانت فى الواقع نتيجة تصنيف من مصادر مختلفة • وقد حددت أربع مصادر أساسية : ١ ــ المصدر اليهوى (J) (٤٠) ، وقد ألف حوالى ٨٥٠ ق٠م٠ فى مملكة يهوذا ، وسمى كذلك لأنه يستعمل اسم العلم يهوه ، بينما يستعمل الاسم الوهيم (الله) وحده فى مصدر آخر ، ولذلك سمى هذا المصدر الثانى : ٢ ــ المصدر الالوهيمى (E) (٤١) ، وقد ألف حوالى ٧٧٠ ق٠م٠ فى المملكة الشمالية ، وقد أدمج هذان المصدران فى مجموعة واحدة (JE) حوالى ٦٥٠ ق٠م • (٣) والمصدر الثالث هو التثنية (D) (٤٢) ، وقد ألف وأعلن العثور عليه زمن الملك يوشياهو، ملك يهوذا ، عام ٦٢٠ ق٠م ، وكان أساسا لاصلاحه الدينى ، ويأتى أخيرا : (٤) ــ المصدر الكهنوتى (P) (٤٣) ، وهو يرجع الى زمن عزرا ، وقد أدمج فى المصادر السابقة حوالى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، وكانت النتيجة أخيرا الأسفار الخمسة المنسوبة الى موسى •

ومن الجلى أن هذه النظرية أثرت فى الروابط بين جميع أجزاء العهد القديم • فأسفار الأنبياء والأسفار التاريخية لا بد أنها خرجت الى الوجود بهذا الترتيب قبل التصنيف الأخير للأسفار الخمسة ، ولكن لم تقبل على أنها أسفار مقدسة الا فى تاريخ متأخر • فترتيب التأليف كان على هذا النحو : أسفار الأنبياء ، فالأسفار التاريخية ، فالأسفار الخمسة ، ولكن جمع العهد القديم بدأ بالأسفار الخمسة ، وبعدها أضيفت الأسفار الأخرى لا بترتيب التأليف ولكن بترتيب منهجى حسب مادتها •

وقد سادت نظرية فلهاوزن الميدان سنين عدة دون معارضة تذكر ، ولكن بتقدم العلم وبفضل الأدلة الأثرية الجديدة خاصة أعيد النظر فيها مرة بعد أخرى • فمقارنة مادة العهد القديم بمصادر أرض الرافدين (ولا سيما القانونية منها) والمصادر الأوجاريتية وغيرها تبين فيما يبدو أن الأسفار الخمسة ، أو على الأقل جزءا كبيرا من المصادر

التى جمعت منها ، أقدم مما ظن فلها وزن . ومن هنا نجد أن الدراسات الحديثة للعهد القديم عدلت نظام فلها وزن من عدة وجوه ، وان لم تستبدل به نظاما يقارن به . فنجد أولا أنه بعض أبحاث المدرسة السويدية خاصة (انجنل Engnell (I.) وغير) اتجه النظر الى أن وسائل النقد الأدبى لا تكفى دون سند آخر ، والى أنه من الضرورى أن ندخل فى اعتبارنا آثار الرواية الشفوية التى تتناقل القصص فى كثير من الأحيان زمنا طويلا قبل تدوينها ، وأن ننظر الى المصنف الناشىء عن ذلك على أنه مكون من طبقات مختلفة ربما ترجع من مصادر متباينة (رأى بنتسن Bentzen (A.)) . ونجد ثانيا أن عناصر النظام قد عدلت ، فقسم المصدر اليهوى قسمين ، وسمى المصدر الجديد منهما L (Lay Codex) أى غير الكهنوتى لخلوه من الأفكار الكهنوتية (رأى أيسفلت Eissfeldt (O.) ، واقترح أيضا أساس مشترك common ground (G.) للمصدر اليهودى والالوهيمى (وهو اقتراح نوت Noth (M.) ، واقترحت تقسيمات أخرى للمصادر ، كالتقسيم الذى اقترحه فون راد von (G.) Rad للمصدر الكهنوتى ، وقدم تاريخا مصدر التثنية والمصدر الكهنوتى . ويوافق العلماء الكاثوليك على أن الأسفار الخمسة قد تكون جمعت من مصادر مختلفة وربما اشتملت على تغييرات واضافات متأخرة ولكنهم يصرون على أنها صادرة أساسا عن موسى .

***

والمشاكل المتعلقة بتأليف بقية أسفار العهد القديم هى عامة اقل خطورة من المشاكل المتعلقة بالأسفار الخمسة ، وهى خاصة أقل أثرا منها فى تفسير التاريخ والدين العبريين . فالأسفار التاريخية تواصل تاريخ « الشعب المختار » من حيث انتهت الأسفار الخمسة ، وتسير به على نحو متفاوت كمالا واتصالا حتى القرن الثانى قبل الميلاد .

فقصة فتح كنعان على يد يشوع تحكى فى السفر الذى يحمل اسمه . ويحدثنا سفر القضاة عن الفترة التى توطد فيها الفتح ، مع تردد بين اليمن والتوفيق ، فى ظل زعامات عارضة لأبطال محليين يسمون القضاة . ويشتمل هذا السفر على بعض الفقرات الموغلة فى القدم ، كأغنية النصر التى أنشدتها دبورة :

١ . باركوا الرب لأن القواد تولوا القيادة فى اسرائيل ، ولأن الشعب تقدم طائعا .

٣ ـ اسمعوا أيها الملوك ، وأصغوا أيها الأمراء : أنا أنا للرب أغنى ، أسبح للرب اله اسرائيل ٠

٤ ـ يارب ! عندما خرجت من سعير (٤٤) ، وصعدت من صحراء ادوم ، ارتعدت الأرض ، وقطرت (٤٥) السموات أيضا ، كذلك السحب قطرت ماء ٠

٥ ـ سالت (٤٦) الجبال أمام الرب ، جبل سيناء ذاك أمام الرب (٤٧) اله اسرائيل (*) ٠

وتمدنا أسفار صمويل والملوك بسلسلة من القصص المفصلة الدقيقة عن فترة المملكة الموحدة ، ولا سيما عهد داود ، وتعطينا صورة عامة عن تاريخ المملكتين المنفصلتين تشتمل على معلومات أقل الا فى الفترات التى اهتم بها المصنف اهتماما خاصا ، وكان يكتب من وجهة نظر دينية ٠ ومن المحتمل أن هذا القسم من تدنيف بعض رجال طبقة الكهان ، وأنهم صنفوا أيضا سفرى أخبار الأيام اللذين يوردان صورة مكملة موازية عن تاريخ مملكة يهوذا ٠

وبسقوط المملكتين ينتهى التاريخ المتصل الذى يعرضه العهد القديم ٠ أما العصور اللاحقة فلدينا عنها معلومات متناثرة فى سفرى عزرا ونحميا اللذين يصفان الأحداث البارزة الخاصة بالعودة عن المنفى ، وفى سفرى المكابيين (٤٨) اللذين يتناولان اليقظة الأخيرة للاستقلال اليهودى (٤٩) (وهما ليسا فى التوراة العبرية) ٠

وفى نطاق هذا التاريخ تحكى لنا أسفار روت وطوبيت Tobit وأستير ويهوديت Judith (٥٠) قصصا شخصية خاصة تمدنا بصور طريفة للحياة اليومية فى العصور المختلفة ٠

***

وفى أسفار الأنبياء معلومات أخرى عن التاريخ العبرى وتفسير شخصى له ٠ فأسفار الأنبياء المتقدمين تعرض علينا التاريخ المتأخر لمملكتى يهوذا واسرائيل ، وتتنبأ بسقوطهما على أنه نتيجة لآثامهما لا مفر منها ٠ وقد رأينا فى يهوذا شخصيتى اشعيا وارميا البارزتين ، وكان أولهما يعارض دائما سياسة الاعتماد على العون الأجنبى ، بينما

(*) سفر القضاة ٥ : ٢ ـ ٥ (المترجم : تشغل أغنية دبورة الاصحاح الخامس كله ، وعدد آياته ٣١) ٠

كان الثانى يدعو الى الاستسلام لبابل التى اختارها الله أداة لعقاب شعبه الضال . وفى خلال النفى كان حزقيال يعلم صحبه ويعزيهم معلنا أن الشعب سيولد من جديد . وهو يعبر عن هذا فى جملة آيات مشهورة تدور حول رؤيا ، وهى تنطوى على قوة أدبية كبيرة :

١ - كانت على يد الرب ، فحملنى الرب بالروح ، وأنزلنى فى وسط الوادى وكان مملوءا عظاما .

٢ - ودار بى حولها فاذا هى كثيرة جدا على وجه الوادى ، واذا هى يابسة جدا .

٣ - فقال لى : يا ابن آدم ، أتحيا هذه العظام ؟ فقلت : يارب يا مولاى ، أنت أعلم .

٤ - فقال لى : تنبأ لهذه العظام ، وقل لها : أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب .

٥ - هكذا قال السيد الرب لهذه العظام : هأنذا أدخل فيك روحا فتحيين ،

٦ - وأضع عليك عصبا ، وأكسوك لحما ، وأبسط عليك جلدا ، وأضع فيك روحا ، فتحيين وتعلمين أننى الرب .

٧ - فتنبأت كما أمرت ، وبينما أنا أتنبأ حدث صوت واذا بزلزلة تقع ، فاقتربت العظام بعضها من بعض .

٨ - ونظرت فاذا عليها عصب ، واذا اللحم قد علاها ، والجلد قد انبسط عليها من فوق ، ولكن دون أن يكون فيها روح .

٩ - فقال لى : تنبأ للروح ، تنبأ يا ابن آدم وقل للروح : هكذا قال السيد الرب : من الرياح الأربع تعالى أيتها الروح وهبى على هؤلاء القتلى فيحيوا .

١٠ - فتنبأت كما أمرنى ، فدخلت فيهم الروح ، وعادوا الى الحياة، وقاموا على أرجلهم جيشا عظيما جدا جدا .

١١ - فقال لى : يا ابن آدم ، هذه العظام هى كل بيت اسرائيل . ها هم يقولون : يبست عظامنا ، وضاع أملنا ، وانقطع دابرنا .

١٢ - فتنبأ وقل لهم : هكذا قال السيد الرب : هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى ، وآتى بكم الى أرض اسرائيل ،

١٣ - فتعلمون أننى الرب حين فتحت قبوركم ، وأصعدتكم من قبوركم يا شعبى .

١٤ ـ وأضع روحي فيكم فتحيون ، وأضعكم في أرضكم ، فتعلمون أنني الرب تكلمت وفعلت ، يقول الرب • (*)

ورؤى دانيال المتشابكة المعقدة هي نقطة الانتقال الى أسفار الأنبياء المتأخرين ، وهي سلسلة من الأسفار الموجزة التي تتخذ من الأحداث المختلفة ذريعة لنصح الشعب الضال ، والتنبؤ بالعقاب ، والتبشير بعودة الأمور الى الصلاح في المستقبل •

***

وبقية العهد القديم أغان وأدب حكمة • وهذه الكتابات شعرية الطابع في الغالب ، وقالبها الشعرى هو القالب الشرقي المألوف الذى يقوم على التوازى بين الأجزاء المتتابعة •

وسفر المزامير أعظم الأسفار الشعرية فى العهد القديم ، بل هو من أعظم مانظمه الانسان من شعر • وهو يشتمل على ١٥٠ أغنية تختلف تاريخا ، بعضها شخصى الطابع وبعضها جماعى ، فيها تسبيح بالله ودعاء له أن يعين المرء فى الملمات المختلفة التى تنزل به • وكثير من المزامير لها طابع الطقوسى قصد بها الترتيل فى الصلوات •

ولنمثل لشعر المزامير بهذا الرثاء الذى أنشده أحد رجال المنفى حين خطر بباله معبد أورشليم :

١ ـ كما يشتاق الأيل الى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسى اليك يا الله •

٢ ـ ظمئت نفسى الى الله ، الى الاله الحى . متى أجىء وأبدو(٥١) أمام الله ؟

٣ ـ صارت لى دموعى خبزا نهارا وليلا ، اذ قيل لى طول اليوم : أين الهك ؟ •

٤ ـ هذه الأمور أذكرها ، فأسكب نفسى فى داخلى : كيف كنت أذهب مع جميع الناس وأقودهم الى بيت الله بصوت ترنم وحمد ، جموع تحتفل بالعيد •

٥ ـ لماذا أنت متهالكة يانفسى ؟ ولماذا تئنين ؟ اعتقدى أملك على الله ، لأننى سأمدحه بعد ، فهو خلاص وجهى والهى (٥٢) (**) •

(*) حزقيال ٣٧ : ١ ـ ١٤ •

(**) المزمور ٤٢ : ١ ـ ٥ (المترجم : هكذا ترقيم الآيات فى الترجمة الانجليزية المنقحة ، ولكنها فى النص العبرى ٢ ـ ٦ لأنه يجعل عنوان المزمور الآية الأولى)

وهناك سفر رائع آخر من الشعر العبرى هو مراثى ارميا ، وهي مثال لنمط أدبى ليس بغريب على الشرق الأدنى القـديم • فهـذه مرثية لأورشليم بعد سقوطها :

١ ـ كيف تجلس وحدها المدينة التى كانت كثيرة السكان ؟!

كيف صارت كأرملة ؟! تلك التى كانت عظيمة بين الأمم وسـيدة بين البلدان ، كيف صارت تحت الجزية ؟!

٢ ـ تبكى فى الليل بكاء ، ودموعها على خديها ،
ليس لها من يعزيها بين جميع محبيها ؛
كل أصحابها غدروا بها ، صاروا لها أعداء •

٣ ـ نفيت يهوذا بسبب المذلة وكثرة العبودية ،
هى تسكن بين الأمم ، لا تجد راحة ،
كل مطارديها أدركوها فى مضايق الطريق •

٤ ـ طرق صهيون نائحة ، لأنه لم يأت أحد الى العيد ،
كل أبوابها خربة ، وكهنتها يئنون ؛
عذاراها حزينات ، وهي فى مرارة •

٥ ـ صار خصومها الرأس ، ونجح أعداؤها ،
لأن الرب أحزنها لكثرة ذنوبها • (*)

وثمة سفر شعرى يبدو دنيوى الطابع ، ولكنه فسر تفسيرا دينيا وضم الى العهد القديم ، وهو نشيد الأناشيد الذى يدور حول حب بين راع شاب وراعية • تغنى الراعية فتقول :

٨ ـ صوت حبيبى ! هو ذا آت واثبا على الجبال ، قافزا على التلال •

٩ ـ حبيبى شبيه بالظبى أو بغفر الأيائل ،
ها هو ذا واقف وراء حائطنا ،
يتطلع من الكوى ، يوصوص من الشبابيك •

١٠ ـ أجاب حبيبى وقال لى : قومى يا حبيبتى ، يا جميلتى ،وتعالى

١١ ـ فها قد مضى الشتاء ، وزال المطر وانقضى •

١٢ ـ الزهور ظهرت فى الأرض ، وآن أوان التقليم (٥٣) ؛
وصوت اليمامة سمع فى أرضنا •

(*) مراثى ارميا ١ : ١ ـ ٥ (المترجم : للآية الخامسة بقية هى : وذهب اولادها الى المنفى امام العدو) •

١٣ ـ شجرة التين أنضجت فجها ، وشجرات الكرم مزهرة تفوح شذا ؛

قومى يا حبيبتى ، يا جميلتى ، وتعالى • (*)

وثمة سلسلة من الحكم والتأملات على نسق نظائر لهـــا فى آداب الأمم المجاورة ، نجدها فى سفر الأمثال وسفر ابن سيرا (٥٤) ، وكذلك فى سفر الحكمة (٥٥) الذى كتب باليونانية ليهود مصر • وهذه بعــض الأمثلة :

« القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع هم •
أكلة من البقول مع محبة خير من ثور معلوف مع بغض »

« الحليم خير من شــديد البأس ، والمسيطر على روحــه خير ممن يستولى على مدينة »

« بل ان الأحمق اذا سكت عد حكيما ، يضم شفتيه فيظن فهيما »

« الكسلان لا يحرث بسبب المطر ، ويستعطى عند الحصاد فلا يظفر بشىء »

« السكنى فى صحراء خير من امرأة مخاصمة شكسة » (**) •

وموضوع الشقاء الذى يكابده الرجل الصالح ، وهو الموضوع الذى مر بنا فى أدب الرافدين نجده ثانية فى سفر أيوب المعروف :

٢٠ ـ أصرخ اليك فلا تستجيب لى ، قمت فانتبهت لى (٥٦) •
٢١ ـ صرت قاسيا على ، بقوة يدك تضطهدنى •
٢٢ ـ ترفعنى الى الريح ، وتركبنى اياها ، ثم تذيبنى فى العاصفة•
٢٣ ـ فأنا أعلم أنك سترجعنى الى الموت ، والى البيت الذى سيلتقى فيه جميع الخلق •
٢٤ ـ ...   ...
٢٥ ـ ألم أبك لمن قسا عليه الدهر ، وتحزن نفسى على الفقراء ؟
٢٦ ـ حينما رجوت الخير جاء الشر ، وحينما انتظرت النــور أتى الظلام (***) •

(*) نشيد الأناشيد ٢ : ٨ ـ ١٣ •

(**) سفر الامثال ١٥ : ١٦ ـ ١٧ ، ١٦ : ٣٢ ، ١٧ : ٢٨ ، ٢٠ :٤ ، ٢١ : ١٩ •

(***) سفر أيوب ٣٠ : ٢٠ ـ ٢٦ •

وأول جواب هنا وفى قصيدة أرض الرافدين عن مشكلة الشقاء الذى يلاقيه الصالحون هو أن الانسان ليس فى وضع يمكنه من الحكم على الأشياء • والجواب الثانى هو أن للمحن قيمة فى تطهير النفس ، وسفر أيوب أوضح كثيرا من قصيدة أرض الرافدين فى التعبير عن هذه الفكرة ، وذلك لاختلاف النظرة الى الله ،فهو معروف فى اسرائيل بالعدل كل العدل ، ومعنى هذا أن أيوب بعد أن تطهره المحن سيعاد الى ما كان فيه من نعيم •

وينتهى أدب الحكمة بقصيدة « الجامعة » التى تتحدث عن بطلان كل شىء ، وعن عبث الدنيا التى تدور بلا نهاية • وهذا السفر متأخر ، يظهر فيه التأثير اليونانى ، بل انه قد يبدو أقرب الى طرق التفكير اليونانى منه الى طرق التفكير العبرى :

٢ ــ باطل الأباطيل : قال الجامعة ، باطل الأباطيل ، الكل باطل

٣ ــ ما الجدوى للانسان من كل تعبه الذى يعانيه تحت الشمس ؟

٤ ــ جيل يمضى ، وجيل يأتى ، والأرض قائمة الى الأبد •

٥ ــ وتشرق الشمس ، وتغرب الشمس ، وتسرع الى موضعها حيث تشرق •

٦ ــ تذهب الريح الى الجنوب ، وتدور الى الشمال ، تلف الريح وتدور ، وترجع الى مداراتها •

٧ ــ كل الأنهار تجرى الى البحر ، والبحر لا يمتلىء ، الى المكان الذى جاءت منه الأنهار ، الى هنلك تمضى راجعة •

٨ ــ كل الأمور متعبة ، لا يستطيع المرء أن يحدث بها ، العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء بالسمع •

٩ ــ ما كان هو ما سيكون ، وما صنع هو الذى سيصنع ، فليس تحت الشمس جديد (*) •

(*) سفر الجامعة ١ : ٢ ــ ٩ •

النظم القانونية والاجتماعية

القانون المدنى والقانون الدينى ، فى نظر العبريين ، مستمدان مباشرة من الوحى الالهى ، فأحكام القانون المدنية والدينية لم تندرج فى قسمين عقليين مختلفين • والحياة الدينية والحياة الخلقية والحياة القانونية كانت كلها شيئا واحدا ، فجميع الأحكام على اختلاف أنواعها استمدت القوة التى تربطها بعضها ببعض من الله وحده ، وتعاونت جميعا فى سبيل غاية واحدة ، فاحكام الطقوس وصلاح الخلق ومراعاة القانون المدنى كانت جميعا قوام القداسة فى نظر الله •

وقد رأينا من قبل أن نظرة مماثلة سادت الشرق الأدنى القديم ، ولكنها كانت أبرز بين العبريين ، لأن عدم وجود أية سلطة سياسية أصلا ، وعدم قبول سلطة القاضى أو الملك الا على أنها سلطة شخص نصبه الله أى « مسيح الله » ، أسبغا على القانون المدنى نفسه مظهرا دينيا ثيوقراطيا فى الواقع •

وعلى الرغم من أن القانون المدنى العبرى كان منهجيا ، بمعنى أنه كان جزءا عضويا من نظام متكامل لحكم حياة الفرد ، فانه لم يقنن حسب خطة منظمة ، شأنه فى هذا شأن سائر النظم القانونية فى الشرق الأدنى القديم • فمواده المختلفة أجزاء متناثرة على نحو ملحوظ ، ويبدو أنها مجموعة أحكام خاصة لا تخضع لمبادىء يمكن تمييزها فى وضوح •

والقوانين العبرية تتبع فى محتواها التقاليد العامة فى الشرق الأدنى القديم ؛ وفيها وجوه شبه بقوانين بابل وأشور والحيثيين ، ولا سيما

بقانون حمورابي المشهور • ولكن لاريب في أن القوانين العبرية كان لها تطورها المستقل المرتبط أساسا بأحوال الحياة العبرية التي كانت شديدة الاختلاف عن ظروف الحياة في أرض الرافدين • فبينما كانت هذه ظروف حياة مستقرة في دولة بلغت درجة عالية من التطور ، كان العبريون لا يزالون في أحوال تتوسط بين حياة الرعي وحياة الزراعة • وفي هذه الأحوال كان قانون الملكية أقل تطورا ، والعلاقات التجارية أقرب الى الفطرة ، ونظام الأسرة أكثر خضوعا لسلطة الآباء • وكانت القبيلة عامة أبرز وأظهر في حياة العبريين ، ومن ثم كانت أحوالهم أقرب الى الأحوال السامية القديمة من أحوال أرض الرافدين •

وترتبط في القانون العبري بهذه الخصائص الاجتماعية صبغة خلقية خاصة هي نتيجة تغلغل الاعتبارات الدينية في جوانب القانون جميعا • ومن الأمثلة البارزة على ذلك المواد الخاصة باليوبيل، وهي تقضي بأن تعود جميع الأراضي الى أصاحبها الأصليين بعد كل خمسين عاما ؛فهذا انعكاس للفكرة الدينية التي تقول ان الأرض لله وما الناس الا مستأجرون لها الى حين (٥٧) • ونلحظ مقصدا خلقيا مماثلا في المواد التي تحمي الغرباء والأرامل واليتامى والفقراء :

٢١ ــ والغريب لا تضطهده ولا تضايقه ، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر •

٢٢ ــ لا تسيئوا الى أرملة ما أو يتيم •

٢٣ ــ ان أسأت اليه فاني ان صرخ الى أسمع صراخه ،

٢٤ ــ فيحمى غضبي وأقتلكم بالسيف ، فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى •

٢٥ ــ ان أقرضت مالا لشعبي الفقير الذي عندك ، فلا تكن له كالمرابي ؛ لا تفرضوا عليه ربا •

٢٦ ــ ان أخذت ثوب صاحبك رهنا ، فأرجعنه اليه عند غروب الشمس ؛

٢٧ ــ لأنه وحده غطاؤه ، هو ثوب لجلده ، ففي أي شيء ينام ؟ فيكون اذا صرخ الى أني أسمع ، لأني رحيم (*) •

ومواد القانون العبري مثبتة في مواضع مختلفة من أسفار موسى الخمسة • فنجد أولا القوانين الخلقية الدينية التي يضمها سفر الخروج من

(*) سفر الخروج ٢٢ : ٢١ ــ ٢٧ (المترجم : هكذا ترقيم الآيات في الترجمة الانجليزية المنقحة ، ولكنها في النص العبري ٢٢ ــ ٢٦) •

أول الأصحاح ٢١ الى الآية ١٩ من الاصحاح ٢٣ (كتاب العهد) ۰ وترد هذه القوانين أيضا ، مع توسع واضافات وابراز خاص لجانبهـا الخلقى ، فى سفر التثنية من الاصحاح ١٢ الى الاصحاح ٢٦ ۰ وثمة مجموعة اخرى من القوانين لها طابع ديني خاصة هى « القانون الكهنوتى » ، ونجدها فى سفر اللاويين أساسا وفى سفرى الخروج والعدد الى حد ما ۰ ويمكن أن نميز فى سفر اللاويين مجموعة خاصة من القوانين هى « قانون القداسة » (من الاصحاح ١٧ الى الاصحاح ٢٦) ۰

وتؤكد الدراسات الحديثة أن صياغة القوانين كتابة قد سبقتها فى كثير من الأحيان رواية شفوية طويلة۰ ولابد أن هذه كانت الحال مع أشهر مجـموعة من القوانين اليهودية ، أى الوصايا العشر ، التى نجـدها فى صورتين : فى سفر الخروج ٢٠ : ١ـ١٧ وسفر التثنية ٥ : ٦ـ٢١ ، وهى ترجع قطعا الى زمن موغل فى القدم ۰

***

والتمييز بين الأشراف والعامة الذى يختص به مجتمع الرافدين يتفق وأحوالا اجتماعية أكثر تطورا الى حد بعيد من أحوال العبريين ، الذين لا نجد عندهم فى الواقع أى تمييز بين المدنيين الأحرار ، فهؤلاء جميعا كانوا ينعمون بنفس الحقوق بعد وصولهم الى سن البلوغ التى حددها سفر العدد (١ : ٣) بالعشرين ، وكانت أيضا أدنى سن للانخراط فى الجيش ۰

والى جانب المدنيين الأحـرار كان هنـاك العبيد من أجـانب واسرائيليين . وكان اغلب العبيد من الأجانب ، واكثر هؤلاء أسرى حرب ، ولكن كان يمكن أيضا شراء العبيد ، وكانت تجارة الرقيق فى ايدى الفينيقيين خاصة .

وقد رأينـا فيما مضى أنه كان ينظر الى العبـد فى الشرق الأدنى القديم على انه مجرد ملك منقول لسيده . ويعكس القانون العبرى هذه النظرة الى حد ما ، فهو مثلا يحدد التعويضات التى تدفع اذا قتل أحد عبد رجل آخر ، ولكنه لا يعاقب السيد الذى يسرف فى ضرب عبده حتى يموت بعد بضعة أيام . ولكن لا نعدم دلائل على نظرة ابر وأرحم ، وفى أحوال معينة كان القانون يحمى العبد من سيده ، فالسيد الذى يتلف عين عبده أو سنه عليه فك رقبته (الخروج ٢١: ٢٦ـ٢٧) ، والسبت يوم راحة للعبيد كما هو للمدنيين الأحرار ، والعبد الآبق يجب ايواؤه وحمايته ، ولا يصح رده الى سيده (التثنية ٢٣ : ١٥ ـ ١٦)

وكانت حال العبيد العبريين خيرا بالطبع من حال العبيد الأجانب، وكان لهم حق خاص هو استعادة حريتهم بعد سبع سنين من الخدمة . وكان صاحب الدين يستطيع استرقاق العبرى المدين اذا لم يدفع دينه ، وكان لآباء الأسر الحق وقت الحاجة فى بيع أولادهم أرقاء ٠

والى جانب العبيد كانت هناك طبقة اجتماعية اخرى لا تنعم بحقوق المدنيين الأحرار ، هى طبقة الأجانب . وكان العبريون يقسمون الأجانب قسمين: قسما يضم أولئك الذين كانوا مرتبطين بالقبائل العبرية وكان لهم بعض الحق فى حمايتها ، وقسما يضم أولئك الذين لم يكن لهم مثل هذا الحق . وكان القسم الأول بالطبع طبقة مميزة نسبيا ، ولكن لم ينعموا بتلك المساواة فى الحقوق التى كان يكفلها القانون فى أرض الرافدين .

وكان غير المختون يستبعد من المشاركة فى طقوس الفصح ، ومن التزاوج مع العبريين ٠ ولم يكن من الممكن أن يصير العبريون عبيدا حقا لسادة اجانب ، فكان يجب فداؤهم فى أقرب فرصة ، والى ان يتم ذلك كان يجب معاملتهم معاملة الخدم المأجورين .

***

وكانت الأسرة النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية العبرية ، وذلك الى حد أبعد مما كانت عليه الحال فى المجتمع البدوى القديم . وكانت سلطة الأب هى السلطة العليا فى المجتمع العبرى ، كما هى العادة . وكان تعدد الزوجات مشروعا ، وكان الزواج يتم على النحو السامى المألوف الذى تحدثنا عنه من قبل ، وهو أن يدفع العريس المهر فتكون له السلطة على العروس ٠ وكانت هناك عقود شكلية ، ولكن لا يبدو أنها كانت ضرورية لصحة الزواج .

وثمة سلسلة من المواد القانونية تحرم الزواج بين بعض الأقارب ، كما أن هناك مواد أخرى تمنع الزواج بالأجانب ٠ واصرار سفر التثنية اصرارا خاصا على منع الزواج بالأجانب يظهر اهتمامه بخطر الاندماج فى الشعوب الأخرى . ولكن بطل هذا التحريم بمرور الزمن ، أو على الأقل لم يطبق تطبيقا صارما فى الواقع ، فان التاريخ اليهودى مملوء بالزيجات المختلطة . وبعد العودة من المنفى كان على عزرا ان يكافح كفاحا شاقا لابعاد زوجات اليهود الأجنبيات ٠

وكان هناك قانون هام من قوانين الزواج يوجب على المرأة التى مات عنها زوجها دون ولد أن تتزوج من أخيه .

وبينما كان الطلاق حقا خاصا للمرأة فى حالات معينة فى مجتمع الرافدين الأكثر تطورا ، ظل فى القانون العبرى حقا للزوج وحده . فكان العبرى يستطيع طلاق زوجته بمجرد نطق هذه العبارة : « هذه المرأة ليست زوجتى ، وأنا لست زوجها » ، وجرت العادة أيضا بكتابة رسالة طلاق . ولكن يفرض سفر التثنية قيودا معينة على حق الطلاق، قاصدا في وضوح الى حماية نظام الزواج وتدعيمه : فالرجل الذى يتهم عروسه ظلما بأنها ليست عذراء لا يكتفى بتغريمه ، ولكن يمنع أيضا من طلاقها فى أى وقت من الأوقات ، وكذلك الرجل الذى يغتصب عذراء لم تتزوج ، يجبر على الزواج منها ولا يستطيع طلاقهـــا أبدا . وكانت عقـوبة الزانى الموت رجما ، ومعـه المرأة التى زنى بهـا ان كان الزنا برضاها .

ولم تكن مكانة المرأة هزيلة كما قد يبدو ، على الرغم من أثر البداوة فى النظم الاجتماعية العبرية القديمة . فالزوجة كانت تتبع زوجها ، ولكن كانت المرأة تبجل تبجيلا عظيما ولا سيما اذا كانت أما ، وفى الوصايا العشر «أكرم أباك وأمك » دون تمييز بين الوالدين .

***

وليس لدينا عن حـق الميراث القـــديم فى الأسرة العبرية ســوى معلومات قليلة متناثرة ، ولكننا نعرف ان الميراث كان يقسم بين الأبناء ، وأن الابن البكر كان له نصيب اثنين (سفر التثنية ٢١ : ١٧) .

ولابد انه كان لأبناء الاماء أيضا حق فى الميراث ، وهو ما تدلنا عليه بطريق غير مباشر قصة سارة وكيف حاولت اغراء ابراهيم أن يطرد جاريته هاجر(المصرية : المترجم) وابنها أسماعيل ، حتى لا يشارك اسحق فى الميراث (سفر التكوين ٢١ : ١٠) (٥٨) . ولكن ليس لدينا من المعلومات ما يدل على مدى هذا الحق .

وكان مركز النســاء من ناحية الميراث شديد القلق . فالزوجة لم تكن ترث شيئا عن زوجهـــا ، بل ان هنـــا دلائل تشــير فيما يبدو الى أنه فى وقت ما كان ينظر الى الزوجة على أنها جزء من الملك الموروث . وما أبعد هذا عن مواد قانون حمورابى التى تقضى بأن تحتفظ الأرملة بمهرها وبالهدايا التى قدمها لها زوجها المتوفى . ويحـرم العهد القديم البنات أيضا حق الميراث ، الا اذا لم يكن هناك أبناء يرثون .

واذا توفى رجل عن امراة دون عقب ولم يتزوجهـــا اخوه حسب القانون الخاص بذلك ، عادت الى بيت أبيها ، وحق لها الزواج ثانية : ويدل على هذه العادة الاصحاح الأول من سفر روت (٥٩) .

وكان النشاط التجارى فى اسرائيل القديمة اضيق نطاقا وأبسط نظاما الى حد بعيد من نظيره فى أرض الرافدين ، حيث ينبىء قانون حمورابى وغيره من القوانين عن درجة عالية نسبيا من التطور الصناعى والتجارى . فكان العبريون يزاولون الشراء والبيع بطريقة شديدة البساطة ، ولم يكن يلزم فيما يبدو تحرير عقد مكتوب كما كانت الحال فى بابل . وأول عقد من هذا النوع يذكره العهد القديم انما يرد فى سفر متأخر هو سفر ارميا (٣٢ : ٩ – ١٢) .

فاذا لم يكن هناك عقد مكتوب وجبت شهادة الشهود ، حتى يضمن على نحو فعال احترام العقد الشفوى .

وكانت الديون والقروض تعالج فى النظام العبرى القديم على نحو بالغ السذاجة ؛ فقد كانت مثل هذه العمليات التجارية شديدة البعد عن مزاج الشعب . ويمكن القول بوجه عام أن التشريع العبرى فى مثل هذه الأمور يدل على ميل الى حماية الفقير لتحقيق العدالة الدينية والخلقية . وكان الربا محرما تحريما صريحا ،وكان الاقراض مقابل رهن مقيدا بقيود تخفف منه الى أبعد حد ممكن (سفر الخروج ٢٢ : ٢٥ – ٢٧) (٦٠) . وفى كل سبع سنوات كان يعتق جميع العبيد العبريين وكان يتنازل أيضا عن كل الديون .

ولا نعرف على وجه قاطع مدى تطبيق هذه القوانين ، ولكن الشكاوى التى كان يرددها الانبياء تدل على ان انتهاكها لم يكن حدثا نادرا . ولدينا على ذلك مثال بين ، هو ما يحكيه ارميا من أنه فى عهد الملك صدقياهو بعد اعتاق العبيد اليهود فرض عليهم سادتهم الرق من جديد (سفر ارميا ٣٤ : ٨ – ١١) .

وفى القانون الجنائى العبرى ، ولا سيما فى مراحله الأولى ، كانت صور القانون الخاص لا تزال سائدة الى حد كبير ، فكان توقيع العقوبة متروكا فى الغالب للشخص الذى وقع عليه الضرر ، يتولاه مباشرة ، وان كان يمكنه أيضا التنازل عن حقوقه .

ويثبت « كتاب العهد » قانون القصاص صراحة على انه المبدأ الأساسى لقانون العقوبات . وهذا المبدأ يكرر ويؤكد فى مواضع اخرى من التشريع العبرى ، وهو مأخوذ عن عادة سادت النظام القبلى القديم ، وقد ورد كما رأينا فى قانون حمورابى فاستقر فى تشريعات الشرق الأدنى القديم . وهو مرتبط بمبدأ المسئولية الجماعية ، اى أن تشترك الأسرة كلها (أو العشيرة أو القبيلة على حسب الاحوال) فى

واجب الثأر للفرد منها اذا ناله ضرر من شخص لا ينتمى الى الجماعة .
والله نفسه يعاقب على الذنوب ، وقد يلحق العقاب بذرية المذنب ؛ ولكنه يجزى المحسنين خير الجزاء .

ويخفف من شدة قانون القصاص أنه كان يجوز لمن لحقه الضرر قبول فديه . ولكن هناك نصا صريحا (سفر العدد ٣٥ : ٣١) على انه لا فدية فى القتل ، وأن كان القاتل عن غير عمد يستطيع الانتفاع بحق الجوء الى حمى . ولم يكن مثل هذا الحمى مقصورا على المبانى والأماكن المقدسة ، فسفر التثنية (١٩ : ٣) يذكر بناء مدن تكون ملاذا يحتمى به . وطالب الثار من قاتل غير عامد كان يحق له المطالبة باخراج القاتل من حماه ، ولكن ينص سفر العدد صراحة (٣٥ : ٢٢ ــ ٢٥) على انه اذا وجد القاتل حمى يلوذ به ، فانه لا يحق لولى الدم ان يلجأ الى العنف وينصب نفسه قاضيا فى قضية هو خصم فيها ، وانما يجب أن تفصل الجماعة فيما اذا كان القتل عمدا حقا أو عن غير عمد .

ولم يكن قانون القصاص يسرى على العبيد ، وهذا ايضا شأن قانون حمورابى . وكانت العقوبة هنا أخف كثيرا ، ولكن السيد الذى يسىء معاملة عبده قد يجبر على فك رقبته .

والعقوبات على انتهاك حق الملكية خفيفة على نحو ملحوظ ، ولا سيما اذا قارناها بعقوبة الموت التى كانت تفرض فى كثير من الاحوال على هذا النوع من الجرائم فى قانون حمورابى .. وكان على اللصوص دفع تعويض يزيد غالبا عن قيمة السرقة ، فاذا لم يستطيعوا فرض عليهم الرق كغيرهم من المدنيين العاجزين عن الدفع . وكانت عقوبات مماثلة تفرض على المختلسين .

وكان الرجم وسيلة الاعدام الشائعة . فكان المحكوم عليه بالموت يساق خارج مضارب الخيام ، فى العصر البدوى ، أو خارج المدينة ، فى العصور المتأخرة ، فيرجمه الشهود بالحجارة الأولى . وكانت هناك وسائل أخرى للاعدام أقل استعمالا . فالشنق يذكر فى بعض الحالات ، وكان الجانى يحرق حيا فى جرائم معينة مثل اشتغال الكاهنة أو ابنة الكاهن بالدعارة ، وكالزواج من المحارم (سفر اللاويين ٢٠ : ١٤) (٦١).
وهذه الجريمة الأخيرة لها عقوبة مماثلة في قانون حمورابى .

وفيما عدا العقوبات البدنية التى تتم تطبيقا لقانون القصاص ، يذكر العهد القديم الجلد بالسياط ، ولكن حدد العدد بأربعين جلدة (سفر التثنية ٢٥ : ١ ــ ٣) .

وكانت الغرامات أيضا ترتبط عادة بقانون القصاص ، وذلك حين

تكون فدية يستعاض بها عن تطبيقه ، ولكن كانت تفرض أيضا فى حالات اخرى معينة كجريمة قذف فتاة عذراء .

ويلاحظ على هذا النظام لقانون العقوبات فى جملته انه خال من بعض الملامح المألوفة فى التشريع الحديث • فهو مثلا لا يعرف عقوبة الحبس ، والتقاليد القضائية فى الشرق الأدنى القديم تكاد تخلو تماما من الحبس وسيلة للدفاع عن المجتمع .

***

ويحدثنا العهد القديم بأن موسى نفسه كان القاضى الأعلى لشعبه، وأنه عين من بين الشيوخ وزعماء القبائل المختلفة قضاة تابعين له على طوائف الشعب المختلفة . وفى عصر الملكية كانت السلطة القضائية تابعة للملك ، وكان يخلعها أحيانا على الكهنة . وبعد انقسام المملكة ، كانت سلطة القضاء فى مملكة إسرائيل فى أيدى الأعيان المحليين ، ولكن فى مملكة يهوذا اصلح الملك يهوشافاط (حوالى ٨٧٣ ــ ٨٤٩ ق . م : المترجم) النظام القضائى (سفر أخبار الأيام الثانى ١٩ : ٥ ــ ٩) بأن أقام فى كل مدينة محكمة تتألف من لاويين وقضاة مدنيين ، وانشأ محكمة عليا فى القدس • وبعد النفى أعاد عزرا تنظيم القضاء ، واخيرا صار فى أيدى السنهدرين Sanhedrin (٦٢) •

وكانت الإجراءات القضائية شديدة البساطة • فكان القضاة يجلسون عند باب المدينة ، فانشاء قاعة للمحاكمة فى حجرة بالقصر كان بدعة أحدثها سليمان . وكان الخصمان يمثلان أمام القاضى ، ويدافعان كل عن موقفه • واذا لم تكن هناك دعوى ، لم تكن هناك محاكمة ، فعجلة القانون كانت لا تدور الا « بالطلب » .

وكان التحقيق القضائى يتم شفويا ، وكان لابد لاقامة الدليل من اتفاق شاهدين على الأقل . وكانت تفرض عقوبات شديدة على شهادة الزور ، ومع ذلك تدلنا قصة نابوت وبستان كرمه (سفر الملوك الأول ، الأصحاح ٢١) ، وهى قصة مؤسية ، على انه لم يكن يتعذر العمل على ادانة رجل برىء بالتحريض على الشهادة زورا ضده (٦٣) •

و « قضاء الله » : الذى كان يستعان به كثيرا فى بابل ، نادر بين العبريين وترى بقايا منه فى الحالة التى يتهم فيها رجل امرأته بالخيانة دون أن يمكنه دعم اتهامه بالدليل (سفر العدد ٥ : ١١ ــ ٣٠) (٦٤) .

وثمة موضع فى سفر التثنية (٢٥ : ٢) يدل على أنه كان يجب توقيع العقوبة بعد الحكم مباشرة ، أمام عينى القاضى الذى أصدر الحكم .

الفن

رأينا فيما مضى كيف أن التحريم الديني لتصوير الرب عاق تطور النحت والتصوير بين العبريين · ولكن يمكن أن نقول شيئا عن الفن المعماري والرسم البارز من حيث انهما يمثلان الفن العبرى القديم ·

كشفت البعثات الأثرية فى مواضع عدة من فلسطين عن بقايا قلاع وقصور : قلعة شاءول فى جبعـــة ، حيث قام أولبرايت بحفائر عامى ١٩٢٢ و ١٩٣٣ ، وقلعة لاكيش ، وهى أدق وأرقى بناء ، وقد قام فيها ستاركى Starkey (J.L.) بحفائر من ١٩٣٢الى ١٩٣٨ ، وهناك قلاع أخرى عدة · ويجدر بنا هنا أن نشير اشارة خاصة الى البحوث الأثرية المفصلة التى كانت السامرة مسرحا لها · ففيما بين ١٩٠٨ و ١٩١٠ كشفت بعثات جامعة هارفارد عن القصر الملكى ، وهو مبنى فى صورة سلسلة من الأفنية تحيط بها الحجرات ، أى على نمط قصور أرض الرافدين ، ولكن فى نطاق أكثر تواضعا الى حد بعيد · وكان المنقبون يعتقدون أنه يجب أن ينسب الى عمرى ، مؤسس المدينة ، أقدم جزء فى القصر ، والى أحاب جزء آخر أضيف فيما بعد ، والى يربعام الثانى جزء ثالث أضيف بعد ذلك ، ولكن الحفائر التى أشرف عليها كروفوت Crowfoot (J.W.) ١٩٣١ ــ ١٩٣٥ دلت على أن هذه الأجزاء تشمل رقعة من الزمن أطول كثيرا ، فيمكن نسبة الجزء الأول الى عمرى وأحآب معا ، والزيادة الأولى الى يهو آحاز أو يربعام الثانى ، والزيادة الثانية الى العصر الهلينستى ·

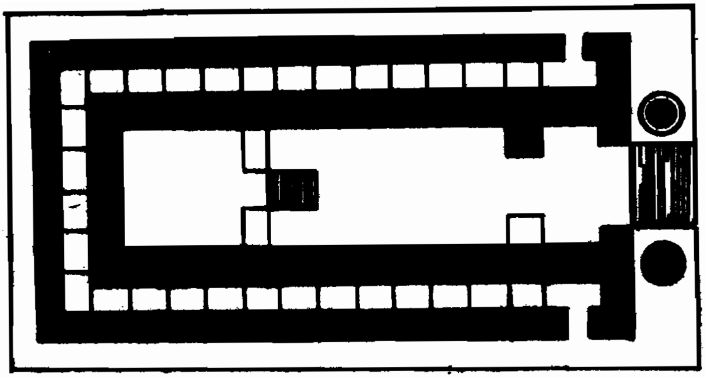

٢ ـ تصميم معبد سليمان

وفيما يتعلق بالفن المعمارى الديني ، نجد أن ماتورده التوراة من وصف مفصل لمعبد سليمان يعوض نقص معلوماتنـــا الأثرية . فباب المعبد يحف به من الجانبين عمـودان من النحاس ، وهو يؤدى الى قاعة أمامية ، تؤدى بدورها الى القاعة الوسطى ، وهى مربعة الشكل تشتمل على مذبح البخور والمائدة التي عليها « خبز الوجه » (٦٥) . ومن هذه القاعة يؤدى مدخل مغطى بالستائر الى « قدس الأقداس » ، وهو حجرة مكعبة مظلمة تشتمل على تابوت العهد . وفى الفناء الذى يقع أمام المعبد مذبح المحرقة ، والمرحضة النحاسية الكبيرة .

وأبرز مظهر للفن الفلسطيني هو الرسم البارز على الأختام ولوحات العاج . فقد وجدت أختام فى شتى ربوع فلســـطين بمقادير كبيرة . والصورة الغالبة هى صورة الجعران ، وهى منقولة عن مصر ، ومعظم الصور من وحى مصر أيضا : الغرافين gryphons وآباء الهول المجنحة ، والجعارين المجنحة ، والأفاعى المصرية المقدسة uraeus-serpents ، وأقراص الشمس ذوات الأجنحة . وصور الحيوانات كثيرة ، ومنها صورة بديعة لأسد (انظر اللوحة ١٣) ، وصور البشر والآلهة أقل ، وكانت صور الآلهة من أصل أجنبى . والأسلوب ساكن static زخرفى . وكان كل ختم يشتمل فى العادة على رسم واحد ، وكانت الرسوم والنقوش القصيرة التى تذكر اسماء أصحاب الأختام محاطة فى الغالب بخطوط وتفصل بينها خطوط أيضا .

والرسوم التى على لوحات العاج مشـــابهة لرسوم الأختام ، وذلك كالرسوم التى وجدها كروفوت فى السامرة فى الجزء الشمالى من الأسوار ، ولعل مصدرها « بيت العاج » الذى كان لأحاب كما تقول التوراة (٦٦) . انظر اللوحة ١٤ .

الفصل السابع

الأراميون

فى شمال الصحراء العربية قطاع عريض من الأرض يعترض بين كنعان وأرض الرافدين ويمتد الى أقصى الأطراف الجنوبية لجبال الأناضول • وقد لعبت هذه المنطقة الوسطى فى وقت ما دورا هاما فى تاريخ كنعان وأرض الرافدين معا • فقد كانت قوة تحد من نفوذ كنعان، وتحقق التوازن معها مرة بعد أخرى فى معركة السياسة القصيرة المدى ، وكانت فى نظر دول الرافدين الطريق الى البحر والباب المؤدى الى فلسطين ومصر • ولم يكن يتسنى لمنطقة كهذه أن تقوم فيها أية قوة سياسية محلية كبيرة أو دائمة ، وانما كانت كبقية أجزاء سوريا وفلسطين معبرا للحركات العسكرية والحضارية •

وقد لعب المغاوير الشجعان الساميون ، الذين كانوا يسكنون الجزء الشمالى من سوريا ويغيرون منه على المناطق المجاورة ، الدور الذى قدرته لهم ظروفهم الجغرافية • فكانوا يمدون حدودهم اذا ألم ضعف بأرض الرافدين ، ثم تقهرهم هذه حين تعاود الفتح من جديد ، وهم فى هذا كله لا يتجاوزون أبدا مرحلة المدن المحلية الصغيرة • وفى عصر متأخر ، بعد أن فقدوا استقلالهم ، شاء لهم الحظ الفريد أن يلعبوا دورا أساسيا فى اداء المهمة الايجابية التى هيأتها لهم ظروف بلادهم الجغرافية ، وهى تركيب مزيج من حضارات المناطق المجاورة ثم نقله بوساطة لغتهم الواسعة الانتشار .

التـــاريخ

المصادر الأرامية عن تاريخ الأراميين قليلة ، وهى طائفة من النقوش كشف أكثرها حديثا ، وتنتمى الى المدن القديمة جوزانا Guzana (١) (وهى اليوم تل حلاف) وسمأل (٢) وأرفد (٣) وحماة ٠

والمصـــادر غير المباشرة أوفر مادة : فهناك أولا نصـــوص مسمارية تسجل حركات الأراميين وضغطهم على حدود دول الرافدين ، ومن جهة أخرى يسجل العهد القديم صلات الأراميين بالشعب العبرى فى مراحل تاريخه المختلفة ، ويحفظ فى قصصه وسلاسل أنسابه القديمة رواية مأثورة عن قرابة دم أصيلة بين الشعبين ٠ وفترة الملكية خاصـــة غنية بالمعلومات عن الدول الأرامية التى كان لها دائما دور فى التاريخ السياسى للمملكتين العبريتين ٠

***

وأول ظهور كلمة أرام اسما لمنطقة أو دولة كان فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، فى نقش مســـمارى للملك الأكدى نرام ـ سين Naram-Sin ، ويبدو من سياق النص أن أرام هذه كانت تقع فى الجزء الأعلى من أرض الرافدين ٠ وليس تفسير هذا النقش أكيدا على وجه قاطع ، ولكن نجد أرام تذكر من جديد بعد ذلك بقليل فى لوحة من وثائق درهم Drehem (٤) التجارية ترجع الى حوالى ٢٠٠٠ ق ٠ م ، وتشير الى مدينة أو دولة بالقرب من اشننا Eshnunna على أدنى دجلة (تل الأسمر الآن : المترجم) ٠ وثمة لوحة أخرى من لوحات درهم ، ترجع الى بضع سنوات بعد ذلك ، تشتمل على أرام علما لشخص . ونجد هذا العلم مرة أخرى فى نص من نصوص مارى يرجع الى حوالى ١٧٠٠ ق٠م ٠

هذه أقدم مالدينا من اشارات الى الأراميين • ومن الجلى أنها لا تكفى لمعلوماتنا على تتبع تاريخهم القديم ، ولكنها تكفى لبيان الحاجة الى تعديل الرأى الذى كان سائدا فى وقت ما من أن ذلك التاريخ يبدأ فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد •

ولكن الواقع أن معلوماتنا أدق فيما يتعلق بالنصف الثانى من الألف الثانى • فهناك نقش للملك الأشورى أرك ـ دين ـ ال Arik-den-ilu (٥) يتحدث عن انتصاراته على جماعات « أخلمو » Akhlamu، ويرد هذا الاسم أيضا فى تاريخ خلفائه من الملوك حتى نصل الى تجلت ـ بيلسر الأول ، فنجده يعلن أنه هزم الأخلمو ـ الأراميين الذين جاءوا من الصحراء مغيرين على ضفاف الفرات • وكلمة أخلمو قد يكون معناها «المتحالفين» ، وهنا يبدو أن الأراميين كانوا جزءا من هذا التحالف (٦) • وبعد تجلت ـ بيلسر الاول نجد فى المصادر الاشورية عدة اشارات أخرى الى الأخلمو والاخلمو ـ الاراميين ، ولكن الاسم البسيط « الاراميين » يزداد ورودا ، وأخيرا ينفرد بالاستعمال •

وتتفق النقوش الأشورية التى ذكرناها فى الصورة التى تعطيها عن الأراميين ، فهم كغيرهم من الشعوب السامية يظهرون فى التاريخ أولا بدوا تتفق حركاتهم وانتقال البدو الآن فى مواسم معينة من أطراف الصحراء الى المناطق المستقرة • وفيما يتعلق باتجاه حركاتهم ، نجد أن الخطوط الأساسية لتوسعهم قد حددها وجود شعوب سامية وطيدة الاستقرار فى الشرق والغرب : فى أرض الرافدين وكنعان •

وقد بلغ الأراميون أقصى أهميتهم السياسية فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد ، لاضمحلال الامبراطورية الأشورية خلال تلك الفترة • ففى الشرق غزت القبائل الأرامية الجزء الشمالى من أرض الرافدين ، وأسست هناك سلسلة من الدول الصغيرة ، أهمها دولة بيت أدينى Bit Adini التى كان مركزها تل برسب Til Barsib (٧) ، ودولة بيت بخيانى Bit Bakhyani التى كان مركزها جوزانا (تل حلاف) • والى الجنوب من ذلك ، توغلت عدة جماعات من الأراميين فى الجزئين الأوسط والجنوبى من أرض الرافدين ، وهنا استولى المغتصب الأرامى أدد ـ أبل ـ ادن Adad-apai-iddin على عرش بابل فى أول القرن الحادى عشر (٨) •
وعلى شواطىء الخليج أنشأت القبائل الكلدانية ، وهى متصلة النسب بالأراميين ، عدة دول صغيرة أهمها دولة بيت يكينى Bit Yakini
وفى الجهة الأخرى للتوسع الأرامى ، أى فى الغرب ، نشأت فى ذلك

الوقت فى كيليكيا دولة سمأل • وفى سوريا أسست ، حول أرفد وحلب، دولة اتخذت اسم بيت أجوشى Bit Agushi ، وفى حماة كشفت حفائر انجهولت Ingholt (.H) طبقة أرامية ترجع الى حوالى ١٠٠٠ ق٠م ، والى الجنوب من ذلك قامت دول أخرى على حدود المملكتين العبريتين لدينا عنها أوفى المعلومات بفضل العهد القديم ، وكان من أهمها صوبا ودمشق اللتان فتحهما داود (٩) ولكن استعادتا استقلالهما بعد انقسام اسرائيل الى مملكتين •

ولكن قوة توسع الأراميين ، التى تبرز واضحة فى هذه الفترة ، لم تصحبها القدرة على تنظيم فتوحاتهم ، بل لم تصحبها عامة القدرة على تنظيم دولهم نفسها • ولم ينشىء الأراميون أبدا وحدة سياسية فعالة ، وكان العامل الرئيسى فى ضعفهم انقسامهم الى ممالك محلية صغيرة مع كثرة الأجناس المتباينة التى اختلطوا بها • وقد شــهدت نهاية القرن العاشر قبل الميلاد نهوض أشور من جديد ، وبداية عودتها الى الفتوح •

وكانت أول خطوة خطتها أشور اجلاء الغزاة عن أرض الرافدين • وقد فعلت ذلك خلال النصف الأول من القرن التاسع على يد أدد ـ نيرارى Adad-Nirari (١٠) وأشور نصربال الثانى (١١) وشلمنصر الثالث (١٢) خاصة ، وقد قضى أخيرهم عام ٨٥٦ ق٠م على دولة بيت أدينى ، آخر معقل لقوة الأراميين فى أرض الرافدين •

وبعد هذا وجه شلمنصر اهتمامه الى سوريا ، فنراه بعد سلسلة من الغزوات ينزل عام ٨٤١ ق٠م هزيمة منكرة بحلف من الدول الأرامية ، كان قد انضم اليه أيضا ملك اسرائيل • ولكن الدول المهزومة لم تفقد استقلالها الا بعد بضع عشرات من السنين • والى هذه الفترة يرجع النقش الذى يسجل فيه كلمو Kilamuwa ، ملك سمأل ، انتصاراته على جيرانه ورخاء مملكته (١٣) ، كما يرجع اليهـا النصب الذى أقامه زكر ، ملك حماة ، لتخليد انتصاره على حلف بقيادة دمشق (١٤) • وهذان النقشان، رغم مافيهما من افتخار بالقوة ، دليل لاشك فيه على ذلك الخلاف الداخلى المستعصى الذى كان من الأسباب الأســاسية فى أزمات هــذه الدول الصغيرة •

وفى القرن الثامن قبل الميلاد ، عاودت أشور الهجوم • ففى عام ٧٤٠ ق٠م وقعت فى يد تجلت ـ بيلسر الثالث مدينة أرفد (١٥) ، التى تدل النقوش المكشوفة فى سوجين (١٦) على أنها كانت مركز المعارضة ضد أشور • وبعد هذا جاء دور سمأل ، حيث اغتصب العرش رجل يدعى

عزريا وأخذ يقيم حلفا معاديا لأشور ، ولكن تجلت - بيلسر هزم المغتصب وقتله ، وأعاد الى العرش الملك الشرعي بنموPanamuwa الثانى ، الذى سجل ابنه بر - ر ب Bar-Rekub هذه الأحداث فى نقشين له (١٧) · وهكذا أدخلت سمأل فى نطاق النفوذ الأشوري · وان ما وجد فى سمأل من بقايا أثرية لهلاك بالنار ، وانقطاع كل ذكر لها فى مصادرنا ، يدلان فيما يبدو على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل · والى الجنوب من ذلك ، أخضعت دمشق وصارت ولاية أشورية عام ٧٣٢ ق·م ، وانتصر سرجون الثانى على حماة بعد محاولة أخيرة منها للثورة ·

واستمرت حياة الأراميين السـياسية بعض الوقت بعد ذلك فى بابل ، حيث شنت القبائل الكلدانية الثورة على الأشوريين حينا بعد حين ، بل وفقت الى الوصول الى الحكم باسم الدولة البابلية المتأخرة · ولكن شهدت نهاية القرن الثامن الانهيار الأخير للكلدانيين فى مراكز نفوذهم السياسى المباشر ، وذلك أمام الزحف الأشورى غربا · ولم يقدر للأراميين النهوض أبدا بعـد هذا الانهـيار · وهكذا انتهى تاريخهم المستقل ، وهو جزء تفصـيلى لا يكاد يذكر من الصورة الكبيرة للشرق الأدنى القديم ، وأخذ شمال سوريا ، مركز قوتهم ، يقع على التوالى تحت حكم الامبراطوريات الكبرى التى تعاقبت على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط · ولكن استمر الأراميون فى الوجود شعبا ، كما بقيت لغتهم · والأهمية التاريخية للدول الأرامية طفيفة اذا قيست بالأهمية الثقافية الفريدة التى قدر للغة الأرامية أن تكتسبها على مر القرون ·

اللغـــة

كانت نهاية استقلال الارامين بداية لعصر توسع من نوع جديد ، فالطاقة التى كبحت بسرعة بالغة فى الميدان السياسى تحولت الى الميدان الحضارى • ومن عجائب التاريخ أن اللغة الأرامية التى لايمثلها ســوى نقوش قليلة من فترة الاستقلال السياسى ، امتدت الآن الى ما وراء حدود الشعب الأرامى •

والمرحلة الأولى لهذا التوسع اللغـــوى تتفق زمنا وفترة الاحتلال الأشورى • فالأرامية ، بفضل خطها الأبسط كثيرا ، أخذت تزداد توغلا فى دنيا أرض الرافدين • فثمة كميات من العقود والايصالات والمثاقيل المنقوش عليها تبين كيف ازداد استعمال الأرامية ازديادا مطردا بين البابليين والاشوريين • وقد وطدت الارامية اقدامها أيضا فى الاتصالات الدبلوماسية ، وحلت محل الاكدية لغة دولية ، فمثلا حين كان ممثلو الملك حزقياهو يتفاوضون مع رسل أشور خلال حصار أورشليم ، طلبوا اليهم أن يتكلموا بالأرامية حتى لا يفهم الشعب (سفر الملوك الثانى ١٨ : ٢٦ ، واشعيا ٣٦ : ١١) • وهناك أيضا دليل هام على انتشار هذه اللغة الدبلوماسية الجديدة غربا ، هو ورقة بردى أراميـــة نشرها الاستاذ دوبون ـ سومير (A.) Dupont Sommer عام ١٩٤٨ ، وهى تشتمل على رسالة من أمير فينيقى الى فرعون مصر ، ومن المحتمل أنها ترجع الى عام ٦٠٥ ق•م •

ولكن الفتح الفارسى مكن الأرامية من تحقيق أعظم انتصاراتها • فمن القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد نشأت عن امتداد الحكم

الفارسى الى ساحل سوريا وفلسطين كله وحدة مؤقتة فى شمال دنيا الساميين ، وفى الوحدة الحضـــارية التى قامت نتيجـة لذلك ، صارت الأرامية اللغة الرسمية لذلك الجزء من الامبراطورية الفارسية الذى يقع بين مصر ونهر الفرات • ولمـــا كانت اللغة الرسمية ذات التاريخ الطويل تميل الى الحلول محل اللغات المحلية ، فقد أخذت الأرامية بمرور الزمن تحل شيئا فشيئا محل العبرية والفينيقية وسائر اللغات السامية فى المنطقة • وكان من أكبر الصعاب فى وجه احياء اللغة العبرية بعد العودة من المنفى أن جانبا من الشعب هجر فعلا لغته الأصلية •

وفى خلال العصر الفارسى توغلت جاليات أرامية اللسان وراء حدود أرض الرافدين وحدود سوريا وفلسطين • فقد وجدت نقوش أرامية فى أماكن مختلفة من آسيا الصغرى ، مثل كيليكيا وليديا Lydia وليكيا Lycia ، وكذلك فى فارس وبلاد العرب • وفى مصر تركت لنا الجالية اليهودية فى الفانتين Elephantine (١٨) سلسلة من كسار الخزف ostraca وأوراق البردى الأرامية من القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، ولدينا أيضا وثائق على ورق البرشـــمان parchment نشر الاستاذ درايفر Driver (G.R.) بعضها عام ١٩٥٣ ، وهو ينتمى الى محفوظات وال فارسى فى عصر دارا الثانى •

وقد أدى مجىء الهلينية مع فتحها الحضـــارى للشرق الأدنى الى تقهقر الأرامية ، ولكنه تقهقر صحبه تقدم فى قطاع آخر شمال الصحراء ، حيث اتخذت دولتا البتراء وتدمر الصغيرتان السابقتان للاسلام اللغـة الأرامية والحضارة الأرامية معا • هذا الى أنه ترجع الى هذه الفترة أيضا نقوش أرامية من فارس وكبادوكيا Cappadocia ومصر •

وأدى توحيد الشرق الأدنى فى ظل الامبراطورية الرومانية ، ثم انتشار المسيحية بعد ذلك ، الى انتعاش حـــال الأرامية • فمن ناحية ، استخدمتها دول صغيرة جديدة يسكنهـــا أقوام من العرب (مثل دولة الحضر Hatra (١٩) ، ومن ناحية أخرى ، فانها لما كانت لغة السيد المسيح ، فقد صارت اللغة الرسمية للكنيسة السريانية ، وبهذه الصفة عاشت قرونا بعد ذلك وأنتجت أدبا دينيا ضخما • وأخيرا نجد فى شتى أنحاء العالم العربى آثارا لأقوام من الأراميين ، كانوا تجـــارا وجنودا وعبيدا قاموا ، فيما قاموا به بنشر عبادات مختلفة من الشرق القديم فى دنيا الرومان •

وطابع الانقســـام فى تاريخ الأراميين ينعكس بالطبع فى اللغـة الأرامية ، فهى مجموعة من لهجات عدة • وتكفى قائمة مختصرة لها فى

اعطاء فكرة عن انتشارها وانقسامها · فمن عصرها القديم نجد النقوش التى سبق ذكرها ، وارامية الامبراطورية الفارسية ، وعدة مواضع فى العهد القديم · وحوالى عصر المسيح نستطيع التمييز بين فرعين للارامية· فالفرع الأول ، وهو الارامية الغـربية ، يمثل تطورا لا يبعد كثيرا عن الارامية القديمة ، وهو يشتمل على عدة لهجات : النبطية التى تمثلها نقوش البتراء ، والتدمرية التى تمثلها نقوش تدمر ، والأرامية اليهودية التى يمثلها ماكتبه يهود فلسطين بعـد عصر العهد القديم من الترجوم والتلمود الأورشليمى والمدراش ، ثم الأرامية المسيحية لغة نصارى فلسطين · والفرع الآخر ، أى الأرامية الشرقية ، يختلف عن الأرامية القديمة اختلافا أبعد مدى ، وتمثله لهجة نقـوش الحضر ، والسريانية (لغة كنيسة الرها ، ولها أدب وافر يمتد من القـرن الثانى الى القرن الرابع عشر) ، ثم لغة التلمود البابلى ، والمندعية (لغة الجماعة الغنوصية المعروفة باسم المندعيين) ·

وفى أيامنا هذه نجد فى سوريا أقواما يتكلمون الأرامية ، بل هناك جماعات أكبر فى أرض الرافدين وأرمينية ، ولكن الفتح العربى أدى الى أن تحل العربية محل الأرامية تماما تقريبا · فكان على الأرامية أن تختفى، بعد أن ظلت عدة قرون باللغة الأهمية وسيلة للمزج الحضارى ·

الحضـــارة

ان شطرا كبيرا من التطور التاريخي للحضـــارة الأرامية يتجاوز حدود هـذا الكتاب • فالفتح الفارسى ثم الهلينية خاصة أديا الى انتقال تلك الحضارة من المجال السامى حتما الى مرحلة تكونت فيها بعد ضياع الإستقلال القومى حضارة مركبة أشد التركيب تشتمل على اتجاهات كثيرة من أصل أجنبى • وعلى الرغم من أن القاعدة الأرامية ظلت باقية ، وأن اللغة الأرامية خاصة كانت أداة الحضارة الجديدة ، لا يمكن وصف تلك الحضارة بأن لها صبغة ســامية غالبة • وكذلك شأن الأدب المسيحى المكتوب بالأرامية ، فهو نتاج دنيا حضارية متأخرة فى الزمن ، وقد نقل عناصره السامية الأصل الى وضع تاريخى مختلف •

***

وحياة الأراميين تتسم بما كتب عليهم من أن يكونوا أداة استيعاب ونقل • وهذا الطابع البارز فى مظاهر حضارتهم يتجلى قبل كل شىء فى دينهم ، فهو نتاج الأثر الذى أحدثته فى تراثهم القومى تأثيرات قوية من الحضارات المحيطة بهم • وفى الوقت نفسه لم يكن بد لانقسامهم السياسى من أن يحول دون تطور الدين على أساس قومى مشترك ، وأن يجعل لكل مدينة تطورها الدينى الخاص •

ومع هذا كله كانت هناك آلهة عدة لا تقتصر عبادتها على دولة أو أخرى من دول المدن • وهذا يصدق خاصة على الاله هدد ، وهو نظير الاله أدد عند البابليين والأشوريين ، كما يماثل فى وظائفه الاله الأكبر عند الحيثيين والحوريين (٢٠) • وكان هدد فى الأصل اله العاصفة ، يتجلى فى البرق والريح والمطر الســخى (٢١) • ويحـدثنا الكاتب اليونانى

لوكيانوس Lucianus عن عبادة هدد (الذى يسميه زيوس) فى هيكله بمدينه هيرابوليس Hierapolis (منبج الان : المترجم) ، جنوب فرميس، بطقوس ترجع قطعا الى عصر متقدم (٢٢) . وكان يعبد أيضا فى سمال وحلب ، وكذلك فى دمشق حيث اتخذ ثلاثة ملوك اسما مشتقا من اسمه (بر ـ هدد « ابن هدد ») (٢٣) . ولأنه اله السماء قبل كل شيء اعتبر فيما بعد نظيرا لاله الشمس (٢٤) . وكان يصـور ممسكا بالبرق فى احدى يديه وبفاس فى الأخرى ، وواقفا على ظهر ثور ، وهو حيوانه المقدس (٢٥) . وقد دخل دنيا اليونان والرومان على أنه اله الشمس ، فاعتبروه نظير زيوس وجوبيتر .

ونجد فى مدينة هيرابوليس الى جانب هدد الهة اسمها أترجاتيس Atargatis ، هى نظير الهة الخصوبة السامية العظيمة (٢٦) . وكان يكمل هذه الأسرة السماوية ابنهما سيميوس Simios ، العضو الثالث فى ثالوث الطبيعة (٢٧) .

وللآلهة الكنعانية مكان بارز بين آلهة الأراميين . ففى سمال نجد الاله ال كما نجده باسمه المركب ركب ـ ال (٢٨) ، وفى سوجين نجده الى جانب الاسم عليون (٢٩) ، وهو يرد أيضا عنصرا فى أسماء كثير من الملوك . ونجد الاله بعل فى سمال (فى نقش كلمو ، س ١٥ ـ ١٦ : المترجم) باسم بعل ـ صمد وبعل حمان (٣٠) ، كما نجده فى حماة (فى نقش زكر : المترجم) باسم بعل ـ شمين « سيد السموات » (٣١) . وبعل هو الاله الأكبر فى تدمر ، ولكننا سنتناول دين تدمر ودين البتراء فى الفصل التالى ، فقد كان سـكان هاتين الدولتين الصغيرتين عربا ، وكانت لحضارتهم طبيعة مختلطة ، وان كانت لغتهم أراميـة وثقافتهم يغلب عليها الطابع الأرامى .

ولابد أن الأراميين عبدوا أو على الأقل عرفوا الاله العبرى يهوه ، فقد وجدت أسماء أعلام فى مواضع مختلفة يدخل اسمه عنصرا فيها (٣٢) .

وفى نقشى النيرب (٣٣) تذكر آلهة محلية كالقمر والشمس والنار ، تشير أسماؤها وصفاتها الى أثر أرض الرافدين (٣٤) .

وليس لدينا سوى اشارات قليلة يمكن اتخاذها أساسا للحكم على أشكال الطقوس ، ويبدو أن هذه كانت شبيهة بأشـكال الطقوس لدى الكنعانيين المجاورين ، ولكننا لا نستطيع أن نزيد على ذلك تفصيلا .

ويمكن أن نختم كلامنا بأن الدين الأرامى كان يتبع الخطوط العامة للفكر الدينى السامى ، ويمثل نباتا مركبا ركبت فى جذعه المحلى فروع

مشتقة من الحضـارات المجاورة فى أرض الرافدين وآسـيا الصغرى وكنعان .

***

ولسنا فى حاجة الى أن نقول الكثير عن الأدب الأرامى فى العصر القديم . فاننا اذا تركنا جانبا النقوش التاريخية المختلفة ، ومنها نقشا النيرب ، لا نجد أمامنا سوى نص واحد من ذلك العصر يمكن أن نعتبره بحق نصا أدبيا ، وهو قصة أحيقار التى وصلت الينا مكتوبة على ورق بردى يرجع الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكن قد يكون النص نفسه من القرن الرابع . والقصة قصة رجل حكيم فاضل ، يدعى أحيقار ، كان كاتبا فى بلاط سـنخريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق.م : المترجم) واسرخدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق.م:المترجم) ، ملكى أشور . ولم يكن له ولد ، فتبنى ندن ، ابن أخته ، ونقل اليه وظيفته . ولكن ندن جازاه شرا باحسان ، فأغرى اسرخدون بنميمة خبيثة بالحكم على أحيقار بالموت . ولكن هرب أحيقار بتواطؤ من الجلاد ، واستطاع استعادة مكانته بفضح دسيسه ابن أخته . وقد ألحقت بالقصة سلسلة من الأقوال المنسوبة الى أحيقار ، وهى تبعث على الاهتمام البالغ لأنها من ناحيـة تنتمى الى تراث الأدب التعليمى فى الشرق الأدنى القديم ، ولأنها من ناحية أخرى تتخذ الخرافات مادة لها ، وهى وسيلة تطور بها الأدب اليونانى فيما بعد . وفيما يلى امثلة من اقوال أحيقار :

« يابنى ! لا تهذر كثيرا فتنطق كل كلمة تخطر ببالك ، ففى كل مكان عيونهم وآذانهم ، فكن حارسا على فمك ، حتى لا يكون فيه هلاكك . افرض على فمك حراسة أشد من كل حراسة ، وأغلق القلب على ماتسمع ، فالكلمة كالطائر اذا أطلقها أحد لم يستطع استعادتها ... »

« فى حضرة الملك اذا أمرت بشىء فهو نار مشتعلة ، فأسرع وافعله ، لا تضع مسحا عليك ، ولا تغط كفيك (٣٥) ، لأن كلمة الملك (ممزوجة) بغضب القلب . كيف يصارع الخشب النار ، واللحم السكين ، والانسان الملك ؟ » (*) .

ومن قصص الحيوان :

(*) احيقار ، العمود السابع . (المترجم : تشمل الفقرة الاولى السـطور ٩٦ ـ ٩٨ ، والثانية السطرين ١٠٣ ـ ١٠٤ من قصة احيقار كما ترد فى كتـاب كاولى . وترجمة المؤلف تتفق وترجمة كاولى فيما يتعلق بالفقرة الأولى ، ولكنهمـا تختلفان فيما يتعلق بالثانية ، وقد تابعنا هنا ترجمة كاولى ، ص ٢٢٣)

« قابل النمر العنزة وكانت تشعر بالبرد ، فقال النمر للعنزة : « تعالى فأكسوك بجلدى » . فأجابت العنزة وقالت للنمر : « لا شأن لك بى ياسيدى . لا تأخذ جلدى منى » . وذلك لأنه لا يقرئ (النمر) الجدى السلام الا ليمتص دمه(٣٦) » (*) .

ونجد لب بعض خرافات أحيقار مكررا فى الخرافات المشهورة المنسوبه الى ايسوب Aesop ، بل ان سيرة ايسوب متأثرة بسيرة الحكيم الشرقى القديم .

وكان الانتاج الفنى للدويلات الأرامية محدود المدى ، وكان كالدين الأرامى مزيجا من عناصر حيثية وحورية وعناصر من أرض الرافدين ، بل وعناصر مصرية أيضا . فالأصالة فيه قليلة لا محالة ، والأسلوب يتوقف قبل كل شىء على الأحوال السياسية السائدة فى زمن بعينه ومكان بعينه .

وقد ترك الأراميون آثارا من توغلهم فى أرض الرافدين فى حضارة تل حلاف ، حيث كشف فون أوبنهايم (M.) von Oppenheim مجموعة كبيرة من التماثيل ومن الأبواب pylons التى حفرت عليها صور بارزة . ويمكن تمييز أعمال الأراميين الفنية بما اعتادوه من تصوير وجه الانسان باللحية محلوقة فوق الشفتين وتحتهما . وموضوعات الصور البارزة هى أساسا أشكال الحيوانات ، والمخلوقات الغريبة ، ومناظر الصيد ، مع بعض الخشونة فى التصوير . وهذا كله يتبع طبعا الخطوط الاساسية لفن أرض الرافدين ، ويمكن حقا ادراجه فيه . أنظر اللوحة ١٥ .

وربما كانت سمأل ، بين الدول الأرامية فى سوريا ، هى التى يدل طابعها المختلط أوضح دلالة على التطور الذى أتى به مرور الزمن وتغيرات الموقف التاريخى . ففنها المعمارى وأقدم طور فى فن التماثيل بها منقولان عن أنماط حورية حيثية . وكانت المدينة محاطة بصفين من الأسوار ، وكانت تقوم فى وسطها القلعة والمبانى العسكرية والقصور الملكية والمعابد . أنظر اللوحة ١٦ . ومن الملامح المميزة للقصور الفناء الخارجى الذى على هيئة «البوائكى» (bit khilani) ، وقد رأيناه فى الفن الأشورى ، وتدل دراسات الأستاذ فرانكفورت (H.) Frankfort على أنه نشأ أصلا هنا فى سوريا . وكان على جانبى باب المدخل تمثالان لأسدين عظيمين قد فغرا

(*) احيقار ، العمود الثامن (المترجم : السطور ١١٨ — ١٢٠ فى ط كاولى . وقد تابعنا هنا ترجمة كاولى ، وهى تختلف قليلا عن ترجمة المؤلف) .

الفكين وتدلى منهما اللسان ، وكانت هناك تماثيل كثيرة على صورة أبى الهول · وقد بدأت تماثيل الآلهـــة والملوك والحيوانات بتقليد الأنماط الحورية والحيثية كما رأينا ، ولكنها تحولت فى عصر متأخر الى الأنماط الأشورية بحيث تخلت عن الصورة الارامية التقليدية للحية · وتنتمى الى هذه الفترة الاشورية صور بر ـ ركب البارزة ، ويبدو فى احداها واقفا ، وفى أخرى جالسا وأمامه خادم · وصور الأجسام غليظة فجة ، ومواضع الأجسام والأذرع تخضع لنفس التقاليد التى نجدها فى فن أرض الرافدين ·

* * *

وكانت اللغة الصورة الأســـاسية بين الصـــور المختلفة للحضارة الأرامية · ولكن ليست اللغة فكرة أو منحى ثقافيا ، وانما هى وســيلة لاكتساب الثقافة والتعبير عنها ونشرها ، والواقع أن ما أسهم به الأراميون فى مضـــمار الحضارة هو أساسا هذه العملية · لم يكونوا فى وضـــع يمكنهم من الابداع الفنى العظيم ، وانما كانت بلادهم ملتقى النتـــاج الثقافى للدول القوية المحيطة بهم ، وكانت لغتهم أداة لاستيعاب الثقافة ونقلها تجاوزت حدود تاريخهم المحلى وصارت عنصرا فى حضارة البحر الأبيض المتوسط · وقد عرف اليونان والرومان الشرق الأدنى من طريق الأراميين أساسا ، فان الأراميين هم الذين وحدوا مصادر حضارته وأجروها فى مجرى واحد ، فالفوا بين العناصر البابلية والفارسية والعبرية ونقلوها الى المسيحية ومنها الى الغرب · وفى عصر متأخر نقل الأراميون من الغرب الى الشرق الثقافة اليونانية ولاسيما الفلسفة التى انتقل العلم بها الى العرب من طريق الأرامية ·

فالأساس الأول لخصائص الحضارة الارامية كان الموقع الجغرافى، كما قلنا فى البداية ، فأرض الأراميين شاركت الى حد بعيد فيما قدر لمنطقة سوريا وفلسطين من أن تكون مجال اتصـــال ، فقد كانت أرض الاراميين جزءا لا يتجزأ من هذه المنطقة .

الفصل الثامن

العرب

ان الصورة التى يعرضـها لنا الظهير hinterland العربى تتسم بسكون ملحوظ ، على عكس تاريخ المناطق السامية الشمالية الذى يتسم بالنشاط والتغير . فالصحراء التى تغطى الجزء الأكبر من سطح شـبه الجزيرة العربية تعوق تحركات الجيوش والتجار ، وتحفظ عبر القرون دون تغيير تقريبا صفات سكانها وأحوال معيشتهم . والراجح فيما يبدو أن الساميين اكتسبوا هنا تلك السـمات التى ظهروا بها فى التاريخ لأول مرة ، والحق أن العرب احتفظوا بأقدم هذه السمات على نحو لعله خير من احتفاظ أى شعب آخر بها ، ولكن سـكان الجزيرة العربية أنفسهم ظهروا على مسرح التاريخ فى فترة متأخرة نوعا ما ، بعد مرور آلاف السنين على الاستقرار السياسى لشعوب سامية أخرى .

ويمكن القول أن وحدة الجزيرة العربية تحققت بفضل الحركة الدينية الكبيرة التى بدأتها دعوة محمد فى القرن السابع الميلادى . فشخصية النبى اذن حد فاصل فى التاريخ العربى ، فقبله كان تفرق وانقسام ، وبعده جاءت وحدة سياسية متينة وجاء توسـع بعيد وراء حدود الجزيرة العربية . ولم تقم قبل محمد سوى دويلات محلية على طول الطرق التجارية وعلى أطراف المنطقة الشمالية ، وكانت حياة هذه الدويلات محدودة فى

الزمان والرقعة . ولكن شذ عن هذا شيء واحد ، والشذوذ هنا يتعلق بالزمان لأننا لازلنا فيما يتعلق بالرقعة ازاء وحدات صغيرة ، ونعنى بهذا الشيء الواحد المنطقة الساحلية الجنوبية الغربية ، أى اليمن السعيد ، حيث نجد أن جودة التربه وما يتبعها من امكان قيام حضارة مستقرة قد أتاحا تنظيم وحدات سياسية باقية مزدهرة . ولذلك كانت لهذه المنطقة حياتها الخاصة الى أن ذابت بعد فترة من الاضمحلال المستمر ، فى الدولة الاسلامية الناهضة .

وخارج الجماعات المستقرة ، التى لم تكن سوى أقلية صغيرة ، كانت القبائل البدوية تعبر الصحراء فى هجراتها الموسمية بحثا عن الكلأ والماء . وقد يبدو للنظر القصير أن حياة البداوة متغيرة غير ثابتة ، ولكنها فى الواقع ثابتة بتواتر حركاتها الرتيب عاما بعد عام وقرنا بعد قرن ، وهكذا تتخذ المنطقة كلها شكلا ثابتا منعزلا على عكس التطور التاريخى فى المناطق المحيطة بها .

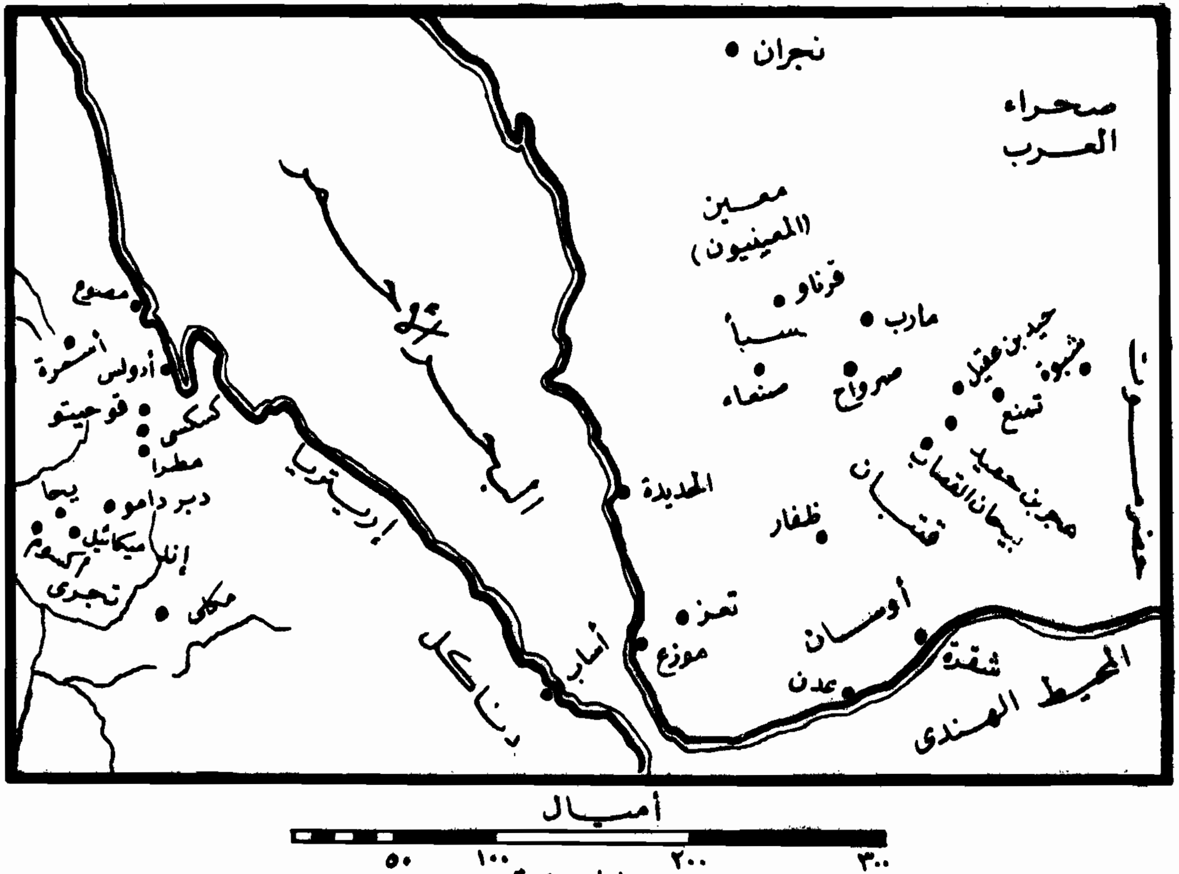

(٤) اليمن والحبشة

العرب الجنوبيون

لايزال علمنا باليمن السعيد بعيدا عن التمام . فثمة مشاكل عدة لابد من حلها قبل أن نكون على يقين من تاريخ الدول المختلفة وعلاقاتها بعضها ببعض . ولكن تحقق تقدم كبير منذ المحاولات الاولى لحل النقوش العربية الجنوبية حوالى منتصف القرن الماضى. فرحلات هاليفى Halévy (J.) وجلازر Glaser (E.) فى النصف الثانى من ذلك القرن جلبت الى أوربا عدد كبيرا من نسخ النقوش وصورها ، ومنذ ذلك الوقت أخذ العدد يتزايد حتى بلغ نحو أربعة آلاف نقش ، والمنتظر الكشف عن عدد كبير آخر نتيجة للاستكشافات الحديثة التى قامت بها جامعة لوفان (١٩٥١ — ١٩٥٢) و « المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان » American Foundation for the Study of Man (١٩٥٠ — ١٩٥٣) .

والنقوش مكتوبة بخط أبجدى قد يكون أخذ عن كنعان ، وان كانت الحروف لا تنطوى على شبه ظاهرى كبير بحروف الأبجديات السامية الشمالية ، وانما هى تشبه الأبجدية الاثيوبية خاصة دون سائر الأبجديات السامية المعروفة . واللغة العربية الجنوبية ، أو بالأحرى مجموعة اللهجات التى تتكون منها ، قريبة الصلة أيضا بالحبشية . والسبب فى هذا واضح وضوحا كافيا ، فالحضارة الاثيوبية فرع من الحضارة العربية الجنوبية ، لأن الحبشة استوطنها مهاجرون من الساحل اليمنى .

والنقوش العربية الجنوبية ، من حيث مادتها ، نقوش نذرية ، ونقوش قبور ، وأوصاف لعمليات بناء ، وتسجيلات لوقائع تاريخية ، وأحكام ، ونصوص اقتصادية . ويمكن اعتمادا على هذه المادة كلها اقامة

قوائم بالملوك والاحداث السياسيه فى حياة كل دولة من الدول ، وذلك مع الاستعانة أيضا ببعض المصادر غير المباشرة • وهناك روايات باللغة الوفرة من العصر الجاهلى ، ولكن تنقصها المادة التى يمكن التعويل عليها ، لانها أسطورية الطابع فى الغالب • وفى العهد القديم بعض الاشارات ، ولاسيما تلك القصه المشهورة عن زيارة ملكة سبأ لسليمان ، وفى النقوش المسمارية الأشورية اشارات قليلة ، ونجد ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد اشارات هامة فى كتب المؤرخين والجغرافيين اليونان والرومان ، وفى بضعة نصوص دينية سريانية وحبشية •

***

فى الألف الأول قبل الميلاد ظهرت دول مختلفة فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، أهمها دول معين وسبأ وقتبان وحضرموت •

والمملكة المعينية ، فى شمال اليمن ، هى التى دار حولها أكثر الجدل فيما يتعلق بزمانها • ففى الماضى لم يكن يعرف على وجه اليقين أكانت متقدمة على مملكة سبأ أم معاصرة لها • ولكن الحفائر الحديثة وتطبيق العملية الراديو كربونية radiocarbon process تشير الى تعاصرهما ، ويبدو أنه يمكن تأريخ قيام مملكة معين بحوالى ٤٠٠ ق•م والمعينيون جديرون خاصة بالتنويه لتنميتهم التجارة مع الشمال ، وقد أسسوا مستعمرات هامة على طول الطريق الساحلى المحاذى للبحر الأحمر والمؤدى الى فلسطين والبحر المتوسط • وقرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد ذابت مملكة معين فى مملكة سبأ التى كانت فى الوقت نفسه تمد نفوذها فى المنطقة نحو الجنوب •

وتنبئنا النقوش المسمارية التى ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد أن زعماء سبأ وملوكها قدموا الجزية والهدايا لملوك أشور • ولابد أن هؤلاء السبئيين كانوا مستوطنين فى شمال الجزيرة العربية ، وهذا يدل على ازدهار الدولة فى مثل هذا الزمن المتقدم • وتدلنا أقدم النقوش السبئية على أن التقدم الحضارى بلغ فى تلك الفترة شأوا بعيدا •

وقد تطورت دولة سبأ من حكومة دينية الى حكومة مدنية • ففى عصر متقدم كان حكامها يتخذون لقب « المكرب » ومعناه « الكاهن الأكبر » • وقرب نهاية عصر المكاربة استقرت عاصمة الدولة فى مأرب ، حيث كان يبنى سد عظيم للتحكم فى وادى أذنة (١) وتحويل مياهه للرى • وحوالى القرن الخامس قبل الميلاد تحولت الدولة الى حكومة دنيوية تعتمد على حكم أقلية تتألف من عدد صغير من الأسر العسكرية والأسر المالكة للأرض •

وقام على رأس الدولة ملوك ، أخذ السبئيون فى ظلهم يوسعون نفوذهم شيئا فشيئا • وفى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد أضاف ملوك سبأ الى لقبهم ملك ريدان ، وأقيمت عاصمة جديدة فى ظفار • وفى الوقت نفسه بدأت قبيلة حمير تحتل مركز الصدارة فى الدولة ، فأخذ اسمها (Homeritae) يزداد ورودا فى المصادر اليونانية والرومانية الى جانب اسم السبئيين أو مكانه •

وقرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، كما قلنا ، ذابت مملكة معين فى مملكة سبأ • وكان هذا أيضا مصير مملكة قتبان التى يقضى نظام التأريخ الجديد بوضع تاريخها بين ٤٠٠ ق٠م و ٥٠ ق٠م على وجه التقريب (٢)٠ ثم ذابت حضرموت بعد ذلك بزمن ، وتاريخها حسب نظام التأريخ نفسه يقع بين ٤٥٠ ق٠م والقرن الثانى الميلادى • وتذكر نقوش قتبان وحضرموت بعض المكاربة ، وهذا يؤدى بنا الى أن نفترض أن نظام الحكم الأصلى فيهما كان مشابها لما عرفه السبئيون • وعندما حل القرن الثالث الميلادى كان السبئيون قد وحدوا جنوب الجزيرة العربية فى دولة قوية واحدة ، هى أكبر وحدة سياسية أنشأها العرب الجنوبيون •

ولم تلبث هذه المملكة أن تعرضت لهجوم عنيف شنه الاثيوبيون • وفى القرن الرابع احتلها الاثيوبيون زمنا ، ثم استعادت حريتها بعد ذلك ، ولكن الفرقة الداخلية التى ترجع أولا الى دخول اليهودية والمسيحية بدأت تدفع البلاد فى طريق الاضمحلال • وأخذ العنصر اليهودى يزداد قوة ، فحاول ذو نواس ، آخر ملوك سبأ ، فرض اليهودية على شعبه ، وبدأ يضطهد المسيحيين اضطهادا عظيما • فدفع هذا الاثيوبيين المسيحيين عام ٥٢٥ م الى غزو اليمن واحتلالها •

وقد استحكمت الأزمة فى ظل الاحتلال الاثيوبى • فبينما كان الحكام المسيحيون يبنون الكنائس ويحاولون الاندفاع نحو الشمال كما فعل أبرهة (الذى يظن العلماء اليوم أنه حكم اليمن مستقلا عن اثيوبيا) ، كانت البلاد تزداد اضمحلالا ، لخمود النشاط التجارى الذى كان يتوقف عليه بقاؤها الى حد كبير • وفى ذلك الوقت ازداد استعمال الطرق البحرية ، فكانت هذه المنافسة كارثة على تجارة القوافل ، وأخيرا أدى انهيار سد مأرب عام ٥٤٢ م الى خراب أراضى الرى اليانعة ، وسدد ضربة الموت الى ازدهار البلاد •

وقد انتهت سيادة الحبشة عام ٥٧٥ م ، وتلتها سيادة الفرس التى انتهت هى أيضا بالفتح الاسلامى فى أخريات حياة الرسول الكريم •

تشتمل النقوش العربية الجنوبية على طائفة كبيرة من أسماء الآلهة وألقابها ، وهذا يوحي بوجود نظام للآلهـــة بالغ التعقيد · ويزيد من الصعوبات التي يلاقيها الباحث الطابع المحلي لمعظم الآلهة ، والاشارة اليها عادة دون ذكر أسمائها أو بذكر ألقابها · ولكن لاريب في وجود أفكار عامة معينة يمكن تجميع جمهرة الآلهة حولها ·

فقد ساد في جنوب الجزيرة العربية ثالوث من الكواكب ، رايناه من قبل في أرض الرافدين : اله نجمة الصباح ، واله القمر ، واله الشمس · ومن الغلو أن نحاول، كما فعل نيلسن Nielsen (D.) في بحثه المشهور ، اخضاع جميع الالهة لحدود هذا الثالوث ، ولكن الحق أنه لعب دورا هاما في نظام الآلهة بجنوب الجزيرة العربية ، وأن كثيرا من الآلهة المختلفة ليست سوى مظاهر له ·

واسم اله نجمة الصباح معروف للمنطقة كلها : عثتر ، نظير عشتر لدى البابليين والأشوريين وعشترت لدى الكنعانيين · ولكن من الجدير بالملاحظة أن عثتر العربي الجنوبي اله ذكر ، بينما أن نظائره في جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثة ·

ويتخذ الها القمر والشمس أسماء مختلفة · فاله القمر اسمه ود عند المعينيين ، والمقه عند السبئيين ، وعم في قتبان ، وسين في حضرموت (كما في بابل) · واله الشمس اسمه في قتبان وحضرموت شمس ، الى جانب أسماء أخرى ، والاسم شمس قريب من الاسم شمش في أرض الرافدين · فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية في الشعوب السامية كان يتوقف بعضها على بعض ·

والى جانب الآلهة المشـــتركة كانت هناك طائفة كبيرة من الآلهـــة الخاصة ، تحمي بعض الأماكن أو القبائل بل الأسر أيضا · ويشار اليها غالبا بالاسم بعل الذي رأيناه من قبل لدى الكنعانيين ، ومعناه «صاحب» أو « سيد » · ولم تأت هذه الآلهة جميعا من التراث القومي ؛ فبعضها أخذ عن الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم الى النقل والاستيعاب ، وهو استعداد يسر في مراحل متأخرة من تاريخهم دخول العقائد اليهودية والمسيحية ·

وبين آلهة العرب الجنوبيين عدة آلهة لا أسماء لها ، يبتهل اليهـا فرادى أو جماعات باسم اله أو آلهة مكان أو جماعة أو شعب ما ·

ولنذكر خاصة ال ، وهو اله سامي مشترك : ال لدى الأكديين(٣) ، وال لدى الكنعانيين ، والوهيم عند العبريين ، والله عند العرب · وقد

عرف اليمنيون أيضا هذا الاسم ، واستعملوه في الغالب اسما عاما بمعنى اله . وهو مدلوله الأصلي حقا · ولكنهم استعملوه أحيانا علما على اله خاص (٤) ، ويكثر وروده عنصرا في أعلام الأشخاص ·

وأعلام الأشخاص التي تدخل في تركيبها أسماء الآلهه هي المصدر الأساسي لمعلوماتنا عن الصفات التي اعتاد العرب الجنوبيون اطلاقها على الآلهة في ابتهالاتهم · فمن أشهر هذه الصفات : الأب (٥) والرب (٦) والملك (٧) والعزيز (٨) والعادل (٩) والأمين (١٠) · ويبرز دين العرب الجنوبيين عبودية الانسان للآلهة (١١) ، وهذه النظرة الدينية تستدعي دائما أن يسعى الانسان للظفر بحماية الآلهة ·

* * *

وقد دخل دين العرب الجنوبيين كل صورة من صور حياتهم · ولما كانوا يرون أنه لابد من حماية الآلهة لتوفيق كل حي ونجاح كل عمل ، فقد كان للقبائل والأسر ، بل للدول والجماعات الزراعية والتجارية أيضا ، آلهة تحميها · وكانت تقام عند أداء أي عمل له أهمية ما احتفالات لاسترضاء الآلهة وتكريس ذلك العمل لها · وكانت المعابد والقنوات ، والقوانين ومراسيم الدولة ، وأنصاب القبور ، توضع كلها في رعاية الآلهة ، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك تلك الأشياء أو يدنسها ·

وفي مثل هذه البيئة كانت للمعابد أهمية قصوى · فكانت تخصص لها العشور ومصادر دخل أخرى لتوفير أموال كافية لتعهدها · وكان تعهد المعابد واجب الكهنة ، وكانوا كثيرين على نظام حسن · وربما كان من وظائفهم أيضا اصدار النبوءات باسم الآلهة ، ولكن معلوماتنا في هذا الصدد لا تكفي للعلم اليقين · وكان بين العاملين في المعبد أيضا بغايا مقدسات ، أكثرهن اماء أجنبيات يوهبن للآلهة ويهبن أنفسهن تماما لخدمتها ·

وكانت تقدم قرابين من حيوانات مختلفة ، كالثيران والغنم ، في أعداد كبيرة غالبا · وكانت هناك أيضا قرابين من غير دم ، كقرابين الشراب وتقديم البخور ·

ومن العادات التي تدعو الى الاهتمام البالغ عادة الحج الى الأماكن المقدسة ، وكان لها نظير في وسط الجزيرة العربية صار فيما بعد من فرائض الاسلام · وليست هناك أدلة صريحة على عادة الطواف بالأماكن المقدسة ، ولكن هناك دلائل تشير الى أنها وجدت في صورة لا تختلف عن الصورة التي سادت بين سائر العرب ·

ولابد أن الصلوات الخاصة ، أى الصلوات التى لا ترتبط بوظائف دينية أو بأوقات محددة ، كانت منتشرة انتشارا واسعا ٠ وكان الغرض منها قبل كل شيء استجداء حماية الآلهة حتى يتحقق الخصب للأرض ، والرواج للتجارة ، والخلاص من الفقر والمرض ٠ وكان انتهاك مبدأ الطهارة يستدعى الاعتراف علنا به ، وكانت الطهارة ركنا هاما من أركان الطقوس٠ ولدينا أمثلة لاعترافات أدلت بها قبائل لآلهة مختلفة ، واستغفار على الملأ أداه بعض الملوك .

وقد وجدت فى قبور جنوب الجزيرة حلى وكئوس وأختــام وأشياء من كل نوع ٠ وهذا يشير الى الايمان بالحياة الأخرى ، ولكننا هنا أيضا لا نستطيع التحقق من تفاصيل تلك العقيدة ٠

فالحياة الدينية لجنوب الجزيرة تتميز فى جملتهــا بطابع حضارة مستقرة بالغة الشأن لها شخصيتها البارزة واستقلالها فى نطاق بيئتها ٠ وهى تختلف عن أحوال العرب البدو فى الشمال اختلافا كبيرا من عدة وجوه ٠

***

وليس من اليسير رسم صورة للحياة السياسية والاجتماعية لشعوب لم تترك لنا من الوثائق سوى نقوش نذرية وتذكارية ٠ ولكن النقوش التذكارية كثيرة الى حد يكفى لاستخراج نتائج معينة فى هذا الصــدد تتسم بالحيطة والحذر ٠ هذا الى أن انقسام المنطقة الى دول مختلفة يعنى أنه على الرغم من التجانس الكبير فى تلك المنطقة لا يلزم للنتائج التى نكونها عن دولة ما أن تصلح لدول أخرى دون استثناء أو تعديل ٠

وقد اتخذ التنظيم السياسى للدول العربية الجنوبية صورة ملكيات متحدة قوية ٠ وكان رأس الدولة هو الملك ، وقد تطورت سلطته فى أكثر هذه الدول من سلطة دينية الى أخرى دنيوية ٠ وقد تتبع لنا جاك ريكمانز J. Ryckmans مجرى التطور السياسى فى مملكة معين، وكذلك فى مملكة سبأ خصة ٠ ففى سبأ ، تحت حكم المكاربة ، كانت القبــائل جمــاعات دينية تظلها حماية آلهتها الخاصة ، وكان مجلس من الشعب يساعد الحاكم فى وظائفه التشريعية ٠ وفى عصر الملوك ظل المجلس قائما فى أول الأمر ، وكان ينفذ القانون فى كل قبيلة موظفون قضائيون يتوارثون وظيفتهم ويتخذون لقب « كبير » ٠ وحوالى بداية العصر المسيحى أدى اتساع فتوح سبأ الى ازدياد نفوذ هؤلاء « الكبراء » حتى أصبحوا طبقة فى القبائل لها امتيازات خاصة وممتلكات من الأراضى واسعة ، فاختفى مجلس الشعب،

وتضاءلت سلطة الملك الى حد كبير ، فقام نوع من النظام الاقطاعى . وفى المسائل العسكرية ، كانت السـلطة فى يد الحاكم دائما على مايبدو ، فالنقوش التى تسجل الأعمال الحربية تقرر أن هذه الأعمال تمت بأمره ، ولا يبدو انه كان للمجالس الشعبية كلمة ما فى هذا الصدد . ومن الناحية الدينية ، يبدو أن سبأ ، حتى فى عصر المكاربة ، كان لها نظام من الحكم أقرب الى النظام الدنيوى مما لدى معـين أو قتبان ، حيث كان للكهان نشاط أبرز وأظهر .

ويبدو أن عرش الملك كان يرثه عادة الابن عن الأب ، فان لم يكن للملك ابن خلفه أخوه . ومن النظم الخاصـة بالعرب الجنـوبيين ملك شخصين أو أكثر معا ، وهو نظام أصله معينى أو قتبـانى ، ولعل سبأ أخذت به بعد فتحها لقتبان ، وكان يقضى بأن يشرك الملك معه فى حكم الدولة ابنه الذى سيخلفه أو ، فى مرحلة متأخرة ، بعض أبنائه ومنهم ولى عهده .

وكانت سلطة الملك والزعماء المحليين تقوم فى آخر الأمر على مايملكونه من الارض ، ومن هنا أقيمت ادارة الدولة على أساس من عقار الارض ، ووجهت الى حد كبير نحو رعايته . وكان للمعابد أيضا ضياعها التى كان لها فضل كبير فى ازدهارها .

ولدينا بعض المعلومات عن الادارة المالية . فكانت تفرض ضرائب على الصفقات التجارية وعقار الارض ، كما كانت هناك ضرائب خاصة لسداد النفقات العسكرية . ويبدو أن نسبة الضريبة لم تكن محددة ، وانما كانت تختلف حسب المحصول وبعض العوامل الأخرى .

وكانت الحياة الاقتصادية لجنوب الجزيرة تقوم على التجارة الدولية ، فضلا عن مواردها الزراعية العظيمة . وكانت العطور العـربية خاصة مشهورة فى أنحاء العالم ، وكانت تصـدر بحرا أو على طريق القوافل المؤدية الى أرض الرافدين وفلسطين . وفى الميدان التجارى ، كان جنوب الجزيرة مركزا أسـاسيا لتبادل السـلع ، وكان مرسى المحيط الهندى للتجارة مع البـحر المتوسط . والقواعد التجارية التى أقامها السبئيون على سواحل الهند والصومال أتاحت لهم احتكار تجارة الذهب والبخور والمر وأخشاب الزينة التى تصدرها تلك المناطق الى الشمال .

ولهذا تخللت المصالح والحاجات التجارية سياسة العرب الجنوبيين بأسرها ، وقد استطاعوا بلوغ بلاد قصية دون أى فتح سياسى كبير ، بفضل استيطانهم وتجارتهم .

* * *

ولم ينقب علماء الآثار بعد فى جنوب الجزيرة العــربية على نطاق واسع كما فعلوا فى مناطق آخرى من الشرق القديم · فالمعابد الكبيرة والقصور البديعة التى حفظ الكتاب القدامى ذكرها لايزال جانب منها يرقد خرائب تحت تلال الرمال التى تغطى منذ قرون بقايا تلك الحضارة البائدة ·

وجنوب الجزيرة العربية غنى بالجرانيت ، وهو حجــر رائع للبناء نحتت منه كتل مربعة كبيرة وأعمدة قوية · وكان فى الزمن القديم غابات واسعة يؤخذ منها الخشب · وقد استعمل الآجر أيضا ، وكانت تصنع منه كثيرا تركيبات على هيئة درج فى رءوس الاعمدة وفى السقوف تذكر بنظائرها فى كثير من مبانى أرض الرافدين ·

ومعلوماتنا عن الفن المعمارى فى جنوب الجزيرة العربية تسمح لنا ، رغم نقصها ، بوصف بعض خصائصه · فالكتل الحجرية الكبيرة كانت تسوى وتركب بعضها الى جانب بعض فى دقة بالغة يصعب معهــا رؤية أماكن الوصل · وكانت الاعمدة توطد فى نقر sockets فى قواعدها bases وطيلها architraves والجدران ملساء عامة ، ولكننا نعرف أنها كانت تبنى أيضا بسطوح مضلعة ribbed · وهذه الطريقة توحى بأنها تأثرت بمبانى الآجر ، وهى فى جملتها تذكر بالفن المعمارى البابلى · وكانت تبذل عناية كبيرة فى تزيين الجدران والأعمدة بفصوص من الذهب أو غيره من المعادن التى كان جنوب الجزيرة غنيا بها ·

وكانت الأعمدة المربعة والأعمدة الأسطوانية تستعمل كثيرا · وكانت تنصب مليثات monoliths طويلة ، كتبت عليها نقوش غالبا · وكانت رءوس الاعمدة مربعة فى الغالب ، وكان للعمود أحيانا عدة رءوس يعلو بعضها بعضا على هيئة درج ، وكانت الأعمدة نفسها مربعة أو لها ثمانية ضلوع أو ستة عشر ضلعا ·

وكانت المعابد بيضاوية أو مربعة فى تصميمها · فمن الأمثلة الطيبة للنمط الأول معبد مأرب الكبير الذى كشفته البعثة الأمريكية · وقد عثر على سوره ، وهو بيضاوى تقريبا ، كمــا نقب تنقيبا دقيقا فى مبنى بنى فى السور فيما بعد · ولهذا المبنى وجه فيه ثمانية أعمدة مربعة ، ومدخل من ثلاثة أبواب جنبا الى جنب يؤدى الى رواق ، وفى هذا الرواق باب واحد يؤدى الى ساحة المعبد نفسها · ومن الأمثلة الطيبة للمعابد المربعة التصميم معبد خور رورى فى عمان ، وقد كشـــفته البعثة الأمريكية أيضا · وجدران هذا المعبد بالغة السمك (تبلغ عشرة أقدام أو أكثر) ،

وفى داخل الجدار الشمالى بنيت ثلاثة جدران أخرى · وليس هناك سوى مدخل واحد ، وهو ضيق أقيم فى الجدار الشرقى · وفى ساحة المعبد مذبحان وبئر ركب فيها صهريج ·

وقد كشفت أيضا عدا المبانى الدينية أبنية أخرى بنيت من كتل الحجارة أو من الآجر : قلاع من عدة طوابق ، وأسوار ، وأبراج · وكان بناء السدود فرعا من الفن المعمارى الدنيوى له أهميته الخاصة ، وكان لأحد هذه السدود ، وهو سد مأرب أهمية قصوى لازدهار البلاد السياسى· وقد كشفت الحفائر فى منطقة تمنع (عاصمة قتبان : المترجم) عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الرى لرقعة واسعة من البلاد ·

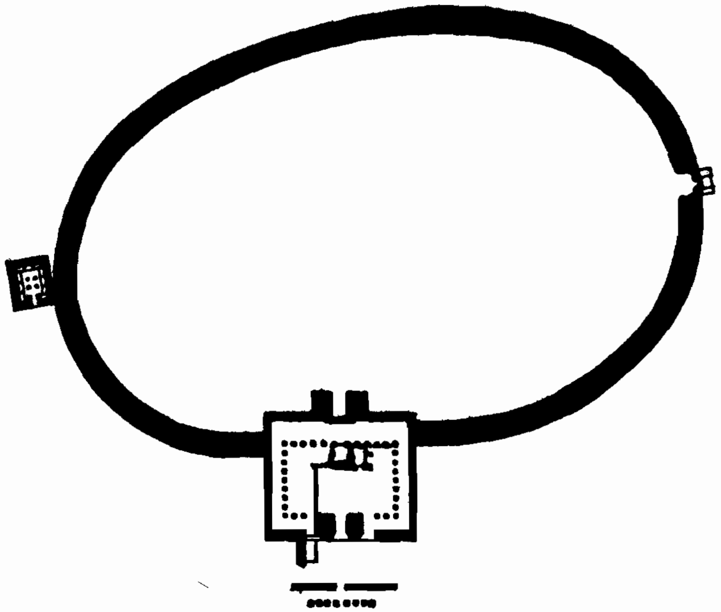

٣ ــ تصميم معبد مأرب

وكانت أبنية القبور موضع اهتمام خاص · وقد كشفت غرف دفن وأضرحة وأنصاب ، عليها فى الغالب صورة للميت ونقش تذكارى · وكشفت البعثة الأمريكية الأخيرة فى تمنع قبورا نحتت فى الصخر ، وفيها أثاث مما يوضع فى القبور وكثير من النقوش ·

ولم يبلغ فن النحت مبلغ الفن المعمارى . والنمط السائد فى فن

النحت تماثيل صغيرة لأشخاص توضع فى المعابد قرابين نذور ٠ وقد كشفت بعض التماثيل البرونزية الجميلة ، كالتمثال الذى كشف أخيرا فى مأرب ، وهو نحو ثلاثة أقدام ارتفاعا ، ويمثل رجلا يلبس على ظهره جلد أسد ، وكتمثال الحصان الذى تضمه الآن مجموعة دمبرتون أوكس Dumberton Oaks Collection فى واشنطن ، ولكن هذا الفن عامه من نمط غليظ بدائى ٠ انظر اللوحتين ١٧ و ١٨ ٠ وهذا يصدق أيضا على الصور المحفورة ، ففى صور البشر المحفورة نجد عامة أن الجسم فى وضع مواجه ، والقدمين فى وضع جانبى ، والوجوه ضعيفة الأداء ٠ ويعبر عن تفاوت المكانة بين الاشخاص المرسومين باختلاف الأحجام ، كما فى أرض الرافدين ٠ ولم يستطع أولئك الفنانون التغلب على مشاكل الأبعاد ، فاكتفوا بوضع صور الأشياء بعضها فوق بعض أو ازاء بعض ٠ ونجد كالعادة أن الصور المحفورة التى تمثل الحيوانات والأزهار والأشكال والرسوم الهندسية أكثر توفيقا ، فهناك مثلا فى المتحف البريطانى صورة محفورة لجمل بالغة الروعة ٠ انظر اللوحة ١٩ ٠

وكان العرب الجنوبيون عظيمى التوفيق فى صناعة القطع الفنية الصغيرة ٠ فالكتاب اليونان والرومان ترنموا بأناشيد الثناء على الكئوس والأوعية التى صنعها السبئيون من الذهب والفضة ٠ ولم يصل الينا سوى القليل من هذه الأشياء لسوء الحظ ، وان كان هذا أمرا طبيعيا ، ولكن لدينا مثلا مصباحا برونزيا بديعا ، على سطحه الأعلى رسم فى صورة جدى يقفز ٠ وثمة دبابيس وفصوص من البرونز عليها صور معارك بين حيوانات وآلهة تذكر بالأختام البابلية والأشورية ٠

وقد صنعت قطع كثيرة من الحلى بالغة القيمة من الذهب الذى كان وافرا فى جنوب الجزيرة ٠ وسكت أيضا نقود كثيرة ، اقتداء بالعالم اليونانى الذى نجد أثره فى تلك النقود نفسها ٠

وفى الختام نقول ان فن جنوب الجزيرة ، كسائر مظاهر الحضارة التى ينتمى اليها ، يدل على مرحلة من الحضارة تروع المرء بتقدمها ، قامت مزدهرة راسخة فى أحوال مستقرة ، وكانت مستقلة عن بقية أنحاء الجزيرة بل مختلفة عنها من عدة وجوه ٠

عرب الوسط والشمال

ان تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام ، اذا استثنينا الجزء الجنوبى منها ، هو تاريخ الأحداث التى شهدتها جماعات سياسية صغيرة قامت واحدة وراء الأخرى على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الأحمر الى أطراف فلسطين وسوريا وأرض الرافدين · ولم تكن هذه الدويلات مستقرة فى تركيبها ، وكانت قصيرة العمر ، فهى فى الواقع ليست سوى نتاج فرعى لعملية الاتصال والانتقال بين منطقة البداوة ومنطقة الحضارة المستقرة · فلم تكن فقط ملتقى ومحطا لحركات التوسع الموسمية النابعة من الصحراء ، وانما كانت فى الوقت نفسه ستار حماية تنصبه المناطق المحيطة بالصحراء ·

ولكن بالاضافة الى هذا العامل الجغرافى شاركت قوى اقتصادية فى تكوين تاريخ الجزيرة العربية فى العصور القديمة · فقد كان يحد شبه الجزيرة كما قلنا طريقان أساسيان على حافة الصحراء ، تنتقل عليهما السلع من المحيط الهندى الى موانىء فلسطين وسوريا . فكان احد هذين الطريقين التجاريين يمتد من اليمن الى جنوب فلسطين ، والثانى يمتد من الخليج العربى ويدخل وادى الرافدين ثم ينحرف الى سوريا قاصدا دمشق(١٢) · فعلى هذين الطريقين قامت دويلات الحدود العربية ، وكان استعمالهما أو اغلاقهما ، على حسب الموقف السياسى فى الشرق الأدنى ، يقرر مصير تلك الدول .

وقلما كان البدو يظهرون على مسرح التاريخ ، الا حين ينتقلون الى دول الحدود . فهم المعين الذى لا ينضب للشعب العربى ، وهم

حين يتغلغلون فى المناطق المستقرة فيظهرون بذلك على مسرح التاريخ ، ينقطعون توا عن البداوة ، ويسلمون أماكنهم فى الصحراء لآخرين يتبعونهم هم أيضا عبر الحدود حين يأزف ميعادهم .

ولعل ما ترويه التوراة من أن أخوة يوسف باعوه لتجار عرب (اسماعيليين : المترجم) (١٣) أقدم اشارة الى الشعب العربى ، وهى اشارة بالغة الأهمية ، لأن معظم المصادر القديمة على تباينها تذكر أبناء الصحراء مغيرين ورجال قوافل . فالحوليات الأشورية تسجل منذ القرن التاسع قبل الميلاد حملات شنها ملوك أشور على المغيرين البدو فى الصحراء الشمالية . وكانت سياسة أشور من عهد شلمنصر الثالث الى زمن اشور بانيبال موجهة الى حماية الحدود والمواصلات مع الغرب، ولكن دون أن تسعى لاخضاع الظهير العربى اخضاعا دائما . والرسوم البارزة التى ترجع الى عصر اشور بانسال تعرض علينا صورا من هذه الحملات ، نري فيها البدو يحاربون على ظهور الابل بينما خيامهم تحترق . وتذكر عدة مرات أسماء ملكات (١٤) ، وهى حقيقة جديرة بالملاحظة دعت الى الظن أن النظام القبلى القديم كان يحتوى على عنصر من نظام سلطة الأم matriarchy

وقد ادتأخيرا حركة الهجرة الموسمية من الصحراء نحو المناطق المزروعة الى أن تقوم ، حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، أول دولة متحدة على الأطراف الخارجية لمنطقة فلسطين . وكانت عاصمتها البتراء ، وهى محط هام على الطريق التجارى الممتد على حافة شبه جزيرة سيناء ، وقد كشفت الحفائر الأمريكية التى أجراها الأستاذ جلوك عن عدة مراكز أخرى قامت حول البتراء وكانت تابعة لها .

وقد تأثر النبط ، سكان هذه الدولة ، بلغة الأراميين وحضارتهم، فكان هذا ايذانا بذلك اللقاء بين الحضارتين العربية والأرامية الذى تم على نطاق واسع وأثمر ثمارا يانعة عندما بدأ العرب غزو العالم بعد أن وحد الاسلام صفوفهم . هذا الى أنه تتكشف الآن على نحو متزايد صلات بين حضارة النبط ودنيا اليونان والرومان .

وأقدم معلوماتنا عن تاريخ النبط مصدرها مؤلفو العصر الهلينستى . وقد أصطدم النبط باليهود مرارا ، ولهذا يحدثنا (المؤرخ اليهودى : المترجم) فلافيوس يوسيفوس كثيرا عنهم فى تاريخه . وقد بلغت دولة النبط ذروة ازدهارها فى الفترة السابقة لاحتلال الرومان سوريا عام ٦٥ ق . م ، ففى هذه الفترة خضعت كل المنطقة الواقعة

شرق فلسطين وجنوبها لحكم النبط الذى امتد جنوبا حتى مدينة الحجر التى تسمى الآن مدائن صالح .

والى الجنوب من ذلك قام مركز سياسى آخر هو ددان (حيث تقوم الآن مدينة العلا) (١٥) ، وهى مستعمرة معينية قديمة ، والقاعدة الشمالية القصوى للحضارة العربية الجنوبية ، وقد قامت فيها (بعد ذلك : المترجم) مملكة لحيان المستقلة التى علمنا بها من نقوش كثيرة اكتشفت فى تلك المنطقة . وقد بلغت هذه الدولة ذروة ازدهارها فى بداية العصر المسيحى أو بعد ذلك بقليل . وفى المنطقة نفسها طائفتان أخريان من النقوش تشبهان النقوش اللحيانية ، وهما النقوش الثمودية التى تنسب الى شعب ثمود ، والنقوش الصفوية التى كشفت الى الشمال من ذلك فى الجنوب الشرقى من دمشق . انظر اللوحة ٢٠ . والأبجدية المستعملة فى هذه النقوش جميعا من نمط الأبجدية العربية الجنوبية .

وكان فتح الرومان للشرق الأدنى ايذانا ببدء عصر اضمحلال النبط ، فقد دانوا لسيادة الرومان ، ووقعوا ضحية لسياسة تراجان Trajan فى المشرق ، اذ حول دولتهم عام ١٠٥م الى ولاية رومانية سماها « بلاد العرب » Arabia وقد خلف النبط آثارا جليلة فى تلك المنطقة كلها ، ولا سيما بنهوضهم بالرى والزراعة فى منطقة شرق الأردن ، وتدل النقوش النبطية التى وجدت فى بحر ايجه (١٦) وميناء بوتيولى Puteoli (١٧) على المدى البعيد الذى بلغه نشاطهم التجارى والبحرى .

وقد أدى انصداع قوة النبط الى هجر طريقهم التجارى شيئا فشيئا والتحول الى الطريق الآخر ، طريق الفرات ، فزاد هذا من أهمية المحطة الواقعة على ذلك الطريق بين الفرات ودمشق ، أى دولة واحة تدمر ، التى كانت تزداد قوة خلال النصف الأول قبل الميلاد ، وهو مايرجع الفضل فيه أيضا الى الأهمية الدبلوماسية والتجارية لموقعها بين امبراطوريتى الفرس والرومان المتنافستين . وقد نمت تدمر ، كالبتراء قبلها ، فى ظل حضارة الأراميين ، واتخذت لغتهم والمبادىء الاساسية فى تفكيرهم الثقافى والدينى ، وفى الوقت نفسه أخذت كثيرا عن دنيا اليونان والرومان . وقد ظلت قوتها تزداد حتى شملت سوريا والشرق الأدنى الرومانى حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى ، ولكن السياسة الاستقلالية للملكة زنوبيا (= الزباء فى الرواية العربية :

المترجم) ومعاداتها لروما جرتا عليها الوبال ، ففى عام ٢٧٢م دخل الامبراطور أورليان Aurelian مدينة تدمر وقضى الى الأبد على استقلالها

وقد تركت تدمر كالبتراء أثرا فى دنيا البحر المتوسط • ففى كل مكان أثر من تجـــارها ، ومن جنودها خاصـــة وكانوا مشهورين بحسن استعمال القوس والسهام . وقد خلفت المدينة آثارا هامة جليلة تساعد الى حد كبير هى وآثار مدينة دورا (١٨) القريبة على معرفة جوانب حضارتها .

وكان معنى سقوط تدمر ضعفا مؤقتا للستار الواقى بين الصحراء والعـــالم الخارجى ، فان بقية الدويلات العربية الأصل التى كانت قائمة فى ذلك الوقت على أطـراف الامبراطورية الرومانية فى ســـوريا وأرض الرافدين لم تكن لها قوة دفاعية كبيرة . وكانت أهمها الحضر ، حيث كشفت الحفائر الحديثة التى اجرها الدكتور ناجى الأصيل (١٩٥١ ــ ١٩٥٤) عن بقايا هامة لنمط مركب من الفن امتزجت فيه عناصر يونانية ورومانية وفارسية • وقــد امتد تاريخ الحضر من بداية العصر المسيحى حتى تدمير الساسانيين لها عام ٢٤٠ م .

وفى أثناء ذلك كان بدو الجزيرة العربية يمتلئون بقوة جديدة . فاضمحلال دول اليمن أدى الى أن تهـــاجر منهـــا الى الشــــمال قبـــائل بأسرها بحثـــا عن أرض جديدة ، وكانت النتيجة الاخـيرة لهذه الحركة أن جاءت عقب البتراء وتدمر دويلتـــان جديدتان على أطراف الصحراء • ففى القرنين الخامس والســـادس ازدهرت حول دمشق مملكة الغساسنة ، وفى الوقت نفسه ازدهرت دويلة اللخميين فى الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات • وكانت هاتان الدويلتـــان تابعتين لامبراطوريتى بيزنطة وفارس العظيمتين ، وكانتا بمثابة مركزى حراسة لهما على حدود الصحراء ، ولكنهما اضمحلتا واختفتا قبيل الفتح الاسلامى ، تاركتين الامبراطوريتين وجها لوجه مع الغزاة الجدد .

وقد بذلت داخل الصـــحراء نفســها محاولات للتنظيم السياسى ، كدولة كندة التى وحـــدت تحت حكمها عدة قبـــائل من وســط الجزيرة (١٩) . ولكن ظل البدو فى جملتهم أحرارا من مثل هذه التنظيمات السياسية ، فلم يطلبوا وحدة فوق قرابة الدم التى وحدت بينهم فى قبائل ، وانما كانوا يجوبون بلادهم الرملية الشاسعة مستقلين بعضهم عن بعض . وقد حفظت لنا الرواية الاسلامية ذكرى تنافسهم وتصارعهم ، « فأيام العرب » مملوءة بحروب وثارات نشأت في الأصل عن نزاع على

الماشية أو المرعى أو عيون الماء . وهنا تبرز شخصية البدوى حية نابضة بصفات الشجاعة والكبرياء والاصرار والحيلة ، وهى صفات كان لها دور لا يستهان به فى النظام العظيم الذى انبثقت عنه الجزيرة العربية فيما بعد .

وقد قامت مدن فى واحات الحجاز خاصة ، وكذن طريق القوافل المتجه الى الشمال يسيطر عليه مركزان يغلب عليهما طابع التجارة هما يثرب ، التى سميت المدينة فيما بعد ، ومكة الى الجنوب منها . وكانت تحكم مكة حكومة قلة قوامها التجار . وكانت تفد عليها فى أيام الأسواق والمواسم الدينية أفواج العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، فلم يكن فى وسط الجزيرة رقعة تضارع مكة مركزا لاجتماع القبائل واختلاطها بعضها ببعض . وفى مكة ولد محمد .

***

وقد وصفنا النظام الاجتماعى للحياة البدوية القديمة وصفا وافيا عندما تناولنا مسألة اصول الساميين ، فيبقى علينا هنا ان نصور الأحوال الدينية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام . فالدول التى قامت فى أوقات مختلفة على الأطراف الخارجية للصحراء كان لكل منها تطورها الدينى المحلى حسب الظروف التاريخية لتكوينها ووجودها . وفى قلب الصحراء كان للبدو بسبب أسلوب معيشتهم فرص أقل لاقامة أوضاع دينية منظمة ، ولهذا كانت حياتهم الدينية أقل صرامة ، فى مظاهرها الخارجية على الأقل . ولكن لم تبق الجزيرة العربية بمنأى عن دينى التوحيد الكبيرين اللذين قاما على حدودها ، فقد نفذت اليهودية والمسيحية الى الصحراء وأحدثتا فيها آثارا غريبة عملت فيها بعد ذلك دعوة محمد . فعندما نتحدث عن تراث العرب الروحى قبل مجىء الاسلام ، يجب أن يكون حديثنا عن أديان العرب لا عن الدين العربى .

وفى دينى النبط والتدمريين نجد تركيبات غريبة قوامها أساس عربى وعناصر محلية وآثار ارامية . ففى البتراء كان دوشرا (٢٠) Dusares هو الاله القومى ، ولعله كان صورة من اله الخصب السامى (بعل : المترجم) . وكانت زوجه اللات العربية ، ومعنى هذا الاسم « الالهة » (٢١) . وفى تدمر نجد الاله بعل السامى بالاسم « بيل » Bel الذى يرجع اصلا الى أرض الرافدين ، أو بالاسم بعل — شمين « رب السماء » الذى وجدناه فى المنطقة السامية الشمالية الغربية ونجده كذلك فى نقوش الحضر . وثمة أسماء مركبة للاله بعل تطورت الى آلهة مستقلة هى يرحبول وعجلبول وملكبيل . ومن المحتمل أن

السامى المشترك بعل (٢٢) · وفى تدمر أيضا نجد اللات وثالوث الكواكب الذى عرفته شعوب سامية كثيرة ·

وتعيننا نقوش اللحيانيين والثموديين والصفويين على معرفة بعض عناصر النظام الدينى لتلك الشعوب · فقد احتفظت من التراث المشترك بالله واللات الشائعين بين العرب ، وأضافت اليهما آلهة محلية مثل ذو غابة لدى اللحيانيين (٢٣) ورضا لدى الثموديين والصفويين (٢٤) · وهناك أخيرا عدة آلهة عربية جنوبية ونبطية وتدمرية وأرامية .

وقد عرفت القبائل البدوية فى وسط الجزيرة طائفة كبيرة من الآلهة ، ولكنها ليست آلهة أو الهات محددة تحديدا واضحا لها صفاتها وأساطيرها الثابتة ، بل أرواح كل منها تهيمن على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة . فخيال البدوى اضفى أرواحا على الآبار والأشجار والحجارة ، وشعر بوجود آلهة فيها .

وكانت تسكن الصحراء أرواح أخرى محلية غير الآلهة ، هى خليط من مخلوقات غريبة بعضها خير وبعضها شرير ، تملك القدرة على الاستخفاء ، وكان على المرء استرضاؤها اذا أراد اجتناب أذاها · ويقص القرآن الكريم (٤٦ : ٢٩ — ٣١)أن بعض هؤلاء الجن استمعوا الى القرآن فآمنوا به .

وكان تعدد آلهة الصحراء نتيجة لحالة التشتت التى كانت تعيش فيها القبائل ، ولميلها الغالب الى التفرق · وكان الاله لا يستطيع الا نادرا التغلب على هذين العاملين ، ومد نفوذه الى ما وراء حدود منطقته المحلية ، مثلما فعلت الألهات الثلاث : اللات ومناة (٢٥) والعزى (٢٦) ، وكانت نعبد فى المنطقة التى حول مكة · وكان يعلو عليهن ابوهن « الله » · وهذا الاسم كما رأينا اسم ذات معناه « الاله » ، وقد شاع استعماله بين العرب لا للدلالة على الاله الأعلى فحسب ، ولكن للدلالة على عدة آلهة خاصة أيضا · وقد استعمل الرسول هذا الاسم للدلالة على الله الأوحد الذى كان يدعو الى الايمان به .

وكانت الآبار والأشجار والأحجار التى تسكنها أرواح الآلهة ، حماة الأماكن المختلفة ، هياكل ومراكز لعبادة تلك الآلهة بالطبع . وكانت حياة البداوة لا تسمح الا بتطور بدائى محدود للعبادة الدينية · والى جانب الهياكل المحلية الثابتة ،كانت هناك أيضا هياكل قبلية متنقلة ، تحملها القبيلة معها فى تجوالها وتجعلها حماها فى المعركة . وكانت الأرض التى تحيط بالهياكل الثابتة أرضا مقدسة · وكان يحج الى هذه الهياكل

فى اوقات معينة بصحبة الغناء والموسيقى ، وكان الحجيج يطوفون عده مرات حول المكان المقدس يرمون الحجارة أو يصيحون صيحات دينية .

ولم يكن فى مثل هذا المجتمع مكان لهيئة منظمة من القسس . وكانت ترعى الأماكن المقدسة جماعات من الأسر أو القبائل ، ولكن لم يكن هناك احتكار لحق تقديم القرابين أو أداء أية طقوس أخرى ٠ وكان هناك نمط خاص من المتنبئين يسمى الواحد منهم كاهنا (= كوهين فىالعبرية ، ولكن هذه معناها « قس ») ، وكان هؤلاء الكهان يتكهنون بارادة الآلهة بوساطة نبوءات غامضة ، كما كانوا يؤدون واجبات القاضى والحكم ٠ وكانت هناك شخصية دينية بارزة أخرى بين العرب هى السادن أى راعى المعبد ، وكانت واجباته شبيهة بواجبات القسس .

وكانت بين المناطق الدينية العديدة فى وسط الجزيرة منطقة واحدة تجاوزت أهميتها حدودها الخاصة ، وهى مكة . فكانت كعبتها التى تضم الحجر الأسود المكرم مقصد الحجاج من أنحاء كثيرة بالجزيرة ٠ فموقع مكة على الطريق التجارى الممتد الى الشمال جعل منها ، كما رأينا ، مركزا تجاريا ومدينة من مدن الأسواق . والأهمية التجارية والأهمية الدينية مجتمعتين جعلتا منها ملتقى لقوى العرب المتفرقة ، وبداية لجمع العرب فى صعيد واحد ٠ فأتاح هذا أن تتكون نواة تقاليد قومية مشتركة فى المجالات الدينية والمدنية والتجارية ، استعان بها محمد فى اقامة وحدة العرب السياسية .

وقد تلقت الصحراء أيضا ، عدا تقاليد الوثنية ، تقاليد دينى التوحيد الكبيرين اللذين كان مركزهما على مقربة من حدود الصحراء ٠ فقد هاجر جماعات من اليهود الى الجنوب ، ولعل ذلك كان من أيام تخريب الرومان لبيت المقدس ، وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجارى وفى واحات الحجاز ٠ وكانوا يشتغلون بالزراعة خاصة ٠ وقد اتوا الى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية ، واتخذوا العربية لغة لهم .

وقد جاءت المسيحية الى بلاد العرب لسبب مختلف ، كما سلكت مسلكا مختلفا ٠ فقد كان مجيئها جزءا من الحركة العامة لنشر الدين الجديد ، وكانت تحدوه فكرة تسمو على الاعتبارات القومية ، وبفضل هذه الفكرة لم يكن دخول المسيحية بلادا جديدة مجرد هجرة جماعات مسيحية ، وانما كان قبل كل شىء انتشار الانجيل . وقد اعتنقت المسيحية مملكتا الغساسنة واللخميين ، كما قامت جاليات مسيحية فى الحجاز بمكة وكذلك فى اليمن حيث اتصلت بالاثيوبيين المسيحيين .

وفيما عدا هذه الجاليات المسيحية العادية ، كان هناك الرهبان فى الصحراء .

ولم يكن المسيحيون العرب جميعا من الأرثوذكس ، وانما كان هناك كثيرون من القائلين بالطبيعة الواحدة **monophysites** ، كما كان هناك أتباع للمذاهب الغنوصية المختلفة . ولم يكن العرب يهتمون بالفروق بين المذاهب المسيحية . وكانوا يعجبون بعض الاعجاب بالحياة التى يحياها الرهبن والنساك ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون عن دينهم الشىء الكثير .

وكان للايمان بالله الواحد الأحد بعض السطوة فى بلاد العرب قبل الاسلام . وتحدثنا الرواية أنه قبيل دعوة محمد كان هناك قليلون يؤمنون بالتوحيد ، فمهدت دعوتهم الطريق للدين الجديد الذى كان فى طريقه الى الظهور . فالعرب ، والدين الجديد على الأبواب ، كانوا بدينون بمعتقدات جاهلية أو باليهودية أو النصرانية أو التوحيد ، ولم يكن يستطيع التأليف بين هذه العناصر جميعا سوى روح فريدة فى قوة التقبل . وكان محمد هذه الروح .

***

وقد تركت لنا الدول التى قامت قبل الاسلام آثارها فى النقوش وحدها ، وهى نقوش قصيرة فى الغالب ، ومن ثم كانت مادتها قليلة من وجهة النظر الأدبية . وهى فى الغالب نقوش تذكارية ، تسجل اسم صاحبها وأسماء أجداده ونوع عمله ، وهناك أيضا نقوش القبور ، وتسجيلات خاصة بالملكية ،وصلوات . واهمية هذه النقوش دينية قبل كل شىء ، فهى تورد أسماء آلهة مختلفة .

ولكن البدو فى الصحراء أنشئوا شعرا خاصا بهم يصور طريقهم فى الحياة ونظرتهم الى الوجود . وقد وصلت الينا هذه الأشعار فى كتب المؤلفين المسلمين ، ومن ثم نشأ سؤال هام : أروى هؤلاء المؤلفون تلك الأشعار فى صورتها الأولى أم أضافوا وانتحلوا من عندهم ؟ يمكن القول ان جزءا طيبا على الأقل من هذا الأدب هو من ابداع ذلك العصر البطولى للوثنية العربية ، عصر الجاهلية كما يسميه المسلمون .

وكان العرب فى جميع الأزمان ذواقى لغة ، وكانوا دائما يعدون أناقة القول وقوة الكلام بين أسمى الفضائل . فلا بد أنه كان لهم منذ قديم الزمان أغان شعبية فى نثر موزون بسيط يمجد الحروب ومآثر القبيلة وأبطالها ، وشعر فخر وشجاعة موضوعه الانسان وأعماله

وانتصاراته ، الانسان وهو يفكر ويعمل دون عاطفة دينية محسوسة توجهه .

وكان الشاعر شخصية فريدة جذابة . وكان المعتقد أن له قوى تتجاوز حدود الطبيعة ، فكأن بين أغنية الحرب والنبوءة خطوة قصيرة . وكان الظن أن فى الكلام قوة سحرية ضد العدو ، وان الالهام الشعرى نوع من السحر أو صورة من تسلط الجن على الانسان .

والشعر العربى الذى وصل الينا ليس شعر المراحل الاولى للتطور الأدبى . وانما هو لا يتجاوز فى القدم قرنين قبل الاسلام ، وصوره دقيقة مصبوبة القالب الى حد نستطيع معه أن نعدها نتيجة فترة طويلة من التكون . والنمط المألوف للنظم قصيدة من أبيات غير محدودة العدد ، يتكون كل منها من شطرين ، وتجرى جميعا على وزن واحد .

وتصاغ هذه القصائد عادة وفق خطة ملتزمة . فالشاعر يقص أولا زيارته لمسكن حبيبته الذى ارتحلت عنه ، ويبكى نأيها ، وهذا موضوع غنى بالامكانيات ، ولكن أفسده ما صار اليه من رتابة التعبير وجموده . وتلى ذلك رحلة الشاعر عبر الصحراء ، وما فيهما من وصف لوحوش الطبيعة . ولكن البدوى الشجاع لا يرهبه الخطر أو العزلة ، بل يمضى حتى يصل الى مبتغاه ويجد أولئك الذين يسعى اليهم ، فيمدحهم أو يلومهم ، وهو الموضوع الحقيقى للقصيدة كلها .

وفى ثنايا هذا المنهج العام كان يمكن ادراج شتى الافكار . فلم تكن تعوق الشاعر ضرورة ملحة بالتزام وحدة الموضوع ، وانما كان يتبع شيطانه مستطردا فى الأوصاف والأفكار . وهذا الشعر قوى الصبغة الشخصية ، نرى فيه خيال الشاعر يحول مناظر الصحراء ويلونها . وكان يستمد من الابل والنعام وأبناء آوى مادة يصوغ منها صورا قوية يلونها بقدرة على التعبير لا ادعاء فيها تعكس بساطة الصحراء ، تلك البساطة العارية التى تستحوذ على النفوس .

وهذا هو الشنفرى ، وهو من صعاليك العرب المشهورين ، وكان طريدا مضطهدا لجرائمه ، يعبر تعبيرا رائعا فى قصيدة مشهورة عن الكفاح الأبى ضد كل أنواع الحرمان والمشقة ، فى سبيل الحرية ، فيقول(*) :

(*) الترجمة الانجليزية منقولة عن نيكولسون ; R.A. Nicholson
A Literary History of the Arabs
لندن ١٩٠٧ ، ص ٨٠ و ٨١ . (المترجم : القطعة الاولى من لامية العرب ، الابيات ٣ ــ ١٣) وتنسب اللامية الى الشنفرى ، على خلاف ، أنظر مادة الشنفرى فى دائرة المعارف الاسلامية . اما القطعة الثانية فهى من شعر الحماسة (شرح ديوان الحماسة للتبريزى ، بون ١٨٢٨ ، ص ٢٤٢)

وفي الارض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك مافي الارض ضيق على امرئ
سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولي دونكم أهلون سيد عملس
وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع
لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبي باسل غير أنني
اذا عرضت أولى الطرائد أبسل
وان مدت الأيدى الى الزاد لم أكن
بأعجلهم اذ أجشع القوم أعجل
وما ذاك الا بسطة عن تفضل
عليهم وكان الأفضل المتفضل
واني كفاني فقد من ليس جازيا
بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع
وأبيض اصليت وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزينها
رصائع قد نيطت اليها ومحمل
اذا زل عنها السهم حنت كأنها
مرزأة عجلى ترن وتعول

***

لا تقبروني ان قبرى محرم
عليكم ولكن أبشري أم عامر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري
وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني
سجيس الليالي مبسلا بالجرائر

***

وللشعر العربي عيوب أيضا الى جانب محاسنه • فرتابة التعبير وتصنعه ، وهما خصلتان لم يخلص منهما أبدا ، تعكران غالبا الالهام

الذاتى وتكسوانه بثوب تقليدى • ولكن الشعر الغنائى العربى فى جملته شديد الأصالة ، ونقط قوته وضعفه مستمدة معا من طبيعة الشعب الذى أنشده ، والذى كانت الصحراء له موطنا وملاذا من تقلبات الحضارات التى كانت تحيط به •

***

والفن لا يزدهر فى الصـــحراء • وقد نشأت الفنـــون فى الدول الشـــمالية ، ولكنها كانت فى الغالب مســـتوحاة من مصادر هلينستية ورومانية ، ولم يكن فيها سوى القليل مما يمكن وصفه حقا بأنه سامى ، فلا حاجة بنا هنا الى اسهاب القول فيها •

ففى البتراء تروعنا واجهات القبور المنـــحوتة فى الصخور العالية بألوانها الحية • وهى مزدانة بأعمدة وقواصر pediments وبراطيق porticos وزخارف كثيرة من الزهور والأشكال • وفى كثير من الاحيان تبنى القبور واحدا فوق الآخر حتى قمة الجرف ، وتنحت فى الصخر سلالم اليها • وهناك قبور مماثلة فى مدينة الحجر ، محط القـــوافل الى الجنوب من البتراء • وفن الصور المحفورة فى الصـــخر والصور الملونة التى كشفت عنها حفائر جلوك الأخيرة فى جوار البتراء أكثر مدعاة الى الاهتمام لأنها أكثر تعبيرا عن نوازع النفس •

وفى تدمر أبقى الزمن على جزء كبير من رواق الأعمدة الطويل فى مدخل المدينة ، وكذلك على بقايا المعابد • وهنا أيضا لا نجـد كثيرا من الأصالة ، فان الطراز هلينستى ورومانى فى الغالب • وثمة أبنية قبرية من أنماط ثلاثة : فى صورة أبراج وبيوت وأقبية تحت الارض • والآثار المنحوتة أغلبها صور بارزة ، وبخاصة على القبـــور ، ويسودها التزام التصوير من وضع مواجه والجمود والتناسق ، وهذا هو الذى يميزها عن نماذجها اليونانية والرومانية القديمة أكثر من أى شىء آخر • انظر اللوحة ٢١ • وهناك أيضا بعض الصور الملونة فى أقبية القبور ، وبعض آثار القسيفساء ، وهى تتميز بنفس الصفات التى تتميز بها الصور البارزة •

وفن مدينة الحضر ، الذى ألقت عليه الضوء الحفـــائر الحديثة ، مماثل الى حد بعيد ، سوى أن المعابد والتماثيل والرسوم البارزة تنطوى على أثر ايرانى كبير ، وهو أمر متوقع بسبب موضع المدينة •

أبرز وأظهر

الاثيوبيون

الحبشـة

يمتد ساحل افريقية تجاه ساحل جنوب الجزيرة العربية، وتفصلهما أميال قليلة من البحر الأحمر • ومنطقة الساحل الافريقي يغلب عليهـا طابع البراري ، فيها رقع خضراء من المراعي حيث يوجد الماء ، ولكن اذا اتجهنا الى الجنوب غلبت الصـــحراء فى منطقة الدناقـل التى يعتبرها سكانها أنفسهم جهنم حقيقية على الأرض •

ولكن اذا توغلنا فى الداخل اختلف منظر البلاد اختلافا مفاجئا • فعلى السهل تطل سفوح وعرة عالية لحيطان جبلية تمتد من الشـمال الى الجنوب ، وتنحدر الى الغرب انحدارا تدريجيا • وهـكذا تتكون هضـبة ترتفع فى بعض المواضع الى أكثر من ١٤ ألف قدم ، وتشقها وديان الانهار شقا عميقا ؛ وسفوحها الوعرة قلاع طبيعية يصعب جدا بلوغها •

وتختلف الهضبة عن القطاع الساحلى اختلافا تاما فى المناخ والنبات ففى شهور الصيف تكون السهول جافة حارة ، ولكن يسقط المطر غزيرا على الجبال ، فيشد سكان السهول رحالهم الى الداخل •

وجبال الحبشة مكان للجوء والانعزال ، تستطيع جماعات جنسـية ولغوية وسياسية الاعتزال فيه واقامة صور من الحضارة فردية مستقلة ، كما يمكن فيه اقامة قوة سياسية واستقلال سياسى والمحافظة عليهما عبر القرون •

التاريخ

لدينا عن تاريخ الحبشة القديم مصادر محلية وخارجية . فمن المصادر المحلية نقوش عربية جنوبية وجدت فى اثيوبيا ، ونقوش أثيوبية، ونقوش يونانية خلفها ملوك أكسوم (١) . والمصادر الخارجية تضم نقوشا عربية جنوبية وجدت فى اليمن ، تسجل أحداثا قام بدور فيها الأكسوميون عبر البحر الأحمر ، وتضم أيضا ماكتبه الجغرافيون والمؤرخون اليونان والرومان ، وهى مبنية فى الغالب على زيارات شخصية لاثيوبيا ، وتضم أخيرا الروايات الاسلامية ، وهى كالروايات الاسلامية عن اليمن يجب أن تؤخذ بحذر كبير .

***

ان المصالح التجارية الخارجية التى هيمنت على سياسة دول العرب الجنوبيين وجهت نشاطهم بالضرورة الى الساحل الاثيوبى ، وكانت ثروات القارة الافريقية من عبيد وعاج وبخور دافعا آخر قويا الى الفتح والاستيطان الدائم .

وهكذا وجدنا فى زمن قديم ، قبل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد قطعا ، جماعات من العرب الجنوبيين تعبر البحر الأحمر وتؤسس جاليات ومحطات تجارية على الساحل المقابل . وقد تتابعت الهجرات نحو المنطقة التى كانت عدولى Adulis (٢) مركزا لها ، فاتسعت المنطقة المستوطنة اتساعا متصلا ، وتولت الطبيعة نفسها دفع المستوطنين الى الهضبة المشتهاة . والنقوش العربية الجنوبية التى وجدت فى منطقة أكسوم والى الشرق منها حيث يمر الطريق الممتد من عدولى تبين سعة انتشار النفوذ العربى فى اثيوبيا قبل القرن السادس قبل الميلاد .

ولكن هل كان المستوطنون الساميون للمنطقة من أصل يمنى جميعا ؟ هذه مسأله أخرى . ففيما مضى لم تكن هناك شكوك فى هذا الصدد ، وحددت على الساحل اليمنى المواطن الأصلية لقبائل مثل حبشت التى أخذ منه اسم الحبشه ، وجعز التى سادت لغتها بين السكان الساميين فى اثيوبيا . ولكن بعض العلماء اليوم يثيرون الشكوك حول الرأى السائد ، ويشيرون الى أنه ليس هناك دليل ثابت على صحته ، ويرون أنه يمكن تفسير الأمر على أساس أن العرب الجنوبيين أثروا فى شعب سامى كان مستقرا فى اثيوبيا من قبل . وهذا الاحتمال لا يمكن رفضه دون مناقشة ، ولكن ليس من اليسير أن نرى من أين يمكن أن يجىء ذلك الشعب السامى .

وقد كشف أخيرا فى اقليم تجرى على يد بعثة أثرية للحكومة الاثيوبية نقش عربى جنوبى على مذبح ، ينسب الى القرن الخامس قبل الميلاد أو مابعده بقليل ، وفيه ذكر مكرب كان على الأرجح مكربا محليا. فاذا صح هذا دل على وجود دولة محلية فى ذلك الوقت . وبعد هذا بقليل تبدأ النقوش الاثيوبية الأولى ، وهى مكتوبة بخط لا يزال فى مرحلة انتقالية . وقد كشفت حفائر البعثة الاثيوبية أيضا عن قربان نذر من البرونز يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد ، وقد كتب عليه جدر « ملك أكسوم » ، وهذا يدل على أن مدينة أكسوم كانت حينئذ مركزا للدولة الاثيوبية .

ونجد معلومات أخرى عن هذه الدولة فى كتاب « رحلة فى المحيط الهندى » Periplus of the Erythraean Sea الذى يرجع الى الفترة نفسها (٣) . وهو كتاب يونانى (لمؤلف مجهول : المترجم) يغلب عليه الطابع الجغرافى ، ويصف (فى الفصل الرابع : المترجم) ميناء عدولى ويذكر ، على مسيرة خمسة أيام منها ، عاصمة الأكسوميين على أنها مركز كبير لتجارة العاج . ويقول مؤلف الكتاب (فى الفصل الخامس : المترجم) ان أكسوم كان يحكمها ملك يسمى زوسكاليس Zoscales ، وانه كان رجلا بخيلا جشعا فى سبيل المال محيطا بآداب اليونان .

ونستمد معلوماتنا بعد ذلك من نقش يونانى يرجع الى القرن الثانى أو الثالث الميلادى ، وهو يذكر « ملك ملوك أكسوم ، سمبروثيس العظيم » Sembruthes (٤) . وليس من الجلى أكان هذا الملك أم غيره صاحب الأعمال العظيمة التى يحدثنا عنها نقش يونانى آخر كتب أصلا على عرش فى عدولى ، ولدينا منه نسخة نقلها كوزماس انديكوبليوستيس

Cosmas Indicopleustes (د) وقد ضـــــاعت بداية النقش لســوء الحظ • وينسب هذا النقش الى القرن الثالث ؛ وحملات ملك أكسوم التي يحدثنا عنها ذات نطاق واسع حقا ، فهي تمتد شمالا نحــو مصر وجنوبا في اثيوبيا وشرقا الى اليمن • ومما يؤكد اتباع الأكسوميين لمثل هذه السياسة البعيدة المدى أن المؤرخ فولبينوس Vulpinus يشهد بوجــود جنودهم في الجيش الذي ســيرته زنوبيــا ، ملكة تدمر ، ضد الرومان •

وعند التقاء القرن الثالث بالقرن الرابع الميــلادي حقق توســـع الأكسوميين فتوحا هامة في جبهاته الأساسية • فقد احتلوا اليمن بضع عشرات من السنين بدليل ذكرها في ألقاب السيادة التي اتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم ، وغزوا مملكة مروى وخربوها بدليل بقايا نصــب يوناني وجد في تلك المدينة • وتمدنا النقود بأسماء ملوك آخرين ، منهم عيزانا الذي اعتلى العـــرش حوالى ٣٢٥ م ، وترك لنا نقوشــا يونانية وحبشية سجل فيها أعماله المختلفة وأهمها حملته على النوبة •

***

وعنـــدما كانت أثيوبيا هكذا في ذروة اتســـاعها الاقليمي ، وقع حدث ثوري ، هو نفوذ المسيحية الى البلاد بعد أن أتى بهـــا رحالتان(٦) كما تقول الأساطير ، ثم صارت دين الدولة بعد أن اعتنقها الملك عيزانا • وقد كرس هذا الملك نقوشه الاولى لآلهة وثنية ، ولكنه يبدأ نقشه الأخير الذي يسجل حملة النوبة بقوله : « بحول رب السماء الذي يهيمن على كل كائن في السماء والأرض » (٧) •

وليس من المقطوع به أن الملك كان متأثرا بدوافع سياســية حين اعتنق المسيحية ؛ ومهما يكن من أمر ، فقد أفاده ذلك في تقوية الروابط ببيزنطة ، الحامية الطبيعية لكل نصارى المشرق • وفي الوقت نفســه ، زاد تنصر اثيوبيا من حدة منافستها لليمن غير المســيحية ، والواقع أن الأزمة بين الحبشة وبلاد العرب الجنوبية عجلت بها اعتبارات دينية • فقد اضــطهد ملك يهودي (هو ذونواس الحميري : المترجم) نصارى اليمن ، فدفع هذا الاثيوبيين الى التدخل ؛ وقد نشأت عن هذا الاضطهاد روايات مسيحية كثيرة مدارها قصص شهداء نجران ، وحدثنا عنه أيضا الكتاب العرب (٨) • وكان الملك كاليب (٩) على رأس الحملة الحبشـــية التي أرسلت الى اليمن ، وقد شهد كوزماس انديكوبليوستيس الاستعدادات لها في ميناء عدولي • وقد أدت هذه الحملة الى احتلال الحبشة لليمن احتلالا ثابتا •

وكان خضوع بلاد العرب الجنوبية لحكم أكسوم عام ٥٢٥ م ٠ وقد ترك الفاتحون آثارهم وراءهم فى الكنائس المسيحية التى بنوها ، كما تذكر لهم حملتهم التى حاولوا شنها على شمال بلاد العرب قاصدين على ما يظن المشاركة فى صراع بيزنطة ضد فارس ٠ وقد نظم هذه الحملة أبرهة من حيث هو حاكم مستقل ، ولكنها لم تمض بعيدا ، وان تركت أثرا كبيرا فى نفوس العرب ، فظلوا يذكرون « عام الفيل » ، ويذكرها القرآن الكريم أيضا فى احدى سوره (سورة الفيل : المترجم) ٠ وتقول الرواية الاسلامية انه حكم بعد أبرهة ابنه يكسوم ، وانه كان طاغية قاسى القلب ٠

ولم يكن احتلال اثيوبيا لليمن سوى مرحلة فى الصراع بين فارس وبيزنطة الذى كان يحتدم حينا بعد حين ، هكذا بدأ ، وهكذا انتهى سنة ٥٧٢ باحتلال الفرس لليمن ٠ وكانت تلك السنة سنة دمار لمملكة أكسوم ، قضى فيها على فتوحها فى بلاد العرب وعلى كل توسع منها فى تلك الجهة ٠

ولم يكن الاسلام فى أول قيامه يضمر كرها لاثيوبيا أبدا ، بل اننا نعرف حق المعرفة أن محمدا كان على أطيب علاقة بالنجاشى ، وأن النجاشى أكرم وفادة المسلمين الذين هاجروا الى بلاده فرارا من الاضطهاد فى مكة ٠ ولكن عندما صار الاسلام قوة سياسية على الساحل الغربى للجزيرة العربية وعلى جزر البحر الأحمر ، سد بذلك الطريق فى وجه أية هجرة اثيوبية أخرى أو أى نفوذ اثيوبى آخر ، وعندما فتح المسلمون مصر وشمال افريقية بعد ذلك بسنوات قلائل ، أقاموا حاجزا مماثلا بين اثيوبيا ونصارى المشرق ٠ وهكذا عزلت الدولة الحبشية عن بقية العالم السامى ، وانغلقت شيئا فشيئا فى سياسة افريقية محلية خالصة ٠ وكان على دوافعها للتوسع أن تجد عندئذ مخرجا آخر ، فتحولت بشكل قاطع نحو الجنوب ٠ ولكن عند هذه النقطة يجب أن نترك تاريخ اثيوبيا ٠

الأديـان

كان أقدم دين للسـكان الساميين فى اثيوبيا صـورة من صـور الوثنية ، احتوت على عناصر عربية جنوبية عدة ، ولكنها تطورت فى الغالب تطورا مستقلا، مولدة ومستوعبة صورا أخرى من العبادة . فالاله عثتر، الذى نجده عند العرب الجنوبيين خاصة وان كان يرجع الى أصل سامى تشارك فيه أيضا شعوب أخرى ، نجده فى اثيوبيا باسم عستر ، وقد صار فيها تدريجيا اله السماء قياسا على الاله الرئيسى لدى الكوشيين . والى جانب عستر كان هناك مدر ، اله أمنا الأرض ، ومحرم ، اله الحرب القومى(١٠). وتؤلف هذه الآلهة ثالوثا فى بعض النقوش ؛ ولكن يلحق بها أيضا بحير الذى يعده بعض العلماء اله البحر (١١) ، ويرى آخرون أنه اسـم آخر لمحرم . وفى الدين الاثيوبى أيضا آلهة صغرى وأرواح ، تلونها وتنوعها سلسلة من العناصر المحلية والأجنبية .

والى جانب الوثنيين كان فى الحبشة جماعات من اليهود ، لعـلهم نزلوا بها قبل دخول المسيحية بزمن طويل . وربما جاءوا جماعات من الجزيرة العربية زمن حركة الاستيطان الأولى ، أو وفدوا من مصر عبر مملكة مروى . وفى العصور الوسطى كان اليهود متجمعين فى المنطقة الواقعـة شمال بحيرة طانا ، حيث ظلوا مقيمين قرونا ، يقاومون كل صورة من صور الضغط ويحتفظون بتراثهم الدينى حتى بعـد أن صاروا لا يختلفـون عن جيرانهم فى اللغة أو المظهر الجسمانى(١٢) .

***

فى كتاب « تاريخ الكنيسة » Historia Ecclesiastica لروفينوس

Rufinus ، الذى عـــاش حوالى نهـــاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس (٣٤٥ ـ٤١٠ م : المترجم) أقدم قصه عن دحول المسيحيه الى مملكة أكسوم • وتقول هــذه القصة ان جماعة من الملاحين ، فى طريق عودتهم من رحلة الى الهند ، رسوا على ساحل البحر الأحمر، فذبحهم سكان البــلاد عدا أخوين اسم أحدهمــا فرومنتيوس Frumentius واسم الثانى اديســيوس Edesius أخذا عبدين الى البلاط الملكى ، وكان ذلك حوالى ٣٢٠ م • وأصبح الأخوان موضع احترام فى البلاط ، وعهد اليهما بأعمال هامة • وكان أول نجاح دينى لهما الظفر بحريةالعبادة لنفسيهما وللتجار اليونانيين الذين كانوا يزورون البلاد • وهكذا وضعت الأسس لجالية مسيحية صغيرة ، وقام بطريرك الاسكندرية (أثناسيوس Athanasius : المترجم) بتنصيب فرومنتيـــوس أول أســـقف على اثيوبيا •

ومن المحتمل أن فرومنتيوس لم ينصر كثيرين ، وأن تبشـــيره كان مقصورا على دوائر البــلاط ، ولكن تنصير الملك عيزانا نفسه كان حدثا فاصلا فى تاريخ المسيحية فى اثيوبيا ، اذ جعل المسيحية دين البلاط • وفى النقوش ورموز النقود شاهد على اعتناق الملك عيزانا المسيحية ، وربما كان اعتناقه الدين الجديد سطحيا ، ولكن قدر له أن يكون ذا آثار بعيدة المدى فى العلاقات الدولية لمملكة أكسوم •

ولاريب فى أن المذهب الأرثوذكسى كان مذهب المسيحية فى الحبشة أول الأمر ، ولكنها تحولت مع بطريركية الاسكندرية الى مذهب الطبيعة الواحدة ، وأكبر الظن أن الطبيعة الواحدة كانت مذهب « القديســـين التسعة » المشهورين الذين تقول عنهم الرواية انهم جاءوا من سوريا وقاموا بنشاط تبشيرى عظيم قوامه ترجمة الكتب المقدسة ونشرها فى البلاد • وقد أســـهم عملهم كثيرا فى تنصير الحبشة ، الذى ظـل يطرد بسرعة متزايدة •

الحضارة

كان الامتزاج الجنسى بين المهاجرين الساميين الى الحبشة سريعا بالغ الكمال • وقد فرض القادمون الجدد على الشعوب المحلية لغتهم وحضارتهم• واللغة الاثيوبية سامية الطابع رغم التغييرات التى أحدثها التطور الداخلى والتسرب من الخارج • وقد نفذ استعمالها الى طوائف كبيرة من السكان الكوشيين • كذلك كانت حضارة أكسوم القديمة حضارة أقلية ، الحضارة العليا التى أتى بها المهاجرون الذين تولوا أيضا الزعامة السياسية وفرضوا الخضوع والعبودية على الكوشيين •

وقد ساد فى أثيوبيا أول الأمر التراث العربى الجنوبى مع تعديل كثير أو قليل • وبعد ذلك ، حين توطدت المسيحية فى البلاد ، نفذ الالهام المستمد من الدين الجديد الى جميع مظاهر الحضارة الاثيوبية ، وأمد اثيوبيا بموضوعات ادبها وفنها • ولايعرف شيء عن أى انتاج أدبى قبل المسيحية ، ولكن كان الفن قبل المسيحية من نمط عربى جنوبى ، وكانت موضوعاته هى تلك الموضوعات التى جلبها المستوطنون الى وطنهم الجديد •

فالحضارة الاثيوبية القديمة فى جملتها لا يمكن وصفها بالاصالة ، وان كانت لها ملامح معينة خاصة بها • فقد اعتمدت فى أول الأمر على نماذج عربية جنوبية ، وبعد ذلك تقبلت مع الدين المسيحى عناصر حضارية مسيحية انتقلت اليها من مصر خاصة •

***

والأدب الحبشى حتى القرن السابع يتألف من ترجمات عن اليونانية• وأبرز هذه الترجمات الكتاب المقدس الاثيوبى ، ولعل الأناجيل الأربعة

كانت أول ما ترجم منه • وعلى الرغم من أن الكنيسة الاثيوبية كانت تابعة من الناحية الكنسية للكنيسة المصرية ، لابد أن تعريفها بالانجيل وترجمته الى الاثيوبية كانا من عمل مبشرين سوريين • فصورة النص ليست تلك التى نجدها فى النسخة المصرية ، وانما هى الصــورة التى نشأت فى سوريا وأخذتها الكنيسة البيزنطية ؛ وكذلك نجد فى المفردات الدينيــة الجديدة أثرا سريانيا ؛ وعلى الرغم من أن الترجمة كانت ولا ريب عن نص يونانى ، يبدو أن المترجمين لم يكونوا يحيطون باليونانية احاطة كاملة •

وبعد الأناجيل ترجمت المزامير ، واسفار موسى الخمسة ، وبقية الكتاب المقدس (غدا أسفار المكابيين) • وتقول الرواية الاثيوبية ان العهد القديم جلبته ملكة سبأ بعد زيارتها لسليمان ، وترجم مباشرة عن العبرية • ولكن يتضح فى الواقع من نص الترجمة الحبشية أنها منقولة عن الترجمة اليونانية • وهى تعج بالكلمات والعبارات اليونانية ، وقد روجعت أيضا مراجعة شاملة فى العصور المتأخرة •

والترجمة الحبشية متفاوتة فى قيمتها • فبعض الأسفار ، كالتكوين واللاويين ويشوع والقضاة ، جيدة الترجمة نسبيا ، والنص الحبشى هنا يستعمل فى الدراسات النقدية والتفسيرية • ولكن ثمة أسفارا أخرى أقل حظا من الجودة ، تمتلىء بمواضع سوء الفهم للأصل اليونانى (وهى سمة ظاهرة فى الكتاب المقدس الحبشى) ، أو هى مختصرة مثل ســفر يهوديت(١٣) •

وفيما عدا الأسفار المعتمــدة للكتاب المقــدس ترجمت كثير من « الاسفار المنحولة » (١٤) ، وقد وصل الينــا كثير من هذه الأسفار فى الترجمة الحبشية فقط مثل اليوبيل Jubilees أو « التكوين الصغير » « Little Genesis » (١٥) ، وسفر أخنوخ Enoch (١٦) ، وصعود (أو استشهاد) اشعيا Ascension (or Martyrdom) of Isaiah (١٧)

ومن بين النصوص التى ترجمت عن اليونانية غير الكتاب المقدس « كيرلوس » Kerillos ، وهو مجموعة من الكتابات عن المسيح أخذ بعضها عن كتابات كيرلوس بطريرك الاســكندرية (٣٧٦ ــ ٤٤٤ م : المترجــم (١٨) و « عالم الفســيولوجيا » Physiologus ، وهو مجموعة مشهورة من المعلومات تغلب عليها الصبغة الأسطورية عن النبات والحيــوان . مع بعض الأقوال الخلقية(١٩) ، وقوانين الرهبنة للقديس باخوم Pachomius (مؤسس الرهبنة : المترجم) ، مع ملحق يبدو أنه كتب أصلا بالاثيوبية ، أو على الأقل لم نقف على مصدر له ، وهو يصف

رؤيا عن طوائف الرهبان الاخيار والأشرار (٢٠) • ولا يعرف على وجه قاطع تاريخ تأليف هذا الملحق • وهو مثل طريف لنمط من النثر الدينى شاع بعد ذلك فى اثيوبيا ، فلنورد هنا جانبا منه :

« ولهذا أرانى الله فى السماء مسلك أولئك الأشقياء وأمثالهم • فرأيت خمس طوائف من الأشرار : الطائفة الأولى من الضباع ، والطائفة الثانية من الكلاب ، والطائفة الثالثة من الذئاب ، والطائفه الرابعة من الثعالب ، والطائفة الخامسة من الجديان • وبعد ذلك أرانى خمس طوائف من الأخيار : الطائفة الأولى من الكباش ،والطائفة الثانية من الحمام ، والطائفة الثالثة من اليمام ، والطائفة الرابعة من النحل ، والطائفة الخامسة من الماعز • فقلت له : فسر لى الطوائف الأولى : فقال لى : اسمع بأذن قلبك • أولئك الذين رأيتهم يشبهون الضباع هم الرهبان الذى يقيمون مع اخوانهم ، هم رهبان اسما ، ولكن مسلكهم كالضباع • يقضون النهار صائمين مع اخوانهم الرهبان ؛ وفى الليل ، حين ينام الناس ، نراهم بدلا من القيام بالحراسة الليلية يخرجون فى الظلمة كالضباع ، ويذهبون الى دير الراهبات من أجل شهوة بطونهم ، فاذا شبعوا هتكوا أعراض شياه المسيح المسكينات ، وهم يعلمون أنهم يفسدون نساء أخلصن أنفسهن للرهبنة مثلهم ؛ وهكذا تقع فى الشباك سفينة روحهم ، وينكسر جناح رهبنتهم • فويلا لهم ان لم يعودوا الى التوبة ! وسبحان المسيح الذى وهب التوبة لغفران الدنوب » • (*)

***

وتشاهد بقايا الفن الاثيوبى القديم فى الخرائب التى تقع خاصة فى مناطق أكسوم وأكلى جوزاى (٢١) والشمال الشرقى من تجرى • وقد أجرت « بعثة أكسوم الألمانية » Deutsche Aksum-Expedition حفائر فى أكسوم فى بداية هذا القرن ، وأجرت أخيرا بعثة تابعة للحكومة الاثيوبية حفائر فى اكسوم ايضا وفى الشمال الشرقى من تجرى • وفى بقية أنحاء الحبشة ، وكانت أقل حظا من الحفائر ، توجد مناطق أخرى من الخرائب كانت فى الماضى ربوعا آهلة بالسكان •

ويتميز الفن المعمارى المدنى ببعض الخصائص العامة • فالمبانى أولا كانت ترفع عن سطح الأرض على قواعد ذات درج • ولا بد أن المبانى كانت عالية جدا ، وأن المساكن كانت تتكون من عدة طوابق • ومنذ أقدم

* انظر دلمان Chrestomathia Aethiopica : A. Dillmann. برلين ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٠ ، ص ٦٥ •

الأزمان كانت الجدران من النمط الخاص المعروف باسم « رأس القرد » ، وهى تسمية سببها الأطراف البارزة لألواح الخشب التى كانت تدعم الجدران • ونجد هذا النمط فى المسلات الكبيرة ، التى هى من أحسن مصادر معلوماتنا عن الفن المعمارى الأكسومى القديم ، فهى تعطينا صورا عن تلك المبانى التى لم تحتفظ الخرائب الا بقواعدها مع بقايا من « أرضية » الطابق الأرضى وآثار من الجدران ، وذلك كما فى اند ميكائيل واند سمعون وتعخا ماريام(٢٢) •

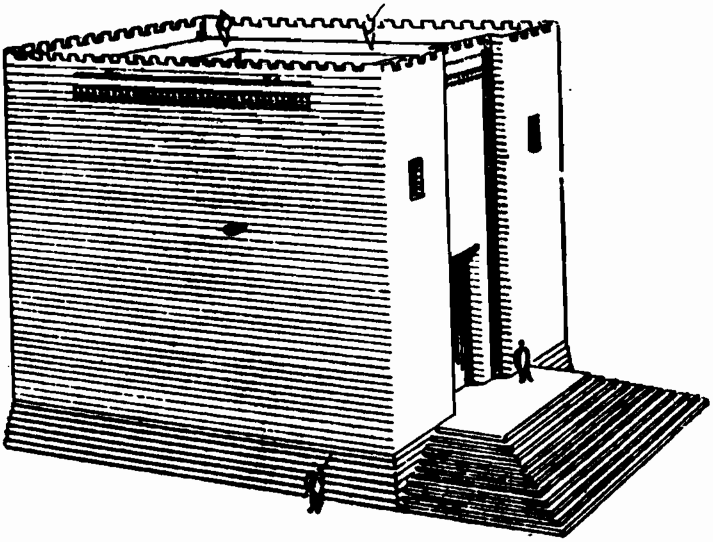

٤ ــ التصميم الأصلى لمعبد يحا

ويبدو أن أقدم بناء دينى هو المعبد الوثنى فى يحا بالقرب من أكسوم ، ونمطه يمنى • وهو مربع التصميم • وجداراه الجانبيان أملسان، وجداره الأمامى وحده مزين بانخفاض عمودى أقيم فيه الباب الذى يؤدى اليه مدخل من سلالم • وفى وجه البناء نافذتان •

أما الكنائس المسيحية فأقدمها مربعة التصميم ، مبنية على نمط البزليق basilica اليونانى ــ الرومانى • فلها فناء خارجى ، وباطنها مقسم ثلاثة أقسام بوساطة صفوف من الأعمدة الأسطوانية columns أو المربعة pilasters والقبا apse شبه دائرى أو مربع • ويكتنفه من الجانبين نيشان (مثنى نيش niche) أو محرابان chapel في ركنى البناء • والأعمدة المربعة ذات قطاع مربع ، وأطرافها مستديرة،

وهي مقطوعة من الصخر ومقامة على قواعد مكعبة ، ورءوسها مربعة لها في الغالب درج .

وقد وجدت في أكسوم ، المركز الرئيسي لآثار الحبشة ، أعداد كبيرة من المسلات الاثيوبية الطابع ، وهي كتل حجرية نحيلة طويلة ، ترك بعضها دون تشذيب ، ولكن شذب بعضها الآخر وملس ، وهي بوجه عام مربعة المقطع عليها زخارف تقسمها الى طوابق عدة . انظر اللوحة ٢٣ .

ومن الآثار التي تمتاز بها أكسوم أيضا العروش الحجرية التي كانت تكرس للآلهة لتستريح عليها ، أو كان يستعملها الملوك والقضاة في المحافل العامة . وهي بوجه عام مصنوعة من ألواح حجرية منفصلة تكون أجزاء العرش المختلفة .

واثيوبيا فقيرة جدا في آثار القبور . ومن الكشوف الحديثة تمثال طريف لشخص جالس ، عليه نقش عربي جنوبي . والتمثال ممتلىء بمجموعات منتظمة من الثقوب يظن أنها كانت لترصيع الثياب بالجواهر . وقد علقت أهمية كبيرة ، لعله بولغ فيها ، على تأثير أرض الرافدين الذى يبدو ملموسا في هذا التمثال . أنظر اللوحة ٢٤ . وقد كشفت في الوقت نفسه تماثيل صغيرة مختلفة لثيران ، كشف مثلها فيما مضى . أنظر اللوحة ٢٥ . وهناك أخيرا آثار أخرى من النحت طرازها عربي جنوبي خالص ، بدليل ما عليها من نقوش عربية جنوبية ، وفيها تماثيل لأبي الهول بالغة الطرافة .

وفن الرسم بالحفر تمثله صور محفورة في الحجر ، مثل لبؤة جوبدرا(٢٣) المشهورة . أنظر اللوحة ٢٦ . وقد لفتت الدكتور فرانشيني (.V) Franchini النظر أخيرا الى مخربشات على صخور جبال اريتريا ، وهي رسوم على وتيرة واحدة ، وموضوعاتها في الغالب حيوانات من نمط الثور؛ ونجد أيضا صورة جدي بري ، وهو كما نعرف من موضوعات الفن العربي الجنوبي .

ولم يبق من الصور الملونة سوى بعض الرسوم الملونة في الكهوف تمثل رجالا وحيوانات . وفي الحفائر التي أجريت في عدولى وبعض مواضع الحبشة عثر على نماذج مختلفة من الأواني الفخارية مزينة على نمط منتظم ولكنه محلي خالص ، ولاتزال هذه الزخارف متبعة حتى اليوم .

وفي الختام نلاحظ أن المباني تمثل أعلى درجة من التطور والفردية بلغها هذا الفن ، الذى ساد فيه أولا العنصر السامي ، ولكن غلبت عليه بعد ذلك تأثيرات أرقى جاءته من الخارج .

الفصــل العاشر

الخاتمة

ان سير تاريخ الشرق الأدنى القديم أحــدث اختلافا فى الحضــارة وأساليب الحياة بين الشعوب المختلفة للمجموعة السامية ، تلك الشعوب التى دفعت بها قوى اقتصادية وسياسية الى بلاد مختلفة ومواقف متباينة. فالى الشمال من صحراء العرب نفذ الأكديون الى أرض الرافدين ، فوجدوا هناك شعوبا من أصل مختلف عن أصلهم وحضارة أرقى من حضارتهم ، فاستوعبوا الصور الاجتماعية والأدبية والفنيــة لتلك الحضــارة • وفى الطرف الآخر من المنطقة السامية ، لم يلبث أن قطع الاثيوبيون عن العالم السامى ، فانغلقوا على أنفســهم شيئا فشيئا داخــل القارة الافريقية ، واصـــطبغوا ولا محــالة بظروفها • ولم يبرأ الــكنعانيون والعبريون والأراميون كذلك من التبدل والتغلغل الأجنبى ، بل ان بلادهم ، وهى مكان للعبور والغزو ، تعكس بما تعاقب عليها دائما من شعوب وحضارات، تقلبات تاريخ الشرق الأدنى • ولكن العرب وحدهم حمتهم صحراؤهم الفقيرة ، فاستطاعوا المحافظة خلال القرون على طرق معيشتهم الخاصة •

ولكن اصطلاح « الساميين » لا يعتمــد على تجريد أجــوف أو على تعريف لغوى محض ، فالتعدد العريض فى المواقف والتطورات تقــابله بعض العناصر والاتجاهات الثابتة •

واللغة هي رباط الوحدة الأسمى • فمن العسير تفسير الوحدة العضوية القوية بين اللغات السامية دون الاشارة الى الصلة الوثيقة بين الشعوب التى تتكلم بها •

والجغرافيا رباط آخر من روابط الوحدة • فالشعوب السامية عاشت حياتها التاريخية متجاورة ، ولم يقتصر هذا الجوار على البداية ، ولكنه تأكد وتميز باتصاله واستمراره •

ولم تكن هذه الوحدة الجغرافية مجرد ظرف خارجي ، بل انها تشير الى حياة اجتماعية مشتركة فى الأصل تقوم ، بغض النظر عن أية وحدة جنسية ، على تشابه فى المسكن والأحوال داخل المنطقة التى امتد منها التوسع الخارجي • فالساميون ، كما رأينا ، يظهرون فى أقدم المصادر على أنهم بدو صحراء العرب ، يدفعون بأنفسهم دائما الى الخارج ويتغلغلون فى المناطق المحيطة ويوطدون أقدامهم فيها : فهناك الأكديون الذين نراهم فى أرض الرافدين فى الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم الأموريون الذين أسسوا فى بداية الألف الثانى سلسلة من الدول فى فلسطين وسوريا وأرض الرافدين ، ثم العبريون والأراميون الذين جاءوا بعد ذلك بقرون قليلة ليسدوا الفراغ التاريخى الذى خلفه انسحاب « شعوب البحر » فى فلسطين وسوريا ، ثم العرب الذين خرجوا من صحرائهم بعد ذلك بعدة قرون فى حركة فتح عظيمة نقلتهم الى أقصى البقاع • وهؤلاء جميعا ليسوا سوى أسماء مختارة برزت فى الحركة المستمرة التى كانت فى كثير من الأحيان خفية مجهولة الأبطال ، والتى وجهت ودفعت سير الأحداث فى الشرق الأدنى •

ولم يكن بد من أن ينقل البدو معهم آثار أحوالهم الأولى ومن هنا بحثنا فى النظام الاجتماعى القديم لصحراء العرب عن الخطوط التقريبية لمرحلة حضارية مرت بها الشعوب السامية لا محالة ، وحاولنا أن نقيم ، على وجه التقريب أيضا ، الصور السياسية والدينية لذلك المجتمع • وقد كانت هذه هى الصور التى لاحظناها من حين الى حين ، على تفاوت فى الوضوح والبروز ، فى النظرة السياسية للشعوب المختلفة ، وفى معتقداتها أو طقوسها ، وفى قوانينها ، بل فى فنها أيضا • وليس التراث البدوي لتلك الشعوب كافيا وحده لتفسير تطورها التاريخى والحضارى ، ولكنه مع ذلك عنصر ضرورى لتفسير ذلك التطور ، وهو العنصر الذى وصفناه بأنه سامى •

وقد كشفنا فى دراستنا بعد ذلك عن روابط أخرى للوحدة ، وان كانت وحدتها الأصلية أقل وضوحا ، فكم من آلهة تتلاقى أسماؤها

أوصفاتها في شعوب سامية كثيرة ، وكم من طقوس تعاود الظهور في شعب بعد شعب • فهذه الخصائص الحضارية ، كالخصائص اللغوية المشتركة ، تبرر لنا النظر الى هذه الشعوب على أنها وحدة خاصة ، دون أن ننكر الاختلافات التي نشأت خلال الزمن عن تغير المسكن والظروف وعن التأثر بالأصول المختلفة •

وهناك أخيرا روابط توحد الشعوب السامية لا بعضا ببعض فقط ، ولكن بغيرها من شعوب الشرق الأدنى القديم أيضا • ومن الخطأ أن نهمل هذه الروابط على أساس أنها ليست سامية بصفة خاصة ، فهي رغم هذا كله سامية ، ومن الخير أن نبحث فيما اذا كانت تضم عناصر يمكن اعتبارها اسهاما من الساميين في تاريخ الحضارة •

***

وهنـاك منحى ثابت من التفـكير يتخلل الشرق الأدنى القديم كله ويحدد موقفه من الوجود ، وهو غلبة الدين على بقية عوامل الحياة جميعا ، تلك العوامل التي تتخذ من الدين مصدرا مشتركا للالهام • وهذا الاتجاه العقلي يتمشى وفلسفة خاصة للتاريخ تفسر العالم على أنه نظام واحد يدور حول الربوبية •

ولا ريب في أن الشعوب السامية شاركت في هذه النظرة • ومن الممكن أنها الصق بهم وهم متفرقون منهم وهم في الصحراء ، ولكن هذه مسألة درجات ونسب لا مسألة ظواهر يفترق بعضها عن بعض افتراقا محسوسا •

فتاريخ الساميين وأدبهم وقانونهم وفنهم مدينة اذن للدين بأصولها ومحتواها وغاياتها • فمن الناحية التاريخية نرى قيام ورسوخ فـكرة الملكية العالمية في ظل الاله الذى يسود قومه على سائر الأقوام • والأدب زاخر بالآلهة وشئونها ، ولا يقوم الانسان فيه الا بدور محدود ثانوى • وفي القانون ، الذى يعتبر وحيا من الاله ، يمتزج التشريع المدنى والتشريع الديني معا • ولا يدين الفن للدين بالهامه وحده ، ولكنه يعتمد أيضا على الدين في وجوده نفسه ، والدليل على ذلك أن الاسرائيليين لم يمارسوا الفن التصويرى •

وهكذا نرى أن الشعوب السامية شاركت في نظرة كانت سائدة في بيئتهم ، ولكن هل ذهبوا أبعد من هذا ؟ هل كان لديهم ما يسهمون به هم أنفسهم ؟ تجد الاجابة على هذا السؤال في العرض الوجيز التالى •

ان أفضال الساميين على الحضارة الانسانية عديدة ايجابية ۰ فأولا الوسيلة التي نعبر بها عن أفكارنا كتابة ، أي الأبجـدية ، خرجت الى الوجود في أرض سامية هي كنعان ۰ وقد أثرت الشعوب السامية في التطور الحضاري لحوض البحر المتوسط من نواح أخرى أيضا : فالأكديون قدموا موضوعات أدبية ، وأفكارا قانونية ، ومعلومات فلكية ، وحقائق رياضية ، والأراميون قدموا لغتهم التي صارت وسيلة لتعريف الغرب بحضارته نفسها وبحضارة الآخرين ، والعرب أوجدوا ، بوساطة نظامهم السياسي ، الظروف لتلاقي حضارات مختلفة في دولة كبيرة واحدة ، كما أسهموا بنصيب في الفلك والرياضيات والملاحة وسائر العلوم ۰

ولكن أكبر ما أسهم به الساميون في سبيل الحضـارة الانسانية هو الدين ۰ وهنا ينقطع الشبه العام الذى تحدثنا عنه بين دين الساميين ودين العالم المحيط بهم ۰ والواقع أن تعدد الآلهة بين الأكديين او الكنعانيين أو الأراميين يؤيد هذا التشابه ، ولكن فضل الساميين هو ما أسهم به خاصة فرع واحد من المجموعة وهم العبريون ۰

ففكرة وحدانية الله ووجود قوة خلقية واحدة مكان القوى الطبيعية المتفرقة وفوقها ، وهي فكرة ثورية الى حد بالغ بالنسبة الى وفرة الآلهة في الزمان القديم ، هي النواة الأساسية للدين العبري ، وقد نقلتهـا المسيحية الى أوربا وبشر بها الاسلام قارتي آسيا وافريقية ۰ فهذه الأديان الكبيرة الثلاثة في عالمنـا ، اليهودية والمسيحية والاسلام ، خرجت الى الوجود في رقعة صغيرة من المنطقة السامية ، وآمن بها مؤمنون ساميون ومارسوها قبل أن تزحف لتفتح العالم ۰ فلما آن لها ان تزحف كان فتحها رائعا ، فتهاوت نظم دينية أكثر تعقيدا لشعوب أرقى من نواح أخرى كاليونان والرومان أمام هجوم أديان الساميين الذى لم يكن يؤيده ضغط سياسي ۰

وكان انتصار الوحدانية ختام تطور هام في تفكير الشرق الأدنى القديم ، فانفصل الاله شيئا فشيئا عن الجماعة السياسية ، وتكونت جماعة روحية مستقلة ۰ والمسيحية ، التي بلغت فيها هذه العملية غايتها ، جسر بين الشرق والغرب ، فهي سامية الأصل ، ولكنها تتجاوز النطاق السامي لأنها موجهة الى جميع البشر دون تمييز (*) ، وقد جعلت توطد اقدامها في حوض البحر المتـوسط وتنتشر منه الى جميع أنحاء العالم في عزم وتصميم ۰

(*) وكذلك الاسلام بالطبع ، كما قال المؤلف نفسه في أول فصله عن العبريين . وعلى العكس منهما اليهودية ، فهي دين قومي . (المترجم)

مراجع (١)

مراجع عامة

تاريخ وحضارات الشرق الأدنى القديم :

H. Schmökel, Geschichte des alten Vorderasien (Handbuch der Orientalistik, II, 3), Leyden 1957.

التاريخ الزمنى :

P. van der Meer, The Chronology of Ancient Western Asia and Egypt, Leyden 1955.

النصوص المترجمة :

J.B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, 2nd ed., Princeton 1955.

الآثار :

J.B. Pritchard, The Ancient Near East in Pictures Relating to the Old Testament, Princeton 1954.

مجموعات المراجع :

Bibliographie sémitique, in Orientalia, 16 (1947), ff.

(١) هذه القائمة ليست كاملة ، ولاتضم سوى نخبة من المراجع الضرورية العامة للقارىء المستزيد . وقد نشر اغلبها حديثا .

١ ـ المسرح

جغرافية المنطقة السامية :

P. Birot — J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen-Orient, II, Paris 1956.

الخرائط التاريخية :

L.H. Grollenberg, Atlas of the Bible, Edinburgh 1956.

٢ ـ الممثلون

اللغـات :

C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, 2 vol., Berlin 1908-13.

H. Fleisch, Introduction à l'étude des langues sémitiques, Paris 1947.

G. Rinaldi, Le lingue semitiche, Turin 1954.

(هذه الكتب تشتمل على معلومات عن اللغات السامية المختلفة) .

الشعوب :

S. Moscati, Chi furono i Semiti ?, Rome 1957.

الأجناس :

H. Field, Ancient and Modern Man in Southwestern Asia, Coral Gables 1956.

٣ ـ المقـدمة

الأصول :

S. Moscati, op. cit.

الأحوال الاجتماعية :

R. Montagne, La civilisation du désert, Paris 1947.

J. Henninger, Die Familie bei den heutigen Beduinen Arabiens und seiner Randgebiete. Ein Beitrag zur Frage der ursprünglichen Familienform der Semiten, Leyden 1943.

الصور الدينية :

W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, 3rd ed., London 1927.

M.-J. Lagrange, Etudes sur les religions sémitiques, 3rd ed., Paris 1928.

٤ ـ البابليون والاشوريون

الكشوف · الحفائر :

A. Parrot, Archéologie mésopotamienne. Les étapes, Paris 1946.

الكتابة :

G.R. Driver, Semitic Writing from Pictograph to Alphabet. rev. ed., London 1954.

التاريخ :

(أ) بوجه عام :

H. Schmökel, Ur, Assur und Babylon, Stuttgart 1955.

S.A. Pallis, The Antiquity of Iraq, Copenhagen 1956.

(ب) السومريون :

H. Schmökel, Das Land Sumer, Stuttgart 1955.

S.N. Kramer, From the Tablets of Sumer, Indian Hills 1956.

(ج) حمورابي :

F.M.T. Böhl, King Hammurabi of Babylon in the Setting of his Time, Amsterdam 1946.

(د) نصوص ماری :

G. Dossin — C.-F. Jean — J.R. Kupper — J. Bottéro, Archives royales de Mari, Paris 1941 ff.

(هـ) الحيثيون :

O.R. Gurney, The Hittites, Penguin Books, Harmondsworth 1952.

الدين :

(أ) بوجه عام :

J. Bottéro, La religion babylonienne, Paris 1952.

S.H. Hooke, Babylonian and Assyrian Religion, London 1953.

(ب) السحر :

A.A. van Proosdij, Babylonian Magic and Sorcery, Leyden 1952.

(جـ) التنبؤ :

G. Conteneau, La divination chez les Assyriens et les Babyloniens, Paris 1940.

(د) الطقوس :

G. Furlani, Riti babilonesi e assiri, Udine 1940.

الأدب :

(أ) بوجه عام :

H.A. Brongers, De literatuur der Babyloniers en Assyriers, The Hague 1954.

(ب) انوما ايلش (قصة الخلق) :

A. Heidel, The Babylonian Genesis, 2nd ed., Chicago 1951.

(جـ) جلجاميش :

A. Heidel, The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, 2nd ed., Chicago 1949.

(د) الشعر الغنائى :

A. Falkenstein — W. von Soden, Sumerische und akkadische Hymnen und Gebete, Zürich-Stuttgart 1953.

(هـ) أدب الحكمة :

J.J.A. van Dijk, La sagesse suméro-akkadienne, Leyden 1953.

النظم القانونية والاجتماعية :

(أ) القوانين :

G.R. Driver — J.C. Miles, The Assyrian Laws, Oxford 1935.

G.R. Driver — J.C. Miles, The Babylonian Laws, 2 vols., Oxford 1952-55.

(ب) الحياة الاجتماعية :

G. Conteneau, Everyday Life in Babylon and in Assyria, London 1954.

(جـ) السلطة :

H. Frankfort, Kingship and the Gods, Chicago 1948.

الفن :

(أ) بوجه عام :

H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, Penguin Books, Harmondsworth 1954.

(ب) ماري :

A. Parrot, Mari, Neuchâtel-Paris, 1953.

(جـ) بابل :

W. Andrae, Babylon, Berlin 1952.

(د) الآثار :

A. Parrot, Archéologie mésopotamienne. Technique et problèmes, Paris 1953.

٥ ـ الكنعانيون

المصـــادر :

(أ) أوجاريت :

C.F.-A. Shaeffer. Ugaritica I-III, Paris 1939-56.

J. Nougayrol (and others), Le palais royal d'Ugarit, 2 vol., Paris 1955.

(ب) الأبجدية :
D. Diringer, The Alphabet, London 1948.

التاريخ :

(أ) بوجه عام :
S. Moscati, I predecessori d'Israele, Rome 1956.

A. Jirku, Die Welt der Bibel. Fünfjahrtausende in Palästina-Syrien, Stuttgart 1957.

(ب) الفينيقيون :
G. Conteneau, La civilisation phénicienne, Paris 1949.

الدين :
R. Dussaud, Les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens, Paris 1945.

R. Largement, La religion cananéenne, in M. Brillant-R. Aigrain, Histoire des religions, IV, Tournai 1956, pp. 177-99.

الأدب :

(أ) بوجه عام :
G.R. Driver, Canaanite Myths and Legends, Edinburgh 1956.

(ب) تفسير الأساطير :
T.H. Gaster, Thespis, New York 1950.

الفن :

(أ) بوجه عام :
H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, cit., pp. 133-201.

(ب) الفينيقي :
R. Dussaud, L'art phénicien du IIe millénaire, Paris 1949.

٦ ـ العبريون

التـاريخ :

(أ) بوجه عام :
W.O.E. Oesterley — T.H. Robinson, A History of Israel, 2 vol., Oxford 1932.

W.F. Albright, From the Stone Age to Christianity, 2nd ed., Baltimore 1946.

M. Noth, Geschichte Israels, 3rd ed., Göttingen 1956.

(ب) الأصول :

H.H. Rowley, From Joseph to Joshua, London 1950.

(ج) الملكية والأنبياء :

A.C. Welch, Kings and Prophets of Israel, London 1953.

الدين :

(أ) بوجه عام :

W.O.E. Oesterley — T.H. Robinson, Hebrew Religion. Its origin and Development, London 1930.

B.D. Eerdmans, The Religion of Israel, Leyden 1947.

H.H. Rowley, The Faith of Israel, London 1956.

(ب) الدين والآثار :

W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 3rd ed., Baltimore-London 1953.

(ج) الملكية والطقوس المقدسة :

A.R. Johnson, Sacral Kingship in Ancient Israel, Cardiff 1955.

(د) الأنبياء :

T.H. Robinson, Prophecy and the Prophets in Ancient Israel, 2nd ed., 1953.

A. Neher, L'essence du prophétisme, Paris 1955.

(هـ) فكرة المسيح المخلص :

J. Klausner, The Messianic Idea in Israel, New York 1955.

S. Mowinckel, He that Cometh, Oxford 1956.

(و) نظام العبادة :

T. Chary, Les Prophètes et le culte à partir de l'exile, Tournai 1955.

العهد القديم :

(أ) بوجه عام :

A. Bentzen, Introduction to the Old Testament, 2 vol., Copenhagen 1948.

R.H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, London 1952.
O. Eissfeldt, Einleitung in das Alte Testament, 2nd ed., Tübingen 1956.

(ب) الشريعة :

G. Oestborn, Cult and Canon, Uppsala 1950.

(جـ) أسفار موسى الخمسة :

M. Noth, Ueberlieferungsgeschichte des Pentateuch, Stuttgart 1948.
G. Hölscher, Geschichtsschreibung in Israel, Lund 1952.
I. Lewy, The Growth of the Pentateuch, New York 1955.

(د) الأسفار الشعرية :

T.H. Robinson, The Poetry of the Old Testament, London 1947.

(هـ) أسفار الحكمة :

O.S. Rankin, Israel's Wisdom Literature, Edinburgh 1936.

(و) لفائف البحر الميت :

M. Burrows, The Dead Sea Scrolls, New York 1955.

النظم القانونية والاجتماعية :

A. Alt, Die Ursprünge des israelitischen Rechts, Leipzig 1934.
J. Pedersen, Israel. Its Life and Culture, 4 vol., London-Copenhagen 1926-47.

الفن :

(أ) بوجه عام :

A. Reifenberg, Ancient Hebrew Arts, New York 1950.

(ب) الآثار :

W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, Penguin Books, Harmondsworth 1949.

٧ ـ الآراميون

التاريخ :

(أ) بوجه عام :

A. Dupont-Sommer, Les Araméens, Paris 1949.

P.K. Hitti, History of Syria, London 1951, pp. 162-75.

(ب) الأراميون فى أرض الرافدين :

R.T. O'Callaghan, Aram Naharaim, Rome 1948.

A. Malamat, The Aramaeans in Aram Naharaim and the Rise of their States (in Hebrew), Jerusalem 1952.

(جـ) الحضارة :

(أ) الدين :

R. Dussaud, La religion des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens, cit.

(ب) الفن :

H.T. Bossert, Altsyrien, Tübingen 1951.

H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, cit., pp. 164-201.

٨ ـ العـــرب

عرب الجنوب :

(أ) الكشوف :

W. Phillips, Qataban and Sheba, London 1955.

P. Lippens, Expédition en Arabie Centrale, Paris 1956.

(ب) التاريخ :

Djawad Ali, History of the Arabs before Islam (in Arabic), 2 vol., Baghdad 1951-52.

(المترجم : خرجت منه أجزاء أخرى منذ ذلك الحين)

(جـ) النظم السياسية :

J. Ryckmans, L'institution monarchique en Arabie méridionale avant l'Islam, Louvain 1951.

(د) الدين :

G. Ryckmans, Les religions arabes pré-islamiques, 2nd ed., Louvain 1951.

A. Jamme, La religion sud-arabe préislamique, in M. Brillant — R. Aigrain, op. cit., pp. 239-307.

(هـ) الفن :

Mohammed Tawfiq, Les monuments de Ma'în, Cairo 1951.

عرب الوسط والشمال :

(أ) التـــاريخ :

N. Glueck, The Other Side of the Jordan, New Haven 1945.

W. Caskel, Das altarabische Königreich Lihjan, Krefeld 1950.

J. Starcky, Palmyre, Paris 1952.

(ب) الأديان :

G. Ryckmans, op. cit.

(جـ) الأدب :

R. Blachère, Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XVe siècle de J.-C., Paris 1952.

محمد وظهور الاسلام :

(أ) القـــرآن :

A.J. Arberry, The Koran Interpreted, 2 vol., London 1955.

(ب) محمد :

W. Montgomery Watt, Muhammad at Mecca, Oxford 1953.

Id., Muhammad at Medina, Oxford 1956.

(جـ) الفتوح العربية :

P.K. Hitti, History of the Arabs, 4th ed., London 1949.

B. Lewis, The Arabs in History, London 1950.

٩ – الاثيوبيون

التـــاريخ :

E.A.W. Budge, A History of Ethiopia, I, London 1928.

C. Conti Rossini, Storia d'Etiopia, I, Milan 1928.

J. Doresse, L'Ethiopie, Paris 1956.

الأديان :

C. Conti Rossini, op. cit., pp. 141-65.

الحضارة :

(أ) الأدب :

E. Cerulli, Storia della letteratura etiopica, Milan 1956.

(ب) الفنون :

E. Littmann (and others), Deutsche Axum-Expedition, 4 vol., Berlin 1913.

Annales d'Ethiopie, I, Paris 1955, pp. 1-58.

(الكشوف الحديثة)

١٠ — الخاتمة

G. Levi Della Vida, Les Sémites et leur rôle dans l'histoire religieuse, Paris 1938.

هوامش المترجم

هوامش الفصل الثانى

١ ـ استعمل لفظ « السامي » (مطبوعا) لأول مرة عام ١٧٨١ على يدى شلوتسر August Ludwig Schlözer فى مقاله عن الكلدانيين Von den Chaldäern الذى أورده أيشهورن Johann Gottfried Eichhorn فى Repertorium für biblische und morgenländische Literatur المجلد الثامن .

يقول شلوتسر (ص ١٦١) : « من البحر المتوسط الى الفرات ، ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوبا ، سادت ، كما هو معروف ، لغة واحدة • ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون والعرب شعبا واحدا • وكان الفينيقيون (الحاميون) أيضا يتكلمون هذه اللغة التى أود أن أسميها اللغة السامية » • وقد تولى أيشهورن بعد ذلك نشر هذا الاصطلاح والدفاع عنه ، وان ادعاه لنفسه •

أنظر شتاده (١) (ص ١٧) وباور ـ ليآندر (ص ١ ـ ٢) •

٢ ـ أنظر فى خصائص اللغات السامية البحثين المفصلين الآتيين : ـ

(أ) ركندورف (١٨٩٦) •

(ب) شبولرفي Semitistik (١٩٥٣) ، ص ٣ ـ ٢٥ •

وتجد عرضا موجزا لتلك الخصائص فى المراجع التالية : شتاده (١) (١٨٧٩)، ص ١٥ ــ ١٦ ، كونيج (١٨٨١) ، ص ١٠ ــ ١٢ ،بروكلمان(١) (١٩٠٨) ، ص ٥ ، جزنيوس ــ كاوتش (١٩١٠) ص ٣ ــ ٤ ، نولدكه(٥) (١٩١١) ، ص ٦١٨ العمود الأول ، برجشترسر (١) (١٩١٨) ، ص ١ ــ ٢ ، باور ــ ليساندر (١٩٢٧) ، ص ١٠ ــ ١١ ، ب ٠ دور م (١٩٣٠) ، ص ٥٧ ــ ٦٢ ، فلايش (١٩٤٧) ، ص ٢٠ ــ ٢٢ ، جوون (١٩٤٧) ، ص٣، أنجناد (٣) (١٩٤٩) ، ص ٣ ــ ٤ ، بير (١٩٥٢) ، ص ١٢ ــ ١٦ ، فون سودن (١) (١٩٥٢) ، ص ١ ــ ٢ ٠

وأضف الى الخصائص التى يوردها المؤلف أن اللغات السامية لا تعرف الكلمات المركبة أسماء أو أفعالا ، مثل describe (de + scribe) « وصف » فى اللغة الانجليزية = beschreiben (be + schreiben) فى اللغة الألمانية ، و circumstance (circum + stance) « حالة » فى اللغة الانجليزية = Umstand (Um + Stand) فى اللغة الألمانية ، وان كان المضاف والمضاف اليه فى اللغات السامية يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطا وثيقا يكاد يحيلهما فى بعض الأحيان كلمة واحدة ٠
أنظر بروكلمان (١) ، ص ٤٨١ ــ ٤٨٤ ٠

٣ ــ الحبشية هى اللغة السامية الوحيدة التى تعبر عن الحركات رسما ، فالحرف فى صورته البسيطة ينطق مصحوبا بفتحة ، ثم يغير شكل الحرف ستة تغييرات معينة للدلالة على الحركات الست الباقية ٠ ولما كان فى الحبشية ٢٦ حرفا ، كانت صور الحروف مع حركاتها ١٨٢ (٢٦ × ٧) ٠

٤ ــ الجذور قوام الأسماء والأفعال ٠ وهى ثلاثية فى الغالب كما يقول المؤلف ، ولكن كثيرا من هذه الجذور الثلاثية نشأ فى الأصل عن جذور ثنائية بزيادة حرف ، وذلك كالجذور الثلاثية المعتلة والمضعفة ٠

ويلاحظ موسكاتى (٢) (٦٩ ــ ٧٠ ،الفقرة ١٩٦) و (٣) (ص ٧٢ــ ٧٣ ، الفقرة ١١ : ٥) أن المعجم السامى يشتمل على كثير من الجذور الثلاثية التى تشترك فى حرفين أصليين وتدل على معان واحدة أو متقاربة، ففى العبرية مثلا فرد « فصل » وفرم « مزق » وفرس « شق » وفرص « قوض » وفرق « نزع » وفرر « نقض » وفرش « ميز » الخ ٠ فهذه الأفعال تشترك جميعا فى الحرفين الأصليين « فر » وفى المعنى الأساسى « قسم » ، وهذا يدعو الى الظن أن مثل تلك الأفعال الثلاثية نشأ فى الأصل عن جذر ثنائى ٠

وقد بقيت أسماء ثنائية قديمة مثل أب وأخ وشفة ودم ويد وابن واسم ، وان عمدت بعض اللغات السامية الى تثليث هذا الجذر فى بعض مشتقاته ، كما فعلت العربية حين جمعت أبا على آباء (أفعال) وأخا على اخوة (فعلة) وشفة على شفاه (فعال) ودما على دماء (فعال) ويدا على أيد (أفعل) وابنا على أبناء (أفعال) واسما على اسماء (أفعال) • أنظر فى الأسماء الثنائية فى اللغات السامية عامة بارت (١) ، وبارت (٢) (ص ٢ – ٩) ، ونولدكه (٤) (ص ١٠٩ – ١٧٨) ، وبروكلمان (١) (ص ٣٣١ – ٣٣٤) •

ويرى بعض العلماء ، استنادا الى هذه الظواهر الثنائية وغيرها ، أن جميع الجذور السامية كانت فى الأصل ثنائية • ولكن الأرجح ، كما يقول موسكاتى (٢) (ص ٧١ ، الفقرة ١٩٨) و (٣) (ص ٧٣ – ٧٤ ، الفقرة ١١ : ٧) ، أن اللغات السامية كانت تملك فى الأصل جذورا ثنائية وثلاثية (الى جانب عدد قليل من الجذور التى تتكون من حرف أصلى واحد أو يزيد عدد أصولها على ثلاثة) ، وأنه فى مرحلة معينة من تطور اللغات السامية ساد النظام الثلاثى فدخلت فيه الجذور الثنائية باضافة حرف ثالث اليها •

ويرى برجشترسر (٢) (ص ٧ ، الهامش الأول) أن (، * (فو) « فم » مكونة من حرف أصلى واحد • ويضيف موسكاتى (٣)(ص ٨٣ ، الفقرة ١٢ : ٢٥) اليها (ش) « شاة » فى الأوجاريتيه (مع نظيرها فى العبرية) ، و (ج) « صوت » فى الأوجاريتية أيضا •

وهناك أيضا جذور رباعية ، ولكنها قليلة ، ومنها أسماء سامية قديمة لبعض الحيوانات كالعقرب والقنفذ والأرنب (وان كان الصرفيون العرب يعتبرون الأرنب ثلاثيا مزيدا بالألف) • أنظر بروكلمان (١) (ص ٣٧١) وموسكاتى (٣) (ص ٨٤ ، الفقرة ١٢ : ٣٠) •

وليست الجذور هى المادة الوحيدة التى تبنى منها اللغات السامية صيغها ، فهناك العناصر الاشارية deictic elements التى تصاغ منها الضمائر وبعض الأدوات particles (مثل حرفى التوكيد ان وأن، وحروف الجر الكاف واللام ومن ، والظرفين هنا وثم ، وحرف الشرط ان) ومن الجلى أن العناصر الاشارية من أقدم العناصر فى اللغات عامة •

٥ – أى حين لا يكون مضافا ، وهو من اصطلاحات النحاة العرب • ولكن اذا خشينا أن ينصرف الذهن الى الافراد فى العدد ، صح لنا أن نقول « حالة الاطلاق » •

٦ – يعتقد جمهرة علماء اللغات السامية أن جموع التكسير كانت فى الأصل أسماء مفردة لها معنى كلى Colletiva تطورت بعد ذلك الى جموع لأسماء مفردة معينة ، فليست جموع التكسير مشتقة فى الأصل من أسماء مفردة « بتكسير » صيغ هذه الأسماء المفردة كما يقول النحاة العرب أى بتغيير حركاتها واضافة حروف اليها أو حذف حروف منها وانما هى موضوعة أصلا فى صيغ مفردة للدلالة على مسميات كلية . انظر بارت (٢) (ص ٤١٧ – ٤١٩) ، وهوفنر (١) (ص ١٠١ – ١٠٢).

وينتقد بارت نظرية التكسير العربية التى يسايرها بعض المستشرقين القدامى مثل افالد H. Ewald (فى كتابه عن النحو العربى Grammatica critica linguae arabicae ، جزءان ، ليبزج ١٨٣١ – ١٨٣٣ ، الفقرة ٣٠٣) ودلمان (فى كتابه عن النحو الحبشى ، الطبعة الأولى ، الفقرات ١٣٥ – ١٤٨) (*) . فيقول انها لا تتفق وما هو معروف من أن جمع التكسير الواحد قد يشمل صيغا مفردة متباينة (مثل فعول قد تكون جمعا لفعل (بفتح فسكون) مثل بحر وبحور ، وجمعا لفعل (بفتحتين) مثل أسد وأسود ، وجمعا لفعل (بفتح فكسر) مثل ملك وملوك، وجمعا لفاعل مثل جالس وجلوس الخ) ، وأن المفرد الواحد قد يجمع جموع تكسير مختلفة (مثل الساق تجمع على سوق (بضم السين ضمة طويلة) وسيقان وأسوق (بفتح فسكون فضم) ، ومثل الصاحب يجمع على صحب (بفتح فسكون) وأصحاب وصحاب) . هذا الى أنه ليس ثمة أساس صوتى أو شكلى ثابت نستطيع به اشتقاق جمع التكسير من المفرد ، فأحيانا نجد الجمع قصير الصيغة بالنسبة الى المفرد (مثل صاحب وصحب) ، وأحيانا نجد العكس (مثل ضرس وضروس) ، ثم قد يشتمل الجمع على حروف زائدة ليست فى المفرد (مثل صاحب وأصحاب) ، أو تحذف منه حروف زائدة نجدها فى المفرد (مثل حكمة وحكم) .

وقد توسعت اللغات السامية الجنوبية (وهى العربية الشمالية والعربيةالجنوبيةالقديمة والحبشية)فى استعمال جمع التكسير . وجموع

---

* = الفقرات ١٢٥ – ١٤٠ من الطبعة الثانية . وانظر خاصة ص ٢٩٩ – ٣٠١ من ترجمتها الانجليزية .

التكسير في الحبشية أقل وفرة منها في العربية (دلمان ، ص ٣٠٠ ؛ وبريتوريوس ، ص ١٠٥) . وجموع التكسير في العربية الجنوبية القديمة أكثر ورودا من الجمع السالم (هومنر (١) ، ص ١٠٢ ، وبيستون ، الفقرة ١/٣٠) .

وفي العبرية والسريانية (وهما من اللغات السامية الشمالية) آثار قليلة من جموع التكسير ، أي من أسماء الجموع التي نجد لها مفردا من لفظها يختلف عنها في الحركات (*) . فمن آثارها في السريانية قريا (بضم فسكون) جمع قريتا (بسكون فكسرة طويلة) « قرية » ، وكذلك حمرا (بإماله فسكون ففتحة طويلة) جمع حمارا (بسكون الحاء) «حمار» انظر بركلمان (١) (ص ٤٢٧ أسفل ـ ٤٢٨ أعلى) و (٢) (ص٦٥) . (**)

ومن بقاياها في العبرية جموع الأسماء السيجولية (أي الأسماء الساكنة العين المحركة الفاء بفتحة أو كسرة أو ضمة) ، فهي تتميز بفتح العين بعد سكونها في المفرد وان أضيفت اليها بعد ذلك نهايات الجمع السالم ، مثل ملاكيم (بسكون الميم) جمع ملك (بسيجولين) « ملك » ، وسفاريم (بسكون السين) جمع سفر (بصيريه فسيجول) « كتاب » ، وقداشيم (بتحريك القاف بحاطيف قامص) جمع قدش (بحولم فسيجول) « قدس » . فنحن نتفق مع بروكلمان (١) (ص ٤٣٠ ـ ٤٣١) في أن مثل ملاكيم جمع تكسير على وزن فعل (بفتحتين) من المفرد فعل (بفتح فسكون) ، وأن مثل سفاريم جمع تكسير على وزن

(*) اما أسماء الجموع التي لامفرد لها من لفظها يختلف عنها في الحركات فهي أسماء جموع محضة ، ولاتعد من جموع التكسير . ومن أمثلة ذلك في العبرية باقار «بقر» ، عوف (بحولم طويلة) «طير» ، برى (بسكون فكسرة طويلة) «ثمر» ، صون (صاد محركا بحولم فهمزة مسهلة) «غنم» ، ركش (بسيجولين) «جياد» ، رما (بكسر الراء وتشديد الميم) «دود» ، بهيما (بسكون فصيريه) «بهائم» ، دمعا (بكسر فسكون) «دموع» . انظر جزنيوس ـ كاوتش ، ص ٣٩٤ أسفل ـ ٣٩٥ ، ونولدكه (١) ص ٥٩ ـ ٦١ (وهو يرى ، ص ٥٩ ، أنه ليس في العبرية أو الارامية آثار أكيدة من جمع التكسير) .

(**) يذكر نولدكه (١) (ص ٦١ ـ ٦٢) حمرا وقريا السريانيتين على أنهما جمعان في المعنى يقابلهما مفردان من نفس المادة ، ولكنه لاينص على أنهما جمعا تكسير ، بل انه يرى أن «قرى» العربية و «قريا» السريانية تعنيان في الاصل المسكن وتدلان (كالبلد والدار) على المنطقة المسكونة أو المحلة الواحدة ، فتكونان بذلك أقدم من المفردين قرية (في العربية) وقريتا (في السريانية) اللذين يرتبطان بهما في الاستعمال .

فعل (بكسر ففتح) من المفرد فعل (بكسر فسكون) ، وأن مثل قداشيم على وزن فعل (بضم ففتح) من المفرد فعل (بضم فسكون) ٠وبروكلمان في هذا الرأى يتابع فريقا من العلماء أشار اليهم فى كتابه المذكور (ص ٤٣٠ ، الملاحظة الثانية) ٠

ولكن هناك آراء أخرى في جموع الأسماء السيجولية تخرجها عن نطاق جموع التكسير٠فمن ذلك ما يراه شتاده (١) (ص١٩٤ أسفل ـ١٩٥ أعلى) من أن مثل ملاكيم مقيس على جمع فعل (بفتحتين ، مثل د.بر ، « أمر » : دباريم) ، وأن مثل سفاريم مقيس على جمع فعل (بكسر ففتح، مثل عنب : عنابيم) ، أى أن عين ملاكيم وسفاريم فتحت (رغم أنها ساكنة فى المفرد) قياسا على فتح العين فى مثل دباريم وعنابيم ٠

ويرى أنجناد (١) أن فتحة العين فى مثل ملاكيم وسفاريم وقداشيم حركة مساعدة قصيرة Svarabharti جيء بها لتلافى الوقع الشديد للحرف المركب Doppelconsonanz قبل النبرة مباشرة ، أى لتلافى مثل ملكيم (بفتح فسكون فكسرة طويلة) وسفريم (بكسر فسكون فكسرة طويلة) وقدشيم (بضم فسكون فكسرة طويلة) ، حيث تؤلف العين الساكنة ولام الكلمة حرفا مركبا تليه مباشرة النبرة الواقعة على مقطع نهاية الجمع ٠ وهو يقول ان هذه الفتحة المساعدة القصيرة ربما لم يكن يؤتى بها فى أول الأمر الا فى الحالات الصعبة النطق بوجه خاص ، ثم عممت فيما بعد فشملت كل الجموع التى من هذا القبيل ٠

ولكن يقول نولدكه (٣) ، ردا على أنجناد ، ان فتح العين فى جمع فعل أو فعلة (بتثليث الفاء وتسكين العين) ظاهرة سامية عامة نجدها أيضا فى العبرية والأرامية ، فكيف يصلح لمثل هذه الظاهرة السامية العامة ذلك التسهيل الصوتى الضيق الذى لم يكن يمكن أن يقع الا فى حالات قليلة ؟ ويقول نولدكه انه لا يجد هو نفسه تفسيرا معقولا لهذه الفتحة ٠

ويورد نولدكه أمثلة لهذه الظاهرة فى العربية والأرامية (ولا سيما السريانية (*)) ٠ وقد نقل بروكلمان بعضها (١) ، ص ٤٣٠ ٠ ففى العربية تجمع فعلة (بفتح فسكون) على فعلات (بفتحتين) مثل جفنة وجفنات ، وتجمع فعلة (بكسر فسكون) على فعلات (بكسر ففتح) مثل كسرة وكسرات (بفتح السين فى الجمع ، وقد تكسر اتباعا للكسرة قبلها) ، وتجمع فعلة (بضم فسكون) على فعلات (بضم ففتح) مثل ظلمة وظلمات

(*) انظر ايضا كتابه فى النحو السريانى (٢) ، ص ٦٣ (الفقرة ٩٣) ٠

(بفتح اللام فى الجمع ، وقد تضم اتباعا للضمة قبلها) · وفى جمع المذكر لا ترد الفتحة الا فى أرضون (بفتحتين) ، وان ورد أيضا تسكين الراء · وفى الارامية ضاعت هذه الفتحة القصيرة ، ولكن بقى أثر ينم عنها فى بعض الجموع التى تكون لامها حرفا من حروف بجد كفت ، اذ نجدها رخوة لا شديدة ، وذلك مثل ألفين (بفتح فسكون فكسرة طويلة) (آلاف) فى السريانية · ويدل على وجود هذه الفتحة فى الأصل أيضا أن بعض الأسماء الثلاثية المضعفة مثل عما (بفتح فميم مشددة مفتوحة) (شعب) فى السريانية يكتب جمعها بميمين (عمما « بألف ممالة ») ، وان ظل النطق فى الجمع بميم مشددة ، فكتابة ميمين فى الجمع دليل على أن الميم الأولى كانت محركة بفتحة فى الأصل ·

وما دمنا نعد جموع الأسماء السيجولية فى العبرية جموع تكسير تتميز بفتح العين بعد سكونها فى المفرد ، فنحن نعد نظائرها فى الأرامية جموع تكسير أيضا تضاف الى حمرا « حمير » وقريا « قرى » الآنفتى الذكر · وقد لاحظنا ان نهايات الجمع السالم تضاف باطراد الى جموع الأسماء السيجولية فى العبرية · ونلاحظ هنا أن جمع التكسير قريا تلحق به أحيانا نهاية الجمع السالم ، كما اذا أضيف الى الاسم الظاهر (قريى : بضم فسكون ففتح فسكون) ، انظر بروكلمان (١) (ص٤٢٨) و (٢) (ص ٦٥) · وتفسير هذا كله أنه لما غلب استعمال الجمع السالم وساد فى العبرية والأرامية ، أدخلت العبرية ما فيها من جموع تكسير فى نطاق الجمع السالم ، وفعلت الأرامية ذلك أيضا الى حد ما ·

وننتقل الآن الى لغة سامية شمالية أخرى هى الأوجاريتية ، فان أيستليتنر (١) (ص٣٨ ـ ٤٦) يرى أنها تشتمل على طائفة كبيرة من جموع التكسير ، وان لم تبلغ مبلغ جموع التكسير فى اللغات السامية الجنوبية · ويتابعه ج·ر· درايفر (٢) (ص ١٢٩ ، العمود الأول ، وص ١٣٤ ، الهامش ٤ ، وص ١٤٦ ، الهامش ٩) فى بعض هذه الجموع : أجزر (بفتح الهمزة ـ جمع جزر « لقمة ») ، أدمعت (بضم الهمزة) «دموع»، أصبعت (بضم الهمزة) « أصابع » · ولكن ينكر موسكاتى ذلك (٢) ، ص ٨٣ ، الفقرة ٢٤٣ ، و (٣) ، ص ٨٩ ، الفقرة ١٢ : ٤٤ · وليس هنا مجال الخوض فى هذا الخلاف ·

ويشير موسكاتى (٣) (ص ٨٩ ، الفقرة ١٢ : ٤٤) الى صخر (بضم فسكون) فى الأشورية القديمة ، وهو اسم جمع يقابل المفرد صخر (بفتح فسكون) فى الأشورية وصخر (بامالة فسكون) فى البابلية « صغير » ·

والخلاصة أن جمع التكسير ظاهرة سامية توسعت فيها اللغات السامية الجنوبية توسعا عظيما ، وبقيت منها آثار عديدة في الأوجاريتية (على رأى) ، وأخرى قليلة فى العبرية والأرامية (والأكدية ؟) ٠

(٧) هذا فى الأصل ، وهو ظاهر فى الأكدية والعبرية ٠ ولكن السريانية (متأثرة بالأسلوب اليونانى) والعربية توسعتا فى استعمال الجمل المركبة من جمل أساسية وأخرى فرعية ، وان ظلت العربية محتفظه بالطابع القديم ٠ أنظر شبولر فى Semitistik (ص ٢٢ و ٢٤) ، وجزنيوس ـ كاوتش (ص ٤) ٠

(٨) سورة الأعراف ، الآية ١٤٠ ٠

(٩) كما فعل برجشترسر (٢) ، ص ٣ ـ ١٩ ، وان كان لا يقصد بالسامية القديمة Ursemitisch لغة متجانسة ثابتة الحدود الزمانية والمكانية ، فهو يستعمل لفظ السامية القديمة اسما جامعا لكل ما يمكننا استخلاصه من ظواهر لغوية سبقت تطور اللغات السامية المعروفة لنا أو أكثر هذه اللغات على الأقل٠ وأنظر موسكاتى (٣) ، ص ١٥ (الفقرة ١:٥)٠

(١٠) هذا تعريف زامبوتىP. Laviosa Zambottiولكن وحدة اللغة موضع خلاف ، فمن الشعوب ما قد تكون فيه أكثر من لغة ٠ انظر موسكاتى (١) ، ص ٢٨ ، الهامش ٣١ ٠

(١١) يقول موسكاتى (١) (ص ٣٨ أسفل ـ ٣٩) ان الألف الثانى قبل الميلاد شهد ظهور النمط الشبيه بالأرمنى فى الأناضول وسوريا بكثرة ، وشهد كذلك استقرار الحيثيين فى تلك المنطقة ، فمن الممكن اذن أن الحيثيين هم الذين جاءوا بهذا النمط الجنسى ٠

هوامش الفصل الثالث

(١) يستند أصحاب هذا الرأى ، كما يقول نولدكه (٥) (ص ٦٢٠، العمود الأول) ، الى أن سفر التكوين (١٠ : ٢٢ و ٢٤ وما بعدها ، و ١١ : ١٢ وما بعدها) يجعل بعض الأمم السامية أبناء (أرفكشد) ، وهو الذى سميت باسمه منطقة أربخيتيس Arrapachitis التى تسمى الآن البك على الحدود بين أرمينية وكردستان ٠ وكان يظن أيضا أن هذه المنطقة كان يسكنها الجنس الأصلى الذى انحدر منه فى رأيهم الساميون والهندو أوربيون معا ٠ ولكن يقول نولدكه ان هذه الصلة القديمة موضع شك ، وان الانفصال المزعوم عن تلك المنطقة لم يكن فى زمن قريب يتيح

للساميين الاحتفاظ برواية تاريخية عنه ؛ ومن الخطأ الفادح أن نتصور أن الشعوب تستطيع أن تحتفظ خلال آماد طويلة بذكرى الوطن الذى يقال ان أجدادها المزعومين هاجروا منه ؛ ويجب أن ننبذ الفكرة الغريبة التى سادت زمنا من أن الذكريات التاريخية تظل حية بين الشعوب غير المتحضرة ٠

ويمضى نولدكه فى تفنيده لتلك النظرية فيقول : ان الفترة التى كان العبريون والعرب وسائر الشعوب السامية يؤلفون فيها شعبا واحدا موغلة فى البعد بحيث لا يمكن لأى منهم الاحتفاظ برواية عنها ٠ ويبدو أن نسبة العبريين وأقاربهم الأدنين الى أرفكشد ترجع الى الأسطورة التى تقول ان سفينة نوح رست بالقرب من تلك المنطقة (سفر التكوين ٨:٤)، ولكننا نجد فى سفر التكوين نفسه (١١ : ١-٩) رواية مختلفة ، مأخوذة عن مصدر آخر ، تقول ان جميع الشعوب ، ومنهم الساميون ، جاءوا من بابل ٠ « ولا نكاد نجد بين العلماء اليوم من يعتقد أن الساميين جاءوا أصلا من الشمال » ٠

(٢) يفترض نولدكه (٥) (ص ٦١٨ ، العمود الأول) « فرضا متواضعا » هو أن افريقية الموطن الأصلى للساميين بدليل الارتباط بين اللغات السامية واللغات الحامية ، والتشابه الجسمانى الكبير بين الحاميين والساميين (ولا سيما الساميين فى جنوب الجزيرة العربية) ؛ ولكنه يسلم (ص ٦٢٠) بأنه ليس ببعيد أن تكون الجزيرة العربية ذلك الموطن الأصلى ٠

ويرى باور - لياندر (ص ١٠) « مع أغلب العلماء » أن الجزيرة العربية هى موطن الساميين الأصلى الذى صدرت عنه هجراتهم التى سجلها التاريخ ، ولكنهما يفترضان أن الساميين جاءوا قبل التاريخ الى الجزيرة العربية من افريقية عبر مضيق باب المندب ٠وهذا الفرض يتمشى فى رأيهما والشبه الكبير فى صيغ الفعل بين لغات اريتريا الكوشية واللغات السامية ٠

وانظر فلايش ، ص ٢٥ ٠

(٣) بسط جويدى نظريته فى بحثه Della sede primitiva dei popoli semitici المنشور فى Memorie della Reale Accademia dei Lincei, Classe di Scienze morali, storiche e filologiche السلسلة الثالثة ، المجلد الثالث (روما ١٨٧٩) ، ص ٥٦٦ - ٦١٥ ٠

وهو يلفت النظر الى أن الساميين ليس لديهم اسم مشترك للجبل، ولكن لديهم اسم مشترك للنهر ؛ ويستنتج من ذلك أنهم كانوا فى الأصل

أهل زراعة يعيشون معا بالقرب من الأنهار وفي منطقة ليست جبليـــة • ويقول ان المدلولات الجغرافية والنباتية والحيوانية التي تعبر عنها اللغات السامية بأسماء مشتركة تشير الى وادي الفرات الأدنى ، لا الى الجزيرة العربية • ولكن يرد عليه بأن عدم وجود اسم مشترك للجبل لا يدل على أن الساميين القدامى لم يعرفوا الجبال ، فاللغات السامية لا تتفق أيضا في تسمية القمر والرجـل والولد والابن الخ ، وهي مســميات عبر عنها الساميون القدامى قطعا • هذا الى أنه لا يمكن التسليم بأن نبات الجزيرة العربية وحيوانها لم يختلفا على ممر العصـــور • واذا كان الســاميون القدامى أهل زراعة كما يقول ، فموطنهم يمكن أن يكون اليمن كما يمكن أن يكون بابل • انظر نولدكه (٥) (ص ٦٢٠ ب) ، وباور ــ ليواندر (ص ٩ ، الهامش ٣) ، وفلايش (ص ٢٣) ، وموسكاتي (١) (ص٣١ الهامش ٣٥) •

والرد الفصل على جويدي وغيره ممن ينكرون أن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للساميين هو أن الهجرات السامية التي سجلها التاريخ صدرت عن الجزيرة العربية •

هوامش الفصل الرابع

(١) اسمها القديم دور ــ شركين Dur-Sharruken «سور سرجون» الى الشمال الشرقي من نينوى (انظر الهامش الثاني) غير بعيدة عنها• بناها سرجون الثاني ، ملك أشور (٧٢١ ــ ٧٠٥ ق•م) ، لتكون عاصمة جديدة للبلاد (انظر الهامش الخامس) ، ولكن لم تلبث أن أهملت بعد موته • انظر هول (ص ٤٨١) وشموكل (ص ٢٦٩) •

وانظر قصة حفائر بوتا في خورساباد (١٨٤٣ ــ ١٨٤٥) في كتاب لويد ، ص ١١٩ أسفل ــ ١٢٢ • وقد خلفه في تلك الحفائر فيكتور بلاس Victor Place الفرنسي (١٨٥١) ؛ انظر لويد ، ص ١٦٠ و ١٦٤ •

(٢) نينوي هي الآن كينجك Kuyunjik، تجاه الموصل • وكلخ هي الآن نمرود (انظر الهامش الخامس) • وانظر قصة لايارد وحفائره

(١٨٤٥ ـ ١٨٤٧ ، ١٨٤٩ ـ ١٨٥١) فى كتاب لويد ، ص١٠٨ــ١٥٨ ٠

وقد عاونه فى تلك الحفائر هرمزد رسام Hormuzd Rassam (الموصلى الكلدانى المسيحى) ، ثم خلفه فيها (١٨٥٢ ـ ١٨٥٤) ٠ وقد كشف رسام فى ديسمبر ١٨٥٣ قصر أشور بانيبال الذى يضم مكتبته المشهورة فى نينوى (لويد ، ص ١٦٧ ـ ١٧٠ و ١٨١) ٠

(٣) على نهر الفرات بالقرب من دير الزور (فى سوريا) ، ويقوم مكانها الآن تل الحريرى ٠ انظر شموكل ، ص ٨٥ ٠

(٤) يشرف أندريه بارو وجورج دوسان Georges Dossin منذ عام ١٩٥٠ على نشر وثائق ملوك مارى التى كشفت فى هذه المدينة (Archives Royales de Mari)

(٥) اسمها القديم كلخ (= كلح فى سفر التكوين ١٠ : ١١ـ١٢)، على الضفة الشرقية لدجلة غير بعيدة عن مصب فرعه الزاب الكبير ٠ وكانت العاصمة الثانية لأشور ، بعد مدينة أشور وقبل دور ـ شركين (انظر الهامش الاول) ونينوى ٠ أسسها شلمنصر الاول (١٢٧٣ ـ ١٢٤٤ ق ٠ م) ، وأعاد أشور نصربال الثانى (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق٠م) بناءها واتخذها عاصمة جديدة له . انظر شموكل ، ص ١٩٢ و ٢٥١ ـ ٢٥٢ ؛ ولويد ، ص ١٢٦ ٠

(٦) نقش بهستون هو نقش مسمارى من أربعمائة سطر نقشه دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ قبل الميلاد) على صخرة بهستون العالية بالقرب من كرمانشاه ٠ وهو أهم النقوش المسمارية التى خلفها ملوك الفرس القدماء (الأكمينيون) الذين حكموا فارس من القرن السادس الى القرن الرابع ق٠م٠ ومن هذه النقوش ايضا نقوش برسبوليس Persepolis (اصطخر) (الى الشمال الشرقى من شيراز) ٠

وتشترك هذه النقوش جميعا فى أنها مكتوبة بثلاث لغات ، أى أن النص مكرر بثلاث لغات هى الفارسية القديمة ، والعيلامية المتأخرة ، والبابلية٠ فالنص البابلى مكتوب بالخط المسمارى الذى استعمله البابليون فى أرض الرافدين ، والنصان الفارسى والعيلامى مكتوبان بخطين مسماريين مشتقين من الخط البابلى ٠ وأبسط هذه الخطوط الثلاثة الخط الفارسى ، وهو ابجدى ؛ ويزيد عليه فى الصعوبة الخط العيلامى ، وهو مقطعى ؛ وأشدها تعقيدا الخط البابلى ٠ وتعدد لغات هذه النقوش هو الذى أعان

على حل رموز الخط المسمارى ، كما أعان حجر رشيد المكتوب باللغتين اليونانية والمصرية القديمة على فك طلاسم الخط الهيروغليفى .

ويرجع الفضل الأول فى فك رموز الخط الفارسى القديم الى جروتفند Georg Friedrich Grotefend الألمانى الذى استطاع عام ١٨٠٢ بطريقة استنتاجية بارعة ، أن يقرأ فى نقشين من نقوش برسبوليس أسماء دارا وفشتاسب (أبى دارا) وكسرى (بن دارا) . وفى عام ١٨٣٦ استطاع العالم الفرنسى أوجين برنوف Eugène Burnouf والعالم الألمانى كريستيان لاسن Christian Lassen أن يحددا القيم الصوتية لعلامات الخط الفارسى القديم كلها تقريبا . ولكن ظلت معرفة اللغة الفارسية القديمة محدودة ، لان النقوش الفارسية القديمة التى كانت معروفة حتى ذلك الوقت قصيرة لا تشتمل الا على صيغ نحوية قليلة .

ومن هنا كان اكتشاف رولنسون لنقش بهستون الطويل بالغ القيمة فى دراسة اللغة الفارسية القديمة . وقد بدأ رولنسون نسخه عام ١٨٣٥ ، ونشره مترجما بعد ذلك بعدة سنين (ابتداء من ١٨٤٦) . وكانت طريقته فى حل الجزء الفارسى مطابقة تقريبا للطريقة التى اتبعها جروتفند قبله بزمان طويل ، ولعله لم يكن على علم بما حققه جروتفند .

وبعد أن حلت رموز الخط الفارسى القديم اتجه العلماء الى حل رموز الخط العيلامى . وقد تم هذا على يد العالم الانجليزى ادوين نوريس Edwin Norris ، الذى نشر عام ١٨٥٣ الجزء الثانى من نقش بهستون حسب نسخة رولنسون مع ترجمة وشرح مفصل .

أما الخط البابلى الذى كتبت به الأجزاء البابلية من النقوش الفارسية القديمة والنصوص البابلية التى أخذت تكشف عنها الحفائر فى أرض الرافدين فى ذلك الوقت ، فان حل رموزه لم يكن أمرا يسيرا ، فان علاماته تربو على الخمسمائة . ولكن كشفت أسراره فى آخر الامر بفضل طائفة كبيرة من العلماء ، فى مقدمتهم ادوارد هنكس Edward Hincks الأيرلندى .

انظر ميسنر ، ص ١٨ ـ ٢٣ ، ولويد ، ص ٩١ ـ ٩٦ .

(٧) استمرت الطريقة العمودية عند الكتابة على الحجر حتى عصر حمورابى ، ثم اتبعت الطريقة الأفقية عند الكتابة عليه منذ عصر الكاشيين. وكانت هذه الطريقة الأفقية متبعة عند الكتابة على الصلصال منذ زمن متقدم . انظر ميسنر ص ١٥ أسفل ـ ١٦ .

(٨) العلامات التحديدية تضاف غالبا قبـــل الكلمات التي تتعلق بها ، ونادرا بعدها · وهي منقولة عن السومريين · انظر فون سودن(١)، ص ٧ ·

(٩) الجزء الذي يعبر عنه المكمل الصوتي هو المقطع الاخير أو الاول من الكلمة · وكان المكمل الصوتي يكتب بعد الكلمة التي يتعلق بها ، وفي العصور المتأخرة كان يكتب أحيانا قبلها · انظر فون سودن (١) ، ص ٧ ·

(١٠) الآكديون في اصـــطلاح العلمـــاء الآن اسم جامع للبابليين والأشوريين ، وهو نسبة الى آكد · وتطلق آكد هذه على :ـ

(أ) الدولة السامية ((Ak-ka-du-u)) التي أسسها سرجون Sharruken «الملك الشرعي» في الجزء الشمالي من أرض بابل حوالى ٢٣٥٠ق·م، بعد أن قضى على سـلطان السومريين في جنوب أرض الرافدين · وهي أول دولة سامية شهدتها تلك البلاد (وسيرد ذكر سرجون ودولته فيما بعد) ·

(ب) المدينة (A. GA. DE) التي بناها سرجون بالقرب من كيش Kish (تل الأحيمر) وسبر Sippar (أبو حبة) لتكون مقرا لدولته · ولا يعرف مكانها على وجه اليقين · وتذكرها التـــوراة في سفر التكوين ١٠ : ١٠ (آكد) ·

(جـ) المنطقة ((mat Akkadi)) الممتدة حول مدينة آكد ، سميت المنطقة باسم عاصمتها · ومنطقة آكد هي الجزء الشمالي من أرض بابل ، وسومر هي الجزء الجنوبي · وفي العصر البابلي المتأخر (العصر الكلداني) أطلق اسم آكد على بلاد آكد وسومر معا ·

واللغة الآكدية اسم جامع أطلقه البابليون على لغتهم البابلية ولغة اخوانهم الأشوريين معا · وهي كذلك في اصطلاح العلمـــاء المحدثين ، يطلقونها على اللهجات البابلية والأشورية المختلفة ، فاذا أرادوا التمييز قالوا البابلية القديمة والاشورية الوسطى الخ ·

واللغة الآكدية القديمة Old Akkadian هي لغة دولة آكد الاولى خاصة ·

انظر أنجر ، وشموكل (ص ٤٠) ، وتسمرن (ص ١ ، الهامش الاول) ·

(١١) يذكرنا هذا بقصة موسى ٠

(١٢) لجش من أقدم المدن السومرية وأهمها ، ويقوم مكانها الآن تل اللوح ٠

(١٣) تذكر مصادر أرض الرافدين الأموريين منذ أقدم الازمان ، فتسميهم المصادر السومرية MAR.TU والمصادر الأكدية Amurru (أمرو) ٠ ويرد ذكرهم في العهد القديم أيضا : اموری ٠ وهم في الأصل بدو ساميون سكنوا صحراء الشام غربي أرض الرافدين ٠ انظر موسكاتي(١) ، ص ٥٢ ـ ٥٧ ٠

(١٤) يرى انجناد (٢) (ص ٧ـ١٣) أن اسمه يقرأ في البابلية خمربخ ، أي خم + ربخ ٠ فالجزء الأول من الاسم (خم) هو الاله عم الذي نجده أيضا في النقوش العربية الجنوبية القديمة ٠ أما الجزء الثاني (ربخ) فلعله يقابل في العربية مادة رفع (فيكون معنى الاسم : عم رفيع) أو مادة رفغ (التي تدل على السعة والخصب) ٠

(١٥) موطن الحوريين هو المنطقة الجبلية الواقعة جنوب بحر قزوين ، وقد انتشروا منه جنوبا وغربا منذ حوالى ٢٣٠٠ق٠م، وأسسوا خلال الألف الثاني عدة ممالك قوية بالقرب من أعالي الفرات والخابور ، منها مملكة ميتاني التي استخدمت اللغة الحورية في مراسلاتها الدبلوماسية ، وكانت تحكمها أسرة من الملوك لها أسماء آرية وتبرز بين آلهتها بعض الآلهة الهندية مثل اندرا Indra وفارونا Varuna انظر جيرني ، ص ١٢٨ ٠

(١٦) حكم اسرخدون من ٦٨٠ الى ٦٦٩ ق٠م ، وكان فتحه لمصر عام ٦٧١ ق٠م أي قبل موته بعامين ٠ وقد استطاع خليفته أشوربانيبال الاحتفاظ بسيادة أشور على مصر حتى عام ٦٥٥ ق٠م ، حين استعاد بسمتيك الاول لها حريتها واستقلالها٠ انظر شموكل، ص ٢٧٦ـ ٢٨٠ ٠

(١٧) حكم نابوبولصر من ٦٢٥ الى ٦٠٦ ق٠م ٠

(١٨) نبوخذ نصر الثاني ٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق٠م٠ وهو الذي تسميه المصادر العربية القديمة بختنصر ٠

(١٩) في لندن بعنوان Chronicles of Chaldaean Kings

(٢٠) أز (بدون تمييم) أو أنم Anum (بتمييم) هو الاسم السامي (الأكدي) لاله السماء ، وأصله في السومرية أن An (بسكون النون)٠

وهو يتصدر دائما قوائم الآلهة · ويلقب خاصة بملك السموات الى جانب لقبيه اله السموات وأبى السموات · وعرشه في قمة قبة السماء · وله السلطة العليا ، يخضع له آلهة السماء وآلهة الارض معا · وهو الذى يخول للملوك الارض السلطة التى يحكمون بها · ونظيره زيوس Zeus لدى اليونان · وامرأته هى الالهة أنتم Antum ، واسمها مأخوذ من اسمه بزيادة تاء التأنيث · وكانت مدينة أرك Uruk (=وركا الان) المركز الرئيسى لعبادتهما ·

انظر أ · دورم ، ص ٢٢ ــ ٢٦ و ٤٥ ــ ٤٨ ·

(٢١) انليل Enlil أو اليل Ellil (بادغام النون في اللام) هو أكبر آلهة السومريين · والمعنى الأصلى لاسمه (المركب) ان ــ ليل En-lil هو «سيد الريح» · والريح تهب (فى اعتقادهم) من الجبل ، ولهذا لقب انليل بـ «الجبل الكبير» kur-gal (فى السومرية) · ولما كان الرمز ideogram الذى يدل على kur «جبل» فى السومرية يدل أيضا على matu «بلد» فى الاكدية ، فقد لقب انليل بسيد البلاد ، وهو لقب حمله فى أقدم النصوص السومرية واحتفظ به فى نقوش بابل وأشور التاريخية والدينية · وهكذا صار اله الجبل اله الارض ·

وهو يفرض قانونه على سكان الارض جميعا ، ولا راد لأحكامه ، ويمسك فى شبكته الكبيرة بأولئك الذين يقولون الزور · وقانونه مكتوب فى ألواح القدر · وهو لا يكتفى بتحديد مصائر الناس ، وانما يشرف بنفسه على تنفيذ أحكامه · وهو محارب عنيف يلقب بالثور الوحشى rimu · وزوجته هى ننليل Nin-lil ، واسمها مأخوذ من اسمه بوضع Nin «سيدة» موضع En «سيد» · وكانت مدينة نبور Nippur (= نفر الآن) مركز عبادتهما فى سومر ·

انظر ا · دورم ، ص ٢٦ ــ ٣١ و ٤٨ ــ ٥٠ ·

(٢٢) انكى هو الاسم القديم، ثم أخذ الاسم ايا يظهر شيئا فشيئا· ومعنى ايا E-a «بيت الماء» ، ومعنى انكى En-ki «سيد الارض» ، فهناك ثلاث أرضين فى اعتقادهم : الارض العليا حيث يحكم انليل ، والارض السفلى حيث يهيمن نرجل (وسيأتى ذكره فيما بعد) ، والارض الوسطى التى تقع بين سطح الارض والارض السفلى وهى مملكة انكى أو ايا · وهو يلقب فى النصوص القديمة بملك أبسو Apsu أى ملك المياه العذبة ، فقد كان السومريون والأكديون يعتقدون أنه يوجد تحت

أرضنا ، عند مشارف الارض الوسطى ، سطح كبير من المياه العذبة تطفو عليه أرضنا ، وهو الحوض الذى تتدفق منه منابع الجداول والأنهار ٠

وايا هو اله السحر والمعوذ بين الآلهة ، ولا غرو فالماء كان يستعمل فى التطهير والقضاء والتنبؤ ، وكان ماء أبسو المقدس فى معبد مدينة اريدو Eridu (= أبو شهرين الآن) يستخدم كثيرا فى طقوس السحر للشفاء أو الوقاية من الامراض ٠ وسنرى أن الكاهن المعوذ (الآشب) كان يسمى نفسه « رجل ايا » و « عبد ايا » الخ ٠

والسحر الذى يمكن أصحابه من محاربة الشر الظاهر أو الخفى ينطوى على حكمة تنتقل من جيل الى جيل ، ولهذا كان ايا أيضا اله الحكمة والذكاء والفهم ٠ والأذن مركز الفهم، ولهذا قيل ان أذن ايا كبيرة مفتوحة٠ ولأنه اله الحكمة كان ينهض بالفنون والحرف ، ويلهم المشتغلين بها ، ويبسط حمايته عليهم ٠

وايا هو الذى خلق البشر ، وهو الذى يرعاهم ويسهر عليهم ويغدق مآثره على من يصطفيه منهم ٠ وهو الذى أقام عبادة الآلهة على الارض ٠ وزوجته هى ننكى Nin-ki ، ومعنى هذا الاسم (فى السومرية) «سيدة الارض» ، وقد سميت فيما بعد دمكينا Damkina ٠ وكانت مدينة اريدو المركز الاساسى لعبادتهما ٠

انظر أ ٠ دورم ، ص ٣١ ــ ٣٨ و ٥٠ ــ ٥١ ٠

(٢٣) كان اله القمر يعد أقدم آلهة هذا الثالوث ، ويعتبر أبا لاله الشمس وكوكب الزهرة ، وعلى هذا كان اله الشمس أخا للزهرة ، وكانت الزهرة أختا له ٠ واله الشمس ذكر كأبيه اله القمر ٠ أما كوكب الزهرة (عشتر) ، وهى تارة نجمة الصباح وتارة نجمة المساء ، فقد كان يكتنفها الغموض ، فكانت تارة ذكرا وتارة أنثى ، ولكن غلب الجانب الأنثوى ، وقضى على التعارض بين صفات الذكورة والانوثة بأن اتحدت فى شخصها الهة الحرب (جانب الذكورة) والهة الحب (جانب الانوثة) ٠
انظر أ ٠ دورم ، ص ٥٤ ٠

(أ) اله القمر (سين) :

يأتى فى المرتبة بعد انكى (ايا) السالف الذكر ٠ واسمه سين عند السومريين والاكديين ، وهو اسم سومرى غير سامى نقله الاكديون عن

السومريين ، ونظائره السامية هي « ود » لدى عرب الجنوب ، و «سهر» لدى الأراميين ، و «ورخ» أو «يرخ» لدى الأموريين· ولاله القمر اسم آخر لدى السومريين هو ننا Nanna (= na-an-na «رجل السماء») ، وقد حرفه الأكديون الساميون الى ننر Nannar (أى «المنير») · ويرمز اليه فى كثير من الاحيان بالهـــلال ، وبجانبه قرص الشمس رمزا لاله الشمس ، ونجمة فى وسط دائرة رمزا لكوكب الزهرة ·

وسين هو « سيد الشـــهر » ، ينظم أيام الشهر والسنة · وكانت لحركات القمر دور هام فى علم التنبؤ · وكان خسوف القمر أهول الظواهر وأشـدها روعا ، وكان ينســب الى هجوم على الاله سين من سبع أرواح شريرة فى السماء · وكانت صورة الكارثة تختلف حسب الشهر الذى يقع فيه الخسوف· فكانت ترسل الدعوات الى الاله ، وتقدم اليه القرابين، وأخيرا يولد من جديد أشد بهاء من ذى قبل منتصرا على الظلمات والموت، وذلك بفضل القوس التى يدافع بها عن نفسه ضد القوى التى تعترض مجراه أو تحاول حجب نوره ·

وزوجته هى ننجل Nin-gal «السيدة الكبيرة» ، والى هذا الاسم يرجع الاسم نكل (بتشديد الكاف ، نتيجة ادغام النون الثانية فيها) الذى يطلقه عليها الاوجاريتيون والاراميون · وقد أنجبا ، كما قلنا ، الاله شمش والالهة عشتر · ويعتبر نسكو Nusku ، اله النار ، ابنا لهما فى بعض الاحيان ·

وكانت مدينة أور Ur (= تل المقير الآن) مركز عبادة سين وزوجته (ننجل) وابنهما نسكو وزوجة نسكو (سدرننـــا Sa-dar-nun-na) ثم انتقلت عبـــادة هذه الآلهة جميعا الى حران (فى أرام) فى الشمال · وانتشرت عبـادة اله القمر من أور الى كل أرجاء بابل ، ومن حران الى سوريا وفينيقيا · وكان البدو الأراميون والعرب يعبدون اله القمر الذى يهديهم فى سراهم بالليـــل ، ويدلهم على الاوقات · ولا يستبعد أن يكون لاسم (شبه جزيرة سيناء) علاقة باله القمر سين ·

انظر أ · دورم ، ص ٥٤ ـ ٦٠ و ٨٣ ـ ٨٦ ·

(ب) اله الشمس (شمش) :

يأتى فى المرتبة بعـد أبيه اله القمر · وكان السومريون يسمونه أوتو Utu ، كما كانوا يطلقون اسم ببر Babbar على الشمس وهى

تشرق . أما الساميون فقد أطلقوا على الاله الأكدى اسم الشمس نفسها (شمش) وكان العبريون والاراميون ينطقونه شمش ، والعرب شمس، وأهل أوجاريت شبش . وكان عرب الجنوب وأهل أوجاريت يعتبرون الشمس الهة مؤنثة (*) ، بينما كان السومريون والاكديون يعتبرونها الها ذكرا . وكان الحيثيون يميزون بين اله للشمس والهة للشمس يسمونها أرنا Arinna .

وكان يرمز لاله الشمس فى بابل وأشور وسوريا وآسيا الصغرى بقرص ذى جناحين ، أى بصورة الشمس فى مصر . ومن القابه فى أرض الرافدين نور العالم ، ونور الأعالى والاعماق ، ونور السموات والارض ، ونور الآلهة . وهو الذى يطارد الظلمات ، ويقصر النهار ويطيل الليل كما يشاء . وحياة العالم تتوقف عليه ، فهو الذى يهب الحياة ، وهو الذى يحيى الموتى . وهو الذى يدير الكون كله عاليه وسافله ، ويسير مخلوقات الحياة ، والبشرية كلها ، بل الآلهة أيضا . وهو البطل quradu ، لأنه قاهر الليل والموت . وهو اله العدل ، يعاقب المذنب ، ويمنعه من ايقاع الأذى بالناس ، وهو الذى أملى على حمورابى أحكام قانونه . وعين شمش تخترق أسرار المستقبل ، فهو « سيد التنبؤ » bel biri مثل أدد (هدد) اله البرق والرعد . وطائفة الكهنة المتنبئين baruti ينتسبون الى الالهين شمش وأدد .

وكانت مدينة لارسا فى سومر ومدينة سبر فى آكد مركزين أساسيين لعبادة شمش منذ أقدم الأزمان . وزوجته هى أيا Aya .
انظر ٠١ دورم ، ص ٦٠ — ٦٧ و ٨٦ — ٨٩ .

(ج) كوكب الزهرة (عشتر) :

هى أهم الهة فى سومر وأكد . وكان السومريون يسمونها انينا Innina (الى جانب صيغ أخرى مماثلة) ؛ ومعنى هذا الاسم فى السومرية « سيدة السماء » . وعشتر هو الاسم الأكدى السامى ، ونظيره عشترت لدى الفينيقيين والعبريين (الهة أنثى) وعثتر لدى عرب الجنوب (اله ذكر) . وهى تأتى فى المرتبة بعد سين أبيها وشمش اخيها مباشرة . وهى أخت ارشكيجل ، الهة العالم السفلى .

(*) ترد الشمس الهة مؤنثة فى احدى رسائل تل العمارنة (رقم ٣٢٣ ، ط كنوتسون Knudtzon) وهى من عسقلان .

وكان يرمز اليها بنجمة ذات ثمانية أشعة أو ستة عشر شعاعا منقوشة داخل دائرة • وهى التى ترشد النجوم الى طريقها • وهى نجمة الصباح تارة ، ونجمة المساء تارة أخرى ؛ ولهذا تتغنى الالهة قائلة :

أنا عشتر الهة الصباح
أنا عشتر الهة المساء

وهى الهة الحب واللذة حين تكون الهة المساء ، ترفع الى العرش من تهواه من البشر ، ولكنها الهة الحرب والقتل حين تكون الهة الصباح • ولما كان الأشوريون شعبا محاربا بطبيعته ، وتاريخهم ملحمة حربية طويلة ، فقد كانوا يمجدون عشتر المحاربة خاصة • والقوس سلاحها المفضل ، والأسد حيوانها الأثير ، نراها واقفة على ظهره فى أغلب الصور التى تمثلها •

وكانت عبادتها منتشرة فى سومر وأكد ، ومن أكد انتقلت الى أشور ، ثم امتدت غربا وشمالا وشرقا مع جيوش بابل واشور الفاتحة •

انظرأ • دورم ، ص ٦٧ ـ ٧٨ و ٨٩ ـ ٩٣ ؛ وكوك ، ص ٢٧ ـ ٢٨ (الهامش) ، وسميث (٢) ، ص ٥٦ ـ ٥٩ (مع ملاحظة الناشر ، ص ٥٢٠) •

(٢٤) كان السومريون والأكديون منذ القدم يعبدون اله العاصفة والبرق والرعد (اشكر Ishkur لدى السومريين ، وأدد لدى الاكديين) ، ويرمزون اليه فى كتابتهم بالرمز IM ومعناه « الريح » . وكانوا يستعملون هذا الرمز أيضا للدلالة على الآلهة الأجنبية التى تعد فى أوطانها آلهة للعاصفة ، مثل برياش Buriash لدى الكاشيين وتشوب Teshub لدى الحوريين ، وبعل لدى الكنعانيين ، وهدد لدى الأراميين وأهل أوجاريت :

ولم يقم الاله اشكر بدور كبير فى الدين السومرى ، ولكن كانت لأدد مكانة رفيعة فى البلاد حين قامت الدولة البابلية الأولى • وفى قانون حمورابى أن أدد هو الذى يغرق الحقول ويجرف المحاصيل • ويدعوه حمورابى فى ختام قانونه قائلا : « ليحرمه (كل ملك ينتهك قانون حمورابى) أدد ، رب الفيض ، ساقى السماء والأرض ، ناصرى ، من أمطار السماء وفيضان الينابيع • ليهلك أرضه بالفقر والجوع ، وليرعد فى عنف فوق مدينته ، وليجعل أرضه خرابا بفعل الطوفان » • ويحتفظ أدد بطابع الاله المدمر فى الأدب الاكدى كله • وكان يعبد فى مدينة أشور منذ بداية الامبراطورية الأشورية ، ويعد فيها ابنا لاله السماء أن •

وكان أهل الرافدين ينظرون الى أدد على أنه قوة مدمرة ســـخية معا • فهو رب الينابيع والمطر والفيضان والطوفان • وهو يمتطى الاعصار والعواصف الكبيرة • وهو البرق ، وسيد البرق ، والذى يجعل البرق يبرق • وهو الذى يصيح ، وصيحته طيبة • وهو معـدود بين الآلهـة المحاربة ، فهو مثل شمش وعشتر شـجاع بطل يصـــلح الخطأ ويقوم المعوج • وهو رب الفيض والغنى والخير ، يصب على البـلاد أمطاره التى تحمل الخصب ، ويبعث الحياة فى المخلوقات جميعـا • والرعد والبرق والريح والمطر علامات تنبىء بها السماء البشر برغبات الآلهة • وقد رأينا أن الكهنة المتنبئين يعتبرون شمش وأدد سيدى التنبؤ • ويشترك هذان الالهان أيضا فى القضاء واقامة ميزان العدالة •

ويبدو ادد فى احدى صوره مرتديا ثوبا قصيرا ، وعلى جانبى رأسه قرنان ، وهو واقف فوق ثور وممسك بسلاح البرق فى يده اليسرى • ولكن قد يختلف شكل الثوب باختلاف الأزياء فى العصــور المختلفة • فهو يرتدى أحيانا الثوب الاشورى الطويل المحـلى بالورود • وقد تتغير مطيته ، فالثور يحل محــله أحيـانا حيوان أو حيوانان من الحيـــوانات الاسطورية • ولكن لا يتغير سلاحه ، فهو البرق دائما ، فردا أو مزدوجا ، وفى يد واحدة أو فى كلتا اليدين • وقد يرمز الى أدد بالبرق مرتكزا على ثور ، أو بالبرق وحده • وليس الثور مطية أدد فحسب ، ولكنه صورة مجسدة له أيضـا ، ومن هنـــا سمى أدد « الثور ذا القرنين » و « ثور السموات والأرض الكبير » •

وزوجته هى شــلا Shala ، وهى فى الاصل الالهة الحورية شلش (بفتحتين أو بفتحة فضمة) ، وقد ضمت الى آلهة بابل فى عهد الأسرة البابلية الأولى • وهى أم جرو Girru الهة النار •

وقد أدرك أهل الرافدين دون عناء أن الههم أدد هو هدد الارامى الذى يتخذ نفس الاسم ويتحلى بنفس الصفات • وكانت عبادة هدد شائعة فى سوريا القديمة ولا سيما لدى الأراميين المقيمين فى حلب ودمشــق ولبنان وسمأل ، ولدى أهل أوجاريت •

انظر أ . دورم ، ص ٩٦ ــ ١٠٢ و ١٢٦ ــ ١٢٨ •

(٢٥) نسكو هو الذى يحرق القرابين المقدمة فى الطقوس الدينية، ويحول البخور الى دخان تستطيبه أنوف الآلهة • وهو رسول sukkal الالهة ، فهو يتوسط ، عند تقديم القرابين ، بيْن الانسان والاله ، أى بين

الأرض والسماء . وقد قلنا فيمــا مضى انه يعتبر فى بعض الأحيان ابنا لاله القمر سين . ويرمز اليه بمصباح .

انظر أ . دورم ، ص ٥٩ و١١١ ـ ١١٢ و ١٣٢ .

(٢٦) تموز هو أشهر آلهة الخصب فى النبات . ويرد ذكره فى التوراة ، فى سفر حزقيال ٨ : ١٤ : « فجاء (الرب) بى (بالنبى حزقيال، فى احدى رؤاه) الى مدخل باب بيت الرب الذى من جهة الشمال ، واذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز » . فهذه اشارة الى أنه حينما كان حزقيال منفيا فى بابل (انظر الفصل السادس ، الهامش ٢٤) ، كانت تمارس عند معبد أورشليم طقوس البكاء على الاله تموز ، وهذا من آثار الدين البابلى التى نفذت الى يهود فلسطين بعد أن ساد سلطان بابل .

كان يحتفل بالبكاء على تموز كل عام ؛ فقد كانوا يعتقدون أنه ينزل الى أرلو ، العالم السفلى ، أرض الموتى ، كل خريف ، فيذبل النبات ، ولهذا يبكون عليه حتى يعود الى سطح الأرض مع مقدم الربيع ، فيزهر النبات من جديد .

وتموز هو أدونيس Adonis ، الشائع الذكر فى أساطير البحــر المتوسط . والاسم أدونيس سامى الأصل ، انظر الفصـــل الخامس ، الهامش ١٧ . وقد اشتهر تموز أيضا فى مصر نفســـها لشبهه بالاله أوزيريس . وكان أهل فريجيا Phrygia (فى آسيا الصغرى) يعبدون الها مماثلا هو أتيس Attis ، زوج الالهة كيبيلى Kybele « الام الكبرى » ، وهو شاب جميل ، قتله خنزير برى كما حدث للاله أدونيس ، ولكنه يقوم من الموت كما يقوم أدونيس . وقد اندمج الاله أتيس بعد ذلك فى مين Men ، اله القمر .

وتموز اسم سومرى الأصل ، وأصله فى السومرية هو دمو ـ زى ـ أبزو Dumu-zi-abzu « ابن أبسو الحق » ، ثم اختصر الاسم فصار دمو ـ زى « الابن الحق » . ومعنى أبسو ، كما مر ، « المياه العذبة » ، فكأن تموز ابن الأرض التى أخصبتها المياه العذبة .

وكان التقويم السومرى يشتمل على شـــــهر خاص بالاله دموزى يسمى باسمه ، وقد صار دءوزو Du'uzu أو دوزو Duzu فى التقويم الأكدى ، وهو شهر تموز لدى العبريين والأراميين والعرب . وكان الشهر الرابــع لدى الأكديين ثم العبريين ، وهو يوافق يوليـه من الشـــهور الافرنجية ، اذ كانت السنة عندهم تبدأ بشهر نيسان (= ابريل) .

ويرد ذكر تموز فى ملحمة جلجاميش (كما سيلى) ، ففى اللوحة السادسة من هـــذه الملحمة ، س ٤٦ ــ ٤٧ ، يقول جلجاميش لعشتر (وهو يعيرها بقصص غرامها الكثيرة المتسمة بالقسوة والخيانة) : « ان تموز ، حبيب شبابك ، كتبت (على الناس) بكاءه عاما بعـد عام » ٠ فهذه اشارة الى احتفال دينى سنوى يبكى الناس فيه تموز ، ذلك البكاء الذى نجده بعد ذلك عند معبد أورشليم (كما مر) ، وهو البـــكاء على أدونيس فى سوريا وفينيقيا ودنيا البحر المتوسط ٠

وقد وصلت الينا المـراثى التى كان ينشدها أهـل الرافدين عند نزول تموز الى عالم الموتى ٠ وفيها ينادونه « ياولدى » على نحو ما تندب الأم ابنها الفقيد ٠ ولقبه الغـــالب « حبيب عشتر » أو « حبيب ملـكة السـموات » ٠ويلقب كثيرا بالسيد ، وهو الأصـــل فى الاسـم أدون (أدونيس) الذى حل محل الاسم الأصلى (أى تموز) فى دنيا البحـر المتوسط ٠ ومن القابه أيضا « الراعى » و « ســـــيد موطن الراعى » و « سيد البستان»،وهى ألقاب تدل على صلته الوثيقة بالحقول والحيوان٠

انظرأ ٠ دورم ، ص ١١٥ ــ ١١٩ و ١٣٤ ــ ١٣٥ ، وأوتن ، ص ١١٨ ــ ١١٩ (عن الاله أتيس) ٠

(٢٧) مردك وأشور :

أ ــ مردك :

لم يبلغ اله من آلهة الشرق القديم ما بلغه مردك من شـــــيوع ونفوذ ٠ وقد ارتبط مصيره بمصير مدينة بابل التى لم تقتصر عظمتهـا على النواحى السياسية والعسكرية والاجتماعية ، وانما شملت الناحية الدينية أيضا ٠

شغل أهل المدينة بتمجيد الههـم القومى منذ بداية الالف الثانى قبل الميلاد ، وساءهم فى هذا الكهنة ٠ وكان معبد مردك فيها ، واسمه اسجئل E-sag-il « البيت العالى الرأس » ، مركزا تشع منه علوم الدين والسحر ٠ وكان لهذا المعبد زقورة (ziqquratu برج المعبـــد) اسمها اتمنأنكى E-temen-an-ki « البيت الذى أساسه السماء والأرض » ، تتكون من سبع طوابق ضخمة ، ويبلغ ارتفاعها ٩١ مترا ،

وكانت قاعدتها مربعة الجوانب يبلغ طول ضلعها ٩١ر٥ متر . ولعلهـــا برج بابل المذكور فى التوراة (*) .

كان الاله يشهد الأحداث الداخلية والخارجية التى تتعاور بابل ، ويرأس الاحتفالات بالأعياد ، ويسير على رأس الجيوش فينتصر أو ينهزم. ويدل على الصلة الوثيقة بين مردك ومدينته قول النبى ارميا عند سقوط بابل (٥٠ : ٢) : « قولوا أخذت بابل ، خزى بيل ، تضعضع مرودخ »؛ فالاله شارك المدينة فى مصيرها التعس . وفى نفس السفر (٥١ : ٤٤) يقول الرب : « وأعاقب بيل فى بابل .. ويسقط سور بابل أيضا (**) ».

وتصف لنا مقدمة قانون حمورابى كيف وصـــل مردك الى مكانته العليا فى الامبراطورية البابلية ، وذلك حيث تقول ان أنم (اله السماء) وانليل (اله الأرض) قررا لمردك الابن البـكر للاله انكى (أوايا ، اله الماء) السيادة على الناس جميعا ، وجعلاه عظيما بين الاجيجى Igig (آلهة السماء) ، ثم جعلا لمدينة بابل السيادة فى العالم ، وأقاما لمردك فيها ملكا دائما له أسس راسخة رسوخ السماء والأرض . وفى قصيدة خلق الكون (انوما ايلش) ، اللوحة الرابعة ، س ١٤ يقول آلهة السماء لمردك : «لقد أعطيناك الملك على العالم بأسره » .

ولما كان مردك ابن انكى البكر فقد ورث عنه العلم والسحر ، وصار مثله المعوذ بين الالهة (انظر الهامش ٢٢) ، فهو « السيد الذى أحيا ، بتعويذته الطاهرة ، الآلهة الموتى » (قصيدة الخلق ، اللوحة السادسة ، س ١٥٤) ، و « الذى أهلك ، بتعويذته الطاهرة ، الأشرار جميعا » ، و « الذى يحيا بتعويذته الميت ويصح المريض » . والساحر ، حين يزاول السحر ، انما يعمل باسم مردك ، كما يعمل باسم أبيه ايا . وفى الأمور المستعصية يلجأ الاله الابن الى الاله الأب طلبا للمعونة . وكما كان ايا

(*) تقول التوراة (سفر التكوين ١١ : ١ ـ ٩) انه برج يبلغ عنان السماء ، كان بنو نوح يبنونه فى أرض شنعار (بابل) هومدينة ليخلدوا اسمهم على الأرض ، فبلبل الرب لسانهم حتى لا يفهم بعضهم لسان بعض بعد أن كانوا يتكلمون لغـــة واحدة ، وبدد شملهم فى مشارق الارض ومغاربها ، فكفوا عن بناء المدينة ، ولذلك سميت بابل .

(**) بيل « السيد » (البعل) ، عن البابلية (belu) ، وهـــو لقب لمرودخ (مردك) . وورد ذكر بيل أيضا فى سفر اشعيا ٤٦ : ١ « قد جثا بيل ، انحنى نبو ». (الاله نبو Nabu هو ابن الاله مردك ، وكان يعبد خاصة فى مدينة بورسبا Borsippa (= برس نمرود الآن) غربى بابل) .

اله الحكمة والذكاء والفهم ، كان ابنه مردك « أحـــكم الحكماء ، والخبير بين الآلهة » ٠

وتعدد قصيدة الخلق (من اللوحة السادسة س ١٢١ حتى آخر اللوحة السابعة) خمسين اسما لمردك اعلنتها الهة الســـماء ، ومع كل اسم تفسيره الذى يبرز صفة من صـــفات الاله ٠ وأول هذه الاســماء « مردك كما سماه أن أبوه (أى جده) منذ ميلاده » (اللوحة السادسة ، س ١٢٤) ٠ وآخرها « سيد البـــلاد » ، وهو لقب انليـــل كبير آلهة السومريين (انظر الهـامش ٢١) ؛ وقد خلعه انليل نفســـه على مردك « لأنه خلق الفضاء وكون الارض الثابتة » (اللوحة السابعة ، ص ١٣٥ ــ ١٣٦) ؛ ومعنى هذا أن انليل تنازل لمردك عن سلطانه ووظائفه ٠ وعندما سمع ايا ، أبو مردك ، هـــذه الأسماء الخمسين ، فرح قلبه ، وخلع على مردك (فضلا عنها) اســمه هو أى ايا ، قائلا : « انه حقا مثلى ؛ ليـكن اسمه ايا ، ليشرف على جميـع طقوسى ، ولينفذ تعليماتى » (اللوحـة السابعة ، س ١٤٠ ــ ١٤٢) ٠ وفى ختام اللوحة السابعة (س ١٤٣ ــ ١٤٤) تخلع آلهة السماء على مردك لقب « الخمسين » (خنشا) أى صاحب الأسماء الخمسين ، وهذا اللقب هو أيضا من أسماء انليل فى الأصل ٠

ويرى أ ٠ دورم (ص ١٤٣) فى نسبة هذه الأوصاف جميعا الى اله واحد اتجاها الى التوحيد ٠ وهو يجد هذا الاتجاه أيضا فى عصر الدولة البابلية المتأخرة (الدولة الكلدانية) ، اذ صارت الآلهة المختلفة مجرد جوانب من شخص مردك العظيم ؛ فنرجل هو مردك ، اله الحرب ، وانليل هو مردك ، اله السيادة والفصل فى الأمور ؛ ونبو (السابق الذكر) هو مردك ، اله الحظ ، وسين هو مردك ، منير الليل ، وشمش هو مردك ، اله العـدل ، وأدد هو مردك ، اله المطر الخ ٠ فكمـا تركزت فى عشتر الالهات جميعا ، استوعب مردك فى ذاته الآلهة كلهم ٠ ويقول أشـور بانيبال فى ترنيمة لمردك انه يجمع بين عظمة أن وعظمـة انليل وعظمة ايا ، وهكذا تتحد فى شخص مردك الآلهة الثلاثة التى تهيمن على السماء والأرض والماء ٠ ولقب « السيد » الذى يخلع على مردك يدل على أنه سيد الآلهة والبشر ، ويجعله نظيرا للاله انليل الذى يلقب عادة بهذا اللقب ٠

والاله مردك يمثله فى السماء كوكب المشترى ، واسمه عندما يبلغ التمام نيبر Nebiru (ومعناه اللغوى معبر ، من العبور) ٠ وهـذا الاسم من أسماء مردك الخمسين السابقة الذكر ٠ تقول قصيدة الخلق (اللوحة السابعة ، س ١٢٤ ــ ١٢٦) : « ليمسك نيبر بمعابر السماء والأرض ٠

وعلى الذين يعجزون عن العبور فى السماء والأرض أن يسألوه دا ما · ان نيبر هو الكوكب الذى يسطع فى السموات » .

وقد وردت الينا صورة لمردك يبدو فيها وقد لبس تاجا عاليا أسطوانيا ، محلى بالزهور ، يبرز منه بعض الريش · وله لحية ، وشعره مرسل فى خصل خلف الرأس · وثوبه يصل الى قدميه ، وقد تناثرت عليه صور نجوم داخل دوائر · ويده اليسرى موضوعة على صدره ، ممسكة بحلقة وعصا رمزا للسطة · ويده اليمنى مدلاة الى جانبه ، وقد أمسكت بهراوة · وتقوم على حراسته « الأفعى الحمراء » mushrushshu (مشرش) ، ولها رأس صل ذى قرنين ، وجسم مغطى بالفلوس ، وذنب عقرب ، وبرثنا أسد من أمام ، ومخلبا نسر من خلف ، أى أن قوى مملكة الحيوان من ذوات الأربع والطيور والأسماك والزواحف مركزة فى كائن واحد يخدم الاله فى صراعه ضد قوى الشر ·

ويكتفى أحيانا للدلالة على مردك برسم شعاره أو عرشه أو حيوانه· وشعاره هو المجرفة التى تستعمل فى الحقل marru (مر) ، ومن هنا يبدو أنه اله زراعى ؛ ولاغرو فهو «الذى يوفر أماكن الرعى والشرب» (قصيدة الخلق ، اللوحة السادسة ، س ١٢٥) · وقد رأينا أن الهراوة من أسلحته ، وله أسلحة أخرى تذكرها قصيدة الخلق (اللوحة الرابعة، س ٣٥ وما بعده) كما سيلى ؛ ولكنه لا يستعمل هذه الأسلحة الا لحماية الأرض والزرع من الطوفان الذى ترمز اليه الالهة تهامة Tiamat (كما سيلى) ·

وزوجة مردك هى الالهة صربانيتم Sarpanitum ، والمعنى اللغوى لهذا الاسم هو « الفضية ، اللامعة كالفضة » · وينادونها فى الطقوس « يا سيدتى » beltiya ، كما ينادونه « يا سيدى » beli

وكان مردك وزوجه يبجلان حيثما تعلو مكانة بابل · وعندما فتح ملوك أشور أرض بابل أبدوا ولاءهم لآلهتها ، وفى مقدمتها مردك وزوجه· وفى عصر الدولة البابلية المتأخرة بلغ مردك وزوجه ذروة مجدهما · وبعد أن فتح كورش الفارسى بابل بقيت لمردك وابنه نبو مكانتهما ، بل ظلا موضع الاجلال بعد ذلك أيام السلوقيين سواء فى الحياة الخاصة أو الاحتفالات الرسمية ·

انظر ١ · دورم ، ص ١٣٩ ـ ١٥٦ و ١٦٨ ـ ١٧٠ ؛ وهايدل (٢) ، ص ٦٠ ، الهامش ١٥١ ؛ و (عن 'تمنأنكى) شموكل ص ٣٢٣ ولويد ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ·

ب ـ أشور :

أشور (بتشديد الشين أو تخفيفها) هو الاله القومى للأشوريين وكبير آلهتهم حتى نهاية امبراطوريتهم (وكانوا ينطقون اسمه أسور ، بسين مشددة) • وفى النسخة الأشورية من قصيدة الخلق (*) نجده يحل محل الاله البابلى مردك ، فقد أراد الأشوريون أن يكون الههم ، لا اله البابليين ، هو قاهر تهامة وخالق الكون • فكما حل مردك لدى البابليين محل انليل ، كبير آلهة السومريين ، كما رأينا ، حل الاله أشور لدى الأشوريين محل مردك البابلى • وهكذا كان الدين عونا للسياسة ، وصدى لمطامح المدن والشعوب والملوك •

وكان معبد الاله أشور فى مدينة أشور يسمى اشرا **E-shar-ra** ، يقيم فيه الاله مع زوجه ننليل « ملكة اشرا » ، وننليل فى الأصل زوج انليل (انظر الهامش ٢١) ، فجعلها الأشوريون زوجا لالههم أيضا • وكان لاشور معبد آخر خارج المدينة يسمى أكيتو **Akitu** •

ويبدو أشور فى احدى صوره لابسا قلنسوة طويلة لها قرنان ، وفى يده اليسرى العصا والحلقة شعارا السلطة ، وفى يده اليمنى الهراوة وهو واقف على حيوانين خرافيين احدهما « الأفعى الحمراء » (حيوان مردك) ، والثانى أسد ذو قرنين •

ومن ألقابه « الجبل الكبير » ، وهو فى الأصل لقب لانليل (انظر الهامش ٢١) ، فالأشوريون أضفوا على الههم القومى صفات الاله السومرى القديم مقلدين فى ذلك البابليين . وأشور خالق الآلهة ومنجبها، وسيدها وملكها • ومنه يستمد ملوك الأرض الصولجان والتاج والعرش ، شأنه فى هذا شأن الاله أن (أنظر الهامش ٢٠) • وهو « ملك الآلهة الرحيم » • وهو يرأس فى معبده اجتماع الآلهة التى تقرر أقدار البشر •

ومن الطبيعى أن تنعكس نزعة الأشوريين الحربية فى فكرتهم عن الههم القومى فأعداء الملك والشعب هم أعداء الاله • وبأمر الاله يخرج ملوك أشور الى الحرب ، وبقدرته وعونه يكتب لهم النصر • ومنه يستمد الملك الأسلحة التى تحقق النصر فى المعركة • واليه يساق المغلوبون

(*) عثر على هذه النسخة فى مدينة اشور ، منبت الامبراطورية الأشورية ، وهى على الضفة اليمنى لنهر دجلة الى الشمال من مصب فرعه الزاب الصغير . ولاتزال اطلالها قائمة هناك فى موقع يسمى قلعة شرقاط •

خاضعين ، لا القواد والجند فحسب بل آلهتهم المقهورة أيضا ، اذ يؤتى بتماثيلها الى معبده .

انظر ١ . دورم ، ص ١٥٦ ـ ١٦٤ و١٧١ ـ ١٧٣ .

(٢٨) أســكو asakku (بالسين) أو (قليلا) أشكو (بالشين) كلمة بابلية أصلها سومرى تدل على : (١) شيطان من شياطين الأمراض، (ب) المرض الذى ينقله (فون سودن (٢) ، ص ٧٣ ب) .

(٢٩) آشب « المعوذ » من مادة وشف فى الأكدية ، ومعناها «عوذ»، ومنها أيضا شبت (بكسر فسكون) « تعويذة » بحذف فاء الكلمة مثل عدة من وعد .

ويسمى الكاهن المعوذ أيضا مشمش (بفتح فسكون ففتح فتشديد) ، ولكن الاسم الأول (آشب) سامى ، والثانى منقول عن السومرية .

ويرى مورجنشترن Morgenstern أن المشمش والآشب كانا ينتميان الى طبّقة واحدة من الكهنة ، ولـكن كان المشمش دون الآشب رتبة . ويعترض شرانك (ص ١ ـ ٢) على هــذا الرأى بأن الآشــب والمشمش لفظان مختلفان لمدلول واحد ، وأن لفظة الآشب الأكدية ترجمة للكلمة السومرية مش ـ مش .

والآشب ، حين يقوم بالتعويذ ، انما ينوب عن الاله ايا ، اله السحر، وابنه البكر الاله مردك (انظر الهامشين ٢٢ و ٢٧ أ) . ولهــذا كان الآشب يسمى نفسه « رجل ايا » و « عبد ايا » و « رسول ايا ومردك » و « الرسول الذى يأتى الى حضرة ايا » . وكانت مدينة اريدو الموطن القديم لعبادة أيا ، ولهذا كان يقال ان الآشب ولد فى هذه المدينة وانه « مطهر عبادة اريدو » . والآشب ليس رسول ايا فحسب ، وانما هو متحد معه ، قد حل ايا فيه . ولهذا يقول الآشب عن الهه ايا فى احدى التعاويذ :

وضع تعويذته الطاهرة فى تعويذتى
وضع فمه الطاهر فى فمى
وضع لعابه الطاهر فى لعابى
وضع بركته الطاهرة فى بركتى

ويقول الآشب فى تعويذة أخرى :

انظر الى يا ايا ، يا ملك المياه العميقة
أنا الآشب عبدك

تعال الى يمينى وأسرع الى شمالى
ضع تعويذتك الطاهرة فى تعويذتى
ضع فمك الطاهر فى فمى
اجعل كلامى الطاهر طيبا
اجعل كلمة فمى شافية
مر بأن تكون طقوسى طاهرة
كن الشفاء حيثما ذهبت
وليحل الشفاء بمن ألمسه

وحلول الاله ايا فى الكاهن (الآشب) يقابله ارتباط الشيطان بالمريض (الذى يعالجه الكاهن بالتعاويذ) · ولهذا يقول الآشب فى احدى تعاويذه مخاطبا الشيطان :

لاتقترب من الرجل (المريض) ، ابن الهه ، ولا تمل اليه
لا تضع رأسك فوق رأسه
لاتضع يدك فوق يده
لا تضع قدمك فوق قدمه
لا تلمسه بيدك
لا تلفت عنقك نحوه
لا ترفع عينك اليه
لا تنظر خلفك
لا تلفظ بشىء عنه
لا تدخل البيت

والشيطان لا يكتفى بالتسلط على المريض ، ولكنه يلازمه طول حياته ، ولهذا يقول الآشب فى ختام احدى تعاويذه مخاطبا الشيطان :

اخرج من وسط البيت
لا تقترب من الرجل (المريض) ، ابن الهه ، ولا تمل اليه
لا تجلس معه فوق كرسيه
لا تسترح فوق سريره
لا تصعد معه الى سطح بيته
لا تدخل معه الى بيته

انظر شرانك ، ص ١ ـ ٢ و ١٤ ـ ١٦ و ١٨ ـ ٢٠ ، و١ · دورم ص ٣٣ ـ ٣٤ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٧ · وانظر الهامش التالى ·

(٣٠) بارو « الكاهن المتنبىء » (فى البابلية والأشورية المحدثة) اسم فاعل من وزن المجرد من مادة برى فى الاكدية ، ومعناها « رأى ، نظر » (فون سودن (٢) ، ص ١٠٩ — ١١٠) ٠

ويلاحظ شرانك (ص ٤ — ٥) أن الـكاهن المتنبىء أعلى رتبة من الكاهن المعوذ (أنظر الهامش السابق) ، فالكاهن المتنبىء يجب أن يكون من أصل شريف ونسب قديم ، وأن يكون آباؤه وأجداده من الكهان ، وهى أمور لم تكن تشترط فى الكاهن المعوذ ، ولا غرو فكثرة الحاجة الى التعاويذ فى الحياة اليومية زادت الحاجة الى الكهنة المعوذين ، فلم تشترط فيهم شروط تحد من عددهم ، ولهذا كانوا أكثر عددا من أية طبقة أخرى من الكهنة ٠

(٣١) كلو (فى البابلية والأشورية المحدثة) علم على الكاهن الذى ينشد المراثى (فى المعبد) ، وهى كلمة سومرية الأصـل (فون سودن (٢) ، ص ٤٢٧ — ٤٢٨) ٠

(٣٢) كان الأكديون (الساميون) فى أول الأمر يضيفون ترجمة أكدية (سامية) الى النصوص السومرية القديمة للأساطير والملاحم ، ولما تلاشى العلم بالسومرية بعد ذلك ظهرت هذه الأساطير والملاحم فى ثوب سامى محض ٠ وعصر حمورابى خاصة هو الذى عجل بهذا التحول ٠ انظر ميسنر ، ص ٤٣ ٠

(٣٣) يمثل أبسو المياه العذبة ، وتمثل تهامة المياه الملحة (مياه البحر التى قد تسبب الطوفان) ٠ وفى العبرية تهوم « البحر المحيط » ٠

(٣٤) يلاحظ هايدل (٢) (ص ٣٨ ، الهامش ٧٨) أن هذا المنظر يذكر بسفر الخروج ١٩ : ١٦ — ١٨ ٠

(٣٥) المقصود بأبيه هنا وفى سـائر المواضع (مثل س ١٢٤ من اللوحة السادسة الذى سبق ذكره فى الهامش٢٧ أ) « جده » ، فان «أن» (اله السماء) هو جد مردك ، اذ هو أبو الاله انكى أو ايا (اله الماء) الذى أنجب مردك ٠

(٣٦) « العاصفة الدوارة » cyclone ترجمة المؤلف للكلمة البابلية abubu (أبوب) ، ولـكن الأصـح أن نترجمها بعاصـفة الفيضـان flood-storm كمـا فعـل سبايزر A.E. Speiser (فى كتاب برتشارد ص ٦٦ ب) أو فيضان المطر rain flood كما فعل هايدل (٢) (ص٣٨ ، مع الهـامش ٧٩) ٠ وانظر قاموس شـيكاغو الأشورى ، المجـلد الأول (١٩٦٤) ، ص ٧٩ — ٨٠ (المعنى ٣ ب) ٠

والكلمة البابلية ، كما يقول ينسن ، اصطلاح يطلق على الطوفان البابلي الذى أحدثه (كما يقال) شيئان : (١) عاصفة دفعت بماء البحر الى الأرض (٢) وفيضان من المطر · ويشير ينسن تأييدا لهذا المعنى الى كلمتي عباب وأباب فى العربية (فى القاموس : العباب معظم السيل وارتفاعه وكثرته أو موجه ، والاباب معظم السيل والموج) · ونضيف الى هذا كلمة أببي (بفتحتين فكسرة طويلة) فى الحبشية بمعنى الموج ·

(٣٧) الاله كنجو هو زوج تهامة بعد مقتل زوجها الأول أبسو ، وهو الذى حرضها على الثورة والتأهب للحرب ، فقتل (بعد مصرع تهامة) عقابا له (اللوحة السادسة س ٢٢ ـ ٣٢) ·

(٣٨) نرجل هو اله أرلو (العالم السفلي) · وقد وصل الى هذه المكانة بعد أن قهر ارشكيجل ، ملكة العالم السفلي ، فأشركته معها فى الحكم · ولكنها لم تكن زوجه الوحيدة · وهو فى الأصل اله الشمس ، ثم صار الها للعالم السفلي ، عالم الخراب ، لأن الشمس يمكن أن تكون عامل دمار بأشعتها المحرقة · ولا قبل لأحد بمقاومته ، لأن كل من كتب عليه الموت سيمضى ان عاجلا أو آجلا الى العالم السفلي ، الأرض التى لا عودة منها · وكانت مدينة كوثى (بألف مقصورة) (= تل ابراهيم الآن) ، فى الشمال الشرقى من مدينة بابل ، المركز الرئيسى لعبادته ، انظر سفر الملوك الثانى ١٧ : ٣٠ ·

انظر أ · دورم ، ص ٣٨ ـ ٤٤ و ٥١ ـ ٥٢ ·

وكانت تعبده الجالية الفينيقية فى ميناء بيرايوس **Piraeus** باليونان (فى القرن الثالث الميلادى ؟) بدليل النقش الفينيقى ـ اليونانى CIS رقم ١١٩ (= كوك ٣٥) · أنظر كوك ، ص ١٠١ ·

(٣٩) هى ارك (بسيجولين) المذكورة فى التوراة (سفر التكوين ١٠ : ١٠) ، وتسمى الآن وركا (الوركاء) ·

(٤٠) هذه ترجمة المؤلف ، وفيها بعض التصرف · والترجمة الحرفية هى « امنحنى ثمرك (**(in-bi-ka**) منحا » ، أى جامعنى جماعا · وترجمتا هايدل (١) ص٥٠ ، وسبايزر (فى كتاب برتشارد ، ص ٨٣ ، آخر العمود الثانى) أقرب الى الأصل ·

(٤١) « الحجارة الكريمة » ترجمة فيها تصرف لكلمة **elmeshu** (المشى) ، وهى اسم حجر كريم لا نعرفه على وجه الدقة · انظر قاموس شيكاغو الأشورى ، المجلد الرابع (١٩٥٨) ، ص ١٠٧ـ١٠٨ ، وفون سودن (٢) ، ص ٢٠٥ ·

(٤٢) « خلفى » زيادة منا على المؤلف نظير ar-ka-tu فى النص.

(٤٣) انظر الهامش ٢٦ .

(٤٤) الدرة (وهى كالسوط) تطابق dir-ra-ta فى النص لفظا ومعنى . انظر فوق سودن (٢) ، ص ١٧٣ .

(٤٥) اسم للاله سين ، اله القمر ، معناه « الطلوع المنير » . انظر أ. دورم ، ص ٥٦ . وقد مر بنا (فى الهامش ٢٣) أن الاكديين كانوا يعتبرون اله الشمس ابنا لاله القمر .

(٤٦) معنى الاسم Nın-igi-ku هو « الرب ذو العين النقية » أى الرب الحكيم . أنظر أ . دورم ، ص ٣٨و١٤٣ . وقد مر بنا (فى الهامش ٢٢) أن ايا كان اله الحكمة والذكاء والفهم (الى جانب ألقابه الأخرى) .

(٤٧) أصاب جاسترو M. Jastrow (كما يقول لانجدون ، ص ١٦٥ ، الهامش ٢) فى مقارنة عبارة « شر فوق شر » بالعبارة العبرية « هبل هباليم » (باطل الأباطيل) فى سفر الجامعة ١ : ٢ (باطل الأباطيل قال الجامعة ، باطل الأباطيل ، الكل باطل) .

(٤٨) الالهة المقصودة هنا هى عشتر .

(٤٩) يلاحظ لانجدون هنا (ص ١٦٨ ، الهامش ٣)أن الرجل الطيب الشقى ، صاحب هذه القصيدة، كان أميرا أو موظفا كبيرا فى مدينة نبور ، وعاش زمن الملك شلجى Shulgi (حوالى ٢٠٤٦ ــ ١٩٩٨ ق.م) أو زمن دولة ايسين ، وفيهما كانت عبادة الملوك المؤلهين قوية الشأن .

(٥٠) تمثل الصورة الملك حمورابى واقفا أمام الاله شمش ، اله العدل (انظر الهامش ٢٣ ب) ، يتلقى منه قانونه .

وقد كشف الأثريون الفرنسيون النصب بين أطلال سوسا Susa فى شتاء ١٩٠١ ــ ١٩٠٢ ، وحملوه الى متحف اللوفر فى باريس . ولعل الملك العيلامى الذى نقل النصب الى سوسا هو شترك ــ نخنته Shutruk Nakhkhunte ، وذلك فى بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد . وسوسا هى العاصمة القديمة لمملكة عيلام ، وتسميها التوراة شوشن .

انظر شموكل ص ١١١ ، وملاحظة ميك Th. J. Meek فى كتاب برتشارد (ص ١٦٣ ب ــ ١٦٤) .

(٥١) كشفتهما مديرية الآثار العراقية فى تل أبو حرمل (شدبم

Shaduppum قديما) بالقرب من بغداد · وكانت شدبم جزءا من مملكة اشننا التى كانت تشغل المنطقة الواقعة على مجرى ديالة الأدنى شرقى بغداد ، والتى ازدهرت فى الفترة الواقعة بين سقوط دولة أور الثالثة (حوالى ٢٠٠٠ ق·م) وقيام امبراطورية حمورابى · سميت المملكة باسم عاصمتها اشننا ، التى خربها حمورابى تخريبا تاما فلم يجر لها ذكر فى التاريخ بعد ذلك ، ويقوم مكانها الآن تل الأسمر ، حيث أجريت حفائر على يد المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو ·

وقانون بيلالاما مكتوب بالأكدية ·

انظر شموكل ص ٧٩ ـ ٨٠ و ١٠٤ و ١٠٩ ، وملاحظة جوتسه A. Goetze فى كتاب برتشارد (ص ١٦١ ، العمود ب ، الهامش الأول) ·

(٥٢) ملك ايسين ، حكم حوالى ١٨٧٥ ـ ١٨٦٥ ق·م· وقانونه فى الواقع متأخر عن قانون بيلالاما ببضع عشرات من السنين · انظر شموكل ص ٧٤ و ٨١ ، وملاحظة كرامر فى كتاب برتشارد (ص ١٥٩) ·

(٥٣) قارن هاتين المادتين بسفر الخروج ٢١ : ٢٣ ـ ٢٥ (وان حصلت أذية تعطى نفسا بنفس (٢٤) وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل (٢٥) وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض) ، وسفر الخروج ٢٤ : ١٩ ـ ٢٠ ، وسفر التثنية ١٩ : ٢١ · انظر ملاحظة ميك فى كتاب برتشارد ، ص ١٧٥ ، الهامش ١٣٤ ·

(٥٤) انظر الهامش ٢٧ أ ·

(٥٥) اسمها القديم امجر ـ انليل Imgur-Enlil ، ويقع مكانها الآن تل بلوات على بعد نحو خمسة عشر ميلا شرقى الموصل ، سمى التل باسم قرية بلوات المجاورة · وقد كشفت أبواب المدينة البرونزية عام ١٨٧٦ على يد هرمزد رسام ، وهى الآن بين نفائس المتحف البريطانى فى لندن · انظر لويد ، ص ١٨٣ ـ ١٨٨ ، وشموكل ، ص ٢٥٦ ·

(٥٦) تشبيها لها بمونا ليزا ، امرأة النبيل الفلورنسى فرانشسكو دل جيوكندو Francesco del Giocondo ، التى صورها ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) فى تحفته المشهورة باسم الجيوكندا ، وهى محفوظة الآن فى متحف اللوفر بباريس·

هوامش الفصل الخامس

(١) بلغ من غموض هذه النقوش أن أولبرايت يعتبر لغتها من اللغات السامية الشمالية الغربيـة ، بينمـا يعدها فان دن براندن van den Branden عربية قديمة تمثل مرحلة لغوية سـابقة على افتراق السامية الشمالية والسامية الجنوبية بعضهما عن بعض . انظر موسكاتى (٣) ، ص ٨ .

وانظر عن هذه النقوش عامة ج . ر . درايفر (١) ، ص ٩٥ ــ ٩٨ و ١٤٠ ــ ١٤٤ . وهو يعد لغتها من اللغـات السامية الشمالية الغربية ولا سيما المجموعة الكنعانية ، ويرى أن خطها قد يكون حلقة الوصل بين الخط الهيروغليفى المصرى والأبجدية الفينيقية .

وسيرد بعد صفحات قليلة (من النص لا الهوامش) حديث آخر عن هذه النقوش .

(٢) أى القمة (تبى) السوداء (قره) ، عن الزميل الدكتور أحمد السعيد .

(٣) ألالاخ على نهر العاصى ، واسمها اليوم عطشانة .

(٤) يسميه الجغرافيون اليونان المتأخرون Leukos Limen ، أى الميناء الأبيض (كالاسم العربى الحديث) .

(٥) سمى التل كذلك لكثرة ماينمو عليه من الشمر .

والشمر (بفتحتين) أو الشمار (بفتح الشين) بقلة من الفصـيلة

الخيمية اسمها العلمى Foeniculum capillaceum · واسمها فى العبرية المتـــأخرة شمار (بضم فتشديد) ، وفى الأراميـــة اليهودية شـــمارا (بضم فتشـــديد) ، وفى السريانية شمارا (بفتح فتشـــديد) أوشمارا (بضم فتشديد) ·

(٦) فى خلال عام واحد ، على يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم هانز باور Hans Bauer الألمانى وادوارد دورم Edouard Dhorme وشـــارل فيرولو Charles Virolleaud الفرنسيين · وقد شغل ثالثهم (فيرولو) بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩ ·

(٧) الرأى السائد أن المدينـــة خربت حوالى ١٢٠٠ ق·م (فى آخر العصر البرونزى) على يد «أقوام البحر» الذين جاءوا فى ذلك الوقت من سواحل الأناضول وجزر بحر ايجه،وأغاروا على الشرق الأدنى كله (كما سيلى عند الكلام عن تاريخ الكنعانيين) · أنظر بروكلمان فى Semitistik (ص ٤٣ أسفل) ، وجراى (٢) ، ص ١ ·

(٨) يقوم مكان جزر الآن تل جزر (فى الهضبة الساحلية جنوب اللد) ، كما أثبت كليرمون ـ جانو Ch. Clermont-Ganneau · انظر أولبرايت ، ص ٢٢٧ ·

(٩) يقوم مكان لاكيش الآن تل الدوير (بين غزة والخليل) ، كما أثبتت حفـــائر ســـتاركى J.L. Starckey (١٩٣٢ ـ ١٩٣٨) · انظر أولبرايت ، ص ٣٩ ـ ٤٠ و ٢٢٧ ·

(١٠) يقوم مكان شكيم الآن تل بلاطة ، شرقى مدينة نابلس ، كما أثبتت حفائر سلين E. Sellin الألمانى · وقد ظلت شكيم عامرة بالناس حتى حوالى ٦٧م ، حين دمرها على ما يبدو الامبراطور الرومانى فسباسيان Vaspasian ، وبعد ذلك بخمس سنوات بنى الامبراطور مدينة جديدة غربى شكيم سماها نيابوليس Neapolis «المدينة الجديدة» (= نابلس)· انظر أولبرايت ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ·

(١١) هذا هو أيضا رأى بروكلمان (فى Semitistik ، ص ٤٢) · ويرى بروكلمان أيضـــا (ص ٤٣) أن الخط الأوجاريتى أخذ مبـــدأ كتابة الحروف عن المصريين ، مع تقليد الخط المسمارى البابلى ·

(١٢) من الالقاب التى تخلعها نصوص أوجاريت على الاله ال « أبو البشر » و « خالق الخلق » و « أبو الســـنين » (أى الخـــالد) و « الملك »

و « الثور » (كناية عن القوة) و « الحكيم » و « الطيب » و « ذو الفؤاد » (أى الرحيم) و « الأشيب اللحية » (أى الشيخ) · وهو يسكن « عند منبع النهرين ووسط مجارى المحيطين » ، أى فى اطراف العالم بعيدا عن الآلهة والبشر ، ولكن هؤلاء جميعا يسعون اليه طلبا لمشورته كلما أزمهم أمر من الأمور · فاذا اختلف الآلهة مثلا فيمن يحق له منهم بناء معبد أو قصر (رمزا لسيادته عليهم جميعا) رجعوا الى الاله الأكبر ال ليختار من بينهم من يراه جديرا بالسيادة · وفى أسطورة كرت نجد الاله الاكبر يرشد الملك كرت الى الوسيلة التى يستطيع بها تكوين أسرة من جديد بعد ان قضت الكوارث على أهل بيته ، وعندما يمرض كرت بعد ذلك ، يسير به ال فى طريق الشفاء بعد أن استعصى علاجه على سائر الآلهة · وال أيضا هو الذى يرزق الملك دانيال بابنه البطل أقهت · انظر أيسفلت (٢)، ص ٧٧ ــ ٧٨ ، وديسو (١) ، ص ٣٦٠ ــ ٣٦١ ·

(١٣) تلقب نصوص أوجاريت الالهة أثرت بـ « السيدة أثرت (الهة) البحر » (ربت أثرت يم) و « الالهة » (الت) · وكما أن زوجها (ال) « خالق الخلق » ، فكذلك هى « خالقة الآلهة »، فاذا قيل «بنوأثرت» فالمقصود الآلهة · ولما كانت ذات كلمة مسموعة لدى زوجها ، فقد كان أصحاب الحاجات يلتمسون وساطتها لديه ، وكانت وساطتها دائما ناجحة· مثال ذلك أن الالهة عنت ، أخت بعل وامرأته ، سألتها التوسط لدى ال لكى يسمح لبعل ببناء قصر له يكون رمزا لسيادته ، فأذن له · انظر أيسفلت (٢) ، ص ٧٨ ــ ٧٩ ، وديسو (١) ، ص ٣٦٥ ·

(١٤) يلقب الاله ملقرت فى نقش فينيقى من مالطة (كوك رقم ٣٦ السطر الأول) ببعل (سيد) صور · وقد انتشرت عبادته من صور الى قبرص ومصر وقرطاجة وغيرها · ويجعله اليونان صنو الههم هرقل · انظر كوك ، ص ٧٤ ، وديسو (١) ، ص ٣٦٦ ·

(١٥) المقصود بالبكارة هنا نضارة الشباب والقدرة التى لا تنضب على الحمل والولادة ·

(١٦) انظر عن عنت وعشترت ديسو (١) ، ص ٣٦٥ ــ ٣٦٦ ، وأيسفلت (٢) ، ص ٧٩ ــ ٨٠ و ٨٣ ــ ٨٤ ·

(١٧) هى كلمة أدون التى نجدها فى العبرية والفينيقية والأوجاريتية · والأصل فى أدونيس هو أدونى « سيدى » ، فحرف فى اليونانية واللاتينية الى أدونيس · انظر أ · دورم ، ص ١١٥ و ١٣٤ ، وسميث (٢) ، ص ٦٨ والهامش الثانى من ص ٤١١ .

(١٨) كانت الشمس فى أوجاريت الهة (أنثى) كما كانت فى جنوب الجزيرة العربية ، بينما كانت الها (ذكرا) لدى بقية الشعوب السامية . وتلقبها نصوص أوجاريت بالسيدة (ربت) و « مصباح الآلهة » .

وتلقب نصوص أوجاريت القمر (يرح) بـ « منير السموات » ، ويتحدث أحد هذه النصوص (أسطورة نكل وكثرت) عن زواجه من الالهة نكل (التى مر ذكرها فى الفصل الرابع ، الهامش ٢٣ أ) .

انظر أيسفلت (٢) ، ص ٨٥ ــ ٨٦ ، وديسو (١) ، ص ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .

(١٩) العذراء فى الاوجاريتية «بتلت» ، وهى كلمة سامية مشتركة: فى العربية بتول وفى العبرية بتولا وفى الأرامية بتولتا وفى الأكدية بتلت (بفتح فضم فسكون فضم) .

(٢٠) « ابن ال » ، أى ابن ال كبير آلهة أوجاريت ، وهذه ترجمة ج.ر. درايفر (٢) ص ١١١ ، وايستليتنر (٢) ص ٢٠ ، وجراى (٢) ص ٥٦ ، لعبارة النص « بن الم » ، فتكون الميم هنا مؤكدة لاسم العلم ال . أما المؤلف فيترجم العبارة بالاله ، ومثله فى هدا جاستر (١) ص ٢٠٠ ، وجنزبرج (فى كتاب برتشارد ، ص ١٤٠) ، فتكون الميم فى رأيهم علامة الجمع ، وتكون العبارة بمعنى « ابن الآلهة » ، أى الاله . وقد تابعنا الترجمة الأولى لأن نصوص أوجاريت تدل على الاله عامة بكلمة « ال » وحدها .

(٢١) ترجم المؤلف السطور الثلاثة الأخيرة هكذا :

...Birds eat the pieces of him, Devour the bits of him

« تأكل الطيور قطعه ،

وتلتهم أجزاءه » . وفى ترجمتنا وضعنا كلمة « تفنى » مقابل « تكلى » فى النص الأوجاريتى، وهذه من مادة كلى التى تدل فى الأوجاريتية (والعبرية) على الانتهاء ، والفعل هنا على وزن فعل (بتشديد العين) ، فيكون معناه « أنهى ، أفنى » . ووضعنا فى ترجمتنا كلمة « العصافير » مقابل « نبر » فى النص الأوجاريتى ، وهى كلمة مشكلة ترجمها جاستر (١) (ص٢٠٠) بالعصافير ، وتابعه ج .ر. درايفر (٢) (ص ١١١ و ١٥٧) مشيرا الى كلمة نغار (بتشديد العين) بمعنى العصفور فى بعض اللهجات العربية الحديثة ، وترجمها أيستليتنر (٢) (ص٢٠) بالطيور، وترجمها جراى (٢) (ص ٥٧) بالوحوش (أى الحيوانات النافرة) ، وترجمها جنزبرج (فى كتاب برتشارد ، ص ١٤٠) على أنها فعل بمعنى تنقل flitting (ناظرا الى معنى الفعل نفر فى العربية) . واذا أدخلنا فى اعتبارنا مبدأ التوازى

في الشعر الأوجاريتي (وهو في هـذا كالشعر العبري parallelism القديم) لرجح عندنا ان تدل «نبر» (في السطر ٣٧) على معنى كمعنى «الطيور» (في السطر ٣٦) ، ولهذا أخذنا بترجمة جاستر ودرايفر ·

(٢٢) المؤلف ، في هذا التفسير، يتابع جاستر (١) ص ١٢٢ـ١٢٨· ويرى جراى (٢) (ص · ١ـ ١١) وأيسفلت (٢) (ص ٨٢ ـ ٨٣) أيضا أن الصراع بين بعل وموت يعـكس نمو النبات وذبوله في السنه الزراعيه بسوريا · ولكن جوردون (ص ٣ ـ ٥) ينكر هـذا التفسير ، ويقول ان نصوص أوجاريت لا تدلنـا على موت بعل وبعثـه كل عام ، وان السـنة الكنعانية لا تنقسم كما يظن الى موسم خصب وموسب جدب ، فليس في كنعان فصل جدب ، فالتين والعنب مثـلا ينضجان في أواخر الصيف ، فتتابع الفصول في السنة ، اذا كانت سنة طيبة في جملتها ، لم يكن يبعث الرعب في نفوس أهل كنعان، وانما كان هؤلاء يخشون السنوات العجاف، ولا سيما اذا تلاحقت ، والمجاعات تستمر سبع سـنوات في تصـور أهل أوجاريت (كما في قصة يوسف) ، وهي نتيجه لكوارث تحل بالاله بعل ، اله الخصوبة ، أو بغيره (كما حدث حين مرض الملك كرت ، ومات البطل أقهت) ·

ويتفق ج·ر· درايفر (٢) (ص · ٢ـ ٢١) مع جوردون في هـذا التفنيد · وهو يفسر قصة بعل تفسيرا آخر هو أنهـا صراع بين يم ـ نهر (اله البحار والأنهار) وعثتر (اله الينابيع والآبار) وبعل (اله المطر) على عرش النيابة عن كبير الآلهة ال ، وانتصار بعل في هذا الصراع معناه أن المطر هو المصدر الأول للماء (الذي يوزع بعد ذلك بين البحار والأنهار والينابيع والآبار) ، وأن بعل هو اله الخصوبة حقا ·

(٢٣) شحر وشـلم في النص الأوجاريتي ، وهما الهـان ساميان معروفان · ومن الجلي أن شحر هو السحر (بفتحتين) في العربية اشتقاقا ومعنى · أما شلم فمادتها ، مثل سلم العربية ، تدل على التمام والكمال ، ومعنى الغروب في اسم الاله شلم متطور عن معنى التمام ، فالغروب هو تمام النهار ، ومن هنـا قيل في الأكدية شلام شمش « تمـام (مسيرة) الشمس ، الغروب »· انظر جاستر (١) ، ص ٢٢٨، وج ·ر· درايفر(٢)، ص ٢٣ ، الهامش الرابع ، وجراى (٢) ، ص ١٢ ، الهامش الأول ·

(٢٤) الجزء الأول من القصـيدة (النص ٥٢ في طبعة جوردون) يشتمل على السطور ١ ـ ٢٢ ، والجزء الثاني يشتمل على السطور ٢٣ـ٧٦ جاستر (١) ، ص ٢٢٥) ·

(٢٥) انظر جاستر (١) ، ص ٢٢٥ - ٢٣٧ ٠

(٢٦) المقصود بابن ال ، حسب هذه الترجمة ، هو بعل نفسه ٠ وهذه ترجمة ج٠ر٠ درايفر (٢)، ص ٥٥ أيضا ، وانظر ملاحظته فى ص ٦ ، الهامش الثالث ٠ وعبارة النص هى « بن ال » ٠ وكلمة « بن » تحتمل أن تكون مفردا أو جمعا ، لأن نهاية الجمع المضاف لا تظهر فى الكتابة الاوجاريتية٠ وأغلب العلماء يعتبرون «بن» هنا جمعا ، ويترجمون العبارة بأبناء ال (كبير الآلهة) أو الآلهة (لأنهم أبناء ال) : جاستر (١) ص ٢٨٥ ، وايستليتنر (٢) ص ٧٢ ، وجراى (٢) ص ٧٩ ، وجنزبرج (فى كتاب برتشارد ، ص ١٥١) ٠

(٢٧) « حرى » اسم الاميرة ٠ و « العذراء » ترجمة « مثت » فى الأصل ، وهى كلمة غامضة ، والمذكر منها مث ، وترجمته « غلام » ٠ وقد اقترح جوردون (كما يقول ج٠ر٠ درايفر (٢) ، ص ١٦٠ ، الهامش ٣٣ ، وص ١٦١ ، الهامش الأول) هاتين الترجمتين على أساس ms « ابن ، غلام » و ms. t « فتاة ، عذراء » فى المصرية القديمة ، ولكن يستبعد درايفر الصلة بين الكلمتين الأوجاريتيتين والكلمتين المصريتين ، وان كان يأخذ بترجمة جوردون ٠ ويقول درايفر ان ڤان سلمس Van Selms قد يكون على حق فى مقارنة كلمة « مث » الأوجاريتية بالميث (بفتح الميم وتشديد الياء المكسورة) فى العربية أى اللين ٠

وترجمة مثت بالفتاة أو العذراء موضع اتفاق بين أكثر العلماء ، أوردها جوردون (ص ٧٣) ، وأخذ بها درايفر كما قلنا ، وجراى (١) ص ١٤ و ٥٣ ، و (٢) ص ١٠٥ ، وجنزبرج (فى كتاب برتشارد ، ص ١٤٤ ، العمود الأول ، آخر سطر) ٠

(٢٨) « مقلتاها » ترجمة عقه (عق + ضمير الغائبة) ٠ و « عق » كلمة غامضة اختلف فيها العلماء ، وقد أخذنا هنا بترجمة جنزبرج (فى كتاب برتشارد ، ص ١٤٤ ، العمود الثانى ، س ٤) ، ويوافقه جراى (١) ص ١٤ مع ملاحظته فى ص ٥٤ ، و (٢) ص ١٠٦ مع الهامش الثانى ٠ والمؤلف (موسكاتى) يترجمها بانسان العين ، مثل جوردون (ص ٧٠ و ٧٤) ٠ وهاتان الترجمتان متقاربتان ٠ ولكن أيستليتنر (٢) (ص ٩٢ و ٩٥) يترجمها بالشعر (بفتح الشين) ، ويشير ج٠ر٠ درايفر (٢) (ص ١٤٠ ، الهامش ١٣) ، تأييدا لهذا المعنى ، الى العقيقة فى العربية وهى شعر كل مولود (= العقيق) ، وانظر أيضا ص ٣٣ ، الهامش الثانى ، من كتاب درايفر ٠

(٢٩) « جفناها » ترجمة عبعبه (عبعب + ضمير الغائبة) • وعبعب في الأوجاريتية هي عفعف في العبرية •

(٣٠) « أقداح » ترجمة سب ، ويقابلها سف في العبرية وسب في الأكدية • انظر ج•ر• درايفر (٢) (ص ١٤٧ ، الهامش ٩) وجراى (١) (ص ٥٤) •

(٣١) « المرمر » ترجمة ظنية لكلمة «ترمل» ، وهي كلمة غير سامية كغيرها من أسماء الأحجار الكريمة والمعادن التى كانت تجلب من جبال الأناضول • انظر جراى (٢) ، ص ١٠٦ ، الهامش ٤ •

(٣٢) يقوم مكان حاصور الآن تل القدح على بعد أميال قليلة الى الجنوب الغربى من بحيرة الحولة ، كما اثبتت حفائر جارستانج J. Garstang عام ١٩٢٨ . انظر أولبرايت ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ •

هوامش الفصل السادس

(١) يرجع نصب مرنبتاح الى حوالى ١٢٢٠ ق٠م ، وهو الآن في المتحف المصرى بالقاهرة٠ ونقش مرنبتاح (ابن رمسيس الثانى) أنشودة انتصار ، وهو أقدم نقش ورد فيه ذكر « اسرائيل » ، ففى السطر السابع والعشرين منه يفتخر مرنبتاح بأنه فتح بعض المدن الفلسطينية وأهلك « اسرائيل » أيضا ٠ ولكن هل يقصد باسرائيل هنا القبائل الاسرائيلية الاثنتا عشرة كما ترد فى التوراة ، أو جماعة أقدم كانت تسمى اسرائيل ثم خلعت هذا الاسم لمناسبة تاريخية مجهولة على اسرائيل التى نعرفها ؟ يقول نوت (ص ١١) ان هذا سؤال لا نملك اجابة قاطعة عنه ٠ وانظر لودز (١) ، ص ١٨٦ ــ ١٨٨ ، وروبنسون ، ص ٧٥ ، وهول ، ص ٣٧٦ ، وشموكل ، ص ٢٣٥ ٠

(٢) كشف عن سيلون أثريون دنمركيون ، وتقوم مكانها الآن خربة سيلون ٠ وكانت فى منطقة قبيلة افرايم ٠ ولم تكن لها أهمية كبيرة قبل أن ينقل تابوت العهد الى هيكلها ، ولهذا لانعرف الأسباب التى دعت الى اختيارها لتكون مركزا دينيا للقبائل العبرية ٠ وقد بقى تابوت العهد فيها الى أن وقع فى يد الفلسطينيين الذين هدموا علىالأرجح المدينة والهيكل معا (حوالى ١٠٠٠ ق ٠ م) ٠ انظر نوت ، ص ٩٢ ــ ٩٣ و ١٥٣ ــ ١٥٤ ، وروبنسون ، ص ١٥٩ ــ ١٦١ ، وأولبرايت ، ص ٢٢٨ ٠

(٣) مثل نوت (فى كتابه المذكور فى قائمة مراجعنا ، الفصل الثانى من القسم الأول) ، ومن قبل فى كتابه Das System der zwölf Stämme Israels شتوتجارت ١٩٣٠ ٠

(٤) مجالس الأمفكتيون هي مجالس مرتبطة بالمعابد والاشراف على أمور العبادة فيهـا ، كان يشترك فيهـا أقوام من بلاد اليونان القـديمة متحدون فى أطار دينى سياسى ، فيرسلون اليها مندوبين عنهم للمناقشة فيما يعود عليهم بالنفع العام والفصل فى الخلافات التى قد تنشب بينهم · وكان أهمها المجلس الذى أقيم حول معبـــد الاله ديميتر Demeter فى أنثيلا Anthela بالقرب من ثرموبيلاى Thermopylai ، والذى ارتبط فيما بعد بمعبد الاله أبولو فى دلفى Delphi · وكان هـذا المجلس فى أقدم صوره يمثل اثنتى عشرة قبيلة (وهو نفس عدد القبائل العبرية !)·

وهـذا المعنى الاصـطلاحى متطـور عن معنى الجوار : فى اليونانية amphictuones أو amphictiones « الذين يعيشون متجاورين ، الجيران الأقربون » ·

انظر The Oxford Classical Dictionary مادة Amphictionies

(٥) هى افرايم (التى تنتســب اليهــا دبورة) وبنيــامين وماكير (= منشى) وزبولون ونفتــالى (التى ينتسب اليها باراق) ويساكر · وقد وقع العبء الاكبر من القتال على زبولون ونفتالى · انظر سفر القضاة ، الأصحاحين الرابع والخامس ·

(٦) هى قبيلة بنيامين · وقد نشأ شاءول فى جبعة ، وهى تل الفول الآن ، وفيها أجرى أولبرايت حفائر موفقة عامى ١٩٢٢ و ١٩٣٣ · انظر أولبرايت ، ص ١٢٠ ــ ١٢٢ و ٢٢٨ ، ونوت ، ص ١٥٦ ·

(٧) نجد وصفا مفصلا لثورة أبشالوم فى سفر صمويل الثانى ، الأصحاحات ١٥ ــ ١٩ ·

(٨) أو حوالى ٩٧٠ ــ ٩٣٣ ق·م ، حسب شموكل (ص ٢٩٤) ، وهنــاك آراء أخرى · ولا يزال العلمــاء مختلفين حتى اليوم حول تواريخ ملوك يهوذا واسرائيل ·

(٩) انظر بحثنا عن أوفير فى ترجمتنا لكتاب « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » لجورج فاضلو حورانى (القــاهرة ١٩٥٨) ، ص ١١٦ ــ ١٧٠ · وقد رجحنا فيــه أنهــا كانت فى الركن الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ·

(١٠) سفر الملوك الأول ١٠ : ٢٨ ــ ٢٩ ·

(١١) كشــفها جاى P.L.O. Guy الأمريــكى عام ١٩٢٨ فى تل المتسلم ، حيث كانت تقوم مجدو · انظر أولبرايت ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ ونوت ، ص ١٩٢ ·

(١٢) ترى بقايا عصيون جابر الآن في تل الخليفي غربي ميناء العقبة. وقد نشر جلوك خلال ١٩٣٨ ــ ١٩٤٠ نتائج الحفائر الهامه التي أجراها في تل الخليفي ، والتي كشفت عن بقايا مصانع لتكرير النحاس والحديد ترجع الى القرن العاشر وعصر سليمان . وقد أحسن اختيار مكان انشاء هذه المصانع ، فقد أقيمت في موضع تبلغ فيه الريح الهابة من الشمال خلال وادي العربة غاية قوتها ، وذلك لكي تؤجج النار اللازمة للتكرير . وكان يؤتى بالنحاس والحديد من مناجم في أطراف وادي العربة ، ويكرران في عصيون جابر وتصنع منهما الأدوات المعدنية المختلفة التي وجد الكثير منها في تل الخليفي . وتعد مصانع التكرير في عصيون جابر أعظم ما كشف من أمثالها بين آثار العالم القديم حتى الآن ، ولهذا نعجب اذ لا يذكر العهد القديم شيئا عنها . انظر أولبرايت ، ص ٤٤ و ١٢٧ ــ ١٢٨ ، ونوت ، ص ١٩٧ .

(١٣) يقوم مكان بيت ايل الآن بيتين (بكسر التاء) ، على بعد ١٦ كيلو مترا الى الشمال من القدس . وهي مدينة قديمة كانت قائمة في العصر البرونزي الوسيط والعصر البرونزي المتأخر ، وكانت تسمى في الأصل لوز (بضم اللام) (سفر التكوين ٢٨ : ١٩ وسفر القضاة ١ : ٢٣ الخ) ، ثم سميت باسم هيكل بيت ايل المشهور شرقيها (ويقوم مكانه الآن برج بيتين) . انظر نوت ، ص ٣٧ و ٩٢ و ١٣٨ ، وأولبرايت، ص ٢٢٨ .

(١٤) تقع دان في أقصى شمال فلسطين عند أحد منابع نهر الأردن، كما أن بئر سبع على الحد الجنوبي لكنعان ، ولهذا يقال في العهد القديم « من دان حتى بئر سبع » (القضاة ٢٠ : ١ ، وصمويل الأول ٣ : ٢٠ ، وصمويل الثاني ١٧ : ١١) أو « من بئر سبع حتى دان » (سفر أخبار الأيام الاول ٢١ : ٢) أي اسرائيل كلها . وكان اسم المدينة ليش (بفتح فكسر) قبل أن تهاجر اليها قبيلة دان الاسرائيلية وتسميها باسمها (القضاة ، الأصحاح ١٨ ، وروبنسون ، ص ١٥٦ ــ ١٥٧) . ويقوم مكانها الآن تل القاضي غربي بانياس .

(١٥) نجد قصة ذلك في سفر الملوك الاول ١٢ : ٢٦ ــ ٢٩ :

(٢٦) وقال يربعام في قلبه : الآن ترجع المملكة الى بيت داود .

(٢٧) ان صعد هذا الشعب ليقرب ذبائح في بيت الرب في أورشليم يرجع قلب هذا الشعب الى سيده ، الى رحبعام ملك يهوذا ، ويقتلني ويرجع الى رحبعام ملك يهوذا .

(٢٨) فاستشار الملك ، وعمل عجلي ذهب ، وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا الى أورشليم ، ها هى الهتك يا اسرائيل التى اصعدتك من أرض مصر ٠

(٢٩) ووضع واحدا فى بيت ايل ، وجعل الآخر فى دان ٠

(١٦) يسميه العهد القديم أيضا ، على قلة ، اليا ، وهى صيغة مختصرة من الياهو ٠ ومعنى الاسم « الله يهوه » ٠ وقد جاهد عبادة بعل، اله مدينة صور الفينيقية ٠ ويسميه القرآن الكريم الياس والياسين،وقد ذكره مرتين : فى سورة الأنعام ٨٥ (وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين) ، وفى سورة الصافات ١٢٣ ـ ١٣٢ (وان الياس لمن المرسلين ٠ اذ قال لقومه الا تتقون ٠ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين٠ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ٠ فكذبوه فانهم لمحضرون ٠ الا عباد الله المخلصين ٠ وتركنا عليه فى الآخرين ٠ سلام على ال ياسين ٠ انا كذلك نجزى المحسنين ٠ انه من عبادنا المؤمنين) ٠

(١٧) اليشاع هو تلميذ الياس وخليفته ٠ ومعنى الاسم فى العبرية « الله الخلاص » ٠ ويسميه القرآن الكريم اليسع (بهمزة وصل) ، وقد ذكره مرتين : فى سورة الأنعام ٨٦ (واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) ، وفى سورة ص ٤٨ (واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) ٠ ورسم الاسم فى المصحف بلام واحدة ٠ ولكن قرىء بوجهين : بتشديد اللام المفتوحة واسكان الياء (الليسع) ، وبتخفيف اللام وفتح الياء (اليسع) والقراءة الثانية أقرب الى النطق العبرى ٠

(١٨) أسس عمرى ، ملك اسرائيل (حوالى ٨٨٧ ـ ٨٧٧ ق٠م) ، مدينة السامرة لتكون عاصمة جديدة لملكه بدل مدينة ترصا (بكسر فسكون) التى لا نعرف مكانها بعد على وجه اليقين ، وذلك بعد أن ملك فى ترصا ست سنين ٠ وفى سفر الملوك الأول ١٦ : ٢٤ أن عمرى بناها على جبل اشتراه من رجل يدعى شمر ، ولذلك سماها شومرون (متابعة لاسم الرجل) ، ولكن لعل اسم المدينة مشتق مباشرة من مادة شمر العبرية التى تدل على معنى الحراسة ، فأن معناها « الحارسة » ، ولا عجب ، فهى فى موقع حصين ، وكانت مزودة بتحصينات قوية كشفت عنها حفائر أمريكية خلال ١٩٠٨ ـ ١٩١٠ ٠ وقد ظلت السامرة مقرا لملوك مملكة اسرائيل الشمالية حتى نهايتها عام ٧٢٢ ق٠م ٠ وقد وسعها هيرود بعد عام ٣٠ق٠م بسنوات قلائل ، وسماها (باليونانية) Sebaste «الجليلة» تكريما للامبراطور الرومانى أوغسطس Augustu « الجليل » ، ولاتزال

حتى اليـــوم تسمى سبصطية · انظر لودز (١) ، ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ ، وروبنسون ، ص ٢٩٠ و ٣٠٩ ، ونوت ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ و ٣٧١ ·

(١٩) ملك يهوآحاز من ٨١٥ الى ٧٩٨ ق·م تقريبا · وانظر أخباره فى سفر الملوك الثانى ١٣ : ١ ــ ٩ ·

(٢٠) يسمى أيضا عزيا وعزريا وعزرياهو · وانظر أخباره فى سفر أخبار الأيام الثانى ، الأصحاح ٢٦ ، وسفر الملوك الثانى ١٥ : ١ ــ ٧ ·

(٢١) ملك حزقياهو من ٧٢٧ الى ٦٩٩ ق·م· ويسمى أيضا حزقيا ويحزقياهو ويحزقيا · وكان صديقا لاشعيا النبى ·

(٢٢) انظر فى العبادات الوثنية الغريبة التى أدخلها منشى (٦٩٨ ــ ٦٤٣ ق·م): لودر (٢) ، ص ١٢٣ ــ ١٢٩ ، وروبنســـون ، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٤ · وقد تابعه فى ذلك ابنه أمون من بعده (٦٤٣ ــ ٦٤١ ق·م) · ويرى شمو كل(ص ٣٠٢) ان ما يقال عن شدة اضطهاده للأنبيـــاء يؤيده قول سفر الملوك الثـــانى (٢١ : ١٦) : « وسفك أيضا منشى دما بريئـــا كثـــيرا جدا حتى ملأ أورشليم من جانب الى جانب ··· » · ولـــكن يرجع لودر (٢) (ص ١٢٩) وروبنسون (ص ٤٠٤) أن المقصود بذلك قسوة منشى وظلمه عامه ، ويزيد روبنسون أنه لا يعقل أن يقدم منشى على قتل أنبياء يهوه ، بينما لا يزال يؤمن به (وان عمل على اضافة آلهة أخرى الى جانبه) ·

(٢٣) ملك يوشياهو من ٦٤٠ الى٦٠٩ ق·م · وقد استغل اضمحلال الأشوريين ، فاستقل بسلطانه عنهم، وأصلح جيشه وقواه، ووسع مملكته على حساب جيرانه ولا سيما ولاية السامرة ، وقام باصلاح دينى كبير عام ٦٢٢ق·م أزال به العبادات الأشورية وغيرها من العبادات الاجنبية، وأعاد دين يهوه الى مجـــده القـــديم ، وفرض على الشعب شريعـــة جديدة ليهوه (يتضمنها سفر التثنية ١٢ ــ ٢٦) · وعندما سقطت نينوى أمام الميديين والكلدانيين عام ٦١٢ ق·م ، زحف فرعون مصر نخو شمالا للاستيلاء على سوريا وفلسطين بعد أن زال عنهما سلطان أشور ، فتصدى له يوشياهو فى مجدو ، ولكن انهزم ملك يهوذا وقتل فى المعركة عام ٦٠٩ ق·م· انظر شموكل ، ص ٣٠٣ ·

(٢٤) كانت ثورة أورشليم الثانية فى عهد صدقياهو (٥٩٧ ــ ٥٨٧ ق·م) ، آخر ملوك يهوذا · أما الثورة الاولى فكانت عام ٦٠٢ ق·م فى عهد يهوياقيم (٦٠٨ ــ ٥٩٨ ق·م) ، ولكنه توفى قبل أن يحل به عقـــــاب نبوخذنصر ، فوقع العقـــاب على ابنـــه وخليفتـــه يهوياكين ، فقـــد زحف نبوخذنصر على القـــدس وحاصرها ، وكان يهوياكين فى الثامنة عشرة من

عمره ولم يمض عليه في العرش سوى ثلاثة شهور ، فآثر الاستسلام حتي ينقذ الشعب والدولة والمدينة المقدسة ، فنفاه نبوخذنصر الى بابل هو وعلية القوم (ومنهم النبي خزقيال) وأصحاب الحرف وأهل الحرب ، ونهب كنوز أورشليم في ٧/٦ ديسمبر ٥٩٨ ق٠م ، واقام صدقياهو ملكا على يهوذا مكان يهوياكين ٠ انظر سفر الملوك الثانى ، الاصحاح ٢٤ ، وشموكل ، ص ٣٠٤ ، ونوت ، ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦ ، وروبنسون ، ص ٤٣٥ ٠

(٢٥) ارميا أو ارمياء كما في المعرب للجواليقى ، ط دار الكتب ، ص ٢١ (ارمياء) و ٣٣ (ارميا) ٠ والاسم فى العبرية يرمياهو أو (مختصرا) يرميا « يرمى الرب » ٠ امتدت دعوته من السنة الثالثة عشرة لحكم الملك التقى يوشياهو بن آمون (٦٤٠ ــ ٦٠٩ ق٠م) الى سقوط أورشليم فى يد نبوخذنصر الكلدانى ونفى اليهود الى بابل عام ٥٨٦ ق٠م، وكان النبى قد تنبأ بسقوط المدينة على أنه ارادة الله (ارميا ٣٧:٦ــ١٠)٠

(٢٦) سترد لنا فيما بعد (الهامش ٤٩) ملاحظة عن المكابيين ٠

أما هيرود Herod ، وهو من أصل ادومي ، فقد ولاه الرومان ملك يهوذا عام ٣٧ ق٠م ، وكانت البلاد خاضعة للامبراطورية الرومانية منذ عام ٦٣ ق٠م (انظر الهامش ٤٩) ٠ وضمت الى مملكته مناطق أخرى بعد ذلك حتى كادت تشمل فلسطين كلها ٠

وكان هيرود صديقا للرومان ، يضع مصالحهم نصب عينيه ، ولكن اتسم حكمه بالعنف والارهاب ، فكرهه رعاياه اليهود ٠ وقد اشتهر (هو وأبناؤه من بعده) بحب البناء والتشييد ٠

وبعد وفاته عام ٤ ق٠م ، قسم ملكه حسب وصيته بين أبنائه الثلاثة أرخيلاوس Archelaus وفيليب وأنتيباس Antipas ، فكان من نصيب أرخيلاوس يهوذا والسامرة وادوم ، ومن نصيب فيليب وأنتيباس مناطق أخرى أقل أهمية ٠

حكم أرخيلاوس عشر سنين ، ولكنه كان قاسيا مستبدا ، فعزله الامبراطور الرومانى أوغسطس ، ونفاه الى بلاد الغال ٠ وتولى حكم يهوذا بعد ذلك حكام رومان procurators متعاقبون ، ولكن فى عام ٤١ م أسند الامبراطور الرومانى كلاوديوس Claudius ملك يهوذا والسامرة الى أجربا Agrippa (الأول) ، حفيد هيرود الكبير ، فحكم البلاد حتى وفاته عام ٤٤ م ٠

وبعد موت أجربا وضع الامبراطور الرومانى يهوذا من جديد تحت أمرة حكام رومان ، ولكنه بعد سنوات قلائل أسند الى أجربا الثانى (ابن

أجربا الاول) حكم بعض الارجاء ، كما جعل له سلطات ادارية معينة فيما يتعلق بمدينة القدس . ولم يحظ أجربا الثانى بحب اليهود أو احترامهم .

وفي هذه الأثناء كان الحكام الرومان المتعاقبون الذين تولوا حكم بقية البلاد (ومنها يهوذا) يواجهون صعوبات داخلية متعددة . وقد ساءت الأمور في عهد الحاكمين الرومانيين فيلكس Felix وفستوس Festus ، وبلغ السوء أقصاه في عهد فلوروس Florus الذى تولى الحكم عام ٦٤م ، وفي عهده اشتعلت الحرب بين اليهود والرومان ، تلك الحرب التى بدأت عام ٦٦م وانتهت عام ٧٠ م باستيلاء طيطوس Titus الرومانى على مدينة القدس وتدميرها هي ومعبدها تدميرا .

انظر أوسترلى (ص ٣٤٧ – ٣٤٩ والفصول ٢٣ – ٢٥ و ٢٧) ، ونوت (ص ٣٦٨ – ٣٨٣ و ٣٨٦ – ٣٩٦) ، وجنيبير (ص ٣٤ – ٤٢) .

(٢٧) نورد أولا نص الخروج ٣ : ١١ – ١٥ :

(١١) فقال موسى لله (الوهيم) : من أنا حتى أذهب الى فرعون ، وحتى أخرج بنى اسرائيل من مصر ؟

(١٢) فقال : انى سأكون معك ..

(١٣) فقال موسى لله : ها أنا آتى الى بنى اسرائيل ، وأقول لهم : اله آبائكم أرسلنى اليكم ، فاذا قالوا لى ما اسمه ، فماذا أقول لهم ؟

(١٤) فقال الله لموسى : « اهيه أشر اهيه » (بالعبرية) ، وقال : هكذا تقول لبنى اسرائيل : « اهيه » أرسلنى اليكم .

(١٥) وقال الله أيضا لموسى : هكذا تقول لبنى اسرائيل : يهوه اله آبائكم ، اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب ، أرسلنى اليكم . هذا اسمى الى الأبد ، وهذا ذكرى جيلا بعد جيل .

ففى الآية ١٤ ، موضع القصيد ، يسمى الله نفسه صراحة « اهيه » (الألف محركة بالسجول ، والهاء ساكنة ، والياء محركة بالسجول ، والهاء الأخيرة لاتنطق وانما تطول بها السجول السابقة) ، اذ يقول « اهيه أرسلنى اليكم » ، أما عبارة « اهيه أشر اهيه » فهى تفسير للمعنى الذى فهمه كاتب الآية من الاسم اهيه ، فقد فهمه على أنه مضارع المتكلم من الفعل الناقص هيى « كان » فى وزن المجرد ، فيكون المعنى (كما يرى بعض العلماء) للحال : « أكون الذى أكون » (= I AM THAT I AM فى الترجمة الانجليزية المعتمدة Authorised Version) ، أو (كما يرى آخرون) للاستقبال : « سأكون الذى سأكون » .

وهذا المعنى الثاني يربط الكلام بالآية ١٢ ، فيكون المقصود : « سأكون الذي وعدت أن أكونه » ، أي « سأكون معك كما وعدتك وأساعدك في اخراج بني اسرائيل من مصر » .

أما المعنى الأول (أكون الذي أكون) فقد انتقده بعض العلماء (مثل سمند ، ص ٢١ الهامش الأول ، وأوسترلى ـ روبنسون ، ص ١٥٣) بأنه ميتافيزيقي على نحو لا يتفق وعقلية العبريين القدامى . ولكن يقول هولتسنجر (ص ١١) انه لا يجب ان نأخذ الأمر على هذا النحو الميتافيزيقي ، بل يجب أن نفهم الأمر على أن الله ينسب الى نفسه صفة البقاء على ما هو عليه في أفكاره وقراراته ووعوده .

والآن ننتقل الى الاسم المألوف لرب العبريين « يهوه » (الوارد فى الآية ١٥) ، وكان ينطق على الأرجح (كما يقول لودز (١) ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ، وهولتسنجر ص ١٢) بفتح فسكون فسجول طويلة ، قبل أن ينطق أدوناى « سيدى » على سبيل التحرج ويحرك فى رسم التوراة بحركات أدوناى . فهذا الاسم اختلف فى تفسيره العلماء اختلافا واسع المدى لا مجال هنا للخوض فيه ، ولكن تكفينا فى هذا الصدد بعض الملاحظات :

(١) الآية ١٤ تعد أقدم محاولة لتفسير الاسم يهوه . فكاتبها يرى أن يهوه صيغة مضارع الغائب من الفعل هوى « كان » فى وزن المجرد ، فيكون معنى يهوه « يكون » كما أن معنى اهيه «أكون» ، ويكون يهوه اسم الله حين يتحدث عنه غيره كما أن اهيه اسم الله حين يتحدث هو عن نفسه .

وغنى عن القول أن كاتب الآية يعد الفعل هوى (فى يهوه) نظيرا للفعل هيى (فى اهيه) . وهوى بمعنى « كان » فى الأرامية كما هو معروف ، ولعل هوى الأصل فى هيى فى العبرية نفسها .

(٢) يرى بعض العلماء أن يهوه من هوى « كان » أيضا ، ولكن فى وزن أفعل (هفعيل) ، فيكون المعنى « يوجد » (بكسر الجيم) أى يخلق ، أى أن يهوه هو الخالق . ولكن انتقد سمند (ص ٢١ ، الهامش الأول) هذا الرأى من ناحيتين : ناحية شكلية هى أن وزن هفعيل لا يرد من هيى فى العبرية ، وناحية موضوعية هى أن فكرة خلق يهوه للعالم ليست قديمة ولا ترجع بأية حال من الأحوال الى الدين العبرى فى صورته الأولى .

(٣) يقول شتاده (٢) (ص ٤٢٩ ، الهامش الأول) ان الجذر الذى اشتق منه الاسم يهوه يبدو أنه هوى بمعنى سقط ، فيكون معنى يهوه

« المسقط » ، أى الذى يسقط ببروقه الأعداء والآثمين • (ولـكن يعقب شتاده نفسه بأنه لا يعلق على هذا الرأى قيمة ما) •

(٤) يرى فلهاوزن (١) (ص ٢٥ ، الهامش الاول) أن يهوه من هوى العربية التى منها الهواء ، فمعنـاه « يسرى فى الأهوية ، يهب » ، أى أنه اله العاصفة •

(٢٨) الكروبيم (١) فى العهـد القديم ليست ملائكة (٢) كما يقول المؤلف ، اذ ليس لها وظيفة الملائكة من حمل رسائل الله (ريم ، ص ١٧ ، العمود الأول) ، وانما هى طائفة من المخلوقات (٣) يذكر العهد القديم لها الوظائف التالية (٤) :

أولا : تظلل تابوت العهد بتمثالين لها : ففى سفر الخروج ٢٥ : ١٨ ــ ٢٢ (٥) من كلام الرب لموسى :

(١٨) وتصنع كروبين من ذهب ، تصنعهما صنعة خراطة على طرفى الغطاء (غطاء تابوت العهد) (٦) •

(١٩) فاصنع كروبا واحدا على الطرف من هنـا ، وكروبا آخر على الطرف من هناك ، من الغطاء تصنعون الكروبين على طرفيه •

(٢٠) ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما الى فوق ، مظللين الغطاء

---

(١) «كروبيم» فى العبرية جمع «كروب» •

(٢) « ملاكيم » فى العبرية ، من لأك التى تدل فى العبرية وغيرها على معنى أرسل •

(٣) فى العبرية «حيوت» (كائنات حية) ، جمع حيا (بتشديد الياء) •

(٤) نستبعد من بحثنا هذا حزقيال ٢٨ : ١٣ ــ ١٦ حيث يشبه ملك صور بكروب مظلل ، على جبل الله ، بين حجارة النار ، فى عدن جنة الله ، لان سياق هذه الايات مضطرب ، وقد اختلفت الآراء فى تفسيرها • ولعل لها علاقة بالوظيفتين الاولى والسادسة كما يرى بعض العلماء • انظر تشين (عمود ٧٤١ أسفل ــ ٧٤٢) وريم (ص ٢٧٠ ، العمود الاول) •

(٥) الآيات ١٠ ــ ١٧ من هذا الاصحاح تشتمل على وصف مفصل لتابوت العهد. وكان من خشب السنط ، طوله ذراعان ونصف ذراع ، وكل من عرضه وارتفاعه ذراع ونصف ذراع • (الذراع = قدم ونصف قدم تقريبا) •

(٦) يسمى غطاء تابوت العهد فى العبرية كبورت (بتشديد الباء) ، من مادة كفر التى تدل على التغطية فى رأى ، أو من الفعل كفر (عن الخطيئة) فى رأى آخر • وعلى أساس هذا الرأى الثانى ترجم لوثر الكلمة بـ Gnadenstuhl «مقعد الرحمة أو الاحسان» = mercy seat فى الترجمة الانجليزية المعتمدة • انظر جزنيوس ــ بول ، وقولتس ، ص ٤٦ •

بأجنحتهما (١) ، ووجهاهما كل نحو الآخر ، نحو الغطاء يكون وجهـــا الكروبين ٠

(٢١) وتجعل الغطاء على التابوت من فوق، وفى التابوت تضع العهد الذى أعطيه لك ٠

(٢٢) وأنا أجتمع بك هناك ، وأتكلم معك من فوق الغطاء ، من بين الكروبين اللذين على تابوت العهد ، بكل ما آمرك به لبنى اسرائيل ٠

فصنع موسى الكروبين كما أمر الرب (الخروج ٣٧ : ٧ ـ ٩) ٠ وفى يوم تدشين المذبح ، دخل موسى خيمه الاجتماع ليتحدث الى الرب ، فسمع « الصوت » يكلمه من فوق الغطاء الذى على تابوت الشهادة (٢) من بين الكروبين ، فكلمه (العدد ٧ : ٨٩) ٠

وعندما بنى سليمان هيكل أورشليم ، زود المحراب (« دبير » فى العبرية) بكروبين من خشب الزيتون غشاهما بذهب ٠ ففى سفر الملوك الأول ٦ : ٢٣ ـ ٢٨ :

(٢٣) وعمل فى المحراب كروبين من خشب الزيتون ، علو الواحد عشر أذرع ٠

(٢٤) وخمس أذرع جناح الكروب الواحد ، وخمس أذرع جنـاح الكروب الآخر ، عشر أذرع من طرف جناحه (هـذا) الى طرف جناحه (ذاك) ٠

(٢٥) وعشر أذرع الـكروب الآخر ، قيـاس واحد وشـكل واحد للكروبين ٠

(٢٦) علو الكروب الواحد عشر أذرع ، وكذلك الكروب الآخر ٠

(٢٧) وجعل الكروبين فى وسط البيت الداخلى ، وبسطوا أجنحة الكروبين ، فمس جناح أحدهما الحائط ، وجناح الكروب الآخر مس الحائط الآخر ، وكانت أجنحتهما فى وسط البيت ، يمس أحدهما الآخر

(٢٨) وغشى الكروبين بذهب ٠

ونجد قصة ذلك أيضا فى سفر أخبار الأيام الثانى ٣:١٠ ـ ١٣:

---

(١) فى رسالة بولس الرسول الى العبرانيين ٩ : ٥ : «وفوقه (فوق تابوت العهد) كروبا المجد مظللين الغطاء ... » ، و «كروبا المجد» اى الكروبان اللذان يكشفان عن مجد الله (رايل ، ص ٣٧٩ ، العمود الاول) ، ولكن ليست هذه فـكرة عبرية قديمـة كما سنرى ٠

(٢) «تابوت الشهادة» اسم آخر لتابوت العهد .

(١٠) وعمل سليمان فى بيت قدس الأقداس (١) كروبين صناعة نحت ، وغشاهما بالذهب ٠

(١١) وأجنحة الكروبين طولها عشرون ذراعا ، الجناح الواحد خمس أذرع يمس حائط البيت ، والجناح الآخر خمس أذرع يمس جناح الكروب الآخر ٠

(١٢) وجناح الكروب الآخر خمس أذرع يمس حائط البيت ، والجناح الآخر خمس أذرع يتصل بجناح الكروب الآخر ٠

(١٣) وأجنحة هذين الكروبين ممدودة عشرين ذراعا، وهما واقفان على أرجلهما ، ووجهاهما الى الداخل ٠

وكان داود قد أعطى ابنه سليمان حين نصبه وليا للعهد ذهبا يغشى به الكروبين حين يبنى هيكل أورشليم ٠ ففى سفر أخبار الأيام الأول ٢٨ : ١٨ أن داود أعطى سليمان ، بين ما اعطاه ، « ذهبا لمثال مركبة الكروبين الباسطين أجنحتهما المظللين تابوت عهد الرب » ٠ وكلمة « مركبة » هنا جديرة بالنظر ، فلعل فيها اشارة الى حمل الكروبيم عرش الرب فى سفر حزقيال كما سيلى (انظر يرمياس ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ ، وريم ، ص ٢٧١ ، العمود الثانى) ٠

وعندما فرغ سليمان من بناء الهيكل ، « أدخل الكهنة تابوت عهد الرب الى مكانه (٢) ، الى محراب البيت ، الى قدس الأقداس ، تحت جناحي الكروبين٠ وكان الكروبان باسطين أجنحتهما على موضع التابوت، وظلل الكروبان التابوت وعصويه (اللذين يحمل بهما) من فوق » (سفر الملوك الأول ٨ : ٦ ـ ٧ = سفر أخبار الأيام الثانى ٥ : ٧ ـ ٨)٠

وكان الرب ، كما رأينا ، يكلم موسى من فوق الغطاء الذى على تابوت العهد، من بين الكروبين اللذين يظللان تابوت العهد ، ولهذا سمى

---

(١) قدس الاقداس هو المحراب .

(٢) أختفى تابوت العهد من معبد أورشليم بعد سليمان اما بيد البلى ، واما فى احدى غارات النهب التى تعرض لها المعبد . وهو على أية حال لم يكن هناك زمن ارميا (٣ : ١٦) ، والطريقة التى يتكلم بها ارميا عنه توحى بأنه كان قد اختفى منذ زمن قليل (أبان النفى الاول عام ٥٩٨ ق٠م ؟) . ولايذكره حزقيال فى وصفه لمعبد أورشليم (فى المستقبل) ، كما انه لم يكن موجودا فى المعبد الثانى الذى بناه اليهود فى أورشليم بعد عودتهم من المنفى (عام ٥٣٨ ق٠م) . أنظر لودز (١) ، ص ٤٢٥ والهامش الاول ، وفولتس، ص ١١ ـ ١٢ .

الرب «الجالس بين الكروبين» («يوشيف هكروبيم» بالعبرية) (صمويل الاول ٤ : ٤ ، وصمويل الثـانى ٦ : ٢ ، وسفر أخبـــار الأيام الاول ١٣ : ٦ ، وسفر الملوك الثانى ١٩ : ١٥ = اشعيا ٣٧ : ١٦ ، والمزامير ٨٠ : ٢ و ٩٩ : ١) ٠ فالاشـارة فى هذه العبارة انما هى الى الكروبين اللذين يظللان التـابوت كمـا يرى ريم (ص ٢٦٨ ، العمود الثـانى) وجزنيوس ـ بول (متابعـا رالفس Rahlfs) ، لا الى كروبيم السماء (التى سيرد ذكرها) كما يظن شـولتس (ص ٥٦٩) وفولتس (ص ١٢ ٠ (١) ٠ ويدل على هذا صراحة نص الآيات الثلاث الأولى (٢) :

(أ) صمويل الأول٤ : ٤ : ٠٠٠ وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس بين الكروبين ٠

(ب) صمويل الثانى ٦ : ٢ : ٠٠٠ ليصعدوا من هناك تابوت الله الذى يدعى باسم رب الجنود الجالس بين الكروبين ٠

(ج) أخبار الأيام الأول ١٣ : ٦ : ٠٠٠ ليصعدوا من هناك تابوت الله الرب الجالس بين الكروبين ٠

***

ثانيا : تزين بصورها المنسوجة سـتائر الخيمـة التى كان موسى يتخذها هيكلا ، والحجـاب الذى كان يفصل فى تلك الخيمـة بين القدس وقدس الأقداس (حيث يوجد تابوت العهد) : ففى سفر الخروج ٢٦ :١، من كلام الرب لموسى : « وأما المسـكن فتصنعه من عشر ستائر من كتان رقيق مبروم ٠٠٠ ، بكروبيم تصنعها صنعة نساج حاذق » ٠ وفى الآية ٣١ من الأصحاح نفسه : « وتصنع حجابا ٠٠٠ ، تصنعه بكروبيم صنعة نساج حاذق » ٠

---

(١) مفهوم هذه العبارة ، فى رأى فولتس ، أن يهوه «الجالس على الكروبيم» فى السماء يتمثل فى تابوت العهد ، أى أن يهوه العظيم الجليل الذى تحف به الملائكة فى السماء حاضر ماثل فى التابوت .

(٢) يرى سمند (ص ٢٣ ، الهامش) ان عبارة «الجالس بين الكروبين» لم تكن فى هذه الآيات الثلاث فى الاصل ، وانما أضيفت اليها فيما بعد لتضعف المعنى الحسى الذى تدل به هذه الآيات على أن تابوت العهد هو مسكن يهوه ٠ ويرى تشين (العمود ٧٤٣ ، الهامش الاول) أيضا أن تلك العبارة مقحمة فى هذه الآيات الثلاث .

فصنع موسى المسكن والحجاب كما أمر الرب (الخروج ٣٦ : ٨ و ٣٥) (١) .

كذلك كانت صور الكروبيم المنسوجة تزين الحجاب في معبد سليمان (سفر أخبار الأيام الثاني ٣ : ١٤) .

**

ثالثا : تزين بصورها المحفورة جدران هيكل سليمان وبعض أجزائه وأوعيته . ففي سفر الملوك الأول ٦ : ٢٩ : « وحفر على جميع جدران البيت صورا محفورة لكروبيم ونخيل وأكاليل زهر من الداخل والخارج » .

وفي نفس الأصحاح ، الآية ٣٢ : « والمصراعان (مصراعا باب المحراب) من خشب الزيتون ، وحفر عليهما صورا محفورة لكروبيم ونخيل وأكاليل زهر ، وغشاهما بذهب ، ورصع الكروبيم والنخيل بذهب » ، والآية ٣٥ : « وحفر (على مصراعي مدخل الهيكل) كروبيم ونخيلا وأكاليل زهر ... » .

وفي نفس السفر ٧ : ٢٩ : « وعلى الحافات ... أسود وثيران وكروبيم .. ، ومن تحت الأسود والثيران قلائد زهور .. » . وفي نفس الأصحاح ، الآية ٣٦ : « وحفر .. كروبيم وأسودا ونخيلا .. » .

وفي سفر أخبار الأيام الثاني ٣ : ٧ : « وغشى البيت أخشابه وعتباته وحيطانه ومصاريعه بذهب ، وحفر كروبيم على الحيطان » .

**

(١) يكاد يجمع العلماء ، كما يقول فولتس (ص ٤١ ، الهامش الاول) ، على أن الوصف الدقيق المفصل الذى نجده لهيكل موسى (المسكن) فى سفر الخروج (الاصحاح ٢٥ ومابعده ، والاصحاح ٣٥ ومابعده) يرجع الى عصر متأخر كان أهله شديدى العناية بطقوس العبادة ، فقاسوا هيكل موسى على معبد سليمان ، اذ لايعقل أن يشغل موسى فى الصحراء بوضع هذه التفاصيل الدقيقة ، وان ينقل قومه انفسهم بمثل هذا الهيكل الكبير فى تجوالهم الشاق المحفوف بالمخاطر .

ويقول فولتس (ص ٧ ــ ٨) انه يجب علينا ، ونحن نقرأ سفر الخروج ، الا نخلط بين هيكل موسى وخيمة الاجتماع («أهل موعد» بالعبرية) ، فالهيكل كان فى وسط المحلة أو مضارب الخيام («محنى» بالعبرية) ، حيث ينزل قوم موسى ، بينما كانت خيمة الاجتماع خارج المحلة ، وهى الخيمة التى كان الرب يظهر فيها لموسى (الخروج ٣٣ : ٧ ــ ١١) .

رابعا : تزين بصورها المحفورة هيكل أورشليم (في المستقبل) كما رآه حزقيال (١) : ففي حزقيال ٤١ : ١٨ ــ ٢٠ :

(١٨) وعمل فيه (في الهيكل) كروبيم ونخيل ، بين كل كروب وكروب نخلة ، ولكل كروب وجهان •

(١٩) وجه انسان نحو نخلة من هنا ، ووجه شبل نحو نخلة من هناك ، عمل في كل البيت حواليه •

(٢٠) من الأرض الى ما فوق المدخل عمل كروبيم ونخيل ••
وفي الآية ٢٥ من الأصحاح نفسه : « وعمل عليها ، على مصاريع الهيكل ، كروبيم ونخيل كما عمل على الحيطان •• » •

***

خامسا : تحمل الرب أو عرشه : ففي سفر المزامير ١٨ : ١١ = صموئيل الثاني ٢٢: ١١ : « وركب (الرب) على كروب وطار ، ورفرف على أجنحة الريح »• (هل بين « ركب » و« كروب » تلاعب بالالفاظ ؟)•

وفي رؤيا لحزقيال رآها عند نهر كبر (٢) ، في السنة الخامسة من نفي الملك يهوياكين ، أي عام ٥٩٣ ق • م ، كان الرب يجلس على عرش يحمله اربعه مخلوقات (٣) («حيوت» بالعبرية) ، لكل منها أربعة اوجه وجه انسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ، ولكل منها أربعة أجنحة تحتها أيدي انسان • يقول حزقيال (١ : ٤ ــ ٢٨) :

(٤) ونظرت فاذا ريح عاصفة قادمة من الشمال ، سحابة عظيمة ونار

---

(١) رأى حزقيال (٤٠ : ١) هذه الرؤيا في السنة الخامسة والعشرين من نفي الملك يهوياكين ، اى عام ٥٧٣ ق•م•

وقد سبق أن لاحظنا ان حزقيال لايذكر تابوت العهد في وصفه لهيكل أورشليم . ومن الطبيعي اذن الا يذكر كروبي المحراب اللذين كانا يظللان التابوت في خيمة موسى وهيكل سليمان •

(٢) naru kabaru « النهر الكبير » في النصوص البابلية = شط النيل الآن : قناة متفرعة من نهر الفرات كانت تروى مدينة نبور في جنوب أرض الرافدين حيث كان يعيش حزقيال مع من نفوا معه من أورشليم عام ٥٩٨ ق•م•

(٣) عرف حزقيال فيما بعد (الأصحاح العاشر) ان هذه المخلوقات كروبيم •

متقدة ، وحولها بريق ؛ ومن وسطها (ظهر) مثل البرونز (١) ، من وسط النار (٢) .

(٥) ومن وسطها (ظهر) شبه أربعة مخلوقات ؛ وهذا منظرها : لها شبه بالانسان .

(٦) ولكل منها أربعة أوجه ؛ ولكل منها أربعة أجنحة .

(٧) وأرجلها أرجل مستقيمة ؛ وكف أقدامها ككف قدم عجل (٣) ، وهي متلألئة مثل النحاس المصقول .

(٨) وأيدى انسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة ؛ وكانت لأربعتها وجوهها وأجنحتها .

(٩) أجنحتها متصلة الواحد بالآخر ؛ ولا تدور (تلك المخلوقات) عند سيرها ، ولكن يسير كل منها في اتجاه وجهه .

(١٠) وشكل وجوهها : وجه انسان ، ووجه أسد عن يمين لأربعتها ، ووجه ثور عن شمال لأربعتها ، ووجه نسر لأربعتها .

---

(١) الكلمة العبرية حشمل (بفتح فسكون ففتح) : معدن براق ، وضعت له الترجمة السبعينية (اليونانية) والترجمة اللاتينية (الفلجاتا) كلمة electrum = electron وهي أسم خليط من الذهب والفضة . وللكلمة العبرية نظير في البابلية هو اشمرو (بامالة الهمزة أو كسرها أو فتحها ، وتسكين الشين ، وفتح الميم ، وضم الراء ضمة طويلة) ، وهو نوع من الفضة (فون سودن (٢) ، ص ٢٥٧ ، العمود الاول) ، وان كان قاموس شيكاغو الاشورى (المجلد الرابع ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨) يجعل النظير البابلي المش (بامالة الهمزة وتسكين اللام وامالة الميم وضم انشين) ، وهو حجر كريم شديد التلألؤ يكاد يكون أسطوريا .

وللكلمة العبرية نظير في المصرية القديمة هو (حسمن) «البرونز» ، ويقول ماكس ملر W. Max Müller (في قاموس جزنيوس ـ بول) ان هذه الكلمة المصريه القديمة تفسر على الارجح معنى الكلمة العبرية وان لم تبين مصدرها . وقد ترجمنا الكلمة العبرية بالبرونز ، متابعة لمعنى الكلمة المصرية .

(٢) «من وسط النار» زيادة من احد النساخ لتوضيح «ومن وسطها» في الجملة السابقة (توى ، ص ٢٢ ، وبرور J.A. Brewer في Kittel's Biblia Hebraica الطبعة الخامسة) .

(٣) أى أن لها حافرا كحافر العجل .

(١١) وأجنحتها (١) مبسوطة الى أعلى ؛ لكل منها جناحان متصلان بعضهما ببعض ، وجناحان يغطيان جسمه ·

(١٢) وكل منها يسير فى اتجاه وجهه ؛ يسير الى حيث تقصد الروح، لا يدور اذا سار ·

(١٣) وفى وسط (٢) المخلوقات منظر (٣) مثل جمرات ملتهبة من النار كالمشاعل ، تروح وتجىء بين المخلوقات ؛ وللنار بريق ، ومن النار يخرج برق ·

(١٤) ··· ···

(١٥) ونظرت الى المخلوقات فاذا عجلة (٤) واحدة على الأرض بجانب (كل من) المخلوقات الأربعة ·

(١٦) ومنظر العجلات وصنعتها مثل حجر الزبرجد ، وللأربع شكل واحد ؛ وكان منظرها وصنعتها كأنما كانت عجلة وسط عجلة ·

(١٧) تسير فى اتجاهاتها الأربعة عند سيرها ، لاتدور اذا سارت

(١٨) ··· وأطرها (جمع اطار) ملأى عيونا حواليها هى الأربعة

(١٩) واذا سارت المخلوقات سارت العجلات بجانبها ؛ واذا ارتفعت المخلوقات عن الارض ارتفعت العجلات ·

---

(١) فى النص العبرى « ووجوهها واجنحتها » ، والكلمة الاولى زيادة لا نجدها فى الترجمة السبعينية أو الترجمة اللاتينية القديمة فى احدى نسخها (برور ، وتوى ، ص ٤٣) ·

(٢) فى الاصل العبرى (ودموت) «ومنظر» ، ولكن يقترح بروز مكانها (ومتوخ) «وفى وسط» أو (وبينوت) «وبين» ، متابعا الترجمة السبعينية والترجمة اللاتينية القديمة فى احدى نسخها . ويقترح توى ص ٤٣ كذلك وبتوخ أو وبينوت .

(٣) مرأى كما يقترح توى ص ٤٣ وبرور متابعين الترجمة السبعينية ، لا مرأيهم «منظرها» كما فى الاصل العبرى .

(٤) (أوفن) أو (أوفان) (الهمزة محركة بحوام طويلة ، والفاء محركة بفتحة قصيرة أو طويلة) على وزن فوعل فى رأى جزنيوس ــ كاوتش (٢٣٢) ، ولكن يرى دى لاجارد (ص ١١ ، رقم ١٦) ان الكلمة العبرية من upala السنسكريتية . والجمع أوفنيم (بتشديد النون) . وهى مرادفة لكلمة (جلجال) التى سترد فى الأصحاح العاشر (في الآية الثانية ، وكذلك في الآية السادسة الى جانب أوفن) .

(٢٠) الى حيث تقصد الروح تذهب (المخلوقات) ؛ وترتفع العجلات معها ، لأن روح المخلوقات (١) فى العجلات ٠

(٢١) واذا سارت تلك سارت هذه ، واذا وقفت تلك وقفت هذه ؛ واذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت العجلات معها ، لأن روح المخلوقات فى العجلات ٠

(٢٢) وعلى رءوس المخلوقات شبه قبة كالبلور الهائل ، ممتدة على رءوسها من فوق ٠

(٢٣) وتحت القبة أجنحتها مستوية ، الواحد نحو الآخر ؛ ولكل (كائن) جناحان يغطيان جسمه ٠

(٢٤) وعندما سارت سمعت صوت أجنحتها ، فكأنه صوت مياه عظيمة ، صوت القدير ، صوت ضجيج ، صوت جيش ؛ ولما وقفت أرخت أجنحتها ٠

(٢٥) فكان صوت من فوق القبة التى على رءوسها ٠٠٠

(٢٦) وفوق القبة التى على رءوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق ؛ وعلى شبه العرش مثال كمنظر انسان عليه من فوق ٠

(٢٧) ورأيت شبه البرونز ، شبه نار داخله من حوله ، من منظر حقويه فما فوق ؛ ومن منظر حقويه فما تحت رأيت مثل منظر نار ، ولها بريق حولها ٠

(٢٨) وكان منظر البريق حولها كمنظر القوس التى فى السحاب يوم المطر (٢) ، هو منظر شكل مجد الرب ؛ فلما رأيته خررت على وجهى ، وسمعت صوت متكلم ٠

***

هكذا وصف حزقيال فى هذه الرؤيا المخلوقات (الكروبيم) الأربعة التى تحمل عرش الرب ٠ وهو يصفها وصفا مماثلا فى رؤيا أخرى انتقل فيها الى أورشليم (٣) ، فيقول (١٠ : ١ ـ ٢٢) :

(١) فى النص العبرى « المخلوق » (هحيا) مفردا ، وكذلك فى الآيتين ٢١ و ٢٢، ولكن توى (ص ٤٤) وبرور يقترحان الجمع ٠ ويرى تشين (العمود ٧٤٣) أن استعمال المفرد في الأصل العبرى قد يراد به الدلالة على أن المخلوقات الأربعة تؤلف ظاهرة مركبة واحدة لأنه تسيرها « روح » واحدة ٠

(٢) أى قوس قزح ٠

(٣) رأى حزقيال (٨ : ١) هذه الرؤيا فى السنة السادسة من نفى الملك يهوياكين ، أى عام ٥٩٢ ق٠م ٠

(١) ونظرت فاذا على القبة التى على رأس الكروبيم (شيء) كحجر العقيق الازرق يبدو مثل عرش .

(٢) وتحدث (الربّ) الى الرجل اللابس الكتان فقال : ادخل بين العجلات (١) تحت الكروبيم (٢) ، واملأ كفيك جمر نار من بين الكروبيم، وانثره على المدينة (أورشليم) ؛ فدخل أمام عينى .

(٣) وكانت الكروبيم واقفة عن يمين البيت (هيكل أورشليم) عندما دخل الرجل ؛ والسحابة ملأت الفناء الداخلى (٣) .

(٤) وارتفع مجد الرب عن الكروبيم الى عتبة البيت ؛ وامتلأ البيت بالسحابة ، وامتلأ الفناء ببريق مجد الرب .

(٥) وسمع صوت أجنحة الكروبيم حتى الفناء الخارجى ، كصوت الله القدير (٤) اذا تكلم .

(٦) وكان حينما أمر الرجل اللابس الكتان أن يأخذ نارا من بين العجلات من بين الكروبيم أنه دخل ووقف بجانب العجلة .

(٧) ومد كروب يده من بين الكروبيم الى النار التى بين الكروبيم ، نرفع منها (جمرا) ، ووضعه فى كفى الرجل اللابس الكتان ؛ فأخذه وخرج .

(٨) فرئى للكروبيم شبه يدى (٥) انسان تحت أجنحتها .

(٩) ونظرت فاذا أربع عجلات بجانب الكروبيم (الأربعة) : عجلة

---

(١) (جلجل) ، اسم جمع . وكذلك فى الآية السادسة .

(٢) فى النص العبرى « الكروب » (مفردا) وكذلك فى الآية الرابعة ، ولكن يقترح توى (ص ٥٧) وبرور الجمع كما فى الترجمة السبعينية .

(٣) الفناء الداخلى هو فناء المعبد ، ويقابله الفناء الخارجى (المذكور في الآية الخامسة) ، وهو الفناء الكبير الذى يضم المعبد والحصن .

(٤) « الله القدير » (ال شدى) : من العبارات الخاصة بالمصدر الكهنوتى الذى يشترك معه سفر حزقيال فى أشياء غير قليلة (توى ، ص ٥٧ أسفل.) ، وقد مر بنا فى الاصحاح الأول (الآية ٢٤) «شدى» (القدير) وحدها والمصدر الكهنوتى أحد مصادر التوراة كما سيلى .

(٥) فى النص العبرى « يد » ، ولكن يقترح برور المثنى كما فى الترجمة السبعينية والآية ٢١ .

واحدة بجانب الكروب الواحد ، وعجلة أخرى بجانب الكروب الآخر ؛ ومنظر العجلات كمنظر حجر الزبرجد ·

(١٠) ومنظرها شكل واحـد لها هى الأربعة ، كأنما كانت عجلة وسط عجلة ·

(١١)تسير فى اتجاهاتها الأربعة عند سيرها ، لا تدور اذا سارت ، ولكن تسير حيث تتجه الرأس ، لا تدور اذا سارت ·

(١٢ ـ ١٣) ···

(١٤) وكل (كروب) له اربعة أوجه : وجهه الأول وجه ثور (١) . ووجهه الثاني وجه انسان ، والثالث وجه أسد ، والرابع وجه نسر ·

(١٥) وارتفعت الكروبيم : هـذا هو المخلوق الذى رأيته عند نهر كبر (٢) ·

(١٦) وعند سير الكروبيم سارت العجلات بجانبها ؛ وعندما رفعت الكروبيم أجنحتها للارتفاع عن الأرض ، لم تتحول العجلات عن جانبها ·

(١٧) عند وقوفها وقفت ، وعند ارتفاعها ارتفعت معها ؛ لأن فيها روح المخلوق ·

(١٨) ثم خـرج مجد الرب من فـوق عتبـة البيـت ؛ ووقف على الكروبيم ·

(١٩) فرفعت الكروبيم أجنحتهـا ، وارتفعت عن الأرض أمام عينى ··· ؛ ووقفت (٣) عند مدخل البيت الشرقي ، ومجد اله اسرائيل عليها من فوق ·

(٢٠) هذا هو المخلوق الذى رأيته تحت اله اسرائيل عند نهر كبر ؛ وعلمت أنها الكروبيم (٤) ·

---

(١) « ثور » كما يقترح برور مكان « كروب » التى فى النص العبرى ، وذلك كما فى الآية ١٠ من الأصحاح الأول ·

(٢) فى الرؤيا الأولى · انظر الاصحاح الأول ·

(٣) فى النص العبرى (ويعمد) (للغائب المفرد) ، ولكن يقترح برور مكانه (ويعمدو) (للغائبين) كما فى الترجمتين السبعينية والسريانية ·

(٤) علم أنها الكروبيم حين دعاها الرب بهذا الاسم فى الآية الثانية من هذا الاصحاح ·

(٢١) لكل واحد أربعة أوجه ، ولكل واحد أربعة أجنحة ؛ وشبه يدى انسان تحت أجنحتها ٠

(٢٢) وشكل وجوهها هو شـكل الوجوه التى رأيتهـا عند نهر كبر ٠٠٠ ؛ كل واحد يسير فى اتجاه وجهه ٠

وانظر أيضا حزقيال ٩ : ٣ و ١١ : ٢٢ (و ٣ : ١٣) ٠

***

سادسا : تحرس شجرة الحياة : ففى التكوين ٣ : ٢٤ : « فطرد (الرب) الانسان ؛ وأقام فى شرقى جنة عدن الكروبيم (١) ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » ٠

فالكروبيم تشترك مع لهيب السيف المتقلب فى حراسة طريق شجرة الحياة التى تقع فى وسط الجنة (التكوير ٢ : ٩) ، حتى لا يأكل منها الانسان فيحيا الى الأبد (التكوين ٣ : ٢٢) كما أكل من شجرة معرفة الخير والشر فصار كالله يعرف الخـير والشر (التـكوين ٣ : ٥ ـ ٧ و ٢٢) (٢) ٠

والسيف ليس سيف الكروبيم (كما يظن رايل ، ص ٣٧٧ ، العمود الثانى) ، ولكنه سيف الرب الذى ينتقم به (اشعيا ٣٤ : ٥ وما بعدها) (ريم ، ص ٢٦٩ ، العمود الأول) ؛ وهو نفس السيف « القاسى الكبير الشديد » الذى يقتل به الرب التنين (اشعيا ٢٧ : ١) (تشين ، العمود ٧٤٤ ، الهامش الثانى) ٠

***

هذه وظائف ست يذكرها العهد القديم للكروبيم ٠ وهى تنـدرج تحت وظيفتين أساسيتين :

(أ) الحراسـة ٠

(ب) وحمل الرب أو عرشه ٠

---

(١) لا تذكر الآية عدد هذه الكروبيم ٠

(٢) فى سفر الأمثال عدة تشبيهات تدور حول شجرة الحياة ، منها وصف الحكمة وعذوبة اللسان بأنهما شجرة حياة (٣ : ١٨ و ١٥ : ٤) ، وانظر أيضا ١١ : ٣٠ و١٣ : ١٢ .

(أ) الحراســـة :

(١) **حراسة تابوت العهد** : فتـابوت العهد يظلله تمثالا كروبين من ذهب (أيام موسى) (١) أو من خشب زيتون مغشى بالذهب (فى هيكل سليمان) · ولكل كروب من هذين الكروبين وجه واحد (لانعرف هيئتـه) وجناحان · وليس لدينا معـلومات عن مقاييس الكروبين أيام موسى ، ولكننا نعلم عن كروبى هيكل سليمان أن كلا منهما كان يبلغ عشر أذرع ارتفاعا ، وأن كلا من جناحيه كان يبلغ خمس أذرع طولا · وكان مقام الرب فوق غطاء التابوت ، فهو يتكلم من فوق الغطاء ، من بين لكروبين اللذين يظللان التابوت ، فالكروبان هنـا ليسا مطية للرب ولكنهما حارسان للتابوت وما يضمه من لوحين حجريين كتب عليهمـا موسى الوصايا العشر ، قوام العهد الذى قطعه الرب مع موسى واسرائيل (الخروج ٣٤ : ٢٧ ـ ٢٨) ·

(٢) **حراسة الهيكل عامة** : لعل الكروبيم رمز لحراسة الهيكل عامة حين تنسج صورها على الستائر والحجاب فى خيمة موسى ، وحين تحفر صورها على هيكل سليمان، أو على هيكل أورشليم فى رؤيا حزقيال· وليس لدينا وصف لصوز الكروبيم المنسوجة على خيمة موسى أو المحفورة على هيكل سليمان ، ولكن صور الكروبيم المحفورة على هيكل أورشليم فى رؤيا حزقيال تجعل لكل كروب وجهين (لا وجها واحدا كما سبق) : وجه انسان من ناحية ، ووجه شبل من الناحية الأخرى · فهـذه زيادة من حزقيال سيتبعها بزيادات أخرى ·

(٣) **حراسة شجرة الحياة** ·

(ب) حمل الرب أو عرشه :

(١) **حمل الرب** : يركب الرب كروبا ويطير ، ويرفرف على أجنحة الريح ، كما فى سفر المزامير ١٨ : ١١ = صمويل الثانى ٢٢ : ١١ · وليس لدينا وصف لهذا الكروب ·

---

(١) يكاد يجمع العلماء ، كما سبق ، على ان وصف هيكل موسى فى سفر الخروج يرجع الى عصر متأخر ، أى انه لا يعكس الصورة القديمة . ولكننا مع هذا سنعنى بهذا الوصف ، ونحن نتتبع تطور فكرة الكروبيم ، لأنه على الأقل يعكس الصورة التى كان اهل ذلك العصر المتأخر يظنون وجودها أيام موسى .

(٢) **حمل عرش الرب** : يصور الأصحاحان الأول والعاشر من سفر حزقيال الرب جالسا على عرش تحمله أربعة كروبيم ، لكل منهـا أربعة أوجه : وجه انسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر (لا وجهان كما فى حزقيال ٤١ : ١٨ ـ ١٩) ، ولكل منها أربعة أجنحة (لا جناحان كما سبق) تحتها أيدى انسان ٠

وهذه الكروبيم الأربعة ، فى وصف حزقيال ، ترى وسط الريح العاصفة القادمة من الشمال ، وهذا يذكرنا بما نعرفه (الفصل السابع الهامش ٢١) من أن اله العبريين (يهوه) كان فى الأصل اله العاصفة وما يصحبها من **رعد** (وعندما سارت سمعت صوت أجنحتها ، فكأنه صـوت مياه عظيمة ، صوت القدير ، صـوت ضجيج ، صوت جيش) **وبرق** (سحابة عظيمة ونار متقدة وحولها بريق ـ وفى وسط المخلوقات منظر مثل جمرات ملتهبة من النار كالمشاعل ، تروح وتجىء بين المخلوقات، وللنار بريق ، ومن النار يخرج برق) ٠

وكان الرب على شبه عرش فوق القبة (« رقيع » فى العبرية) التى على رءوس الكروبيم ، وكان كشكل انسان فيه نار لها بريق حولها ، « وكان منظر البريق حولها كمنظر القوس التى فى السحاب يوم المطر » ٠

وكان لكل كروب من تلك الكروبيم الأربعة عجلة بجانبه تشـبه الزبرجد ، تسير اذا سار ، وتقف اذا وقف ، وترتفع اذا ارتفع ، لأن روح الكروب فى العجلة ٠ فلدينا اذن أربع عجلات توحى بصورة المركبة (راجع تعليقنا على عبارة « مركبة الكروبين » فى سفر أخبار الأيام الأول ٢٨ : ١٨) ٠ وأطر هذه العجلات ملآى عيونا حواليها هى الأربعة ، لترى كل شىء فى كل اتجاه (١) ٠

للكروبيم اذن وظيفتان أساسيتان : حمل الرب ، وحماية الأشياء المقدسة التى تتعلق به (تابوت العهد ، والهيكل عامة ، وشجرة الحياة)٠٠ ويرى بعض العلماء (سمند، ص ٢٢ ، الهامش ،وبنتسنجر (١)، ص٢٦٨) أن الوظيفة الأولى هى الأقدم ، وأن المعنى الأصلى للكروب هو سحـابة العاصفة ، فيهوه (كما قدمنا) اله العاصفة ، والكروبيم رمز لسـحب العاصفة التى يركبها فى السـماء (٢) ٠ ومن الطبيعى اذن أن يكون الكروب فى الأصل طائرا محضا ، أى أن يكون له وجه طائر وجناحان ٠ وقد

---

(١) قارن بهذه الصورة سفر زكريا ٤ : ١٠ (٠٠٠ ان عينى الرب تجولان فى الأرض كلها) وسفر اخبار الايام الثانى ١٦ : ٩ (لأن عينى الرب تجولان فى كل الأرض٠٠)

(٢) يصف سفر المزامير (١٠٤ : ٣) الرب بأنه « الجاعل السحاب مركبته ، الماشي على أجنحة الريح » . وفى اشعيا ١٩ : ١ « ها هو الرب راكب على سـحابة سريعة وقادم الى مصر ٠٠٠ » ٠

رأينا أن كل كروب من الكروبين اللذين يحرسان تابوت العهد فى خيمة موسى وهيكل سليمان كان له وجه واحد لا نعرف هيئته وجناحان ، فالراجح اذن أن هذا الوجه الواحد كان وجه طائر ، وبهذا يكون كروب التابوت طائرا محضا يمثل الصورة الأولى للكروب . ولعل هذا يصدق أيضا على الكروب المذكور فى سفر المزامير ١٨ : ١١ = صمويل الثانى ٢٢ : ١١ ، وان خلت هاتان الآيتان كما رأينا من أى وصف له .

وليس لدينا كما قلنا وصف لصور الكروبيم المنسوجة على خيمة موسى أو المحفورة على هيكل سليمان ، ولكن الراجح (قياسا على كروبى تابوت العهد) أنها كانت صورا لطائر محض له وجه طائر وجناحان . أما صور الكروبيم المحفورة على هيكل أورشليم فى رؤيا حزقيال فهى تجعل لكل كروب وجهين : وجه انسان ووجه شبل (١) ، أى أنها تضيف الى الكروب (الطائر) عنصرا انسانيا (وجه الانسان) وآخر حيوانيا (وجه الشبل) .

فهذه زيادة من حزقيال ، أتبعها بزيادات أخرى وهو يصف (فى الأصحاحين الأول والعاشر) الكروبيم الأربعة التى تحمل عرش الرب (٢)، فلكل منها أربعة أوجه (٣) (وجه انسان ووجه أسد ووجه ثور (٤) ووجه نسر) ، وأربعة أجنحة تحتها أيدى انسان . فبولغ فى جانب الطائر (بمضاعفة عدد الأجنحة) وجانب الانسان (باضافة الأيدى) وجانب الحيوان (باضافة وجه الثور) ، ولكن يؤخذ من قول حزقيال (١ : ٥) « لها شبه بالانسان » أن الجانب الانسانى (الوجه + الأيدى) كان الغالب (٥) .

(١) يزعم ريم (ص ٢٧٠) أن الكروب هنا كان له (فى خيال حزقيال) أربعة وجوه مثل الكروبيم التى تحمل عرش الرب ، ولكن رسم منها وجهان فقط (وجه الانسان ووجه الشبل) لأن الحفر على سطح مستو لا يسهل معه الا رسم وجهين .

(٢) من الطبيعى أن تكون الكروبيم أربعة لتؤلف مركبة لها أربع عجلات . ويرى برمياس (ص ١٦٤ و ٤٤٧) أن الكروبيم الأربعة تمثل أركان العالم الأربع .

(٣) ليشرف بها على الجهات الأربع : الشرق والغرب والشمال والجنوب .

(٤) لاحظ اقتران الكروبيم بالاسود والثيران فى بعض زخارف هيكل سليمان (سفر الملوك الاول ٧ : ٢٩ و ٣٦) .

(٥) يلاحظ سمند (ص ٤٦٧ أسفل - ٤٦٨ أعلى) ملاحظة طريفة هى أن هذه الوجوه الأربعة أخذت عن أفضل المخلوقات وأقواها ، فوجه الأسد يعنى الرهبة ، ووجه الثور يعنى القوة ، ووجه النسر يعنى السرعة ، ووجه الانسان يعنى العقل ، وهى فى مجموعها تصور السلطان الشامل للرب ، ولما كان العقل يسير الصفات الاخرى جميعا ، فقد غلب الجانب الانسانى على جانبى الطائر والحيوان . وانظر ريم ، ص ٢٧١ ، حيث يورد فكرة مماثلة .

وحزقيال متأثر فى هذا الوصف ولا ريب بتماثيل وصور الكائنات الجنية المجنحة التى كانت تحرس معابد بابل وقصورها ، والتى شهدها حزقيال قطعا ابان المنفى (١) . ونجد مثل هذه التماثيل والصور أيضا فى مصر والمنطقة السورية ــ الحيثية ٠

* * *

والأثر البابلى ظاهر أيضا فى صورة الكروبيم وهى تحرس شجرة الحياة فى جنة عدن (التكوين ٣ : ٢٤) ، فالفن البابلى حافل بصور الشجرة المقدسة والكائنات الجنية التى تحرسها ٠

والشجرة المقدسة البابلية مزيج من نخلة ونبات مخروطى conifer ويحف بها من اليمين والشمال جنيان لهما رأس انسان أو نسر ، يمدان أيديهما (فى الغالب) الى ثمرة على الشجرة (لعلها عنقود البلح) (يرمياس ، ص ١٩٥) ٠ والغرض من مد الأيدى كما يرى هاوبت ، هو نقل حبوب اللقاح من أزهار النخيل المذكرة الى أزهار النخيل المؤنثة ليتم الاخصاب ، فالكروبيم (فى رأيه) تمثل فى الأصل الرياح ، ولا سيما الرياح التى تنقل حبوب اللقاح ٠

ويقترن الكروب أيضا بالنخلة فى بعض زخارف هيكل سليمان (سفر الملوك الأول ٦ : ٢٩ و ٣٢ و ٣٥ ، و ٧ : ٣٦) ، ثم فى بعض زخارف هيكل أورشليم فى رؤيا حزقيال (حزقيال ٤١ : ١٨ ــ ٢٠ و ٢٥) ٠ والصورة التى ينقلها الينا حزقيال فى ٤١ : ١٨ ــ ٢٠ تدعو الى الاهتمام خاصة ، فبين كل كروب وكروب نخلة ، أى أن النخلة يحف بها كروبان كما أن الشجرة المقدسة البابلية يحف بها جنيان ، ولكل كروب وجهان : وجه انسان نحو نخلة من هنا ، ووجه شبل نحو نخلة من هناك ، فهذه الصورة أكثر اصطباغا بالمسحة الأسطورية البابلية ٠

أما الكروبيم التى تزين بصورها المنسوجة الستائر والحجاب فى خيمة موسى فليست مقترنة بالنخلة ٠ وقد قلنا ان صور الكروبيم قد تكون رمزا لحراسة الهيكل عامة ، سواء كانت فى خيمة موسى أو هيكل سليمان أو هيكل أورشليم فى رؤيا حزقيال ، غير أنها اقترنت بالنخلة فى بعض زخارف الهيكلين الأخيرين نقلا عن صور بابل ، ولكن دون أن تنتفى فكرة حراسة الهيكل ٠

* * *

---

(١) فى حزقيال ٢٣ : ٢٤ اشارة مباشرة الى الصور المحفورة على الجدران فى بابل .

ونحن نعتبر فكرة حراسة الهيكل فكرة عبرية أصيلة ، عرفهـا العبريون كما عرفها غيرهم من شعوب الشرق الأدنى القديم ، ولكن نعدها لدى العبريين امتدادا لفكرة حراسة تابوت العهد ، فالتابوت أقدم وجودا من الهيكل ، كان العبريون القدامى يصطحبونه معهم أثناء تجوالهم فى الصحراء قبل أن يكون لهم هيكل ثابت ·

أما فكرة حراسة شجرة الحياة فالأثر البابلي واضح فيها كما رأينا ولهذا لا نعدها تراثا عبريا خالصا ·

هذا عن فكرة الحراسة · أما فكرة حمل يهوه في السماء فهى فكرة عبرية قديمة ، ترتبط بما كان العبريون القدامى يعتقدونه من أن يهوه اله العاصفة وما يصحبها من رعد وبرق · والصورة المعقدة التى رسمها لنا حزقيال عن الكروبيم الأربعة التى تحمل عرش يهوه فى السماء تعكس كما رأينا آثارا بابلية ، ولكنها كما بينا لازالت تحتفظ بمعالم الفـكرة العبرية القديمة عن اله العاصفة ·

وقد قلنا ان بعض العلماء يرون أن وظيفة حمل الرب أقدم من وظيفة الحراسة · ولعل هذا الرأى صحيح ، فان الوظيفة الأولى مرتبطة بالفكره العبرية القديمة عن طبيعة يهوه ، فالكروب هو سحابة العاصفة ، هو المطية التى يركبها يهوه فى هبوبه · وحين قويت فى أذهان العبريين هذه الرابطة بين يهـوه والكروب ، صار الكروب عندهم رمزا لوجود يهـوه . فجعلوا الكروب حارسا على أنفس مقدساتهم وهو تابوت العهد ثم على الهيكل عامة ، معتقدين أنه اذ يحرسها فكأن يهوه نفسه هو السـاهر عليها ·

وهناك تفسير آخر لفكرة الحراسة ، هو أنه لما كان الكروب سحابة العاصفة فانه يصلح غطـاء وساترا ، كما غطى السـحاب جبل سينـاء المقدس (الخروج ٢٤ : ١٥ ـ ١٦) ، وكما يستر السحاب الله (أيوب ٢٢ : ١٤ ومراثى ارميا ٣ : ٤٤) (١) · فالكروبان حين يظللان تابوت العهد بأجنحتهما يكونان كسحابة كبيرة تغطيه وتستره · وصور الكروبيم المنسوجة أو المنحوتة فى المعبد رمز لسحب تغطيه وتحميه ، كما ملأت السحابة هيكل أورشليم فى احدى رؤى حزقيال (١٠ : ٤) ·

* *

ونلخص تطور فكرة الكروبيم على النحو التالى :

أولا : وظيفة الكروب الأولى حمل الرب ، وعنها تطورت وظيفة الحراسة .

(١) انظر أيضـا اشـعيا ٤ : ٥ . وفي الخروج ١٩ : ٩ يقول الرب لموسي : «هأنذاآت اليك في ظلام السـحاب » .

ثانيا : حمل الرب :

١ ـ الكروب (سحابة العاصفة) يحمل يهوه (اله العاصفة) صورة عبرية قديمة نجدها فى سفر المزامير ١٨ : ١١ = صمويل الثانى ٢٢ : ١١ . والكروب فى هذه المرحلة طائر محض على الأرجح .

٢ ـ أربعة كروبيم تجمع بين صفات الطائر والحيوان والانسان وتحمل عرش الرب فى السماء (فى سفر حزقيال ، الأصحاحين الأول والعاشر) : صورة عبرية ممتزجة بعناصر بابلية .

ثالثا : الحراسة :

١ ـ كروبان يحرسان تابوت العهد فى خيمة موسى وهيكل سليمان : صورة عبرية قديمة (١) .

٢ ـ صور كروبيم تحرس الهيكل كله :

(أ) صور كروبيم منسوجة على خيمة موسى : صورة عبرية قديمة . والكروب هنا طائر على الأرجح .

(ب) صور كروبيم محفورة على هيكل سليمان : الكروب هنا طائر محض على الأرجح ، والصورة العبرية أضيفت اليها عناصر بابلية (النخيل بصفة خاصة ، والأسود والثيران) .

(ج) صور كروبيم محفورة على هيكل أورشليم فى رؤيا حزقيال ازدادت العناصر البابلية (لكل كروب وجهان : وجه انسان ووجه

---

(١) يرى برتولت (ص ٢١١) أن الكروبين المنحوتين من خشب الزيتون فى هيكل سليمان قد يكونان من صنع فنان أجنبى ، لأن تحريم نحت أى تمثال لكائن حى (الخروج ٢٠ : ٤) عاق تطور فن نحت لخشب بين العبريين ، بل يبدو بغض النظر عن هذا التحريم (وهو الوصية الثانية من الوصايا العشر) أن العبريين لم يكونوا أصلا أصحاب مهارة كبيرة في هذا الفن . وهذا الرأى ، ان صح ، لا يمنع أن تكون فكرة الكروبين عبرية قديمة استعان سليمان على تحقيقها بفنانين أجانب .

ويرى رايل (ص ٣٧٨ ، العمود الثانى) أن ذكر التوراة لصنع الكروبيم وتصميمها دون أى شعور بانتهاك الوصية الثانية يدل على أن فكرة الكروبيم فكرة شعبية قديمة ، وأن الكروب أثر خرافى عبرى احتفظ به الأنبياء فى دين يهوه لأنه يمثل بالصورة الملموسة صفات جلال الرب ، واستعملوه ليعبروا تعبيرا حيا عن الوسائل التى يتجلى بها جلال الرب للانسان .

شبـــل ، والنخلة يحف بهـــا كروبان) حتى طغت على الصـــورة العبرية .

(د) كروبيم تحرس شجرة الحياة : صورة بابلية الملامح .

***

هذه صور الكروبيم في العهد القديم ، ومدى أصالتها أو تأثرها ببابل .

ومن أرض الرافدين أيضا أخذت كلمة « كروب » ، فهي ليست عبرية خالصة . وكان الظن بين بعض العلماء أنها من كلمة gryps (جروبس) اليونانية (١) ، وهي اسم كائن خرافي له جسم أســد ، مجنح أو غير مجنح ، ورأس طائر (هو النسر عادة) ، ولكن الرأي السائد الآن (انظر تسمرن ، ص ٦٩) أن كلمة كروب أكدية الأصل ، أخذت من karibu (كارب) (٢) أو ku i u (كريب) ، وهو علم على طائفة خاصة من تلك الكائنات الجنية المجنحة التي كانت تحرس معابد بابل وقصورها . ومادة كرب في الأكدية من معانيها «صلى» و «بارك»(٣)، فكأن هذه الكائنات تصلي للاله في المعبد أو تبارك الملك في القصر .

واذا كانت كلمة كروب دخيلة في العبرية ، فلا يلزم من هذا أن تكون فكـــرة الكروب دخيلة هي أيضـــا ، فقد تكون الفكرة قديمة في لغة ما ، ثم يستعار لها فيما بعد اسم من لغة أخرى يكون أكثر شيوعا أو أقوى دلالة .

هذا عن الكروبيم في العهد القديم .

وقد تطورت فـــكرة الكروبيم لدى اليهـــود في العصور اللاحقة . ولنكتف هنا بالنظر في سفر أخنـــوخ ، وهو من « الأسفار المنحولة » (انظر الفصل التاسع ، الهامش ١٦) .

يتحدث أخنوخ عن « قصر السماء » فيقول (١٤ : ١١) : « كان سقفه مثل مجرى النجوم والبرق ، وبينها الكروبيم النارية ... » .

---

(١) هذه الكلمة اليونانية هي أصل gryphus اللاتينية التي نشأت عنها griffon (أو griffin أو gryphon) في الانجليزية و Greif في الالمانية و griffon في الفرنسية .

(٢) يرد هذا اللفظ أيضا بصيغة المؤنث : karibtu (كاربت) . انظر فون سودن (٢) ، ص ٤٤٩ ، العمود الأول .

(٣) لاحظ القلب المكاني بين مادة كرب في الأكدية ومادة برك (التي تدل على معنى البركة) في العربية والعبرية وغيرهما .

فعبارة « الكروبيم النارية » تذكر بجمرات النار الملتهبة كالمشاعل التى كانت تروح وتجيء بين الكروبيم في رؤيا حزقيال (١ : ١٣) كما تذكر بحجارة النار على جبل الله فى جنة عدن (حزقيال ٢٨ : ١٣ – ١٦) (تشين ، العمود ٧٤١) .

ويقول أخنوخ (١٤ : ١٨) عن عرش الله فى السماء : « ... كان حوله شيء يشبه الشمس الساطعة له منظر الكروبيم » . فالكروبيم هنا أيضا نور ونار .

ويذكر أخنوخ (٢٠ : ٧) جبريل بين الملائكة المقدسين ، ويقول انه « القائم على الجنة والحيات (١) والكروبيم » . فالكروبيم مرتبطة هنا بالجنة كما فى سفر التكوين ٣ : ٢٤ (تشين ، العمود ٧٤١)

وفى موضع آخر (٦١ : ١٠) يتحدث أخنوخ عن « كل جيش السماء ، وجميع المقدسين فى الأعالى، وجيش الله : الكروبيم والسرافيم (٢) والأوفنيم (٣) ، وجميع ملائكة القوة ... » . وهى جميعا تسبح الله

---

(١) المقصود بالحيات هنا السرافيم ، انظر الهامش التالى .

(٢) ورد ذكر السرافيم فى العهد القديم ، فى سفر اشعيا ٦ : ١ – ٧ :

(١) في سنة موت الملك عزياهو رأيت السيد (الرب) جالسا على عرش عظيم عال ، وأذياله تملأ الهيكل .

(٢) السرافيم واقفة فوقه (فوق العرش) ، لكل واحد ستة أجنحة ، باثنين يغطى وجهه ، وباثنين يغطى رجليه ، وباثنين يطير .

(٣) ودعا هذا ذاك قائلا : قدوس قدوس قدوس رب الجنود ، مجده ملء الارض كلها .

(٤) فاهتزت أسس العتبات من صوت الداعى ، وامتلأ البيت دخانا .

(٥) فقلت : ويل لى ، انى هلكت ، لانى انسان نجس الشفتين ، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين ، فان عينى قد رأتا الملك رب الجنود .

(٦) فطار الى واحد من السرافيم وبيده جمرة ، قد أخذها بملقط من فوق المذبح .

(٧) فمس بها فمى وقال : هاهى ذى قد مست شفتيك ، فزال اثمك ، وكفر عن خطيئتك .

فالسرافيم ، فى رؤيا اشعيا هذه ، تحرس عرش الرب فى معبد أورشليم وتسبحه . وكلمة « سرافيم » فى العبرية جمع مفرده « ساراف » أى الحية ، من الفعل « سرف » اى أحرق . ولعل معنى الاحراق لوحظ في هذا الاسم من أسماء الحية ، لأنها سامة تنفث السم كأنه نار محرقة .

(٣) أى « العجلات » المذكورة في حزقيال ١ : ١٥ ، جعلت هنا طائفة خاصة من جنود الله في السماء .

(٦١ : ١١ ـ ١٢) ٠ فالكروبيم هنا تسبح الله مثل السرافيم فى سفر اشعيا ٠

والكروبيم والسرافيم والأوفنيم لا تنام أبدا ، وهى تحرس عرش مجد الله (٧١ : ٧) ٠ فالكروبيم الآن تحرس عرش الله بعد أن كانت تحمله (فى سفر حزقيال) ٠

***

وفى العهد الجديد ، فى رؤيا يوحنا اللاهوتى ، اشارات الى « كائنات حية » (١) أربعة تحيط بعرش الله فى السماء ٠

يقول يوحنا ٤ : ٦ ـ ٨ :

(٦) ٠٠٠ وفى وسط العرش وحول العرش أربعة مخلوقات مملوءة عيونا من قدام ومن خلف ٠

(٧) والمخلوق الأول شبه أسد ، والمخلوق الثانى شبه عجل ، والمخلوق الثالث له وجه مثل وجه انسان ، والمخلوق الرابع شبه نسر طائر ٠

(٨) والمخلوقات الأربعة لكل منها ستة أجنحة حوله ، وهى مملوءة عيونا من الداخل ، ولا تفتأ نهارا وليلا قائلة : قدوس قدوس قدوس الرب الاله القادر على كل شىء الذى كان ويكون وسيأتى ٠

هذه الصورة تذكرنا بصورة المخلوقات (الكروبيم) الأربعة التى تحمل عرش الرب فى رؤيا حزقيال ، فعدد المخلوقات أربعة فى كلتا الحالين ، غير أن لكروب حزقيال أربعة وجوه (وجه انسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر) ، فوزعت هذه الأشكال على مخلوقات يوحنا . فكان الأول شبه أسد ، والثانى شبه عجل ، والثالث له وجه انسان ، والرابع شبه نسر طائر (٢) ٠ ومخلوقات يوحنا مملوءة عيونا ، مثل أطر العجلات فى رؤيا حزقيال (١ : ١٨) ، لترى كل شىء فى كل اتجاه ٠

ولكروب حزقيال أربعة أجنحة ، ولكن نظيره فى رؤيا يوحنا له ستة أجنحة مثل سرافيم اشعيا (٦ : ٢) ٠ ومخلوقات يوحنا لا تحمل

---

(١) الكلمة اليونانية zoa ، جمع zoon « كائن حى » ، مثل « حيا » العبرية تماما .

(٢) أى مبسوط الجناحين ، مثل الكروبين اللذين يظللان تابوت العهد بأجنحتهما (؟)

عرش الله مثل كروبيم حزقيال ، ولكن تحرسه فى السماء مثل الكروبيم والسرافيم فى سفر أخنوخ • ومخلوقات يوحنا لا تكل عن التسبيح نهارا وليلا ، كما أن الكروبيم والسرافيم فى سفر أخنوخ لا تنام أبدا • وعبارة التسبيح فى رؤيا يوحنا (قدوس ، قدوس ، قدوس) كعبارة التسبيح التى تلهج بها سرافيم اشعيا (٦ : ٣) •

فمن هذا كله يتبين أن الصورة التى يقدمها لنا يوحنا مزيج من صورة حزقيال عن الكروبيم ، وصورة اشعيا عن السرافيم ، وصورة أخنوخ عن الكروبيم والسرافيم معا (١) •

أنظر ريم (ص ٢٦٧ ، العمود الأول ، و ٢٧٢) وتشين (العمود ٧٤١ ، والهامش الأول) ، ورايل (ص ٧٣٩) •

***

• والكروبيون (٢) فى الرواية العربية هم الكروبيم • يقول الزمخشرى فى الفائق (ط محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى ، ج ٢ (القاهرة ، ١٩٤٧) ، ص ٤٠٨) : أبو العالية رحمه الله تعالى : الكروبيون سادة الملائكة ، جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، هم المقربون • من كرب اذا قرب • قال أمية :

ملائكة لا يسأمون عبادة •• كروبية منهم ركوع وسجد •

وفى اللسان : « والكرب • القرب • والملائكة الكروبيون : أقرب الملائكة الى حملة العرش » • وفى التاج ، تعقيبا على قول اللسان : «قلت: فكلامه صريح فى أنه من الكرب بمعنى القرب ، وقيل انه من كرب الخلق أى فى قوته وشدته لقوتهم وصبرهم على العبادة (٣) ، وقيل من الكرب وهو الحزن لشدة خوفهم من الله تعالى وخشيتهم اياه ، أشار له شيخنا » •

ونلاحظ على هذا كله ما يأتى :

(١) من الخطأ اشتقاق الكروبيين من كرب العربية أيا كان معناها، فالكلمة دخيلة من العبرية •

---

(١) ورد ذكر المخلوقات الأربعة فى مواضع أخرى من رؤيا يوحنا : ٤ : ٩ ، ٥ : ٦ و ٨ و ١١ و ١٤ ، ٦ : ١ (حيث يشبه صوت أحدها بصوت الرعد) و ٣ و٥ - ٧ ، ٧ : ١١، ١٤ : ٣، ١٥ : ٧ ، ١٩ : ٤ . ونص ٥ : ١١ و٧ : ١١ صريح فى أن هذه المخلوقات الاربعة ليست من الملائكة .

(٢) بتخفيف الراء ، وحكى التشديد ، وهو خطأ . انظر التاج .

(٣) يرجع ابن الأثير فى النهاية (تحقيق محمود الطناحى ، القاهرة ، حـ ٤ ، ص ١٦١ ، الاشتقاق الأول على الثانى .

(٢) الكروبيون ملائكة فى الرواية العربية ، بل هم سادة الملائكه فى قول أبى العالية ، ولكن ليست الكروبيم من الملائكة سواء فى التوراة أو الانجيل كما رأينا ٠

(٣) الكروبيون ، فى بيت أمية بن أبى الصلت وقول صاحب التاج ، لا يسأمون العبادة صابرون عليها ، كما أن الكروبيم فى سفر أخنوخ لا تنام أبدا ، وكما أن المخلوقات الأربعة فى رؤيا يوحنا لا تكل عن لتسبيح نهارا وليلا ٠

(٤) يقول صاحب اللسان ان الكروبيين أقرب الملائكة الى حملة العرش ٠ وقد رأينا فى سفر أخنوخ ورؤيا يوحنا أن الكروبيم لا تحمل عرش الله ولكن تحرسه ٠ فالصورتان متشابهتان ٠

(٥) يقول أبو العالية ان الكروبيين هم جبرائيل وميكائيل واسرافيل ٠ وقد رأينا فى سفر أخنوخ أن جبريل كان موكلا بالجنة ، وكان تحت امرته الكروبيم والسرافيم ٠ فجبريل فى سفر أخنوخ ليس من الكروبيم ، ولكنه رئيس عليهم وعلى السرافيم ٠

ولعل هناك صلة بين السرافيم فى الرواية اليهودية واسرافيل فى الرواية الاسلامية ، كما يقول فنسنك A.J. Wensinck (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اسرافيل) ٠ وقد رأينا الكروبيم شديدة الصلة بالسرافيم فى سفر أخنوخ ، فلعل هذا هو السبب فى أن أبا العالية جعل اسرافيل (١) (= السرافيم) من الكروبيين (= الكروبيم) ٠

أما ميكائيل فقد كان من الطبيعى أن يعده أبو العالية من الكروبيين، بعد أن افترض أنهم سادة الملائكة ٠

(٢٩) خرج العبريون من مصر ، حسب التوراة ، فى الشهر الأول من السنة العبرية (٢) ٠ ويحتفل اليهود بفصحهم فى الرابع عشر من

---

(١) اسرافيل من حملة العرش فى الرواية الاسلامية . يقول الزمخشرى فى تفسير سورة غافر ، الآية السابعة : « وعن النبى صلى الله عليه وسلم : لاتتفكروا في عظم ربكم ،ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة ،فان خلقا من الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله ، وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سموات ، وأنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع » . (الوصع ، بفتح فسكون أو بفتحتين : طائر أصغر من العصفور) ٠

وقد رأينا أن السرافيم لا تحمل العرش ولكن تحرسه ، فهى من هذه الناحية تفترق عن اسرافيل ، ولكن يجمع بينهما قربهما من العرش ٠

(٢) هو شهر أبيب ، وقد سمى فيما بعد بالاسم البابلى الأصل نيسان . ويقابله أبريل من الشهور الافرنجية ٠

هذا الشهر بين العشاءين (أى بين المغرب والعتمة) (١) · وفى اليوم التالى (الخامس عشر) يبدأ عيد « الفطير » (أى الخبز بدون خمير) (٢) ، وهو يمتد سبعة أيام ·

هذه هى الصورة العامة التى يعرضها لنا الأصحاح ١٢ من سفر الخروج ، وهو أوفى مرجع لنا فى هذا الصدد · وفى هذه الصورة نجد عيدى الفصح والفطير منفصلين بعضهما عن بعض ، يأتى ثانيهما فى أعقاب الأول (٣) ·

وتربط الرواية اليهودية هذين العيدين بقصة الخروج من مصر · ويتجلى هذا أيضا فى الأصحاح ١٢ من سفر الخروج · فلنورد فيما يلى ترجمة لآياته (الاحدى والخمسين) :

(١) وكلم الرب موسى وهرون فى أرض مصر قائلا :

(٢) هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور ، هو لكم أول شهور السنة ·

(٣) حدثا كل جماعة اسرائيل قائلين : فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد حملا بحسب بيوت الآباء ، حملا للبيت (الواحد) ·

(٤) وان كان البيت أقل عددا من أن يكون له حمل ، فليأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس ، حسب أكل كل واحد تحسبون للحمل ·

(٥) يكون لكم حملا سليما (من العيوب) ذكرا ابن سنة ، من الغنم أو المعز تأخذونه ·

(٦) ويكون فى رعايتكم حتى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، فيذبحه كل جمهور جماعة بنى اسرائيل بين العشاءين ·

(٧) ويأخذون (شيئا) من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها ·

---

(١) العبارة العبرية « بين هعربيم » بتغليب « عرب » (المغرب) على « ليلا » (الليل ، العتمة) في التثنية ،ولكن في « بين العشاءين » غلب العشاء على المغرب .

(٢) الفطير فى العبرية « مصوت » جمع مصا (بتشديد الصاد) ، من مادة مصص . انظر جزنيوس ــ بول .

(٣) العيدان منفصلان ايضا فى سفر اللاويين ٢٣ : ٥ ــ ٦ وسفر العدد ٢٨ : ١٦ ــ ١٧ . وكلا هذين الموضعين من المصدر الكهنوتى (أيسفلت (١) ، ص ٢٤٣ و ٢٤٦).

(٨) ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير ، مع أعشاب مرة يأكلونه (أو ، بعد تعديل الجزء الأخير من الآية كما يرى بعض العلماء ، « ... مشويا بالنار ، مع فطير وأعشاب مرة يأكلونه ») (١) .

(٩) لا تأكلوا منه نيئا أو مطبوخا بالماء ، بل مشويا بالنار ، رأسه مع أكارعه وأحشائه .

(١٠) ولا تبقوا منه (شيئا) الى الصباح ، والباقي منه الى الصباح تحرقونه بالنار .

(١١) وهكذا تأكلونه : أحقاؤكم (٢) شدت عليها المآزر ، ونعالكم فى أقدامكم ، وعصاكم فى يدكم ، وتأكلونه على عجل ، فهو فصح للرب .

(١٢) فانى أعبر أرض مصر هذه الليلة ، وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم ، وأقضى بالعقاب على كل آلهة المصريين ، أنا الرب .

(١٣) ويكون الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها ، فأرى الدم وأتجاوزكم (٣) ، فلايحل بكم الهلاك حين أضرب أرض مصر .

(١٤) ويكون لكم هذا اليوم ذكرى ، فتحتفلون به عيدا للرب ، تحتفلون به فريضة أبدية جيلا بعد جيل .

(١٥) سبعة أيام تأكلون فطيرا ، وفى اليوم الأول تبعدون الخمير عن بيوتكم ، فان كل من يأكل خميرا من اليوم الأول الى اليوم السابع ستقطع نفسه من اسرائيل .

(١٦) ويكون لكم فى اليوم الأول اجتماع للعبادة ، وفى اليوم السابع اجتماع للعبادة ، لا يعمل فيهما عمل ما الا ما تأكل كل نفس ، فذلك وحده تعملونه .

---

(١) يؤيد هذا التعديل سفر العدد ٩ : ١١ : « ... على فطير وأعشاب مرة يأكلونه » .

(٢) جمع حقو (بفتح فسكون) ، وهو الخصر .

(٣) الفعل المستعمل فى النص العبرى هنا (وفى الآيتين ٢٣ و ٢٧) للدلالة على التجاوز هو « فسح » (بالسامخ) ، ومنه جاءت كلمة فسخ (بسجول للفتحة) « الفصح » حسب الرأى التقليدى .ولكن هناك عدة آراء أخرى فى الأصل اللغوى لهذه الكلمة ، انظر جزنيوس ـ بول ، ولودز (١) (ص ٢٩١ ، الهامش الرابع) ، وبنتسنجر (٢) (العمود ٢٥٩٥ ، الهامش ١) .

(١٧) وتحفظون (عيد) الفطير ، لأنني في نفس هذا اليوم أخرجت جنودكم من أرض مصر ، فاحفظوا هذا اليوم فريضة أبدية جيلا بعد جيل ٠

(١٨) في الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر مساء تأكلون فطيرا الى اليوم الحادي والعشرين من الشهر مساء ٠

(١٩) سبعة أيام لا يوجد خمير في بيوتكم ، فان كل من أكل مختمرا ستقطع نفسه من جماعة اسرائيل ، سواء أكان غريبا أم من أبناء الأرض ٠

(٢٠) لا تأكلوا شيئا مختمرا ، حيثما تسكنون تأكلون فطيرا ٠

(٢١) فدعا موسى جميع شيوخ اسرائيل وقال لهم : اسحبوا وخذوا لكم غنما بحسب أسركم واذبحوا (ذبيحة) الفصح ٠

(٢٢) وخذوا حزمة زوفا (١) ، واغمسوها في الدم الذي في الطست ، ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذي في الطست ، وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح ٠

(٢٣) فان الرب سيعبر لضرب المصريين ، فاذا رأى الدم على العتبة العليا والقائمتين تجاوز الباب ، ولم يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب ٠

(٢٤) وتحفظون هذا الأمر فريضة عليكم وعلى أولادكم الى الأبد ٠

(٢٥) ويكون ، حين تأتون الى الأرض التي يعطيها لكم الرب كما قال ، انكم تحفظون هذه الخدمة (الدينية) ٠

(٢٦) ويكون : حين يقول لكم أولادكم : ما (معنى) هذه الخدمة لكم ؟

(٢٧) أنكم تقولون : هي ذبيحة فصح للرب الذي تجاوز بيوت بني اسرائيل في مصر عندما ضرب المصريين وخلص بيوتنا ، فخر الشعب وسجدوا ٠

(٢٨) ومضى بنو اسرائيل وفعلوا كما أمر الرب موسى وهرون ، هكذا فعلوا ٠

---

(١) الزوفا هو النبات المسمى في اللاتينية hyssopus والكلمة في العربية ماخوذة من زوفا السريانية التي تقابل zupu (زوب) في البابلية المحدثة (قاموس شيكاغو الاشوري ، المجلد ٢١ (١٩٦١) ، ص ١٦٣) ٠ والكلمة في العبرية « ازوب » .

(٢٩) وكان فى منتصف الليل أن ضرب الرب كل بكر فى أرض مصر ، من بكر فرعون الجالس على عرشه الى بكر الأسير الذى فى السجن، وكل بكر بهيمة .

(٣٠) فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين ، وكان صراخ عظيم فى مصر ، لأنه لم يكن هناك بيت ليس فيه ميت .

(٣١) فدعا (فرعون) موسى وهرون ليلا وقال : قوموا ، اخرجوا من بين شعبى ، أنتما وبنو اسرائيل جميعا ، واذهبوا واعبدوا الرب كما قلتم .

(٣٢) كذلك خذوا غنمكم وبقركم كما قلتم واذهبوا ، وباركونى أيضـــا .

(٣٣) وتعجل المصريون الشعب (العبريين) ليطلقوهم بسرعة من الأرض ، لأنهم قالوا : سنموت جميعا (ان لم ينطلقوا) .

(٣٤) فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ، ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على عواتقهم .

(٣٥) وفعل الشعب حسب قول موسى ، واقترضوا من المصريين حليا من فضة وحليا من ذهب وثيابا .

(٣٦) وجعـل الرب للشعب حظوة لدى المصريين فاقرضوهم ، فسلبوا المصريين .

(٣٧) وارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس الى سكوت ، نحـو ستمائة ألف راجل (ماش) من الرجال عدا العيال .

(٣٨) وصعد معهم أيضا لفيف كثير (١) ، مع غنم وبقر : ماشـية كثيرة جدا .

(٣٩) وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر أقراص فطـير ، اذ كان لم يختمر ، لأنهم طردوا من مصر ولم يمكنهم التأخر ، ولم يصنعوا لأنفسهم زادا .

(٤٠) وكانت اقامة بنى اسرائيل التى أقاموها فى مصر ثلاثين سنة وأربعمائة سنة (٤٣٠) .

(٤١) وكان فى نهاية ثلاثين سنة وأربعمائة سنة ، فى نفس ذلك اليوم ، أن خرج جميع جنود الرب من أرض مصر .

---

(١) من غير الاسرائيليين .

(٤٢) هى ليلة تحفظ للرب لاخراجهم من أرض مصر ، هذه الليلة للرب يحفظها جميع بنى اسرائيل جيلا بعد جيل .

(٤٣) وقال الرب لموسى وهرون : هذه فريضة الفصح ، كل ابن غريب لا يأكل منه (من قربان الفصح) .

(٤٤) ولكن كل عبد لرجل امتلكه بالشراء اذا ختنته أكل حينئذ منه .

(٤٥) النزيل والأجير لا يأكلان منه .

(٤٦) فى بيت واحد يؤكل ، لا تخرج من البيت (شيئا) من اللحم الى الخارج ، وعظما لا تكسروا منه .

(٤٧) كل جماعة اسرائيل يصنعونه .

(٤٨) واذا أقام عندك غريب وأراد عمل الفصح للرب فليختتن منه كل ذكر ثم يتقدم لصنعه فيكون كابن الأرض ، وأما كل أغلف فلا يأكل منه .

(٤٩) لتكن شريعة واحدة لابن الأرض وللغريب المقيم بينكم .

(٥٠) وفعل جميع بنى اسرائيل كما أمر الرب موسى وهرون ، هكذا فعلوا .

(٥١) وكان فى نفس ذلك اليوم أن أخرج الرب بنى اسرائيل من أرض مصر بحسب جنودهم .

***

اذا تأملنا هذا الأصحاح (الخروج ١٢) ، وجدنا أنه ليس وحدة متماسكة ، وانما يتألف من أجزاء كانت مستقلة فى الأصل ثم أدمج بعضها فى بعض . وعلماء العهد القديم متفقون على أن الآيات التى تتناول الفصح وعيد الفطير فى هذا الأصحاح ترجع الى مصدرين مستقلين (١) :

(١) فالآيات ٢١ ــ ٢٧ (وهى تتناول الفصح) ترجع فى رأى س . ر . درايفر (١) (ص ٢٨ ــ ٢٩) وغيره الى المصدر اليهوى ــ الالوهيمى (JE) الذى يرجع (كما سيلى) الى حوالى ٦٥٠ ق.م. ويرى أيسفلت (١) (ص ٢٣٠ ــ ٢٣١) أنها ترجع الى مصدر يسميه « المصدر غير الكهنوتى » Laienquelle ، ويرمز اليه تبعا لذلك بالحرف

---

(١) كذلك الآيات القصصية ٢٨ ــ ٤٢ و ٥١ ترجع أيضا الى مصادر مختلفة . أنظر س.ر. درايفر (١) (ص ٢٨ ــ ٢٩) وايسفلت (١) (ص ٢٢٤ و ٢٣١ و ٢٣٧ و٢٣٩) .

L ، وهو فى رأيه أقدم المصادر التى استقيت منها أسفار موسى الخمسة (١) ·

(٢) والآيات ١ ــ ١٣ (وهى تتناول الفصح) و ١٤ ــ ٢٠ (وهى تتناول عيد الفطير) و ٤٣ ــ ٥٠ (وهى تكمل الحديث عن الفصح) ترجع الى المصدر الكهنوتى ، أحدث مصادر التوراة ، وهو يرجع (كما سيلى) الى زمن عزرا (منتصف القرن الخامس) ·

فالآيات التى تتناول الفصح وعيد الفطير فى هذا الأصحاح ترجع الى مصدر قديم لعله أقدم المصادر ، ومصدر متأخر هو قطعا أحدث المصادر ·

واذا قارنا بين صورتى الفصح اللتين يعرضهما هذان المصدران ، وجدنا أن الصورة القديمة (الآيات ٢١ ــ ٢٧) تبرز ما يعقب ذبح الذبيحة من تلطيخ الباب بدمها بوساطة حزمة زوفا تغمس « فى الدم الذى فى الطست » (٢) ، كما تنفرد بالنص على تحريم الخروج من البيت حتى الصباح ·

أما الصورة المتأخرة (الآيات ١ ــ ١٣ و ٤٣ ــ ٥٠) فهى تعنى بتحديد عدة أمور (٣) :

(أ) التحديد الزمنى : يؤخذ الحمل فى العاشر من الشهر الأول ويذبح فى الرابع عشر بين العشاءين ·

(ب) تحديد نوع الذبيحة : حمل سليم ذكر ابن سنة من الخراف أو المعز ·

(جـ) تحديد قواعد الأكل : لا يؤكل اللحم نيئا أو مطبوخا بالماء ، ولكن يؤكل مشويا بالنار · ويشوى الحمل بأكلمه دون أن تزال رأسه أو أكارعه أو أحشاؤه · ولا يكسر العظم أثناء الأكل · ويؤكل اللحم مع فطير وأعشاب مرة · ولا يبق من اللحم شىء الى الصباح، فان بقى شىء فليحرق بالنار · ويتخذ الآكلون لباس المتاعب

---

(١) نضيف الى هذه الآيات في اعتبارنا الآيات ٢ ــ ١٠ من الأصحاح ١٣ (وهى تتناول عيد الفطير وتجعله سبعة أيام)، فهى ترجع أيضا (فى رأى ذينك العالمين) الى نفس المصدر الذى استقيت منه الآيات ٢١ ــ ٢٧ من الأصحاح ١٢ ؛

(٢) لانجد للزوفا أو طست الدم ذكرا فى أى موضع آخر من المواضع التى تتحدث عن الفصح

(٣) التحديد والتفصيل من سمات المصدر الكهنوتى ·

للسفر ، وأكلهم على عجل . ويكون الأكل داخل البيت ، فلا يؤخذ شيء من اللحم الى الخارج .

(د) تحديد من يجوز لهم الفصح ومن لا يجوز .

وفي هذه الصورة المتأخرة ذكر للتلطيخ بالدم (فى الآيتين ٧ و ١٣) ، ولكن قواعد الأكل خاصة هي سمتها البارزة ، بينما التلطيخ بالدم هو السمة البارزة فى الصورة القديمة (بنتسنجر (٢) ، العمود ٣٥٩٥ و ٣٥٩٩) .

وتشترك الصورتان في أمرين جوهريين :

(١) الفصح احتفال عائلى ، تقيمه كل أسرة داخل بيتها ، ويشرف عليه بالطبع رب الأسرة .

(٢) الفصح وعيد الفطير منفصلان بعضهما عن بعض ، ومدة عيد الفطير سبعة أيام تعقب ليلة الفصح (١) .

***

ومن المصدر الكهنوتى أيضا جملة آيات أخرى عن الفصح (العدد ٩ : ١ ــ ١٤) تذكر بعض أحكامه التى مرت بنا (الميعاد ، وبعض قواعد الأكل) (٢) ، وتضيف حكما جديدا هو أنه اذا استحال عمل الفصح فى ميعاده (اليوم الرابع عشر من الشهر الأول بين العشاءين) بسبب نجس ناشىء عن لمس جثة ميت أو بسبب سفر بعيد ، فليؤجل الى الشهر الثانى (٣) (فى اليوم الرابع عشر بين العشاءين) والسر فى التأجيل بسبب السفر البعيد أن الفصح (كما رأينا فى الاصحاح ١٢ من سفر الخروج بصورتيه القديمة والمتأخرة) احتفال عائلى ، يستحيل على المسافر بعيدا عن أسرته أن يحتفل به وحده .

وفيما يلى ترجمة العدد ٩ : ١ ــ ١٤ :

١ ــ وكلم الرب موسى فى صحراء سيناء فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر فى الشهر الأول قائلا :

---

(١) ادخلنا في اعتبارنا هنا الخروج ١٢ : ٣ ــ ١٠ .

(٢) لانجد هنا ذكرا للتلطيخ بالدم . وقد مر بنا أن آيات الاصحاح ١٢ من سفر الخروج المستقاة من المصدر الكهنوتى لا تبرز هذه الناحية ، وانما تبرز قواعد الأكل .

(٣) سمى الشهر الثانى لدى اليهود المتأخرين ايار (بكسر الهمزة وتشديد الياء) اخذا من أيرو (بفتح الهمزة وتشديد الياء المفتوحة وضم الراء) لدى البابليين. ويقابله مايو من الشهور الافرنجية .

٢ ـ ليعمل بنو اسرائيل الفصح فى موعده .

٣ ـ فى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر بين العشاءين تعملونه فى موعده ؛ حسب كل فرائضه وكل أحكامه تعملونه .

٤ ـ فحدث موسى بنى اسرائيل أن يعملوا الفصح .

٥ ـ فعملوا الفصح فى الشهر الاول فى اليوم الرابع عشر من الشهر بين العشاءين فى صحراء سيناء ؛ حسب ما أمر به الرب موسى ، هكذا فعل بنو اسرائيل .

٦ ـ وكان رجال قد تنجسوا بجثة رجل ميت فلم يستطيعوا عمل الفصح فى ذلك اليوم ؛ فجاءوا الى موسى والى هرون فى ذلك اليوم .

٧ ـ وقال له أولئك الرجال : لقد تنجسنا بجثة رجل ميت ، فلماذا نترك حتى لا نقرب قربان الرب فى ميعاده بين بنى اسرائيل ؟

٨ ـ فقال لهم موسى : قفوا حتى أسمع ما يأمر به الرب فيكم .

٩ ـ فكلم الرب موسى قائلا :

١٠ ـ حدث بنى اسرائيل قائلا : اذا تنجس أحدكم أو أحد من ذريتكم بجثة رجل ميت أو كان على سفر بعيد فليعمل الفصح للرب .

١١ ـ فى الشهر الثانى فى اليوم الرابع عشر بين العشاءين يعملونه ، مع فطير وأعشاب مرة يأكلونه .

١٢ ـ لا يبقوا منه (شيئا) الى الصباح ، وعظما لا يكسروا منه : حسب كل فرائض الفصح يعملونه .

١٣ ـ أما من كان طاهرا ولم يكن على سفر وترك عمل الفصح ، فلتقطع تلك النفس من شعبها ؛ لأنه لم يقرب قربان الرب فى ميعاده ، يحمل ذلك المرء وزره .

١٤ ـ واذا أقام بينكم غريب وعمل الفصح للرب ، فليعمل الفصح حسب فريضته وحسب حكمه ؛ لتكن فريضة واحدة لكم : للغريب ولابن الأرض .

***

وننتقل الآن الى مصدر ثالث من مصادر التوراة هو مصدر التثنية (D) (سفر التثنية ، الأصحاحات ١٢ ـ ٢٦) ، الذى يرجع (كما سيلى) الى ٦٢٠ ق.م ؛ وهو الأساس الذى بنى عليه الملك يوشياهو ، ملك يهوذا ، اصلاحه الدينى عام ٦٢٢ ق.م .

هذا المصدر يقع من الناحية الزمنية بين المصدر القديم الذى استقيت منه الآيات ٢١ ـ ٢٧ من الأصحاح ١٢ من سفر الخروج ، والمصدر الكهنوتى المتأخر الذى استقيت منه الآيات ١ ـ ٢٠ و٤٣ ـ ٥٠ من ذلك الأصحاح ، وكذلك الآيات ١ ـ ١٤ من الأصحاح التاسع من سفر العدد ٠

من هذا المصدر المتوسط ، مصدر التثنية ، استقيت الآيات ١ ـ ٨ من الاصحاح ١٦ من سفر التثنية ، وهى تعرض لنا صورة لعيدى الفصح والفطير تختلف فى بعض النواحى الهامة عما رأيناه فى المصدرين القديم والمتأخر ٠

وقبل أن نبرز مواضع الخلاف هذه ، نترجم التثنية ١٦ : ١ ـ ٨ :

١ ـ احفظ شهر أبيب (١) واعمل فصحا للرب الهك ، لأنه فى شهر أبيب أخرجك الرب الهك من مصر ليلا ٠

٢ ـ فتذبح (ذبيحة) الفصح للرب الهك غنما وبقرا ، فى المكان الذى يختاره الرب ليحل اسمه فيه (٢) ٠

٣ ـ لاتأكل عليه خميرا ، (بل) سبعة أيام تأكل عليه فطيرا ، خبز العناء ؛ لأنك على عجل خرجت من أرض مصر ، لكى تذكر يوم خروجك من أرض مصر كل أيام حياتك ٠

٤ ـ ولا ير عندك خمير فى منطقتك كلها سبعة أيام ، ولا يبت الى الغد شىء من اللحم الذى تذبح مساء فى اليوم الأول ٠

٥ ـ لا يحل لك أن تذبح (ذبيحة) الفصح بأحد الأبواب التى يعطيها لك الرب الهك (٣) ٠

٦ ـ بل فى المكان الذى يختاره الرب الهك ليحل اسمه فيه ، هناك تذبح الفصح مساء عند مغيب الشمس ، موعد خروجك من مصر ٠

٧ ـ وتطبخ وتأكل فى المكان الذى يختاره الرب الهك ، ثم تنصرف فى الغد وتذهب الى خيامك ٠

---

(١) « شهر أبيب » هنا مقابل « الشهر الأول » فيما مضي . وقد أغفل تحديد اليوم (الرابع عشر) ٠

(٢) « ليحل اسمه فيه » أى ليعبد فيه . والمقصود بالمكان الذى يختاره الرب معبد أورشليم ٠

(٣) أى لا يحل ذبح قربان الفصح عند باب بيت من البيوت التى تسكنونها .

٨ ـ ستة أيام تأكل فطيرا ؛ وفى اليوم السابع اجتماع عيد ، لا تعمل فيه عملا ما ٠

والآن نأتى الى النواحى الهامة التى تفترق فيها هذه الآيات المستقاة من مصدر التثنية (المتوسط) عما رأيناه فى المصدرين القديم والمتأخر (١) :

(ا) عيد الفصح هنا جزء لا يتجزأ من عيد الفطير ، وهما معا سبعة أيام أولها للفصح ؛ ولكن العيدين فى المصدرين الآخرين مستقلان بعضهما عن بعض ، وهما معا ثمانية أيام : يوم لعيد الفصح وسبعة أيام تليه لعيد الفطير ٠

(ب) عيد الفصح هنا يحتفل به فى معبد أورشليم ، لا فى بيوت الأسر المختلفة كما فى المصدرين الآخرين ٠ وتذهب الأسر الى المعبد بقرابينها ، فيتولى الكهنة هناك ذبحها مساء ، وتأكل كل أسرة ذبيحتها ، ثم تعود الى بيتها فى صباح اليوم التالى لتكمل الاحتفال بعيد الفطير ٠

(ج) الذبيحة هنا من الغنم أو البقر ؛ ولكنها فى المصدر القديم (الخروج ١٢ : ٢١) من الغنم . وفى المصدر المتأخر (الخروج ١٢ : ٥) حمل صحيح ذكر ابن سنة من الغنم أو المعز ٠

(د) تؤكل الذبيحة هنا مطبوخة (أى مسلوقة بالماء) ؛ ولكن المصدر المتأخر (الخروج ١٢ : ٨ ـ ٩) يوجب أكلها مشوية ، ويحرم أكلها نيئة (٢) أو مسلوقة (٣) ٠ أما المصدر القديم فهو لا يشير الى طريقة الأكل كما رأينا ٠

والنتيجة التى نخرج بها من هذه المقارنة هى أن المصدر المتوسط

---

(١) انظر مولتون (ص ٦٨٥) وبنتسنجر (٢) (العمود ٣٥٩٦ و ٣٥٩٧ ـ ٣٥٩٨)

(٢) لا يؤكل اللحم نيئا اجتنابا لما فيه من دم ، فأكل الدم حرام (سفر اللاويين ٣ : ١٧ ، ٧ : ٢٦ ـ ٢٧ ، ١٧ : ١٠ ـ ١٤ ، سفر التثنية ١٢ : ١٦ و ٢٣ ، ١٥:٢٣) (مولتون ص ٦٨٦ ، العمود الثانى) .وعقاب أكل الدم هو القطع من شعب اسرائيل (سفر اللاويين ٧:٢٧ ، ١٧:١٠) . وسبب تحريم الدم أن نفس كل جسد هى دمه (سفر اللاويين ١٧ : ١١ و ١٤ ، سفر التثنية ١٢ : ٢٣) . والتكوين ٩ : ٤ يجمع هذا كله في عبارة موجزة : « ولكن لا تأكلوا لحما بحياته دمه » (دمه بدل من حياته ، بدل كل من كل).

(٣) فى العبرية « بشل » للسلق و « صلى » للشى .

أحدث بعض التغييرات الجوهرية فى أحكام المصدر القديم (١) ، ولكن المصدر المتأخر أعاد الوضع الى ما كان عليه :

(ا) كان الفصح وعيد الفطير منفصلين بعضهما عن بعض ويمتدان معا ثمانية أيام ، فأدمج المصدر المتوسط الفصح فى عيد الفطير وجعلهما معا سبعة أيام ، ولكن عاد المصدر المتأخر الى الوضع القديم .

(ب) كان عيد الفصح احتفالا عائليا تحتفل به كل أسرة فى بيتها تحت اشراف رب البيت ، فنقله المصدر المتوسط الى معبد أورشليم وجعله تحت اشراف الكهنة ، ولكن المصدر المتأخر جعله احتفالا عائليا من جديد .

(ج) كانت ذبيحة الفصح من الغنم ، فأضاف المصدر المتوسط البقر ، ولكن عاد المصدر المتأخر فقصرها على الغنم (والمعز) (٢) .

تتبقى أمامنا مسألة السلق والشى . فالمصدر القديم كما رأينا لا يعين أحدهما ، بينما يحدد المصدر المتوسط السلق والمصدر المتأخر الشى . فهل الشى الذى يوجبه المصدر المتأخر هو الوضع القديم هنا أيضا ؟ هذا ما أرجحه ، لأن أكل اللحم مشويا بالنار أقرب الى البداوة وأيسر على الرعاة من أكله مسلوقا فى الماء بعد تقطيعه ووضعه فى القدور ؛ والفصح كما سنرى من أعياد البدو الرعاة (٣) . ولنلاحظ أن طريقة السلق

---

(١) هذه التغييرات هى التى جعلت فصح الملك يوشياهو حدثا جديدا . يقول سفر الملوك الثانى (٢٣ : ٢١ – ٢٣) : « وأمر الملك جميع الشعب قائلا : أعملوا فصحا للرب الهكم كماهومكتوب في سفر العهد هذا (أى مصدر التثنية) . انه لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيام القضاة الذين قضوا بين بنى اسرائيل ، او فى كل أيام ملوك اسرائيل وملوك يهوذا . ولكن فى السنة الثامنة عشرة للملك يوشياهو (أى عام ٦٢٢ ق.م) عمل هذا الفصح للرب فى أورشليم (أى فى معبد أورشليم) » .

(٢) لا فرق فى الواقع بين الغنم والمعز فى هذا الصدد ، فهى جميعها ماشية الراعى ، والفصح كما سيلى من أعياد الرعاة،اما البقر فهى تنتمى الى حياة الفلاحة . واللغة العبرية نفسها تستعمل كلمة واحدة « سى » (باماله حركة السين امالة طويلة = شاء في العربية اشتقاقا) للدلالة على الواحد من الغنم أو المعز ، فاذا أرادت التحديد أضافت تلك الكلمة الى « كباسيم » للدلالة على الغنم أو عزيم (بتشديد الزاى) للدلالة على المعز (مثل الخروج ١٢ : ٥ والعدد ١٥ : ١١ والتثنية ١٤ : ٤) .

(٣) يقول مولتون (ص ٦٨٥ ، العمود الثانى) أن بعض مواضع العهد القديم تشير على ما يبدو الى أن طريقة السلق اقدم من طريقة الشى فى اعداد القرابين (القضاة ٦ : ١٩ – ٢١ ، صموئيل الأول ٢ : ١٣ ، ١٥) . ويذكر أن بعض العلماء يعتقدون أن طريقة السلق أخذت تحل محلها بعد ذلك طريقة الشي التى تنم عن حس أرهف وذوق أرفع .

التى تستلزم كسر عظام الحمل وتقطيع اوصاله حتى يمكن وضعه فى القدور لا تتفق وما حرمه المصدر المتأخر (الخروج ١٢ : ٤٦ ، العدد ٩ : ١٢) من كسر عظام الحمل اثناء الاكل • وتحريم الكسر ليس مقصورا على فترة الاكل ، فعند شى الحمل يجب أن يشوى بأكمله دون أن نقطع رأسه وأكارعه أو تزال أحشاؤه (الخروج ١٢ : ٦) • فالحمل وهو يشوى أو يؤكل يجب أن يحتفظ بهيكله سليماً ؛ ولهذا دلالته كما سنرى •

ونخلص من هذا كله الى أن المصدر المتأخر صدى للمصدر القديم • ولقد لاحظنا فيما مضى أن المصدر القديم يبرز مسألة التلطيخ بالدم ، بينما يبرز المصدر المتأخر قواعد الأكل خاصة • ولكن ليس هذا خلافا يتعلق بحقائق الموضوع ، وانما هو خلاف فى وجهة الاهتمام • فيجدر بنا أن نعتبر المصدر المتأخر مكملا للمصدر القديم ، وأن نفيد من تفاصيله العديدة فى تصوير الفصح كما كان قديما •

***

الفصح احتفال ليلى (١) يقع بين الغروب والشروق ، وليلة الاحتفال هى ليلة البدر من أقرب شهر الى الاعتدال الربيعى (٢)Vernal Equinox أى ليلة الرابع عشر من شهر أبريل (أوسترلى وروبنسون ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠) • فهو احتفال يقام فى مستهل الربيع ، وله علاقة بالقمر لاريب فيها ، لأنه يقام فى ليلة البدر حين يكون القمر فى تمامه (مولتون ، ص ٦٨٩، العمود الثانى ـ ص ٦٩٠ ، العمود الأول) •

والفصح احتفال عائلى يدور حول ذبيحة ذكر من الغنم أو المعز ، سليمة من العيوب ، مضى عليها حول ، تؤخذ فى العاشر من الشهر (٣) ، وتحفظ فى البيت حتى الرابع عشر ، فيذبحها رب الأسرة بين العشاءين

ونعقب على هذا بأن قدم السلق فى عهد القضاه وصموبل ، أى بعد انتقال العبريين الى كنعان ، لا ينفى قدم الشى في عهد البداوة قبل دخولهم فلسطين .

(١) تنفرد ذبيحة الفصح ، بين كافة القرابين ، بأنها تذبح مساء (بنتسنجر (٢)، العمود ٢٥٩٦) •

(٢) « الاعتدال » هو الوقت الذى يتساوى فيه الليل والنهار ، وهذا يحدث مرتين فى السنة : فى ٢١ أو ٢٢ مارس (الاعتدال الربيعى) و ٢٢ أو ٢٣ سبتمبر (الاعتدال الخريفى) •

(٣) اى قبل ذبحها ببضعة أيام لتعلف جيدا . ولعل اختيار اليوم العاشر لأن للعدد عشرة دوراً هاما فى حساب العبريين (وغيرهم من الشعوب السامية) ، ومن أمثلة ذلك العشر والوصايا العشر • انظر برتولت ، ص ٢٩٧

عند باب البيت (١) • ويوضع الدم فى طست ، وتؤخذ حزمة من الزوفا ، وتغمس فى الدم لتلطخ به عتبه الباب العليا وقائمتاه • ثم تشوىالذبيحة بتمامها ، ويأكلهـا أفراد الأسرة ومن ينزل منزلتهـم (العبد المشـترى والغريب المقيم اذا ختنا) ، دون أن يكسروا منها عظما • يأكلونها داخل البيت ، فلا يخرج شيء من اللحم الى الخارج ، بل لايخرج أحد من البيت حتى الصباح • وأكلهم على عجل ، لكى يأتوا على الذبيحة قبل أن يشرق الصباح (٢) ، فان بقى منها شيء فليحرق بالنار • ويؤكل اللحم مع فطير وأعشاب مرة •

هذه الذبيحة التى لا تتجاوز العام تمثل باكورة قطيع الراعى من الغنم والمعز ، يقدمها الراعى قربانا الى القمر ، وهو من آلهه الخصب ، ليبارك قطيعه ويكفل تكاثره فى العام التالى (٣) ، يقدمها الراعى الى اله القمر ليلة البدر حين يكون فى أوج مجده (أوسترلى وروبنسون ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢) • فوليمة الفصـــح وليمة قربان مقـدم الى اله القمـر ، والمشتركون فيها من أهل البيت ضيوف على الاله صـــاحب القربان ، يشاركونه فى طعامه (٤) ويجددون بذلك مابينه وبينهم من عهد وميثاق • وما داموا يأكلون فى حضرة القمر ، فلا بد أن يفرغوا قبل أن يحتجب ، ولهذا يأكلون على عجل لكى يأتوا على الذبيحة قبل أن يشرق الصـــبح (أوسترلى وروبنسون ، ص ١٣١) ، فان بقى منها شيء فليحرق بالنار ، لأنه طعام مقدس لا يجوز أن يصيبه الفساد (بنتسنجر (٢) ، العمـــود ٣٥٩٩) • ولا يجوز كسر عظم من عظام الذبيحة عند أكلها حتى لا يكون ذلك نذيرابكسر أو ضرر يصيب القطيع خلال العام الجديد ، وانما يجب أن يبقى هيكل الذبيحة سليما عنـد الأكل كما حفظ سليما حين شـوى بتمامه على النار (٥) • ويؤكل مع اللحم فطير ، أى لا يؤكل خمير ، لأن

---

(١) كانت الذبيحة تذبح عند باب البيت بدليـل تحريم ذلك فى التثنيـة ١٦ :٥ كما مر •

(٢) هـــذا هو سبب الاكل على عجـــل • اما الحكم بأن يلبس الآكلون لبـاس المتاهب للسفر فهو ليس حكما أصليا من احكام الفصح ، وانما مرجعه ربط الفصح بقصة الخروج •

(٣)اختيرت الذبيحـة ذكرا لا انثى ، لأن ذبح الأنثى (التى تلد) يتعارض وفكرة التكاثر المطلوب •

(٤) القــرابين هى « طعام الله » (لحم الوهيـــم) (سفر اللاويين ٢١ : ٦ ، ٨ ، ١٧) •

(٥) يرى بنتسنجر (٢) (آخر العمود ٣٥٩٨) أن عدم كسر العظام أو قطــع الرأس يرمز الى الوحدة التى تؤلف بين المشتركين فى الوليمة •

الاختمار ضرب من التعفن والفساد لا يجوز في هذه الوليمة المقدسة ، هذا الى أن خبز الرعاة هو في العادة بدون خمير لتنقلهم الدائم من مرعى الى مرعى (موسكاتي في الفصل الثالث من كتابه هذا) (١) . وتؤكل مع اللحم أيضا أعشاب مرة لطرد الأرواح الشريرة من البيت (٢) ، هذا الى أن الأعشاب المرة نبات الصحراء (٣) .

وطـرد الأرواح الشريرة هو الغـرض أيضـا من تلطيخ عتبـة الباب العـليا وقائمتيه بدم الذبيحة بعد ذبحها عند البـاب ، فهـذا هو الغرض من طقوس مماثلة في بلاد العرب وسوريا وفلسطين وبين كثير من الشعوب في افريقية وامريكا (لودز (١) ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ، وبرتولت، ص ١٣٧ ـ ١٣٨) . واستعمال حزمة من الزوفا في عملية التلطيخ له أيضا دلالته ، فان العبريين كانوا يستعملون هذا النبات في طقـوس التطهير (سفر اللاويين ١٤ : ٤ وما بعدها ، ١٤ : ٤٩ وما بعدها ، العدد ١٩ : ٦ ، ١٨ ، وفي سفر المزامير ٥١ : ٩ : « طهرني (يا الهي) بالزوفا فأطهر .. ») .

***

هذا تصورنا للفصح كما كان يحتفل به العبريون قديما ، حينما كانوا بدوا رعاة يعبدون القمر ويستنزلون بركته على قطعانهم ، ويبعدون الأرواح الشريرة عن البيت بالدم والأعشـاب المرة . وقد بقيت مـلامح هذه الصورة بعد تحول العبريين الى عبادة يهوه ، ولكنهم صاروا ينظرون الى

---

(١) من الطبيعي أن يصنـع المرء خبزه دون خمير اذا كان على عجـل ، انظر التكوين ١٨ : ٦ ، ١٩ : ٣ .

(٢) يقول لودز (١)ص ٢٩٤ : «اعتاد الناس فى عيد المرتى ببلاد اليونان قديما ان يمضغوا أوراق حزنوب الماعز buckthorn والغار bay لمنع الشياطين من الدخول . بل انه في القرن الثامن عشر كان الاغريق المحدثون يتصورون الوباء شبحا رهيبا يضع خلال الليل علامات لا تمحى على البيوت التى ينوى دخولها ، وكانوا يعتقـدون أن الوسيـلة الوحيدة لرد زيارتة هى اكل الثوم » . ويقول برتولت (ص ٣٤٨) : « ... فى عيد جميع الارواح All Souls باليونان ، عند ما كانت الارواح تهيم هنا وهناك ، كانت تؤكل أعشاب مرة للوقاية من تأثير الشياطين ومنعها من دخول الفم »

(٣) كان يقال لـجد امرىء القيس الشـاعر « آكل المرار » . يقول صـاحب القاموس : « والمرار بالضم شجر مر من أفضل العشب واضخمه اذا أكلتها الابل قلصت مشافرها فبدت اسنانها ، ولذلك قيل لجد امرىء القيس آكل المرار لكثرة كان به » .

ذبيحة الفصح على أنها قربان ليهوه دون غيره (١) ·

وكان يحتفل بالفصح في مستهل الربيع ، لأنه موسم النتاج للماشية (سميث (٢) ، ص ٤٦٥) · فلما انتقل العبريون الى كنعان ، وجدوا هناك عيدا آخر من أعياد الربيع كان يحتفل به في بداية الحصاد ، فأخذوه عن الكنعانيين وصار عندهم اساسا لعيد الفطير (بنتسنجر (٢) العمود ٣٥٨٩ – ٣٥٩٣) · وهكذا ارتبط عيد الفصح القديم الذى أتى به العبريون من الصحراء بعيد الفطير الذى لم يعرفوه الا في كنعان ، وان ظلا عيدين منفصلين (كما رأينا في الأصحاح ١٢ من سفر الخروج) (٢) ·

وقد رأينا أن التوراة تربط كلا هذين العيدين بقصة الخروج من مصر ، وتفسر بعض أحكامهما بأحداث معينة في هذه القصة : (١) فوضع الدم على الباب يراد به أن يكون علامة يراها الرب فيترك مساكن العبريين دون أن يمسها بأذى ، (٢) واتخاذ لباس المتاهب للسفر أثناء اكل الذبيحة سببه العجلة التى صاحبت الخروج ، (٣) وأكل الفطير سببه أن العبريين حملوا عجينهم قبل أن يختمر « لأنه لم يمكنهم التأخر » ·

هكذا تربط التوراة عيد الفصح بقصة الخروج مع أنه أقدم منها ، وتربط عيد الفطير بها أيضا مع أنهم لم يعرفوه الا بعد ذلك في كنعان · ومنشأ هذه الرابطة ، في ظننا ، أن سبب الخروج كان الرغبة في الاحتفال بالفصح في الصحراء ، ففسرت بعض أحكام العلة (أى أحكام الفصح) ببعض أحداث المعلول (أى أحداث الخروج) ·

والتوراة لا تصرح بأن سبب الخروج كان الرغبة في الاحتفال بالفصح

---

(١) يقول لودز (١) ، ص ٢٩١ : « لا ريب في أن عيد الفصح من بقايا الدين السامى القديم التى حفظت خير حفظ وتقبلها دين يهوه وأبقى عليها » ·

(٢) لم يكن لعيد الحصاد موعد محدد في الاصل لانه كان مرهونا بنضج المحصول ، ولكن ارتباطه فيما بعد بعيد الفصح جعل له موعدا محددا هو الأسبوع اللاحق لليلة الفصح ·

وقد سمى عيد الفطير بهذا الاسم نظرا الى أقراص الفطير التى كانت تخبز على عجل (دون خمير) لينال الاله في أسرع وقت ممكن نصيبا من المحصول الجديد ، اذ لم يكن يجوز لاحد أن يأكل منه حتى ينال الاله نصيبه (برتولت ، ص ٣٥١ – ٣٥٢)· ويرى بنتسنجر (٢) ، عمود ٣٥٩١ ، أن اعباء جمع المحصول لم تكن تترك فراغا للناس ولهذا كانوا يأكلون الخبز دون خمير ، ولما كانت القرابين العادية التى تقدم الى الاله تتكون في أقدم الازمان من ألوان الطعام التى يأكلها الناس أنفسهم ، فقد اختار الحاصدون أقراص الفطير قربانا لالهم ، وبعد ذلك حلت محلها « حزمة أول الحصيد » (سفر اللاويين ٢٣ : ٩ – ١١) ·

خاصة ، ولكنها تنص على أن العبريين كانوا يريدون الخروج بعيـــدا فى الصحراء ، بأسرهم وقطعانهم كلها ، ليحتفلوا هناك بعيد للرب يقدمون فيه الذبائح له (١) • فلعل هذا العيد هو الفصح ، أراد العبريون أن يحتفلوا به في الصحراء لأنه (كما رأينا) عيـــد بدوى فى الأصل ، وأرادوا أن يخرجوا بأسرهم وقطعانهم كلها للاحتفال به ، فتقيم كل أسرة احتفالهـا (العائلى) الخاص ليبارك الرب قطيعها • فلما أبى فرعون أن يطلقهم رغم البلايا التى ابتلى بها الرب أرض مصر (سفر الخروج ، الأصحاحات ٧ ـ ١٠) عبر الرب أرض مصر فى الرابع عشر من الشهر الأول ليلا ، وأهلك « كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم » ، ولكنه تجاوز بيوت بنى اسرائيل حين رأى علامة الدم عليها فلم يمسها بأذى (الاصحاح ١٢) (٢)•ومعنى هذا فى ظننا أنه حين حل الرابع عشر من شهر أبيب ، موعد الفصح ، دون أن يستطيع العبريون الاحتفال به ، عاقب الرب قوم فرعون فى تلك الليلة نفسها • فوقوع العقاب فى تلك الليلة دليـل على أن العيـد الذى كان العبريون يريدون الاحتفال به هو عيد الفصح ، لأن ميعاد الفصح هو تلك الليلة من كل عام •

ونوع العقاب الذى أنزله الرب فى تلك الليلة ، وهو اهلاك كل بكر من الناس والبهائم ، يشير الى أن العبريين كانوا يريدون تقديم بواكير قطعانهم ذبائح للرب ، فلما حيل بينهم وبين ذلك ، أهلك الرب كل بكر من بهائم المصريين ، وكل بكر من أبنائهم أيضا ، فنوع العقاب يشير الى أن ذبيحة الفصح باكورة (٣) •

---

(١) يقول سفر الخروج ٥ : ١ ـ ٣ : « وبعد ذلك دخل موسى وهرون وقالا لفرعون : هكذا يقول الرب اله اسرائيل : أطلق شعبى ليعيدوا لى فى الصحراء .(٢) فقال فرعون : من هو الرب حتى اسمع لقوله واطلق اسرائيل ؟ لا اعرف الرب ، ولن أطلق اسرائيل • (٣) فقالا له : ... فلنذهب مسيرة ثلاثة ايام في الصحراء ، ونذبح للرب الهنا ، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف » .

وفى ١٠ : ٩ : « فقال موسى : نذهب بفتياننا وشيوخنا ، نذهب ببنينا وبناتنا ، بغنمنا وبقرنا ، لأن لنا عيدا للرب » .

(٢) فاضطر فرعون الى اطلاق بنى اسرائيل حتى لايموت المصريون جميعا ، بل ان المصريين كانوا يتعجلون بنى اسرائيل فى الخروج (١٢ : ٣٠ ـ ٣٣) .

(٣) هذا يؤيد نظرية البواكير (بواكير التطبيع) التى أقمنا عليها تفسيرنا للفصح فيما مضى • ويؤيد هذه النظرية ايضا أن فريضة الفصح (والفطير) تذكر في مجال واحد مع فريضة أخرى هى أن يقرب الى الرب « كل بكر ، كل فاتح رحم ، من بنى اسرائيل : من الناس والبهائم » (الخروج ١٣ : ١ ـ ١٦ ، ٣٤ : ١٨ ـ ٢٠ ، التثنية من ١٥ : ١٩ الى ١٦ : ٨) ، وتربط الرواية اليهودية (الخروج ١٣ : ١٥) هذه الفريضة الثانية بقصة الخروج أيضا .

والخلاصة ان الفصح عيد بدوى قديم من أعياد الرعاة ، كانت كل أسرة من أسر العبريين تحتفل به ليلا فى بيتها ، فتقدم باكورة قطيعها قربانا للقمر فى أول الأمر ثم ليهوه فيما بعد ، لكى يبارك قطيعها ويكفل تكاثره • وكان موعد الفصح فى مستهل الربيع (١٤ ابريل) ، ولهـــذا ارتبط به عيد آخر من أعياد الربيع (عيد الحصاد) وجده العبريون فى كنعان ، فجعلوه لاحقا للفصح •

ونظرية البواكير ، مع اختلافات في التفاصيل ، هى السائدة بين العلماء في تفسير الفصح ، وقد أورد مولتون (ص ٦٨٨ ـ ٦٨٩) عرضا لها حسب فلهاوزن • ويؤيدها سميث (٢) ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ •

وهناك نظريات اخرى فى تفسير الفصح أشار اليها مولتون فى الموضع المذكـور، منها نظرية كايزر ـ مارتى Kayser-Marti ، وهى تقول ان الفصح في الأصل لم يكن مرتبطا بالربيع او البواكير ، وانما كان احتفالا يراد به حماية البيت من كل اذى فى أوقات الوباء ، فكان باب البيت يلطخ بالدم لعقد ميثاق من الدم مع آلهـة البيت Hausgötter التى تقيم عند الباب ، وهذا الميثاق يقضي بأن تتولى هذه الآلهة حماية أهل البيت . ويؤيد هذه النظرية أيضا بنتسنجر (٢) (العمود ٣٥٩٥ ـ ٣٥٩٦) • وانظر أيضا لودز (١) ، ص ٢٩١ ، الهامش الرابع .

ونضيف فيما يلى تفسيرى لودز وجاستر :

أ ـ تفسير لودز : يرجح لودز (١) (ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤) النظرية التى ترى أن عيد الفصح قبل موسى كان اليوم الذى تقدم فيه بواكير القطيع قرابين ، ولكنه يرى أن القربان لم يكن يقدم الى اله قمرى ، والا لاقيم الحفل فى العراء فى ضوء القمر لا داخل البيت ، ولما حرم الخروج من البيت حتى الصباح ، وانما يرى ان الغرض من تقديم القربان هو مساعدة صاحب القطيع على أن يشـــارك مشاركة حرة مأمونة فى النتاج الجديد (صغار الحملان والمعز) دون أن يغضب « روح » spirit القطيع أو يصرفها بعيدا ، تلك الروح التى هى سبب تكاثر القطيع . وكان الظن أن هذه الروح مركزه فى أول حيوان يولد فى الموسم ، ولهذا كان يذبح هذا الحيوان لازالة الروح عن بقية النتاج الجديد ، ومن هنا كان يلزم أكل الحيوان بأكمله . وكان الدم يحفظ بعناية خاصة (فى طست) ، ولا يكسر عظم من عظام الذبيحة ، حتى تولد الروح من جديد وتكفل خصوبة القطيع في المستقبل .

هذه الطقوس أقرب الى السـحر منهـا الى التكفير ، وقد اضـيفت اليها فيما بعد طقوس اخرى مماثلة يراد بها حماية القطيع والبيت من اية كوارث خلال العام الجديد ولا سيما الاوبئة ، وذلك كتلطيخ باب البيت بالدم ، ولعل من ذلك أيضـــا أكل الأعشاب المرة .

ب ـ تفسير جاستر : يرى جاستر (٢) (ص ٣٣ ـ ٣٥) أن عيد الفصح فى الأصل عيد موسمى seasonal له نظائر فى أنحاء كثيرة من العالم . والغرض من مثل هذه الأعياد تدعيم أواصر القرابة والجمـاعة فى بداية الدورة الزراعية الجديدة (دورة الربيع) ، وذلك بالاشتراك فى وليمة واحدة ، اذ يتحقق بالوليمة المشتركة ـ

وكان الغرض من خروج العبريين من مصر ، كما يفهم من التوراة، الاحتفال بعيد الفصح في الصحراء ، ولهذا ارتبط عيد الفصح بقصة الخروج مع أنه أقدم منها ، ففسرت بعض أحكامه ببعض أحداثها ، بل عد عيد الفصح ذكرى ليوم الخروج • ولما كان عيد الفطير (عيد الحصاد) لاحقا للفصح ، فقد ارتبط هو أيضا بقصة الخروج ، مع أن العبريين لم يعرفوه الا بعد استقرارهم في كنعان •

* * *

(٣٠) عيد الأسابيع (شابوعوت) (كما يسمى في الخروج ٣٤ : ٢٢، والتثنية ١٦ : ١٠و١٦ ، وسفر أخبار الأيام الثاني ٨ : ١٣) أو عيد الحصاد (قاصير) (كما يسمى في الخروج ٢٣ : ١٦) أو يوم البواكير (بكوريم) (كما يسمى في العدد ٢٨ : ٢٦) هو عيد نهاية الحصاد (حصاد الغلال) ، كما أن عيد الفطير (الذى يبدأ في ١٥ ابريل ، كما رأينا في الهامش السابق) هو عيد بداية الحصاد (أو « ابتداء المنجل في العيدان » كما يقول سفر التثنية ١٦ : ٩) • وكان يفصل بين العيدين سبعة أسابيع (٧ × ٧ = ٤٩) (١) ، ولهذا سمى عيد الأسابيع فيما بعد اليوم «الخمسين» Pentecost (عن اليونانية) • وكانت هذه الأسابيع السبعة مدة الحصاد : حصاد الشعير أولا (لأن الشعير ينضج أولا) ، ثم حصاد الحنطة

= امتصاص غذاء واحد . ولما كان الغذاء يمد الانسان بحياة جديدة ونشاط جديد ، وجب أن يكون نقيا خاليا من العفن . ومعنى هذا في بلد من بلاد الشرق الأدنى كفلسطين ان يؤكل الطعام على عجل ، ولا يترك في الشمس . ومعنى هذا ايضا انه لا يصح ان يؤكل معه أى طعام مختمر ، لأن الاختمار نتيجة التعفن ، وفى الوقت نفسه يجب أكل اعشاب مرة لتكون مطهرا فعالا ضد أى طعام فاسد يؤكل سهوا . ومن الضرورى بعد الوليمة أن توضع علامة ظاهرة على أولئك الذين اشتركوا فيها ، والطريقة المألوفة لذلك أن يرش بعض دم الحيوان على جباه الآكلين أو على اطراف خيامهم أو قوائم ابوابهم . ورش الدم يحقق غرضا آخر ، ففى المجتمعات البدائية لا تتكون الأسرة من أعضائها البشر فقط ، بل تضم أيضا الهها ، وهذا الاله يعتبر حاضرا خلال الوليمة ومرتبطا بالرباط الذى عقدته ، ولهذا كان وضع علامة الدم وسيلة يعرف بها الاله أولئك الأشخاص أو الأسر الذين ارتبط معهم بميثاق من الصداقة والحماية ، فلا يلحق بهم ضررا .

يقول جاستر ان الاسرائيليين أخذوا هذا التقليد البدائى وربطوه بتجربتهم التاريخية الخاصة (قصة خروجهم من مصر) ، فكان عيد الفصح .

(١) هذه الأسابيع السبعة تدرج العيد فى النظام السبتى sabbatical system الذى رتبت الأعياد العبرية وفقه (بيرفز ، ص ٤٧١ ب)

بعده بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، فكان عيد الفطير احتفالا ببدء حصاد الشعير ، وكان عيد الأسابيع احتفالا بختام حصاد الحنطة · (١)

يقول سفر التثنية ١٦ : ٩ ـ ١٢ عن عيد الأسابيع :

(٩) سبعة أسابيع تحسب لنفسك ، من ابتداء المنجل فى العيدان تبدأ الحساب ، سبعة أسابيع ·

(١٠) وتعمل عيد الأسابيع للرب الهك حسب ما تستطيع يدك أن تقدمه ، كما باركك الرب الهك ·

(١١) وتفرح أمام الرب الهك (٢) أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك واللاوى الذى فى مسكنك والغريب واليتيم والأرملة الذين فى وسطك، فى المكان الذى يختاره الرب الهك ليحل اسمه فيه (٣) ·

(١٢) وتذكر أنك كنت عبدا فى مصر ، وتحفظ هذه الفرائض وتعملها ·

ونلاحظ أن هذه الآيات لم تحدد نوع القرابين ، بل ترك اختيارها للمحتفلين بالعيد من الحاصدين · ولكن نجد تحديدا لنوع القرابين فى موضعين آخرين : سفر اللاويين ٢٣ : ١٥ ـ ٢٢ (من قانون القداسة Law of Holiness) وسفر العدد ٢٨ : ٢٦ ـ ٣١ (من المصدر الكهنوتى)، فارجع اليهما ·

انظر بنتسنجر (٣) ، وبيرفز ، وبرتولت ، ص ١٩٩ و ٣٥٢ ·

---

(١) تعريف سفر الخروج ٣٤ : ٢٢ لعيد الأسابيع أدق اذن من تعريف الخروج ٢٣ : ١٦ ، فالأول ينص على أن العيد عيد حصاد الحنطة خاصة :

الخروج ٣٤ : ٢٢ (من المصدر اليهوى) : « وتصنع لنفسك عيد الاسابيع (عيد) أبكار حصاد الحنطة » .

الخروج ٢٣ : ١٦ (من المصدر الالوهيمى) : « وعيد الحصاد (عيد) أبكار غلاتك التى تزرعها في الحقل » .

(٢) من هذا يتبين أن الفرح الذى كان يشعر به الحاصدون كان ينعكس أيضاعلى طقوسهم الدينية التى يقيمونها شكرا للرب على نعمته . وقد جرى الفرح بالحصاد مجرى الأمثال ، فقال اشعيا ٩ : ٢ « .. يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد .. » . وفى المزمور ١٢٦ : ٥ : « الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج » .

(٣) اى الهيكل . ولكن لابد أن الاحتفال كان فى الأصل احتفالا شعبيا يقام فى الحقول والسهول . ومن المعروف أن مصدر التثنية يركز جميع الاحتفالات الدينية فى هيكل أورشليم ·

وقد ربطت الرواية اليهودية فى العصور المتأخرة هذا العيد بوصول بنى اسرائيل الى جبل سيناء فى « الشهر الثالث » بعد خروجهم من ارض مصر (الخروج ١٩ : ١ ـ ٢) ، وبتلقى موسى الوصـايا العشر من الرب (الخروج ٢٠) • انظر بنتسنجر (٣) العمود ٣٦٥١ أسفل ، وبيرفز ، ص ٧٤٢ أ ، وجاستر (٢) ص ٥٩ ـ ٧٩ •

(٣١) عيد المظال كان يسمى فى الأصل عيد الجمع (أسيف) (أى جمع محصول العنب) (الخروج ٣٤ : ٢٢ ، من مصدر اليهودى ، ٢٣ :١٦، من المصدر الالوهيمى) ، ثم غلب عليه بعد ذلك (كما فى سفر التثنية ١٦: ١٣ ، ١٦ ، من مصدر التثنية ، وسفر اللاويين ٢٣ : ٣٤ ، من قانون القداسة) اسم عيد المظال (سكوت ، بضم السامخ وتشديد الكاف ، جمع سكا « ظلة ، مظلة » ، من مادة سكك) ، فقد كانوا يقيمون فى بساتين العنب أثناء جمع المحصول مظال من فروع الأشجار المورقـــة ليستظلوا بها من الشمس أو يأووا اليها فى الليل •

وكان جمع محصول العنب (فى الخريف) ختام السنة الزراعية ، ولهذا نص سفر الخروج (٢٣ : ١٦ ، ٣٤ : ٢٢) على أن « عيد الجمع فى نهاية السنة » • ومناسبة العيد هى بالطبع جمع محصول العنب ، ولكن لا ريب فى أنه كان ينظر الى هذا العيد دائما على أنه احتفال بختام السنة الزراعية كلها ، بعد أن جمع محصول الشعير ثم محصول الحنطة وبدأ جمع محصول العنب • والدليل على هذه النظرة الى العيد قول سفر الخروج ٢٣: ١٦ : « وعيد الجمع فى نهاية السنة عندما تجمع غلاتك من الحقل » (١) (فالغلات أعم من العنب) ، وقول سفر التثنية ١٦ : ١٣ : « تعمل لنفسك عيد المظال سبعة أيام ، عندما تجمع من جرنك ومن معصرتك » ، أى بعد أن تجمع الغلال (التى يرمز اليها بالجرن) وعندما تجمع العنب (الذى يرمز اليه بالمعصرة) •

ولما كان عيد المظال احتفالا بختام السنة الزراعية كلها (فضلا عن جمع العنب) ، فقد كان أهم الأعياد الزراعية الثلاثة التى عرفها بنــو اسرائيل فى كنعان : عيد الفطير (الهامش ٢٩) ، وعيد الأسابيع (الهامش ٣٠ (٢) ، وعيد المظال • وقد بلغ من أهميته أنه سمى « العيد » اطلاقا (سفر الملوك الأول ٨ : ٢ ، ٦٥ = سفر أخبار الأيام الثانى ٥ : ٣ و ٧ :

---

(١) نجـــد مثل هذه العبارة ايضـــا فى سفر اللاويين ٢٣ : ٣٩ ، كما سيلى .
(٢) عيد الأســـابيع اقلها اهمية ، وكان (كما رأينا) يحتفل به يوما واحدا

٨ ، حزقيال ٤٥ : ٢٥ ، نحميا ٨ : ١٤) ، و « عيد الرب » (سفر اللاويين ٢٣ : ٣٩ ، القضاة ٢١ : ١٩) •

ونورد فيما يلي ما يقوله سفر التثنية ١٦ : ١٣ ـ ١٧ عن عيد المظال :

(١٣) تعمل لنفسك عيد المظال سبعة أيام ، عندما تجمع من جرنك ومن معصرتك •

(١٤) وتفرح في عيدك ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك واللاوى والغريب واليتيم والأرملة الذين في بيتك •

(١٥) سبعة أيام تعيد للرب الهك ، في المكان الذى يختاره الرب (١) لأن الرب الهك يباركك في كل محصولك وفي كل عمل يديك فلا تكون الا فرحا •

(١٦) ثلاث مرات في السنة يرى جميع ذكورك وجه الرب الهك في المكان الذى يختاره : في عيد الفطير وفي عيد الأسابيع وفي عيد المظال ، ولا يروا وجه الرب فارغين(٢) •

(١٧) كل حسب ما تعطى يده ، كبركة الرب الهك التى أعطاها لك•

***

وننتقل الآن الى قانون القداسة ، وهو يلى مصدر التثنية في الزمن، فنترجم سفر اللاويين ٢٣ : ٣٣ ـ ٣٦ و ٣٩ ـ ٤٣ :

(٣٣) وكلم الرب موسى قائلا :

(٣٤) كلم بنى اسرائيل قائلا : في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع عيد المظال سبعة أيام للرب •

(٣٥) في اليوم الأول اجتماع عبادة ، لا تعملوا عملا من الأعمال •

(٣٦) سبعة أيام تقدمون قربانا الى الرب ، وفي اليوم الثامن يكون لكم اجتماع عبادة ، وتقدمون قربانا الى الرب ، هو اجتماع عيد ، فلا تعملوا عملا من الأعمال •

(٣٩) أما في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع ، عندما تجمعون

---

(١) أى في هيكل اورشليم •

(٢) أى يجب أن يكون معهم قرابين شكر لله •

غلة الأرض ، فتعيدون عيد الرب سبعة أيام ، فى اليوم الأول عطلة وفى اليوم الثامن عطلة .

(٤٠) وتأخذون لأنفسكم فى اليوم الأول ثمر أشجار بديعة ، وسعف نخل ، وأغصان أشجار كثيفة (١) ... ، وتفرحون أمام الرب الهكم سبعة أيام .

(٤١) وتعيدونه عيدا للرب سبعة أيام فى السنة ، فريضة أبدية عليكم جيلا بعد جيل ، فى الشهر السابع تعيدونه .

(٤٢) فى المظال تسكنون سبعة أيام ، كل أبناء البلاد فى اسرائيل يسكنون فى المظال .

(٤٣) لكى تعلم أجيالكم أنى فى مظال أسكنت بنى اسرائيل عندما أخرجتهم من أرض مصر ، أنا الرب الهكم .

***

ففى الآيات ٤٠ ـ ٤٢ من هذا النص يتضح الطابع القديم لعيد المظال ، حين كان الجامعون لمحصول العنب يأوون الى مظال فى البساتين مصنوعة من سعف النخل وأغصان الأشجار الكثيفة الورق ، أى حين كانوا يحتفلون بالعيد فى البساتين (٢) ، لا فى هيكل أورشليم كما يقضى سفر التثنية (١٦ : ١٦) جريا على عادته من تركيز الاحتفالات الدينية فى الهيكل .

وكان المحتفلون بالعيد يأوون الى المظال لتقيهم حرارة الشمس أو برودة الليل ، ولكن نص اللاويين (فى الآية الأخيرة) يحاول تفسير هذه العادة تفسيرا تاريخيا ، فيقول ان المحتفلين بالعيد يجب أن يسكنوا فى المظال ، كما كان آباؤهم يسكنون فى المظال وهم يجوبون الصحراء بعد خروجهم من مصر . ولكن يقول جاستر (٢) (ص ٨٤) ان هذا تفسير خيالى ، لأن الذين يجوبون الصحراء يعيشون فى خيام لا فى مظال ، فان الخشب والأغصان الخضراء لا تتاتى الا فى حالات قليلة متناثرة .

ونصا التثنية واللاويين متفقان فى أن السمة المميزة لهذا العيد هى

---

(١) انظر فى هذا الصدد أيضا نحميا ٨ : ١٥ .

(٢) كان من مظاهر هذا الاحتفال رقص النساء بين الكروم (القضاة ٢١ : ١٩ ـ ٢١) .

الفرح الشامل العميم • وقد رأينا مثل هذا الفرح فى عيد الأسابيع الذى كان يحتفل به فى ختام حصاد الحنطة •

ومدة عيد المظال سبعة أيام فى كل من النصين ، وان أضاف اليه نص اللاويين يوما ثامنا يعقدون فيه اجتماع عبادة ، ولا يعملون عملا من الأعمال •

ولا يحدد نص التثنية تاريخ بداية العيد (اذ المعول فى ذلك أصلا على موعد نضج محصول العنب) ، ولكن نص اللاويين يحدد بدايته بالخامس عشر من الشهر السابع (أكتوبر) • (انظر كلامنا عن هذا الشهر فى صدر الهامش التالى) •

ولا يحدد نص التثنية القرابين التى تقدم الى الرب فى العيد ، وانما يترك هذا للناس كل حسب قدرته واختياره • كذلك لا يحدد نص اللاويين هذه القرابين ، وان كان يقضى بأن يقدم قربان كل يوم من الايام السبعة ثم قربان فى اليوم الثامن • ولكن سفر العدد ٢٩ : ١٢ ـ ٣٨ ، وهو من المصدر الكهنوتى ، يقضى (للأيام الثمانية) بقرابين كثيرة متنوعة (كما هى عادة المصدر الكهنوتى) ، فارجع اليه • وهو ، كنص اللاويين، يجعل العيد سبعة أيام تبدأ بالخامس عشر من الشهر السابع (الآية ١٢) ويلحق بها يوما ثامنا لا يعمل فيه عمل ما (الآية ٣٥) ، ويقضى بأن يعقد فى اليوم الاول اجتماع عبادة ولا يعمل فيه عمل ما (الآية ١٢) •

انظر بنتسنجر (٤) ، وتشابمان ، وبرتولت (ص ٣٥٢) ، وجاستر (٢) (ص ٨٠ ـ ٩٨) •

(٣٢) يحتفل بيوم التكفير (يوم هكبوريم) (١) فى العاشر من الشهر السابع (أكتوبر) • وكان هذا الشهر فى الأصل أول شهور السنة العبرية التى كانت تبدأ فى الخريف ، ولكن عندما أخذ العبريون عن البابليين تقويمهم قبيل النفى الى بابل صار الشهر السابع عندهم كما هو عند البابليين (لودز (٢) ، ص ٣١٥ ، الهامش ٥) • (٢) فيوم التكفير كان ينتمى فى الأصل الى بداية العام الجديد •

---

(١) سمى فيما بعد يوم هكبور (بدون نهاية الجمع) . ويسمى فى التلمود يوما ربا (اليوم الكبير) ، ويوما (اليوم) ، وصوما ربا (الصوم الكبير) .وهو أهم يوم فى السنة العبرية .

(٢) سمى العبريون المتأخرون الشهر السابع تشرى (بكسرة فسكون فكسرة طويلة) ، نقلا عن اسمه البابلى Tashritu (تشريت) .

وتتحدث التوراة عن يوم التكفير حديثا مفصلا في الأصحاح ١٦ من سفر اللاويين • ويتضح من هذا الأصحاح أن الغرض من طقوس يوم التكفير تطهير الشعب والهيكل تطهيرا شاملا ، فذبائح الخطيئة التي تقدم طول العام قد تترك خطايا مجهولة أو خفية ، والخطيئة نجس للشعب والأرض وللهيكل قبل كل شيء (سفر اللاويين ١٥ : ٣١ ، العدد ١٩ : ١٣ - ٢٠) ، ولهذا أقيم يوم التكفير (١) حتى يكفر بنو اسرائيل مرة كل عام تكفيرا كاملا عن جميع الخطايا ، ولكي يطهر المعبد من كل نجس (٢) (بنتسنجر في مقاله مع تشين ، العمودين ٣٨٤ - ٣٨٥ ، وسميث (٢) ، ص ٤٠٧ - ٤٠٩ ، ولودز (٢) ص ٣١٤ ، ودرايفر وهوايت ، ص ٢٠١ ب)•

هذا الغرض من يوم التكفير منصوص عليه صراحة في سفر اللاويين ١٦ : ٣٣ • وهذه الآية تنتمي الى فقرة في الاصحاح ١٦ يعدها بنتسنجر أقدم الفقرات التي تعالج يوم التكفير في هذا الأصحاح ، وهذه الفقرة هي الآيات ٢٩ - ٣٤ أ ، وينسبها بنتسنجر الى الجزء الثـــاني من المصدر الكهنوتي P2 (٣) • ونحن نترجمها فيما يلي : -

(١) لم يكن قانون يوم التكفير موجودا في زمن عزرا ، لأن الأصحاح الثامن من سفرنحميا يذكر تلاوة عزرا للتوراة على الشعب في اليوم الأول من الشهر السابع ، واحتفال الشعب بعيد رأس السنة في ذلك اليوم نفسه ثم بعيد المظال في اليوم الخامس عشر ، ولكنه لا يشير الى اى عيد في اليوم العاشر . فأمامنا اذن احتمالان : اما أن يوم التكفير لم يكن قد قرر بعد ، واما أنه كان معمولا به ولكن دون أن يكون له تاريخ معين، ثم وضع له (بعد عزرا) موعد محدد ، والاحتمال الثاني أرجح عند لودز (٢) ، ص ٣١٣ - ٣١٤ •

(٢) دعا حزقيال (٤٥ : ١٨ - ٢٠) قبل ذلك الى تطهير المعبد في اليومين الأول والسابع من الشهر الأول :

(١٨) هكذا قال السيد الرب : في الشهر الأول ، في اول الشهر ، تأخذ ثورا من البقر سليما ، وتطهر المعبد •

(١٩) فيأخذ الكاهن (شيئا) من دم ذبيحة الخطيئة ويضعه على قوائم البيت، وعلى الاركان الاربعة لسياج المذبح ، وعلى قوائم أبواب الفناء الداخلي •

(٢٠) وهكذا تفعل في اليوم السابع من الشهر من أجل الضالين والغافلين ، فتكفرون عن البيت •

ويلاحظ درايفر وهوايت (ص ٢٠٠ أ) ان هـذه الطقوس أبسط مما يقرره سفر اللاويين ١٦ ، ويقولان أن قانون التكفير في سفر اللاويين وضع قطعا بعـد عصر حزقيال •

(٣) الآيات الأخرى التي تعالج يوم التكفير في هذا الأصـــحاح (٥ و ٧ - ١٠ و ١٤ - ٢٨) هي في رأى بنتسنجر متأخرة عن الآيات ٢٩ - ٣٤ أ ، وترجع الى احدث أجزاء المصدر الكهنوتي • اما بقية آيات هذا الأصحاح (١ - ٤ ، ٦ = ١١ ، ١٢ ،

(٢٩) ويكون لكم فريضة أبدية أنكم فى الشهر السابع ، فى اليوم العاشر من الشهر ، تذللون نفوسكم (١) ، ولا تعملون عملا ما ، ابن الأرض والغريب النازل بينكم •

(٣٠) لأنه فى هذا اليوم يكفر (الكاهن الأكبر) عنكم لتطهيركم، فتطهرون أمام الرب من كل خطاياكم •

(٣١) سبت عطلة هو لكم ، وتذللون أنفسكم ، فريضة أبدية •

(٣٢) ويكفر الكاهن (الأكبر) ••• ••• ، فيلبس ثياب الكتان المقدسة •

(٣٣) ويكفر عن قدس الأقداس ، ويكفر عن خيمة الاجتماع والمذبح، ويكفر عن الكهنة وعن كل شعب الجماعة •

(٣٤) وتكون هذه لكم فريضة أبدية للتكفير عن بنى اسرائيل من كل خطاياهم مرة فى السنة •••

والمشرع هنا ، كما يقول بنتسنجر ، يفترض أن يتم التكفير وفق الطقوس التى يشتمل عليها الأصحاح التاسع من سفر اللاويين ، ووفق قانون ذبيحة الخطيئة الذى يشتمل عليه سفر العدد ١٥ : ٢٤ •

ولكن بقية الآيات التى تتعلق بيوم التكفير فى الأصحاح ١٦ من سفر اللاويين (٥ و ٧ ــ ١٠ و ١٤ ــ ٢٨) تفصل الحديث عن طقوس التطهير :

(٥) ومن جماعة بنى اسرائيل يأخذ (هرون) تيسين من المعز ليكونا ذبيحة خطيئة ، وكبشا واحدا ليكون محرقة •

(٧) ويأخذ التيسين ، ويوقفهما أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع•

(٨) ويلقى هرون على التيسين قرعتين : قرعة للرب وقرعة لعزازيل•

(٩) ويقرب هرون التيس الذى وقعت عليه القرعة للرب ، ويجعله ذبيحة خطيئة •

(١٠) وأما التيس الذى وقعت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حيا أمام الرب ••• ليرسله الى عزازيل فى البرية •

---

١٣ ، ٣٤ ب) فهى تعالج موضوعا آخر غير يوم التكفير ، هو الشروط التى يستطيع بها الكاهن الأكبر دخول قدس الأقداس . وقد ربط الموضوعان بعضهما ببعض (على نحو غير متسق) ، لأنه صار من العادة الا يدخل الكاهن الأكبر قدس الأقداس الا فى يوم التكفير (س • ر • درايفر (١) ، ص ٤٧ ، ودرايفر وهوايت ، ص ٢٠١ أ) •

(١) أى تصومون • وصوم يوم التكفير هو الصوم الوحيد الذى قضت به التوراة، واليه يشير العهد الجديد فى أعمال الرسل ٢٧ : ٩ (« .. اذ كان الصوم أيضا قد مضى .. ») •

وفى الآيات ١٤ ـ ١٩ وصف لتطهير قدس الأقداس وخيمة الاجتماع والمذبح بدم الثور وتيس الخطيئة .

(٢٠) وعندما يفرغ من التكفير عن القدس وخيمة الاجتماع والمذبح يقرب التيس الحى .

(٢١) ويضع هرون يديه على رأس التيس الحى ، ويعترف عليه بكل ذنوب بنى اسرائيل وكل سيئاتهم وكل خطاياهم ، ويجعلهـــا على رأس التيس ، ويرسله الى البرية بيد شخص معين .

(٢٢) فيحمل التيس على رأسه كل ذنوبهم الى أرض جرز (مقفرة) ، فيطلق التيس فى البرية .

وفى الآيات ٢٣ ـ ٢٨ وصف لبقية الطقوس كتقديم هرون محرقيه ومحرقة الشعب ، وايقاد شحم ذبيحة الخطيئة على المذبح ، واحراق ثور الخطيئة وتيس الخطيئة (جلديهما ولحمهما وفرثهـما) بالنار خارج المحلة (مضارب الخيام) .

والآن نتساءل : من هو عزازيل (١) الذى أرسل اليه أحد التيسين محملا بخطايا بنى اسرائيل ؟ هو على الأرجح شيطان كان بنو اسرائيل يعتقدون أنه يسكن الصحراء ، ولهذا أرسلوا اليه التيس محملا بخطاياهم ليحمل (أى الشيطان) عنهم وزر هذه الخطايا (التى كان هو سببا فيها ؟) فهذا نوع من التطهير ذو طابع سحرى (٢) يختلف عن التطهير بالدم (٣) ذى الطابع الكهنوتى، وان كانا يحققان غرضا واحدا هو تطهير بنى اسرائيل من جميع الخطايا . انظر لودز (٢) ، ص ٣١٤ ـ ٣١٦ ، وأوســــترلى وروبنسون ، ص ١١٣ ـ ١١٤ . (٤) .

(٣٣) سترد لنا فيما بعد ملاحظة عن سنة اليوبيل (الهامش ٥٧) .

(٣٤) القضاة ٢ : ١١ ـ ١٣ :

---

(١) الآراء مختلفة في اشتقاق هذا الاسم .

(٢) له نظائر كثيرة لدى الشعوب الأخرى كالبابليين ، انظر جاستر (٢) ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ و ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٣) نجد التطهير بالدم لدى شعوب اخرى ، انظر جاستر (٢) ، ص ١٤٠ .

(٤) سائر مواضع التوراة التى يذكر فيها يوم التكفير هى الخروج ٣٠ : ١٠ ، وسفر اللاويين ٢٣ : ٢٦ ـ ٣٢ و ٢٥ : ٩ ، والعدد ٢٩ : ٧ ـ ١١ .

(١١) وفعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب ، وعبدوا البعـــول (فى النص العبرى بعاليم ، جمع بعل ، والمقصـــود الآلهة الكنعانيـــة المختلفة) •

(١٢) وتركوا الرب الله آبائهم الذى أخرجهم من مصر ، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب التى حولهم ، وسجدوا لها ، فاغضبوا الرب•

(١٣) وتركوا الرب ، وعبدوا البعول (فى النص العبرى بعل ، اسم جمع) والعشترات (فى النص العبرى عشتاروت ، جمع عشترت الهـة الحب والخصوبة ، والمراد بالجمع آلهات الكنعانيين عامة) » •

وانظر فى تفسير هذه الآيات بده (٢) ، ص ٢٢ ــ ٢٣ •

(٣٥) سفر الملوك الأول ١٩ : ١١ ــ ١٣ :

(١١) فقال (الرب) : اخرج وقف على الجبل أمام الرب • واذا بالرب عابر ، وريح عظيمة شديدة قد شقت الجبال وحطمت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب فى الريح ، وبعد الريح زلزلة ، ولم يكن الرب فى الزلزلة •

(١٢) وبعد الزلزلة نار ، ولم يكن الرب في النار ، وبعد النار صوت خفيض دقيق •

(١٣) فلما سمع الياهو لف وجهه بردائه ، وخـــرج ووقف عند باب المغارة ، واذا بصوت اليه يقول : لماذا أنت هنا يا الياهو ؟

(٣٦) هكذا فى « الترجمة الانجليزية المنقحة » التى ينقل عنهـــا مؤلفنا ، وهى مطابقة للنص العبرى ، ففيه (يفرى) أى يثمر • ولكن فى أغلب ترجمات العهـــد القـديم ، ومنها الترجمة العربية المتداولة ، « ينبت » ascendet ، ولهذا يقترح كيتل (فى Biblia Hebraica الطبعة الخامسة) أن نقرأ (يفرح) ومعناه فى العبرية « ينبت » مكان (أرص) « الأرض) التى فى النص •

(٣٧) «عينيه» حسب النص العبرى ، لا « العينين » كما فى الترجمة الانجليزية المنقحة •

(٣٨) يقترح كيتل أن نقرأ هنا (عريص) « الفظ الغليظ » مكان (ارص) « الارض » التى فى النص •

(٣٩) « الماشية المسمنة » (= Mastvieh فى الألمانية = fatling فى الانجليزية) ترجمة (مرى) (بهمزة مسهلة فى الآخر أى مرئاً) ، من

مادة مرأ . ويقترح كيتل أن نقرأ مكانها (يرعو) أى « يرعون » أو (يمرئو) أى « يمرأون » (الطعام) ، فتكون الترجمة : « ويرعى أو يمرأ العجل والشبل معا » .

(٤٠) (J) الحرف الأول من Jahwist (اليهوى) .

(٤١) (E) الحرف الأول من Elohist (الالوهيمى) .

(٤٢) (D) الحرف الأول من Deuteronomy (التثنية) . وانظر الهامش ٢٣ .

(٤٣) (P) الحرف الأول من Priestly (الكهنوتى) .

(٤٤) سعير منطقة جبلية فى أرض ادوم تمتد من البحر الميت الى خليج العقبة . يسمى الآن نصفها الشمالى جبالا (كما فى التوراة) ، ونصفها الجنوبى الشراة (انظر الفصل الثامن ، الهامش ٢٠) .

(٤٥) (نطفو) فى النص العبرى ، ولكن كيتل (فى Biblia Hebraica اعتمادا على الترجوم (الأرامى) ، يقترح مكانها (نطيو) « زلت » (كما فى المزمور ٧٣ : ٢) . وانظر الملاحظة التالية .

(٤٦) «سالت» ترجمة (نزلو) فى النص العبرى (بقامص فشوا متحركة فشورق) ، من مادة نزل ، ولكن كيتل ، اعتمادا على الترجمة السبعينية والترجوم والترجمة السريانية ، يقترح تحريك الزاى بحولم وتشديد اللام ، فيكون الفعل على وزن انفعل من مادة زلل ، ويكون المعنى « زلزلت » . ولكن بده (٢) (ص ٤١) يؤثر نزل التى فى النص على زلل ، كما يؤثر بقاء (نطفو) فى الآية السابقة ، وهو يستند فى هذا الى الآية ٢١ (نهر قيشون جرفهم) ، ويقول ان مدار الحديث هنا أمطار غزيرة هطلت يوم المعركة وكان لها الفضل فى انتصار العبريين .

(يسمى نهر قيشون الآن المقطع (بتشديد الطاء) ، وهو يصب فى خليج عكا) .

(٤٧) النص العبرى المقابل للعبارة (جبل سيناء ذاك أمام الرب) مضطرب ، وذكرت فى تقويمه آراء كثيرة .

(٤٨) الأول والثاني . انظر الملاحظة التالية .

(٤٩) أى ثورة بعض اليهود فى يهوذا بزعامة الكاهن متاثياس Mattathias وأبنائه من بعده على الامبراطورية السلوقية ، وذلك

من سنة ١٦٦ ق٠م الى سقوط القدس في يد الرومان عام ٦٣ ق٠م٠ وتسمى هذه الثورة ثورة المكابيين ، نسبة الى يهوذا مكابيوس Judas Maccabaeus ؛ ابن متاثياس ومضرم الثورة بعده (من ١٦٦/١٦٥ الى ١٦٠ ق٠م) ٠ ولا يعرف على وجه اليقين معنى « مكابيوس » ، وقد يكون معناها « صاحب المطرقة » (مقابى ، بتشديد القاف ، من مقبت « مطرقة» فى العبرية = مقابا فى الأرامية اليهودية ، من مادة نقب) ٠ ويسمى المكابيون أيضا (فى المصادر اليهودية المتأخرة) الحشمونيين ، نسبة الى حشمون (Asmonaeus) ، جد الكاهن متاثياس ٠ انظر أوسترلى الفصول ١٦ ـ ٢٠ ، ونوت ، الفصل الأول من القسم الرابع ، وجنيبير، ص ١٣ و ٣٢ ـ ٣٣ ٠

***

وأسفار المكابيين أربعة : ثلاثة من أسفار الأبوكريفا Apocrypha (أى الأسفار التى تشتمل عليها الترجمتان اليونانية واللاتينية للعهد القديم ، ولكن لا تضمها التوراة العبرية ولا يقبلها اليهود وبعض المسيحيين) ، والرابع من الأسفار المنحولة Pseudepigrapha (أى المنسوبة زورا الى بعض أنبياء العهد القديم وغيرهم) ٠

وسفرا المكابيين الأول والثانى يتناولان بعض تاريخ المكابيين فعلا ٠ وأولهما ، وهو فى ١٦ أصحاحا ، كتب أصلا بالعبرية ، ولكن ضاع هذا الأصل العبرى ، ولم تبق الا ترجمته اليونانية ، وهو يتناول الفترة من ١٧٥ الى ١٣٥ ق٠م٠ والثانى ، وهو فى ١٥ أصحاحا ، كتب أصلا باليونانية عدا رسالتى يهود فلسطين الى يهود مصر الواردتين من أول الأصحاح الأول الى الآية ١٨ من الأصحاح الثانى ، فأصلهما عبرى ضاع، وهذا السفر يتناول الفترة من ١٧٥ الى ١٦١ ق٠م٠ ، وهو دون الأول فى القيمة التاريخية ٠

وسفر المكابيين الثالث ، وهو من سبعة أصحاحات ، تاريخى أيضا ولكن لا علاقة له بتاريخ المكابيين ، وانما هو يتناول أحداثا تتعلق باليهود فى عصر بطليموس الرابع فيلوباتور Philopator (٢٢١ ـ ٢٠٤ ق٠م) ٠ وقد كتب أصلا باليونانية ، ولعل ذلك كان فى الاسكندرية ٠

أما سفر المكابيين الرابع فهو ليس سفرا تاريخيا كالأسفار الثلاثة السابقة ، وانما هو مقالة فلسفية ، ولعله لم يكن يسمى هكذا فى الأصل ٠

أنظر ايسفلت (١) ، ص ٧١٤ - ٧٢١ و ٧٥٨ - ٧٦٠ ، ونوت ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ و ٣٤٤ ، وجنيبير ، ص ١٣ - ١٥ ٠

(٥٠) سفرا روت واستير من أسفار العهد القديم العبرى ، وسفرا طوبيت ويهوديت من أسفار الأبوكريفا ٠

(٥١) « أبدو » ترجمة مضارع وزن انفعـــل من رأى فى النص العبرى ، ولكن بول F. Buhl (فى Biblia Hebraica) يقترح تغيير حركات الفعل بحيث يصير مضارع المجرد ، فيكون المعنى « وأرى وجه الله » ، وذلك كما فى قليل من مخطوطات النص العبرى وكما فى الترجمة السريانية والترجوم الأرامى ٠

(٥٢) النص العبرى المقابل للعبارة (خلاص وجهى ، والهى) مضطرب ، وقد قومه العلماء فاستقام معناه على هذا النحو ٠ أنظر ملاحظة بول فى Biblia Hebraica ٠

(٥٣) « التقليم » ترجمة (زمير) فى النص العبرى ٠ وهذه الكلمة العبرية تعنى أيضا « الغناء » ، وقد ترجمت بهذا المعنى فى هذا الموضع فى بعض الترجمات ٠

(٥٤) اسمه كاملا هو يشوع بن العازار بن سيرا ، وهو مؤلف الأصل العبرى لهذا السفر الجميل القيم ، ألفه فى بداية عصر المكابيين ، وترجمه حفيده الى اليونانية ليهود مصر بعد ١١٧ ق٠م٠ وهو من أسفار الأبوكريفا ، ويقع فى ٥١ أصحاحا ٠ انظر ايسفلت (١) ، ص ٧٣٨ - ٧٤١ ، ونوت ، ص ٣٤٤ ٠

(٥٥) سفر حكمة سليمان ، وهو من أسفار الأبوكريفا أيضا ، ويقع فى ١٩ أصحاحا ٠ وهو ينسب الى سليمان ، كسفرى الامثـال والجامعة ، ولكنها نسبة غير صـــحيحة ، لأنه كتب على الأرجح فى الاسكندرية فى القرن الأول قبل الميلاد (باليونانية طبعـــا) ٠ انظر أيسفلت (١) ، ص ٧٤٢ - ٧٤٥ ٠

(٥٦) « فانتبهت » : هكذا فى النص العبرى باثبات الفعل ، ولكن بير G. Beer (فى Biblia Hebraica) يقترح زيادة لا النافية قبل الفعل كما فى الفلجاتا (الترجمة اللاتينية) واحدى المخطوطات العبرية، فيكون معنى الشطر الثانى من الآية : « أقوم فلا تنتبه لى » ٠ وهكذا فعلت الترجمـة الانجليزية المعتمـــدة (and thou regardest me not)

والترجمة العربية المتداولة (أقوم فما تنتبه الى) ، ولكن الترجمة الانجليزية المنقحة التى يوردها المؤلف تبقى الفعل مثبتا (and thou lookest at me)

ويقبل بده (١) (ص ١٧٤) اقتراح زيادة لا النافية ، ولكنه يفضل اقتراحا آخر بتغيير الكلمة السابقة فى النص (عمدتى) (للمتكلم) الى (عمدتا) (للمخاطب) كما فى الترجمة السريانية ، فيكون المعنى « تقف وتتطلع الى » (فى جمود دون أن تبادر الى مساعدتى) •

(٥٧) انظر فى أحكام سنة اليوبيل سفر اللاويين ، الأصحاح ٢٥، الآيات ٨ ــ ١٩ و ٢٣ ــ ٥٥ ، وهى تقضى بأن يعتق فيهـــا العبيد من العبريين ، والا يزرع أحد فيها أو يحصد ، وأن تعود فيها كل أرض الى مالكها الأصلى • ولنورد على سبيل المثال ترجمة بعض هذه الآيات :

(١٠) وتقدسون السنة الخمسين ، وتنادون بالعتق فى الأرض لجميع سكانها ، تكون لكم يوبيلا ، وترجعون كل الى ملكه (بكسر الميم) ، وتعودون كل الى عشيرته •

(١١) ••• لا تزرعون ، ولا تحصـــــدون ما ينبت فيها وحده ، ولا تجنون (العنب) من كرمها الذى لم يقضب •

(٢٣) والأرض لا تباع الى الأبد ، لأن لى الأرض ، وانما أنتم غرباء ونزلاء عندى •

وبقية هذا الأصحاح ، أى الآيات ١ ــ ٧ و ٢٠ ــ ٢٢ ، تتعلق بعيد آخر يقوم على أساسه عيد اليوبيل ، هو عيد السنة السابعة ، وكان يحرم فيها أيضا الزرع والحصاد • وهذه ترجمة بعضها :

(٣) ست سنين تزرع حقلك ، وست سنين تقضب كرمك ، وتجمع غلتهما •

(٤) وأما السنة السابعة ففيها يكون سبت عطلة للأرض ، سبت للرب ، لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك •

(٢٠) واذا قلتم : ماذا نأكل فى السنة السابعة ، ان لم نزرع ولم نجمع غلتنا ؟

(٢١) فاننى آمر ببركتى فى السنة السادسة ، فتنتج غلة لثلاث سنين •

(٢٢) فتزرعون فى السنة الثامنة ، وتأكلون من الغلة القديمة تأكلون من الغلة القديمة حتى السنة التاسعة حين تأتى غلتها •

ففى كل سبع سنين تكون السنة السابعة سبتا أى راحة ، كما أن اليوم السابع من الأسبوع العبرى (يوم السبت) راحة • وبعد كل سبع سنين سبع مرات (٧ × ٧) ، أى بعد كل ٤٩ سنة ، تكون السنة الخمسون يوبيلا • ولكن ليس معنى هذا أن سنة اليوبيل مجرد استكمال نظرى لنظام السبعة ، فان اعادة الأرض الى سكانها الأصليين نظام قديم ، كما يقول س٠ر٠ درايفر (١) (ص ٥٧) ولودز (٢) (ص٢٨٩) ولكن يقول لودز أيضا انه يبدو أن قوانين اليوبيل لم تطبق قط ، وما كان يمكن أن تطبق ، والا لكان من نتائجها مثلا ألا يجنى العبريون محصولا سنتين متعاقبتين : السنة التاسعة والأربعين (لأنها سنة سابعة) والسنة الخمسين (سنة اليوبيل) •

وكلمة يوبيل فى العبرية معناها الكبش ، وقد سميت السنة الخمسون سنة اليوبيل ، لأن اعلان بدئها كان بالنفخ فى بوق مصنوع من قرن الكبش ، انظر سفر اللاويين ٢٥ : ٩ • ويوبيل « الكبش » فى العبرية على زنة اسم الفاعل من مادة وبل ، فهى مرتبطة اشتقاقا ومعنى بالوابلة فى العربية « نسل الابل والغنم » •

(٥٨) التكوين ٢١ : ١٠ : « فقالت (سارة) لابراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ؛ لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابنى اسحاق » •

ويعد بنتسنجر (١) (ص ١٣٤) طلب سارة ألا يرث ابن الجارية مع ابنها اسحاق بين الآثار التى تدل على أن العبريين عرفوا نظام سلطة الأم فى زمن قديم •

(٥٩) يقص هذا الأصحاح كيف أن محلون وكليون اليهوديين ماتا فى مؤاب عن أمهما نعمى وامرأتيهما المؤابيتين عرفة وروت ، فأرادت نعمى العودة الى أرض يهوذا ، وأرادت كنتاها الذهاب معها ، ولكنها الحت عليهما فى الرجوع الى أسرتيهما معتلة بأنه ليس لها ابنان آخران يحلان منهما محل محلون وكليون ، فعادت عرفة الى أهلها ، ولكن أبت روت أن تترك حماتها وقالت عبارتها المشهورة (روت ١٦:١ ـ ١٧) : « ••• لاتلحى على أن أتركك وأرجع عنك ؛ لأنه حيثما ذهبت أذهب ، وحيثما بت أبيت، شعبك شعبى ، والهك الهى (١٧) حيثما مت أموت ، وهناك أقبر ؛ ••• انما الموت يفصل بينى وبينك » •

(٦٠) أورد المؤلف نص هذه الآيات فى أول كلامه عن النظم القانونية والاجتماعية لدى العبريين •

(٦١) سفر اللاويين ٢٠: ١٤ : « واذا أخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة ؛ بالنار يحرقونه ويحرقونهما ، فلا تكون رذيلة بينكم » ٠

(٦٢) السنهدرين هو محكمة الأحبار العليا فى القدس حوالى زمن المسيح ٠ ولفظ سنهدرين منقول عن اللفظ اليونانى synedrion (سونذريون) « مجلس » على نحو يوائم اللسان العبرى ٠

وتتحدث مصادر الأحبار عن سنهدرين كبير من واحد وسبعين عضوا ، وعن سنهدرينات صغيرة أو محاكم يضم الواحد منها ٢٣ عضوا وتنظر فى القضايا الجنائية أو قضايا انتهاك الشريعة اليهودية ٠ وكانت اجتماعات السنهدرين الكبير تعقد على جبل المعبد فى لشكت هجازيت (قاعة الحجارة المنحوتة ، أو قاعة القرارات) ٠ وتصور الرواية التلمودية السنهدرين الكبير على أنه أعلى محكمة تشريعية قضائية تعمل بقانون الأحبار (هلاكا) ، ويرأسه اثنان : ناسى (رئيس) وأب بيت دين (أبو المحكمة) ؛ ولكن مصادر غير الأحبار تصف السنهدرين بأنه مجلس سياسى - تنفيذى وقضائى يرأسه كبير الكهنة ٠ واختلاف المصادر يمكن تفسيره فى يسر اذا سلمنا بوجود مجلسين متعاصرين : أحدهما دينى على نحو قاطع ، والآخر دنيوى تماما يمثل السلطة المدنية (١) ٠

والسنهدرين ، كما تصوره المشنا ، يتكون من كتاب (سوفريم) يفسرون قانون الأحبار ٠ والسنهدرين الذى يصفه يوسيفوس والأناجيل يتكون من رجال الطبقة الأرستقراطية فى الدولة ، ومنهم فريشيون Pharisees وصدوقيون Sadducees ، وتنحصر مهمته فى أنه مجلس الدولة الدنيوى الذى يرأسه كبير الكهنة ٠

وفى أيام العهد القديم كانت سلطة القضاء فى يد الملوك (مثل داود وسليمان) والزعماء (شوفطيم) ٠ وفى الأيام الأولى بعد العودة من المنفى (أى فى القرنين الرابع والثالث ق٠م) كان الكهنة يتولون القضاء هم و « مجلس الشيوخ » gerousia (جروسيا) ٠ ولكن فى عام ١٤١ق٠م حين انتصر الحشمونيون على السلوقيين فى سوريا ، بدأ عهد استقلال

---

(١) يجد هذا الرأى بعض التأييد فيما يقوله يوسيفوس المؤرخ اليهودى من أنه فى عام ٥٧ ق ٠ م قسم حاكم سوريا الرومانى فلسطين الى خمس مناطق فى كل منها سنهدرين له السلطة القانونية فى المسائل السياسية والجنائية والمدنية ، واقيم أحد هذه السنهدرينات فى أورشليم التى كان فيها سنهدرين من قبل ٠

جديد • فأنشىء السنهدرين الكبير لتفسير الشريعة اليهودية وتركت أمور الطقوس الخاصة بالمعبد لمجلس الكهنـــة ، وكانت ادارة الحكومة تابعة للملوك وموظفى المدينة فى مجلسهم التنفيذى •

وكان من وظائف السنهدرين الكبير تشريع القوانين الخاصـــة بالعبادات ، ومحـــاكمة من ينتهك هذه القوانين ، والنظر فى قضـــايا الاستئناف ، والاشراف على المحاكم الصغرى ، والهيمنة على الاحتفـــالات الكهنوتية فى المعبد • وكان السنهدرين بصفة خاصة يحافظ على قداسة الشريعة المتوارثة وتفسيراتها الشفوية المبنية على الشريعـــة المكتوبة فى التوراة • ويتـــحدث سفر سنهدرين فى التلمود عن وظائف السنهدرين الكبير واجراءاته •

وكان الرؤساء الأول للسنهدرين يعرفون باسم الأزواج (زوجوت) (على أســـاس أنه كان يرأسه اثنان) • ولم يكونا مجرد رئيس ونائب رئيس ، وانما كانا زعيمى الأكثرية والأقلية يمثلان الأفكار المتضـــاربة السائدة فى السنهدرين • وقد حل السنهدرين عام ٦٦م ، أى قبل هدم الرومان للقدس عام ٧٠م بأربع سنوات •

ومن الرؤساء المشهورين للسنهدرين الكبير شمعون بن شطح الذى شرع قوانين عن تعميم التعليم ، وحقوق المرأة ، وادارة المحاكم ، وقبول شهادة الشهود (١) ؛ وكان معاصرا لاســـكندر جنيوس Jannaeus (يوناثان) (حوالى ١٠٠ق•م) (٢) • ومن زعمـــاء السنهدرين أيضا هليل (حوالى ٣٠ ق•م) ، ومن أقواله المأثورة : « لاتفعل بجارك ماتكره أن يفعله بك » (٣) • وكان متسامحا فى تفسير قانون الأحبار (٤) • وقد تولى أولاده وأحفاده الرياسة الرسمية بين علماء الأحبار •

---

(١) جاء عنه في الشنا (أقوال الآباء ١ : ٨) : « يقول شمعون بن شطح : دقق في اختيار الشهود وانتبه الى أقوالهم •• » •

(٢) من ملوك أسرة الحشمونيين •

(٣) هذا شبيه بقول المسيح فى خطبة الجبل : « افعلوا بالناس كل ماتريدون ان يفعله الناس بكم » (متى ٧ : ١٢ ، ولوقا ٦ : ٣١) •

(٤) تروى عنه المشنا (اقوال الآباء ١ : ١٢) قوله : « •• كن من تلاميـــذ هرون ، احب السلام ، واتبع السلام ، واحب الخلق ، وقربهم الى التوراة » • ويعلق هرفورد (ص ٣٢) على ذلك قائلا : « كل ما يقال عن هليل يظهره محبا للسلام . ومن الممكن انه كان أول من رأى فى هرون رجل السلام الساعى الى السلام» •

انظر هونيج ، وجوتستاين ، وجنيبير (ص ٥٠ ــ ٥٥) ٠

(٦٣) خلاصة القصة أنه كان لنابوت بستان كرم بجانب قصر أحآب ، ملك اسرائيل ، فأراد الملك أن يكون البستان له على أن يعوض صاحبه ببستان أحسن منه أو يدفع ثمنه فضة ، ولكن أبى نابوت معتلا بأن البستان ميراث آبائه ، فكتبت ايزابيل ، امرأة الملك ، رسائل الى الشيوخ والأشراف في يزرعيل (= زرعين الآن) ، مدينة نابوت ، تأمرهم بأن يحرضوا رجلين على الشهادة (زورا) بأن نابوت قد جدف بالله والملك ، فكان للملكة ما أرادته ، وأخرج نابوت من المدينة ، ورجم بالحجارة حتى مات ، واستولى الملك على بستانه بعد موته ٠ وتضيف القصة أن النبى الياهو أنذر الملك بأن الله سيجلب الشر على بيته انتقاما لدم نابوت ٠

انظر روبنسون ، ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ ، وهو يرفض مايزعمه بعض العلماء من أن القصة أسطورة ٠ وانظر أيضا لودز (١) ، ص ٤٢٢ــ ٤٢٣، و (٢) ، ص ٦٤ ٠

(٦٤) كان الكاهن في هذه الحالة يسقى المرأة ماء مقدسا وضع فيه تراب من أرض مسكنها ، فان كانت دنسة ورم بطنها وسقطت فخذها ، وان كانت طاهرة برئت من التهمة وحبلت ٠

(٦٥) «خبز الوجه» (بالعبرية لحم بانيم أو لحم هبانيم) ، أى خبز وجه الرب ، أى الخبز الذى يوضع بمحضره وأريد به أصلا أن يكون طعاما له ٠ انظر س٠ر٠ درايفر(٢) ، ص ١٧٥ (فى تفسير صمويل الاول ٢١ : ٧) ٠

(٦٦) فى سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩ ٠ وانظر عاموس ٣ : ١٥

هوامش الفصل السابع

(١) هكذا فى النقوش الأشورية ، وهى على نهر الخابور (من روافد الفرات) • ويذكر العهد القديم «جوزان» (سفر الملوك الثانى ١٩ : ١٢ ، واشعيا ٣٧ : ١٢) ، كما يذكر «الخابور نهر جوزان» (سفر الملوك الثانى ١٧ : ٦ ، ١٨ : ١١ ، وسفر أخبار الأيام الأول ٥ : ٢٦) •

(٢) تقوم مكان سمأل الآن زنجيرلى ، وهى قرية صغيرة فى الشمال الغربى من سورية على الطريق من أنطاكية الى مرعش •

(٣) تقع أرفد شمالى حلب • وتذكرها أيضا النقوش الاشورية ، انظر هونيجمان • ويرد ذكرها كذلك فى التوراة ، ولكن بعد حماة دائما (أين آلهة حماة وأرفد : سفر الملوك الثانى ١٨ : ٣٤ واشعيا ٣٦ : ١٩ - أين ملك حماة وملك أرفد : سفر الملوك الثانى ١٩ : ١٣ واشعيا ١٣:٣٧- أليست حماة مثل أرفد : اشعيا ١٠ : ٩ - خزيت حماة وأرفد : ارميا ٤٩ : ٢٣) • ولا يزال اسمها أرفد حتى اليوم •

(٤) درهم مدينة سومرية قريبة من نبور • وكانت تسمى قديما بزرشدجن Puzrishdagan • انظر شموكل ، ص ٦٠ •

(٥) حكم من حوالى ١٣١٠ الى حوالى ١٢٩٧ ق•م• انظر شموكل ، ص ١٨٩ - ١٩٠ •

(٦) هذه هى النظرية السائدة ، وهى تعتمد على اعتبار أخلمو الأكدية نظير أخلام فى العربية ، جمع خلم (بكسر فسكون) وهو الصديق

والصاحب · وينتقد موسكاتي نفسه هذه النظرية وأساسها اللغوى فى كتاب آخر له(١) (ص ٦٧ ــ ٦٨) ، وينتهى الى أن الأخلمو علم على قبيلة من البدو أو مجموعة من القبائل البدوية ·

(٧) تقع تل برسب على الفرات الأعلى ، وهى الآن تل الأحمر · وقد سماها شلمنصر الثالث الأشورى (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق · م) كرشلمنشرد Karshulmanasharid (قلعة شلمنصر) بعد انتصاره على أخونى Akhuni ، ملك بيت أدينى (كما سيلى) · انظر شموكل ، ص ٢٥٤ ·

(٨) حوالى ١٠٥٠ ق · م انظر شموكل ، ص ٢٠٣ و ٢٤٧ ·

(٩) تجد قصة ذلك فى صمويل الثانى ٨ : ٣ ــ ١٢ · وانظر ربنسون ، ص ٢٢١ و ٢٣٧ ــ ٢٣٨ · وقد خضعت صوبا لسليمان بعد داود (سفر أخبار الأيام الثانى ٨ : ٣) ·

(١٠) حكم من ٩٠٩ الى ٨٨٩ ق · م · وقد سير سبع حملات الى منطقة خنيجلبت Khanigalbat وعاصمتها نصيبين ، فأزال عنها نفوذ الأراميين (وعلى راسهم نورادد Nuradad) ، وأعادها ولاية أشورية · انظر شموكل ص ٢٤٨ ·

(١١) حكم من ٨٨٣ الى ٨٥٩ ق · م · وقد قمع معظم الدول الأرامية فى أرض الرافدين ·

انظر شموكل ، ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣ ·

(١٢) انظر الهامش السابع ·

(١٣) لغة نقش كلمو كنعانية (فينيقية) خالصة · انظر نصه وترجمته فى لدزبارسكى (حـ ٣ ، ص ٢١٨ ــ ٢٣٨) وبوبل (ص ٣٣ ــ ٣٩) · وله ترجمة فى كتاب برتشارد ، ص ٥٠٠ ــ ٥٠١ · وانظر الهامش ١٧ ·

(١٤) انظر نقش زكر نصا وترجمة فى لدزبارسكى ، حـ ٣ ص ١ ــ ١١ · وله ترجمة فى كتاب برتشارد ، ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ · وهو مكتوب بأرامية سقيمة ، ولكن فى الفاظه وتراكيبه أدلة واضحة على أن كاتب كنعانى اللسان ، انظر جنزبرج ، ص ٤ ــ ٥ ·

(١٥) بعد حصار استغرق ثلاث سنوات ، ولهذا نكل بها تجلت ــ بيلسر تنكيلا شديدا · انظر شموكل ، ص ٢٦٢ ·

(١٦) سوجين قرية على بعد ٢٥ كم الى الجنوب الشرقي من حلب . وقد وجدت فيها عدة كسر من أنصاب عليها نقوش أرامية ، أهمهـا نص معاهدة تحالف بين بر ـ جايه ، ملك كتك (التي لا يعرف مكانها على وجه قاطع) ، ومتع ـ ال ، ملك أرفد ، انظر ترجمته في كتاب برتشارد ، ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤ . وانظر روزنتال ، ص ١٣ ، وديبون ـ سومير ، ص ٥٦ ـ ٦٠ . وتسمى هذه النقوش أيضا نقوش سفيرة ، نسبة الى سفيرة التي لا يفصلها عن سوجين سوى ١٫٣ كم . وقد جمعها ديبون ـ سومير في كتابه : Les inscriptions araméennes de Sfiré (باريس ١٩٥٨) .

(١٧) انظر نص هذين النقشين وترجمتهما في كوك ، ص ١٧١ وما بعدها (رقم ٦٢ : وقد اصطلح على تسميته نقش بنمو مع أن بر ـ ركب كاتبه ، وذلك لأن الابن كتبه على نصب تذكاري أقامه لأبيه) ، وص ١٨٠ وما بعدها (رقم ٦٣ : ويسمى نقش بر ـ ركب نسبة الى صاحبه الحقيقي) . وانظر ترجمة النقش الثاني في كتاب برتشارد ، ص ٥٠١ .

وكلا النقشين أرامي ، غير أن الأول (نقش بنمو) متأثر بالكنعانية ، بينما لغة الثاني (نقش بر ـ ركب) أرامية خالصة . انظر روزنتال ، ص ٨ ؛ وجنزبرج ، ص ١ ـ ٤ .

والاسم بر ـ ركب أرامي بدليل كلمة (بر) « ابن » ؛ و (ركب) اختصار اسم الاله ركب ـ ال ، الذي سيرد ذكره فيما بعد . أما الاسم بنمو فهو من أسماء آسيا الصغرى بدليل النهاية (مو) muwa . ومثله في هذا الصدد الاسم كلمو ، انظر روزنتال ، ص ٨ .

وانظر في نطق (ركب) الهامش ٢٨ .

(١٨) الفانتين جزيرة في النيل تجاه أسوان .

(١٩) في أرض الرافدين الى الشمال الغربي من مدينة أشور القديمة . وقد قامت بعثة ألمانية بحفـائر في الحضر وأشور من عام ١٩٠٣ الى عام ١٩١٣ ، كشفت عن نقوش أرامية ترجع الى عصر سيادة البارثيين (القرن الثـاني الميلادي) . انظر روزنتـال ، ص ١٧٥ ، وبروكلمـان في Semitistik ص ١٤٧ . وانظر ديسو (٢) ، ص ١٥٨ .

(٢٠) كبير آلهة الحوريين هو تشوب Tešhub اله العاصفة . وقد أخذ الحيثيون اسمه في عصر متأخر ، وأطلقوه على اله العاصفة الأكبر عندهم (واسمه الحيثي القديم غير معروف) .

والاله الحوري تشوب له حيوان مقدس هو الثـور • وله زوجة تكاد تضارعه في المكانة هي خبت Khebat ، وحيوانها المقدس هو الاسد ترى واقفة عليه في بعض الصور • ولهما ابن هو شروما Sharruma أو شرما Sharma •

انظر ديسو (١) ، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٨ ، وجيرني ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ و ١٤٠ ـ ١٤١ ، وأوتن ، ص ١٠٣ ، وشموكل ، ص ١٥١ و ١٦٩ •

(٢١) لعل اسم الاله هدد مشـــتق من مادة هدد التي تدل ، في العربية ، على الهـــدم الشديد والكسر والصوت المدوى ، ومن مشتقاتها الهادة (بتشديد الدال) أى الرعد • انظر كوك ، ص ١٦٤ •

وكان يهـوه لدى العبريين في الاصل اله العاصفة والرعد والبرق والمطر • انظر مثـلا رؤيا الياهو على جبل حوريب (الفصل السادس ، الهامش ٣٥) ، وسفر الخروج ١٩ : ١٦ ـ ١٧ (وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيـل على الجبل •• فارتعد كل الشعب الذى في المحلة (١٧) وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل) ، وسفر القضاة ٥ : ٤ (يارب ! عندما خرجت من سعير ، وصعدت من صحراء ادوم ، ارتعدت الارض ، وقطرت السموات أيضا ، كذلك السحب قطرت ماء) ، والمزمور ٢٩ : الآية ٣ : « صوت الرب على المياه ، اله المجـد أرعد ، الرب فوق المياه الكثيرة » ، والآية ٧ : «صوت الرب يقدح لهب نار» ، والآية ١٠ : «الرب على الطوفان جلس •• » •

انظر سمند ، ص ٢٠ ـ ٢١ ، ولودز(١) ، ص ٣٢٣ • وانظر أيضا الهامش ٢٧ من الفصل السادس •

(٢٢) انظر حديث ديسو (١) ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ عن الطقوس التي يذكرها لوكيانوس (الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى) •

(٢٣) نعرف ثلاثة من ملوك دمشـــق اتخـذوا الاسم بر ـ هدد (= بن ـ هدد بالعبرية) هم :

(أ) بن ـ هدد بن طبرمون بن حزيون ، الذى استعان به حليفه الملك آسا ، ملك يهوذا (حوالى ٩١٣ ـ ٨٧٣ ق•م) ، على الملك بعشا ، ملك اسرائيل ، وذلك كما فى سفر الملوك الاول ١٥ : ١٨ ـ ٢٠ = سفر أخبار الايام الثانى ١٦ : ٢ ـ ٤ • وانظر نوت ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ • وله

نقش قصير على نصب أقامه للاله ملقرت ، انظره فى كتــاب برتشارد (ص ٥٠١) ٠

(ب) بن ـ هدد ، الذى عاصر الملك أحآب ، ملك اسرائيل (حوالى ٨٧٦ ـ ٨٥٤ق م) ، وكانت بينهما حروب انتصر فيها أحآب ، كما فى الأصحاح ٢٠ من سفر الملوك الاول ٠ وقد حاصر بن ـ هدد السامرة فى عهد ملكها يهورام بن أحآب (حوالى ٨٥٣ ـ ٨٤٢ ق ٠ م) ، ولكن ارتد عنها (سفر الملوك الثانى من ٦ : ٢٤ الى آخر الأصحاح السابع) ٠

ونعلم من المصادر الأشورية وحدها أن بن ـ هدد هذا رأس حلفا من اثنى عشر ملـــكا ، منهم ملك حماة وأحآب ملك اسرائيل ، حاربوا شلمنصر الثالث ، ملك أشور ، فى معركة قرقر (على نهر العاصى شمال حماة) عام ٨٥٣ ق٠م٠ ويزعم ملك أشور أنه انتصر عليهم ، ولكن من الجلى أنهم أوقفوا تقدمه ، ان لم يكونوا هزموه فعلا ٠ انظر شموكل ، ص ٢٥٤ ، وروبنسون ، ص ٢٨٩ و ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ٠ ولكن انظر نوت ، ص ٢٢٤ ٠

وقد قتل بن ـ هدد بيد حزائيل الذى خلفه على عرش دمشق (سفر الملوك الثانى ٨ : ١٥) ٠ (معنى الاسم حزائيل هو «أبصر ال» ، وهذا دليل ، كما يقول ديبون ـ سومير ص ١١٤ ، على أن الاله الكنعانى ال كان يعبد فى دمشق) ٠

(ج) بن ـ هدد بن حزائيل المذكور ٠ وكان أبوه حزائيــل قد استولى على مدن من يهوآحاز ، ملك اسرائيل (حوالى ٨١٥ ـ ٧٩٨ق٠م) ، ولكن يوآش بن يهوآحاز (حوالى ٧٩٨ ـ ٧٨٣ ق٠م) عاد فاسترد هذه المدن من بن ـ هدد بن حزائيل (سفر الملوك الثانى ١٣ : ٢٤ ـ ٢٥) ٠

ويتحدث زكر ، ملك حماة ، فى نقشه المشهور عن حلف من سبعة ملوك ألبه عليه بر ـ هدد بن حزائيل ٠

(٢٤) هذا يفسر اطلاق اسم هليوبوليس «مدينة الشمس» على مدينة بعلبك التى كانت مركزا كبيرا لعبادة هدد فى وادى البقاع (الذى يفصل جبال لبنان عن جبال لبنان الداخلة) ٠ ولما كان الرومان (كما سيأتى) يطلقون على هدد اسم جوبيتر ، فقد أطلقـــوا على هدد البعلبكى الاسم **Jupiter Heliopolitanus** ٠ وكانت عبادة هذا الاله منتشرة فى كافة أنحاء العالم الرومانى ، وقد أقام الامبراطور الرومانى أنطونين التقى (١٢٨ ـ ١٦١م) معبدا ضخما له فى بعلبك لاتزال أطلاله تروع الناظرين ٠

انظر ديسو (١) ، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٩ ، وديبون ـ سومير ، ص ١١٣ ٠

(٢٥) كان الثور أيضا الحيوان المقدس لاله العبريين يهوه ، ولهذا وجدنا صورته في زخارف معبد سليمان (سفر الملوك الاول ٧ : ٢٥ و ٢٩ و ٤٤) ٠ وكان يرمز الى يهوه فى معبدى دان وبيت ايل بعجل من الذهب (سفر الملوك الاول ١٢ : ٢٨ ـ ٢٩) ٠

انظر لودز (١) ، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ٠

(٢٦) الاسم أترجاتيس مكون من كلمتين هما أتر أى عثتر، وجاتيس أى الالهة الكنعانية القديمة عنت ٠ والصيغة الارامية الاصلية التى أخذت عنها الصيغة اليونانية أترجاتيس هى عتر عته التى نجـــدها مثلا فى النقش التدمرى CIS ٣٩٢٧ (= كوك رقم ١١٢) ، س ٤ ٠ والاسم المركب عترعته أو أترجاتيس يدل على اندماج هاتين الالهتين السماويتين الكبيرتين بعضهما فى بعض ٠ وكان الأسد والحمامة الحيوانين المقدسين للالهة أترجاتيس ، كما كان الثور الحيوان المقدس لزوجها هدد ٠ وقد انتشرت عبادة الالهة أترجاتيس فى كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية ٠

انظر ديبون ـ ســـومير ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، وديسو (١) ، ص ٣٩٣ و ٣٩٥ ، وكوك ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ (وان لم يدرك أن الجزء الثانى من الاسم هو الالهة عنت) ، وستاركى ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ (وان قال ان عته لا يلزم فيما يبدو أن تكون الالهة الكنعانية القديمة عنت) ٠

٢٧ ـ هو نظير الاله الفينيقى أشــمون (= أدونيس) ٠ انظر ديبون ـ سومير ، ص ١٠٨ ، وديسو (١) ، ص ٣٩٥ ٠

٢٨ ـ يرد اسم الاله ال فى نقش هدد (س ٢) ونقش بنمو (س ٢٢) ٠ ويرد ركب ـ ال أيضا فى هذين الموضعين ، وكذلك فى نقش بر ـ ركب (س ٥) ٠ ويصح أن ننطقه ركوب ـ ال فيكون معناه « مركبة ال » ، أو ننطقه ركاب ـ ال (بتشديد الكاف) فيكون معناه « ســائق ال » ٠ انظر كوك ، ص ١٦٥ ، وديبون ـ سومير ، ص ١١٠ ، وروزنتال ص ٧ ، الهامش الثالث ٠ وهو يلقب فى نقش بنمو الأرامى (س ٢٢) ونقش كلمو الفينيقى (س ١٦) برب البيت (بعل بيت) ، أى رب الاسرة الحاكمة وحاميها ٠ ويقارنه كوك (ص ٣٠٢) وديسو (٢) (ص ١٨٦) بالاله عجلبول (عجل + بول) ، اله القمر عند التدمريين ، وسيرد ذكره فيما بعد (الفصل الثامن ، الهامش ٢٢) ٠

٢٩ ـ يستدل ديسو (٢) (ص ١٦٨ و ١٦٩ و ١٩٣) ببعض مواضع العهد القديم على أن العبريين القـــدماء كغيرهم من الكنعانيين عبدوا الالهين ال وعليون • ومن هذه المواضع فى رأيه :

(أ) التثنية ٣٢ : ٨ (حينما قسم عليون الأوطان بين الشعوب) •

(ب) التكوين ١٤ : ١٨ ـ ٢٠ ، حيث نجـــد ال عليون بادماج الالهين ال وعليون بعضهما فى بعض (ال عليون مالك الســـموات والارض) •

(ج) المزمور ٨٢ : ٦ ـ ٧ : « أنا قلت انكم جميعا آلهة وأبناء عليون (٧) ولكنكم تموتون كالبشر ، وتسقطون كأحد الأمراء » •

(د) اشعيا : ١٤ : ١٣ ـ ١٤ : « وأنت قلت فى قلبك : أصعد الى الســـموات ، وأرفع عـــرشى فوق كواكب ال ، وأجلس على جبل الاجتماع فى أقاصى الشمال (١٤) وأصعد فوق مرتفعات السحب ، وأصير مثل عليون » •

٣٠ ـ الكلمة صمد فى اسم الاله بعل صمد قد تكون بمعنى « الزوج من دواب الجر أو الحمل » مثل صمد العبرية (بسيجولين) أو بمعنى « المكان المرتفع الغليظ » مثل الصمد (بفتح فسكون) فى العربية ، فيكون معنى اسم الاله (مع بعض التصرف) « سيد المركبة » أو « سيد التل » • ومن الممكن أيضا أن يكون صمد اسم مكان ، يعبد فيه هذا البعل •

أما حمان فى بعل حمان فهواسم جغرافى يقصد به جبل Amanus (حمان) الذى تقع عند قدميه قرية زنجيرلى (انظر الهامش الثانى) ، فيكون معنى بعل حمان « سيد (الجبل) حمان » • وهو غير الاله بعل حمان فى النقوش الفينيقية والبونية (انظر ملاحظة كوك عنه ، ص ١٠٤) •

انظر لدزبارسكى ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، وديبون ـ سومير ، ص ١١٠ و ١١٢ (الهامشين ١٠ و ١١) •

٣١ ـ يرجــع نقش زكر الأرامى القديم ، الذى يرد فيه ذكر بعل شمين ، الى النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد •

ونجد بعل شمين أيضا لدى النبط ، وقد أقاموا له معبدا فخما فى سيع على السفح الغربى من جبل حوران لاتزال آثاره باقية ، وقد

استغرق بناؤه الثلث الأخير من القرن الأول ق٠م (٣٢/٣٣ ـ ١/٢ ق٠م) ٠

وكان لبعل شمين معبد في تدمر ٠ ويوصف في نقش تدمري (كوك رقم ١٣٣ ، ويرجع الى عام ٦٧ م) بأنه « الاله الطيب الشكور » ، وفي نقش تدمري آخر (كوك رقم ١٣٤ ، ويرجع الى عام ١١٤ م) بأنه « سيد العالم » (رب العالمين) أو « سيد الأبد » ٠ وعرفه أهل مدينة الحضر في أرض الرافدين ٠

وهو بعل شميم في النقوش الفينيقية (مثل نقش كوك رقم ٩ الذي يرجع الى عام ١٣٢ ق٠م) والنقوش البونية (مثل نقش كوك رقم ٣٩ الذي يرجع الى القرن الثالث ـ الثاني ق٠م) ٠

وهو بعل سمين الكثير الذكر في النقوش الصفوية ٠ وعرفه أيضا اللحيانيون ، انتقل اليهم من منطقة حوران في الشمال ٠

ونظيره ذو سماوي أو ذو سماي لدى العرب الجنوبيين في رأي بعض العلماء . وان أنكر ذلك آخرون ٠

ويقول ديبون ـ سومير (ص ١١٢) ان بعل شمين اختلط على مايبدو باله العاصفة هدد أو بعل في زمن متقدم ٠ كذلك يقول ستاركي (ص ٢٠٦) ان بعل شمين سيد السموات ، ولكن يقصد بالسموات هنا السموات الحاملة للسحب والمطر ، فهو اله للعاصفة والخصب شبيه بالاله هدد ان لم يكن هو نفس هدد ٠ ولكن يقول ديسو (٢) (ص ٢٠١ ، الهامش الرابع) ان بعل شمين وحدة متميزة في جميع البيئات السامية ، ولا يمكن خلطه بالاله هدد أو الاله شمش ٠

انظر لدزبارسكي (ج ١ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٦٠ و ج ٢ ، ص ١٢٢) ، وكوك (ص ٤٥ ـ ٤٦ و ٢٩٥ ـ ٢٩٦) ، وديسو (١) ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ و ٤١٢ ، و (٢) ، ص ٩٣ ـ ١٠١ و ١٢٧ و ١٣٢ و ١٤٧ و ١٥٨ و ٢٠١ و ٢٠٨ ، و (٣) ، ص ١٥٧ ـ ١٦٥ ، وجرمه ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، وريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٨ و ٢٤ ، و (٢) ، ص ٢٠ و ٢٣ و ٤٢ ؛ ولتمان (٥) ، ص ١٠٧ ، وكاسكل ، ص ٤٥ ، وستاركي ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩ ، وجرومان، ص ٨٦ و ٢٤٥ ٠

وانظر أيضا الفصل الثامن ، الهامش ٢٢ ٠

٣٢ ـ مثل Yau-bi'di الذي تذكره المصادر الأشورية ملكا على

حماة أيام سرجون الأشورى (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق٠م) ، فالعنصر الأول Yau يقابل على الأرجح يهوه ، ومثل يهورام ، ابن توعى ملك حماة ، فى القرن العاشر ق٠م (صمويل الثانى ٨ : ٩ ـ ١٠) ، ومثل Azriyau الذى تقول المصادر الأشورية انه اغتصب عرش بر ـ صر ، ملك سمأل ، وقتله زمن تجلت ـ بيلسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق٠م) ، ومثل جايه» يهوه (يه) رفيع (جأ) » أبى بر ـ جأيه ، ملك كتك ، السابق الذكر (الهامش ١٦) ٠

انظر ديبون ـ سومير ، ص ١١٤ ـ ١١٥ ، ولودز (١) ، ص ٣٢٠ أسفل ـ ٣٢١ (مع الهامش الأول) ، وهولتسنجر ، ص ١٣ ٠

٣٣ ـ النيرب قرية صغيرة فى الجنوب الشرقى من حلب ٠ وقد كشف فيها عام ١٨٩١ نقشان قد يرجعان الى القرن السابع ق٠م ، وتجدهما فى كتاب كوك رقم ٦٤ ورقم ٦٥ ٠

٣٤ ـ اله القمر هو سهر فى النص الأرامى ، وهو نظير سين الأكدى ٠ واله الشمس هوشمش فى النص الأرامى ولدى الأكديين ٠ واله النار هو نسك فى النص الأرامى = Nusku لدى الأكديين ٠ ويذكر نقشا النيرب أيضا الالهة نكل ، وهى ننجل Nin-gal فى أرض الرافدين ٠

ويقول كوك (ص ١٨٨) ان هذه الآلهة انتقلت من أرض الرافدين الى الأراميين بوساطة مدينة حران ، وقد سبق لنا كلام فى هذا الصدد (الفصل الرابع ، الهامش ٢٣) ٠ ويلاحظ كوك (ص ٧٦ و ١٨٧) على عبارة « سهر بنرب » (سهر بالنيرب) (فى السطر الأول من كل من نقشى النيرب) أن باء الجر تدل على أن عبادة سهر فى النيرب لم تكن أصيلة ، وانما انتقلت اليها من مكان آخر ٠

٣٥ ـ حزنا وأسى على أنك لا تستطيع فعل ما أمرك به الملك (كاولى ، ص ٢٣٨) ٠

٣٦ ـ هذه الجملة تعقيب الكاتب على جواب العنزة (كاولى ، ص ٢٤٠) ٠

هوامش الفصل الثامن

١ ـ هكذا فى النقـــوش السبئية (CIH ٣٧٥ : ١ ، وجلازر ١٠٠٠ ب : ٥ ـ ٦) ، والاسم الحالى هو وادى ذانة · ويقع شمالى مأرب· وقد بنى السد عنـــد مضيق الوادى بين جبل بلق القبلى وجبل بلق الأوسط · وكان يروى مأرب أيضا سد أصغر هو وادى خانق أو وادى الفلج · انظر فون فيسمان وماريا هوفنر ، ص ٢١ و ٢٥ ·

٢ ـ انظر كتاب (جاكلين) بيرين عن مملكة قتبان وتأريخها (فى قائمة المراجع) ·

٣ ـ الواقع أن « ال » (ilu, elu) فى الأكدية معناها « اله » (عامة) ، وليست علما على اله خاص ·

٤ ـ يرد «ال» علما على اله خاص فى النقوش السبئية والقتبانية· ويلقب فى النقوش القتبانية باللقبين « فخر » و « تعلى » (تعالى) · انظر ريكمانز (١) ، جـ ١ ، ص ١ ـ ٢ ، و جـ ٢ ، ص ٢٧ و ١٣٣ ، وريكمانز (٢) ، ص ٤٧ ، وجام ، ص ١١٣ ـ ١١٥ ·

٥ ـ كما فى أسماء الأعلام أب عم (ريكمانز (١) ، جـ ١ ، ص ٢١٧ ، و جـ ٢ ، ص ٢٣) ، أب شمس (جـ ١ ، ص ٢١٧) ، ود أب (جـ ١ ، ص ٢١٨ ، و جـ ٢ ، ص ٥٢) ·

٦ ـ كما فى العلمين ال رب (ريكمانز (١) ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ ، و جـ ٢ ، ص ٣٠) ، رب ال (جـ ١ ، ص ٢٤٨ ، و جـ ٢ ، ص ١٢٢) ·

٧ ـ كمـــا فى اسم العلم ال ملك (ريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٢٣٤) ·

٨ ـ كما فى اسم العلم ال عز (ريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، و ج ٢ ، ص ٣٠) ·

٩ ـ كمـــا فى العلمين يصـــدق ال (ريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، و ج ٢ ، ص ٧٤) ، صدق ال (ج ١ ، ص ٢٤٦ ، و ج ٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٧) ·

١٠ ـ كما فى العلمين ال أمن (ريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٢١٩) ، عم أمن (ج ١ ، ص ٢١٩ ، و ج ٢ ، ص ١٠٧) ·

١١ ـ بدليل أسماء الأعلام المكونة من « عبد » + اسم اله ، مثل عبد ال (ريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، و ج ٢ ، ص ١٠٣) ، عبد ود (ج ١ ، ص ٢٤١) ، عبد عشتر (ج ١ ، ص ٢٤١ ، وج ٢ ، ص ١٠٣) ·

١٢ ـ الطريق الأول هو « طريق البخور » المشهور ، وهو يبدأ من سلسلة من الموانىء على طول الســـاحل الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ، ومن هذه الموانىء يمتد شمالا الى مكة والمدينة ثم معان والبتراء وجرش ودمشق · ومن البتراء يتفرع طريقان الى افريقية : أحدهما يمرُ خلال سيناء ، والثانى يسير الى غزة ومنها الى افريقية بحرا · ومن دمشق يتجه الطريق غربا الى صـــور على البحـــر ، أو يمتد شمالا الى حمص وأنطاكية · وفى دمشق وحمص يلتقى بالطريق الآخر الذى يبدأ من الخليج العربى ، ويصعد فى الفرات الى دورا (التى سيأتى ذكرها) ، ثم يتجه غربا الى المدن السورية مارا بواحة تدمر · وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمهـــا الطريق الذى يبدأ من واحة نجران ثم يسير فى وادى الدواسر الى الجرعا Gerrha (على ساحل الأحساء) وساحل الخليج العربى · انظر موسكاتى (١) ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ·

١٣ ـ القصة فى سفر التكوين ٣٧ : ٢٥ ـ ٢٨ ·

وتسمى التوراة العـــرب بالاسماعيليين ، نسبة الى اسماعيل بن

ابراهيم (من زوجه هاجر المصرية) ، انظر سفر التكوين ٢٥ : ١٢ — ١٨ .

واسماعيل بالعبرية يشماعيل (بامالة حـــركة العين) ومعناه « يسمع الله » . وتعلل التوراة سبب التسمية فى سفر التكوين ١٦ : ١١ : « وقال لها (أى لهاجر) ملك الرب : ها أنت حبلى فتلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد استمع الى مذلتك » .

واسماعيل أخو اسحاق ، الذى ولـــدته لابراهيم زوجـــه سارة العبرية . واسحاق أبو يعقوب الذى يدعى أيضا اسرائيل . فاسماعيل عم اسرائيل .

(١٤) مثل زبيبة Zabibe وشمس Samsi اللتين قدمتا فروض الولاء لتجلت — بيلسر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م) بعد أن فتح غزة وقطع « طريق البخور » . وقد نقضت شمس بعد ذلك عهد الولاء ، فأخضعها سرجون الثانى (٧٢١ — ٧٠٥ ق.م) من جديد . ومن ملكات العرب (Aribi) أيضا الملكة Yati'e التى ساعدت مردك — بلأدن Merodach Baladan ، ملك بابل ، ضد سنخريب ملك أشـــور (٧٠٤ — ٦٨١ ق.م) . (مردك — بلأدن هو الاسم كما يرد فى العهـــد القديم (اشعيا ٣٩:١) . أما الاسم الأصلى كما يرد فى المصادر البابلية فهو Mardukapaliddina) . انظر موسكاتى (١) ، ص٧٢ و ١٢٣ .

(١٥) ددان هو الاسم القديم الذى تذكره التوراة والنقوش المعينية. وكان اسمها زمن النبى وادى القرى (كاسكل ، ص٤٤) .

(١٦) كشف نقش نبطى — يونانى فى جـــــزيرة كوس Kos ببحر ايجه عام ١٩٣٦ ، وقد نشره ليفى دلا فيدا G. Levi della Vida عام ١٩٣٨ . انظر روزنتال ، ص٨٥ آخر سطر — ٨٦ .

(١٧) بالقرب من نابولى ، وقد وجد بها نقشان نبطيان : مجموعة النقوش السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum القسم الثانى Pars Secunda ، النقش ١٥٧ وهو يرجـــع الى عـــام ٥ م ، والنقش ١٥٨ وهو يرجع الى عام ١١م ؛ وأولهما منشور أيضا فى كتاب كوك ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ . وقد كشف نقش نبطى فى روما نفســها (مجمـــوعة النقوش السامية ، رقم ١٥٩) .

انظر كانتنو ، ج ١ ، ص ٢١ ٠

(١٨) Dura Europos على الفرات الأوسط تجاه تدمر ، وتقوم مكانها الآن الصالحية ٠ وقد كشفت فيها نقوش تدمرية نشرها الكونت دى مسنيل دى بويسون Comte du Mesnil de Buisson فى مجلة Revue des Etudes Sémitiques عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ ، ثم فى طبعة جديدة ظهرت فى باريس عام ١٩٣٩ ٠ ومن هذه النقوس نقش يعتبر من أقدم النقوش التدمرية التى كشفت حتى الآن ؛ اذ يرجع الى ٣٣ ق م ٠

انظر روزنتال ، ص ٩٧-٩٨ ؛ وبروكلمان فى Semitistik ص ٤٦ ٠

(١٩) كندة قبيلة عربية جنوبية كانت تقيم فى حضرموت ٠ وتقول الرواية الاسلامية ان حسان بن تبع ، ملك حمير ، أقام حجرا الملقب بآكل المرار (جد امرىء القيس الشاعر) ، وهو من كندة ، زعيما على عدة قبائل كان ملك حمير قد أخضعها فى وسط الجزيرة ٠ فقامت بذلك دولة يحمل رؤساؤها لقب الملك ، وتفرض سلطانها على منطقة واسعة وان كان بحكم الضرورة سلطانا محدودا ٠ والواقع أن مملكة كندة كانت اتحادا قبليا confederation تشغل فيه قبيلة كندة مركز الصدارة وتتولى فيه الحكم أسرة من أسرها ٠ ولم تعمر مملكة كندة طويلا ، اذ دب الشقاق فيها فانحلت عراها ، وعاد الى حضرموت أهل كندة الذين هاجروا من قبل الى وسط الجزيرة ٠

وتجد الرواية الاسلامية عن تأسيس مملكة كندة تأييدا فى نقش عربى جنوبى (ريكمانز ٥٠٩) يتحدث عن حملة قام بها الملك الحميرى أبو كرب أسعد ، هو وابنه حسن يهأمن ، واشتركت فيها كندة (أو كدة بتشديد الدال كما تسمى فى النقوش العربية الجنوبية القديمة) ٠ هذا الى أن هناك مخربشة عربية جنوبية تتحدث عن « حجر بن عمرو ملك كنده » ٠

انظر موسكاتى (١) ، ص ١٢٧ ؛ وهوفنر (٢) ، ص ٦٥-٦٧ ٠

(٢٠) دوشرا هو كبير آلهة النبط ، انتقل الى الثموديين والى الصفويين ٠ وهو يذكر فى النقوش الثمودية والصفوية بالصيغة الأرامية الأصلية دشر (دوشرا) والصيغة العربية المستحدثة ذشر (ذو الشرى) ٠ ولم يرد ذكر دوشرا فى النقوش التدمرية ٠

ولنتحدث عن دوشرا لدى النبط • فهو يرد فى النقوش النبطية التى وجدت فى البتراء وحوران والحجاز • وقد ورد اسمه بدون واو (دشرا) فى النقش النبطى السينائى CIS ٩١٢ • ووردت فى بعض النقوش النبطية (مثل CIS ٢٠٨ و٢٠٩ و٣٥٠ = كوك ٨٨ و٨٩ و٩٤) عبارة (دوشرا اله مرأنا) أى « دوشرا اله سيدنا » ، والمقصود بسيدنا ملك النبط • وقد دخل اسمه فى تركيب العلم النبطى عبد دوشرا الذى يرد فى النقشين النبطيين السينائيين CIS ١٢٢٥ و٢٢٨٦ •

ونجد فى نقشين نبطيين من حوران (R ٨٣ = كوك ١٠١ (١) R ٦٧٦) دوشرا وبعده مباشرة (أعرا) • وهذا يدل على أن دوشرا وأعرا اله واحد • فأعرا هو الاسم الأرامى القديم لهذا الاله (٢) ، ودوشرا لقب عربى أطلقه عليه النبط ، ومعناه « سيد شرا » ؛ والمقصود هنا الشراة ، وهى المنطقة الجبلية التى تقع جنوبى البتراء والتى لاتزال تسمى كذلك حتى اليوم (انظر الفصل السادس ، الهامش ٤٤) •

وقد ورد أعرا وحده (دون أن يسبقه دوشرا) فى CIS ٢١٨ (= كوك ٩٢) ، وهو من الحجاز : لأعرا دى ببصرا اله ربئل « لأعرا الذى ببصرى اله (الملك) رب ــ ال » • ومن المحتمل أن الاسم أعرا يرد فى السطر الثانى من CIS ١٧٧ • وهو يكتب باليونانية Aarra كما فى النقش النبطى ــ اليونانى CIS ١٩٠ (= R ١٠٩٦) وهو من أم الجمال فى حوران •

وحين يذكر الكتاب اليونان دوشرا يجعلونه صنو الاله اليونانى ديونيسوس Dionysos ، اله الخصب (وبخاصة الكرم) • ونقود بصرى تجعل لدوشرا شعار ديونيسوس ، وهو معصرة النبيذ • ويرى فلهاوزن (٢) (ص ٥٠ــ٥١) أن طابع ديونيسوس لم يكن للاله العربى دوشرا فى الأصل وهو فى الصحراء ، وانما اكتسب دوشرا طابع ديونيسوس تحت تأثير الحضارة الكنعانية ــ الأرامية (٣) • ولكن يرى

(١) جاء فيه : لدوشرا أعرا اله مرأنا دى ببصرا « لدوشرا أعرا اله سيدنا الذى ببصرى » •

(٢) الالف فى آخر (أعرا) هى أداة التعريف فى الأرامية (ومنها النبطية) ، فاذا عتبرنا أن العين غين فى الأصل كان (أعرا) من الناحية الاشتقاقية نظير الأغر فى العربية .

(٣) يؤيده كوك (ص ٢١٨ ــ ٢١٩) وجرومان (ص ٨٦) فى هذا الرأى . وانظر أيضا سميث (٢) ، ص ١٩٣ •

ديسو (٢) (ص ٣٠ و ٥٦) أن دوشرا كان في الأصل اله خصب وزرع ، لان منطقة الشراة التي نسب اليها كانت غنية بالزرع والثمر ، وفي العصر العربي كانت لاتزال غنية بأشجار الزيتون واللوز والتين والعنب والرمان ٠

ودوشرا عند النبط هو ذو الشرى عند عرب الجاهلية ٠ يقول ابن الكلبي في كتاب الأصنام (القاهرة ١٩١٤ ، بتحقيق أحمد زكي) (ص ٣٨) ان ذا الشرى صنم كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الازد ، وله يقول أحد الغطاريف (وهم من الأزد) :

اذن لحللنا حول مادون ذى الشرى وشج العدا منا خميس عرمرم

وفي قصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ، كما يرويها ابن هشام (ط فستنفلد ، ص ٢٥٣ = السقا ، ج ٢ ، ص ٢٤) ، أنه قال لامرأته : « فاذهبي الى حنا ذى الشرى (قال ابن هشام ويقال حمى ذى الشرى) فتطهري منه ٠ قال : وكان ذو الشرى صنما لدوس(١) ، وكان الحنا حمى حموه له ، وبه وشل (٢) من ماء يهبط من جبل» ٠ وقول الطفيل «فتطهري منه » أي تطهري من الصنم ، وذلك بالاغتسال بماء الوشل الذى في حماه٠

أنظر فلهاوزن (٢) ، ص ٤٨ ــ ٥١ ؛ ولد زبارسكي ، ج١،ص ٢٣٠، و ج ٢ ، ص ٢٦٢ ، ٣٢٦ ، و ج ٣ ، ص ٩٠ ــ ٩٣ ؛ وكوك ، ص ٢١٨ - ٢١٩ و٢٣٨ ــ ٢٣٩ ؛ وديسو (١) ، ص ٤١٠ ــ ٤١٢ ، (٢) ص ٣٠ و٤٥و٤٦و٥٦ و(٣) ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧ ؛ وسميث (١) ص ٢١٠ ــ ٢١٢ و٢٩٨ـ٣٠٦ ، و(٢) ، ص ٥٦ـ٥٧ (الهامش الثالث) و٣١٦ (مع تعليق الناشر في ص ٦٠٣ـ٦٠٤و٥٢٠ـ٥٢١) ؛ ولاجرانج ، ص ١٨٤ و١٨٨ ــ ١٨٩و٢٠٧ (الهامش الاول) ؛ وهمل ، ص ٥٤٧و٦٠٤ (الهامش الأول)و٧١٥ ــ ٧٢١ ؛ وكانتنو ،ج٢ ، ص ٦٦ و٨٠ ــ ٨١ أ ؛ وريكمانز (٢) ، ص٢٣ ؛ وستاركي ، ص ٢٢٠ـ٢٢٢ ، وجرومان ، ص ٨٢و٨٦ ٠

٢١ ــ كانت اللات كبيرة آلهة الصفويين وأكثرها ورودا في دعواتهم وقد عرفها اللحيانيون أيضا (كاسكل ، ص ٤٦) ، فكان من أسمائهم تملت (تيم اللات) (جس ٢٥٦ : ١) ؛ وتذكر لنا مخربشة لحيانية متأخرة

(١) دوس من خزاعة من الأزد (نسب عدنان وقحطان للمبرد ، نشره عبد العزيز الميمني ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٢١ ــ ٢٢) ٠

(٢) الوشل (محركة) الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره أو لا يكون الا من أعلى الجبل (القاموس) ٠

اسم كاهن من كهنتها : جس ۲۷۷ (كاسكل ، رقم ١٠٤، ص ١٢٨) : ذ علم أفكل لت « هذا عليم (أو علام) كاهن اللات » .

وقد عبد النبط اللات أيضا ، سواء فى حوران أو الحجاز . فالنقش النبطى CIS ۱۷۰ = كوك ۹۸ (وهو من حبران فى حوران) يذكر أحد كهنتها : مالك بن قصى ؛ ويرجع هـذا النقش الى عام ٤٧ م . والنقش النبطى CIS ۱۸۲ = كوك ۹۹ (وهو من صلحد بحوران) يذكر معبدا بناه روح بن أكلب بن روح « للات الهتهم التى بصلحد » ؛ ويرجع هـذا النقش الى عام ٦٥ م . والنقش النبطى CIS ۱۹۸ = كوك ۸۰ (وهو من الحجر بالحجاز) يذكر قبرا بنته كمكام بنت وائلة بنت حرام وكليبة ابنتها لنفسيهما ولذريتهما ، ويطلب اللعنة من دوشرا (كبـــير آلهة النبط) واللات التى « من عمند » (وهو موضـــع غـير معروف) والالهة منوتو (مناة) على من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يخرج منه جثة أوشلوا (عضوا) أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتهما ، ويرجع هذا النقش الى السنة الأولى قبل الميلاد أو بعده .

وعرف أهل تدمر اللات أيضا . فالنقش التدمرى CIS ٣٩٥٥ = كوك ۱۱۷ (وهو يرجع الى عـام ۱۲۹ م) يذكر اللات بين الاله شمش والاله رحيم (الذى يرد فى النقوش الصفوية) ، ثم يصـف هذه الالهة الثـلاثة بأنهـا « الآلهة الطيبــة » . وتصــور اللات فى الآثار التـدمرية غالبا بسمات الالهة اليونانية أثينى Athene ، الهة الحرب والحكمة ، وهذا دليــل على تقـدير عظيم لحكمه اللات ، ان لم يكن طابع القتال فى الالهة اليونانيه هو الذى أغرى عرب تدمر فجعلوا اللات صنوا لهـا . وتصور اللات أحيانا وفى صحبتها أســد ، ونجد هذا الحيوان أيضــا مع الالهتين الساميتين الـكبيرتين عشترت (أفروديت) وأترجاتيس Atargatis (راجع الفصل السابع ، الهامش ٢٦) . وقد دخل اسم اللات فى تركيب كثير من الأسماء التدمرية مثل أمة اللات ووهب اللات ونصر اللات وعبد اللات وســلم اللات . وكان ابن أذينــة ، ملك تدمر ، وزنوبيا ، ملـكتها المشهورة ، يدعى وهب اللات ، وهو يسمى فى النقوش اليونانية بسوريا (أثينودوروس Athenodoros) أى هبة أثينى ، وهذا دليل على ما سبق قوله من أن اللات صارت صنو الالهة اليونانية أثينى .

ويرجع أقـدم ذكر للات الى القرن الخامس قبل الميلاد ، اذ يروى هيرودوت فى تاريخه (الكتاب الثالث ، الفقرة الثـامنة) أن العرب كانوا يعتقدون « أن (الاله) ديونيسوس Dionysos و (الالهة) أورانيا Urania

هما الالهان الأوحدان ، ويسمون ديونيسوس (بالاسم) Orotal وأورانيا (بالاسم) Alilat · والاسم Orotal موضع خلاف بين العلماء · و Allat هي طبعا اللات ، وهذا النطق اليوناني دليل على أن اللات كانت في الأصل الالات (= الالهة) ، كما ان الله هو في الاصل الاله · وقد جعل هيرودوت الالهة العربية اللات صنو الالهة اليونانية أورانيا ، الهة علم الفلك ·

***

وكانت اللات من أصنام العرب في الجاهلية · يقول ابن الكلبي (ص ١٦ ـ ١٩ و ٢٧ و ٤٣) انها كانت صخرة مربعة بالطائف ، بنوا عليها بناء · وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى · وبها كانت العرب تسمى « زيد اللات » (مثل زيد اللات بن رفيدة بن ثور) و «تيم اللات» (١) (مثل تيم اللات بن ثعلبة بن عكابة ، وتيم اللات بن رفيدة بن ثور ، وتيم اللات بن النمر بن قاسط) (٢) · وكانت قريش قبل الاسلام تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى · كانوا يقولون : بنات الله ، وهن يشفعن اليه · وفي هذا يقول القرآن الكريم (النجم ١٩ ـ ٢٣) : « أفرأيتم اللات والعزى · ومناة الثالثة الأخرى · ألكم الذكر وله الأنثى · تلك اذا قسمة ضيزى · ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (٣) ·

---

(١) يقول صاحب الاغانى (ط بولاق ، جـ ٤ ، ص ٢ ـ ٣ = ط دار الكتب ، جـ ٤ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥) وهو يذكر أخبار حسان بن ثابت ونسبه : « هو حسان بن ثابت بن المنذر .. بن النجار ، واسمه (أى اسم النجار) تيم الله بن ثعلبة بن عمرو ابن الخزرج .. وقيل : ان اسم النجار تيم اللات .. وانما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم تيم الله ، لأن الأنصار كانت تنسب اليه فكره ان يكون فى أنسابها ذكر اللات » .

(٢) من بنى رفيدة بن ثور أيضا وهب اللات وسعد اللات وسكن اللات وشكم (أى عطاء) اللات (الاشتقاق لابن دريد ، القاهرة ١٩٥٨ ، بتحقيق عبد السلام هارون، ص ٥٣٨) · وانظر فلهاوزن (٢) ، ص ٣٢ ·

(٣) انظر أيضا سورة الصافات ١٤٩ ـ ١٥٧ · ·

قال عمرو بن الجعيد :

فانى وتركى وصل كأس لكالذى نبرأ من لات (١) وكان يدينهـــا

وقال المتلمس الضبعى لعمرو بن هند (عمرو بن المنذر) فيما كان صنع به وبطرفة بن العبد :

أطـردتنى حذر الهجـــاء ولا واللات والأنصــاب لا تئــل (٢)

وقال أوس بن حجر يحلف باللات :

وباللات والعزى ومن دان دينهـا وبالله ان الله منهن أكبــر

ولما أسلمت ثقيف بعث رســول الله صــلى الله عليــه وسلم المغيرة ابن شعبة فهدمها وحرقها بالنار· وفى ذلك يقول شداد بن عارض الجشمى حين هدمت وحرقت ، ينهى ثقيفا عن العود اليها والغضب لها :

لا تنصروا اللات ان الله مهلــكها وكيف نصركم من ليس ينتصر ؟
ان التى حرقت بالنــار فاشتعلت ولم تقــاتل لدى أحجارها ، هدر
ان الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن وليس بهــا من أهلها بشر

ويدخل اسم اللات فى تركيب بعض الأعلام العربية الجنوبية القديمة، مما يدل على أنها كانت من آلهة جنوب الجزيرة قديما ·

***

ويرى فلهاوزن (٢) (ص ٣٣) أن اللات هى الهــه الشمس · وهو يستند فى ذلك الى أن الالاهة بمعنى الشمس فى هذا البيت الجاهلى :

تروحنا من اللعباء عصرا فأعجلنــــا الالاهة أن تئــوبا (٣)

(اللعباء : موضع)

ويرى لتمان (٥) (ص ١٠٦) أن اللات هى أيضا الهة الشمس عند الصفويين · ولكن يرى ديسو (٢) (ص ١٤٢) و (٣) (ص ١٣١ ـ ١٣٢)

---

(١) لاحظ ورود اسم اللات بدون الألف واللام . وهذه الصــيغة المختصرة (لات) هى الغالبة في النقوش الثمودية والصفوية ، حيث نجد غالبا (لت) أى لات وقليلا (الت) أى اللات .

(٢) أطردتنى : أخرجتنى من بلدى . لا تئل : لاتنجو .

(٣) يستند فلهاوزن أيضا الى أن « الهة همدان » فى النقوش السبئية بمعنى الشمس . ولكن يقول ريكمانز (٢) (ص ٥٦ ، الهامش ٥٢١) ان (ألهت) هنا ليست بمعنى الهة ولكنها اسم موصول للجمع فيكون معنى العبــارة « الذين (ينتسبون الى) همدان ، قبيلة همدان » .

أن الالهة (المؤنثة) اللات عند عرب الشمال هي كوكب الزهرة Venus وأنها في هذا نظيرة الاله (المذكر) عثتر عند عرب الجنوب (١) . ويؤيده في هذا ريكمانز وستاركي .

أنظر فلهاوزن (٢) ، ص ٢٩-٣٤ ، وكوك، ص ٢٢٢ ، وديسو (١)، ص ٤٠٥ و ٤١٠ - ٤١٢ ، و (٢) ، ص ٤٦ و ٥٨ و ٦٠و٩٠ و ١٠١-١٠٣ و ١٤١ - ١٤٢ ، و (٣) ، ص ١١٦ - ١٣٩ ، وجرمه ، ص ١٣٦-١٣٧ ، وريكمانز (١) ، ص ٣ ، و (٢) ، ص ١٥ و٢٠- ٢٢ ، ولتمان (٥) ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، وفان دن براندن ، ص ١١ ، وستاركي ، ص ٢١١-٢١٣ ، وجرومان ، ص ٨٢ - ٨٣ و ٢٧٤ (تعقيبا على ص ٨٣ ، س ١٥) .

(٢٢) أوضح سيرج H. Seyrig ، كما يقول ديسو (٢)، (ص ٩٣)، أن « الاسم بيل هنا (في تدمر) ما هو الا غطاء للاسم المحلي بول ». كذلك يقول ستاركي (ص ٢٠٦) ان الاله بيل حل محل اله محلي اسمه بول ، أو بالأحرى صار اتصالا له . ومن المقطوع به أن أهل تدمر أخذوا الاسم بيل عن بابل ، حيث يطلق هذا الاسم على الاله بعل (٢) .

ويرى بعض علمـــاء اللغـــة (كانتنو ، وباور Hans Bauer ولتمان) أن الاسم بول تطور صوتيا عن بعل ، فقد تحول بعل الى بال ثم الى بول . ولكن يعترض ديسو على هذا التفسير الصوتي قائلا (٢) (ص ٩٤) : « ان الاله بيـــل التدمري ليس له دور أو صفات الاله بعـــل الذى نعرفه جيدا الها للعاصفة والمعارك . والواقع أن بول ليس مشتقا اشتقاقا منطقيا من بعل ، وانما هو اسم مصطنع ابتدعه كهنة تدمر ليجنبوا الجمهور الخطأ الذى نقع فيه كثيرا في أيامنا هذه حين نخلط بين بعل وبعل شمين». ويسلم ستاركي (ص ٢٠٦ - ٢٠٧) بأنه من الممكن أن يكون الاسم بول

---

(١) يرى ديسو أن الالهتين مناة ورضي (اللتين سنتحدث عنهما في الهامشين ٢٤ و ٢٥) تمثلان اللات (الزهرة) من حيث هي نجمة المساء ، وان العزى (وهي الهة مقاتلة) (انظر الهامش ٢٦) تمثل اللات من حيث هي نجمة الصباح . راجع حديثنا عن الالهة عشتر في الفصل الرابع ، الهامش ٢٣ (جـ) .

(٢) نجد العلم أيتيبل في النقش النبطي CIS ١٩٦ (كوك ٩٦) ، س ٣ (مرتين) . فلعله في الأصل أيتي - بعل ، فسقطت العين (كانتنو ، جـ ١ ، ص ٤٥)، أو قد يكون الاله البابلي بيل دخل في تركيبه (أيتي - بيل) . والجزء الاول من العلم (ايتي) معناه « أحضر » (على أساس أنه أيتي وزن أفعل من الفعل أتا « أتى ») أو « وجد » (على أساس أنه ايتي فعل الكينونة) ، فيكون معنى العلم « بعل أو بيل أتى (بالمولود الجديد) » ، أو « بعل أو بيل موجود » . انظر كوك ، ص ٢٤٨ ، وكانتنو ، جـ ٢ ، ص ٦١ أ .

قد تطور صوتيا عن الصيغة العادية بعل ، ولـكنه يقول انه يمكن أيضا أن نفترض أن بول كان الاله القومى لواحة تدمر قبـل مجىء السـاميين اليها ، وهو يستند فى هذا الفرض الى أن أسماء الرجال أو الآلهـة التى يدخل فى تركيبها الاسم بول (مثل زبد بول (١) وبولحا (٢) وبورفا (٣) من الرجال(٤) ، ويرحبول وعجلبول وبولعستر من الآلهة) خاصة بتدمر ٠

***

ومن الصعب تحديد التاريخ الذى حل فيه الاسم بيل محل الاسم بول ٠ فيعتقد ففريبه J.-G. Fevrier أن هذا الابدال بالغ القدم ، ويضعه ستاركى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ويربطه سيرج بالعصر اليونانى ـ البارثى ٠ ومن المؤكد أنه لم يكشف حتى الآن سوى نقوش تدمرية متأخرة للاله بيل (٥) ، ولكن يقول ديسو (٢) (ص ٩٣) انه لا يصح الاحتجاج بهذا ، لأننا نعرف أن مدينة تدمر بالغة القدم ولأن حفائر عميقه يمكن أن تأتى بما يدهش العقول ٠ ويوضح ديسو رأيه فى هذا الموضوع قائلا(٢) (ص ٩٣ـ٩٤) : « ليس من المحتمل كثيرا أن يكون اليونان او البارثيون هم الذين حدوا بأهل تدمر الى أن يظهروا مثل هذا الاجلال للاله بيل ، اله بابل فان هذا الاله لم يدخل فى زمرة آلهة اليونان أو البارثيين٠والعصر البابلى المتأخر أو العصر الفارسى أنسب لمثل هذا الاقتباس ٠ وقد أوضح سيرج أن أهل تدمر أخذوا عن بابل آلهة أخرى : بلتيس **Beltis** وهرتا **Herta** ونانى **Nanai** ونبو **Nabu** وتموز **Tammuz** ونرجل **Nergal** كما أخذوا فيما بعد أناهيت **Anahit** عن الفرس ٠ ويعرف سيرج أن هذه الآلهة لقيت حظوة كبيرة فى سوريا كلها منذ عهد قديم ، الى حد أنها امتدت الى الجاليـات السـامية فى مصر ٠ وأبرز مثـل لذلك هو يهودى جزيرة الفانتين الذى يدعو اربعة آلهة بابلية (٦) أن تعين يهوديا آخر ٠ فهذا صدى معتقدات انتشرت فىجميع أنحاء فلسطين وسوريا قبل العصر

---

(١) أى عطاء بول ٠ وهو يرد مثلا في كوك ١٤٠ أ ، س ٦ و ٧ ٠

(٢) يرد في كوك ١٣٢ (س ١) و ١٤٤ (س ٤) ، ومعناه « بول اخ » (بول احا) أو « بول محا (الاثم) » (بول لحا) . انظر كوك ، ص ٢٩٣ ٠

(٣) يرد في Vog. ١٠٩ ٠ وهو أصلا بول رفا « بول شفى » ، فادغمت اللام فى الراء ٠ ومثله برفا (اى بيل رفا) في Vog. ٧٥ (كوك ١٣٥) ، س ٦ ٠

(٤) من هذا القبيل أيضا الاسم التدمرى عبد بول (كوك ١١٥ ، س ٥) ٠

(٥) اقدم نقش يذكر بيل يرجع الى عام ٤٤ ق ٠ م ٠ ويليه في القدم نقش وجد فى دورا يوروبوس يسجل تأسيس معبد للالهين بيل ويرحبول فى يونيه عام ٣٣ ق م٠، انظر الهامش ١٨ ٠ ونقش تكريس معبد بيل في تدمر (كماسيلى) يرجع الى عام ٣٢ م٠

(٦) هى بيل ونبو وشمش ونرجل ٠

البارثي ٠٠ فما العجب في أن تبلغ مثل هذه المعتقدات أيضا مدينة تدمر التي كانت تربطها بسوريا أوثق الصلات ؟ » ٠

***

والمعبد الكبير في تدمر هو معبد بيل ٠ ويسجل نفش تدمري كشف عام ١٩٣٢ تكريس هذا المعبد للاله بيل وتابعيه يرحبول وعجلبول في السادس من نيسان عام ٣٤٣ من حكم السلوقيين ، اى السادس من أبريل عام ٣٢م (١) ٠ وهذا اليوم يوافق عيد العام الجديد akitu الذي يحتفل به في بابل تمجيدا للاله بيل-مردك ، فهذا يدل على أن بيل التدمري قرن بإله بابل الكبير ٠

وكان في تدمر أيضا معبد للاله بعل شمين ، ولكنه معبد متواضع اذا قورن بمعبد بيل(٢) ٠ وثمة وحدة أصلية بين بعل شمين وبيل في تدمر من حيث ان كلا منهما اله السماء ٠ يقول ستارلي (ص ٢٠٦) : « يجد المؤرخ نفسه في تدمر أمام صورتين للاله الأكبر : بيل وبعل شمين ٠٠٠ فالأول بابلي ، والثاني كنعاني أرامي ٠ وبيل في تدمر ، مثل بيل – مردك في بابل ، سيد السماء ذات النجوم ٠ وهو سيد الأقدار والمصاير ، لأنه يهيمن على النجوم وعلى حركات الكواكب ٠ فهو ينظر اليه على أنه اله كوني cosmique مثل جوبيتر البعلبكي Jupiter Heliopolitanus ٠ والواقع أنه يدعى كثيرا زيوس – بيلوس Zeus-Belos ٠ وبعل شمين هو أيضا ، كما يدل اسمه ، سيد السموات، ولكنه سيد السموات الحاملة للسحب والمطر ٠ فهو اله للعاصفة والخصب شبيه بالاله هدد ، ان لم يكن هو نفس هدد ، ولكننا لا نجد اسم الاله هدد في تدمر ٠٠ » ٠ ويقول ديسو (٢) (ص ٩٦) ان الطابع المميز للاله بيل من حيث هو راعي مدينة تدمر أدى الى تمييزه تمييزا واضحا عن بعل شمين ، ولا سيما منذ قرن بيل باله بابل الكبير ٠

---

(١) كان معبد بيل من أوسع المعابد في العصر الروماني ٠ ويقول ديسو (٢) (ص ٩٣) : « ان أهمية هذا المعبد تعكس غنى المدينة وسلطان كهنة بيل ، فلم يكن أحد يقبل في طائفتهم اذا لم ينتم الى طبقة التجار الأرستقراطية في تدمر . واذا أعلن في نص ما تعيين موظف كبير على يدى الاله يرحبول ، فهذا في الواقع اختيار تلك الطائفة » .

(٢) ينسب ديسو (٢) (ص ٩٨) هذا الى ظروف مالية خاصة بحكومة تدمر (لا الى تواضع في أهميته) ٠ ويقول ان بعل شمين لقى حظوة كبيرة بين عرب منطقة تدمر خاصة مثل الحظوة التي كانت له في سوريا ٠

ومما يؤيد الوحدة الأصلية بين بعل شمين وبيل فى تدمر ، كما يقول ديسو (٢) (ص ٩٤ ـ ٩٥) ، أنه يصحبهما فى منطقة تدمر نفس الاتباع . فالاله بيل ، كمامر ، يصحبه يرحبول (١) وعجلبول (٢) . فيرحبول انه شمسى يرى على يمين بيل ، وعجلبول انه قمرى يرى على يساره . وقد أوضح أيسفلت O. Eissfeldt أن الاسم يرحبول مشتق من مادة يرخ « راح ، ذهب » ، وأن معناه « رسول بول » ، وهو معنى يفسر وظائف هذا الاله . أما عجلبول فيشتقه أيسفلت من مادة عجل « دور » ، ويجعل معناه « سائق (مركبة) بول » (٣) . ويقول ديسو(٢) (ص ٩٥ ، الهامش ٢) ان هذا المعنى ينـاسب عجلبول من حيث هو اله قمرى ، لأن البدو ورجال القوافل يسترشدون بالقمر فى الصحراء .

وبعل شمين يصحبه أيضا عجلبول ، ولكن كهنة بعل شمين ، كما يقول ديسو (٢) (ص ٩٥) ، لم يمكنهم استعمال لفظ يرحبول ، لأن كهنة بيل كانوا يحكمون باسم يرحبول . فكان على كهنة بعل شمين أن يجدوا لفظا جديدا ، فاتخذوا لفظ ملكبيل ومعناه « رسول بيل » (ملاك بيل) ، وقد أدخلوا لفظ بيل فى تركيب اللفظ الجديد اكراما للاله بيل قرين الههم بعل شمين . ويرى عجلبول على يمين بعل شمين وملكبيل على يساره (٤) ، وهو عكس الوضع الذى نراه فى الثالوث الأول : ثالوث بيل .

وملكبيل لا يختلف فى جوهره عن يرحبول ، فكلاهما الشمس ، وكلاهما من هذه الناحية أحد أتباع اله السماء . ولكنهما ، كما يقول

---

(١) ورد يرحبولا (بامالة حركة اللام امالة طويلة) اسما لرجل فى النقش التدمرى كوك ١١١ ، س ٣ . وهو مأخوذ طبعا عن اسم الاله يرحبول . انظر كوك ، ص ٢٦٧ .

(٢) نجد الاله عجلبن (عجلبون) فى النقشين اللحيانيين القديمين جس ٨٢ (= كاسكل ، رقم ٣٢ ، ص ٩٣) ، س ٢ ، وجس ٨٣ (كاسكل ، رقم ٣٠ ، ص ٩١) ، س ٣ . وهو عجلبول التدمرى مع ابدال اللام نونا . انظر كاسكل ، ص ٤٥ .

(٣) هو بهذا المعنى نظير الاله الآرامى ركب ـ ال اذا نطقناه ركاب ـ ال . راجع الفصل السابع ، الهامش ٢٨ .

(٤) يرى ديسو (٢) (ص ٩٦) أن هذا الوضع (وهو يتضمن تقديم عجلبول اله القمر على ملكبيل اله الشمس) يعكس اعتقاد العرب أن الاله القمر الشاب المفعم بالقوة هو زوج الالهة الشمس .

ويلاحظ ان عجلبول يتقدم على ملكبيل في النقوش التدمرية التى يذكران فيها معا (مثل كوك ١٣٩ و ١٤٠ أ) . وفى هذا يقول لدزبارسكى (ج ١ ، ص ٢٥٥) : « جرت العادة في الشرق القديم أن يذكر القمر قبل الشمس ، كما تذكر الفضة قبل الذهب » .

ديسو (٢) (ص ٩٥) ، اختلفا فى اختصاصاتهما ، فاتخذ يرحبول (مثل بيل) طابعا مدنيا خاصا • وهكذا صار جد (اله) عين افقا ، أهم عيون تدمر ، فكان يعين من يقوم على رعاية هذه العين • وكان أيضا يختار لمناصب مختلفة من يشغلها من الموظفين • أما ملكبيل فقد تشبع بالطابع الشمسي المحض الى حد أنه وصف بـ Sol sanctissimus (الشمس المقدسة أعظم تقديس) على مذبح تدمرى محفوظ فى متحف الكابيتول بروما • ويؤكد سيرج الطابع الزراعى لملكبيل من حيث هو حامى قطعان الماشية وصنوف الزرع ، ولكن يقول ديسو (٢) (ص ٩٦) ان هذه ميزة يشترك فيها ملكبيل مع كل الآلهة الشمسية السورية فى العصور المتأخرة •

ويذكر ملكبيل فى النقش التدمرى CIS ٣٩٢٧ (= كوك ١١٢) مع الالهة جد ـ تيمى (أى الالهة الراعية لبنى تيمى وهم من القبائل الهامة فى تدمر) والالهة عترعته (أترجاتيس) (أنظر ملاحظتنا عنها فى الفصل السابع ، الهامش ٢٦) • ويذكر ملكبيل وجد ـ تيمى وحدهما على خاتم seal تدمرى (مورتمان ٨٨) ، انظر كوك ، ص ٢٦٩ •

أنظر ديسو (٢) ، ص ٩٣ ـ ١٠١ ، و (١) ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٩ و ٤١٣ ، وستاركى ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ و ٢٠٩ ـ ٢١١ ، وكوك ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ و ٢٧٤ و ٢٨٠ ـ ٢٨١ و ٣٠١ ـ ٣٠٢ ، ولدزبارسكى ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ •

وانظر ملاحظتنا عن بعل شمين فى الفصل السابع ، الهامش ٣١ •

(٢٣) كان ذو غابة على ما يبدو كبير آلهة اللحيانيين • والغابة فى اللغة الأجمة ، ولهذا يرى كاسكل (ص ٤٤) أن معنى ذى غابة « الذى من (أوفى) ألأجمة » ، ويتابعه فى هذا جرومان (ص٨٥) • ولكن يرى ريكمانز (١) (جـ ١ ، ص ٢٩) و (٢) (ص ١٩) أن المقصود هنا غابة القريبة من المدينة ، وكانت مشهورة بخصب أرضها وكثرة نخلها (١) ، وعلى هذا تكون غابة هذه مركز عبادته ، ويكون معنى ذى غابة

---

(١) يقول ياقوت فى معجم البلدان (ط فستنفلد ، جـ ٣ ، ص ٧٩٧) : « وهو موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة .. وقال الواقدى الغابة بريد من المدينة على طريق الشام ، وصنع منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرفاء الغابة » • ويقول البكرى فى معجم ما استعجم (ط السقا ، ص ٩٨٩) : « وهما غابتان : العليا والسفلى » ويقول في موضع آخر (ص ١٣٣٣) : « وبالغابة أموال كثيرة : عين ابى زياد ، والنخل التى هى حقوق أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، =

« سيد غابة » كما أن دوشرا هو « سيد الشراة » (انظر الهامش ٢٠) ٠ فذو غابة لقب للاله ، ولكننا لا نعرف اسمه ٠

ويرد ذكره في نقوش لحيانية كثيرة ، ولكنها لا تدلنا على شيء من صفاته ٠ وقد دخل اسمه في تركيب كثير من أسماء اللحيانيين : عبد ذو غابة ، فلح ذو غابة ، خرج (؟) ذو غابة ، عرر ذو غابة ، مرء ذو غابة، زيد ذو غابة ٠ والعرر هو الجرب ، يقال رجل عر (بالفتح) بين العرر والعرور أجرب (القاموس) ، فالعلم عرر ذو غابة يدل على أن الجرب مرض يرسله ذو غابة (كاسكل ، ص ٤٤) ٠

ومن النقوش اللحيانية القديمة التي تذكر ذا غابة جس ٤٩ (= كاسكل رقم ٩ ، ص ٨٠) ، وفيه أن عبد ـ ود ، كاهن الاله ود ، وابنه سالما وزيد ـ ود قدموا الى ذي غابة « الغلام سالما » ، والغرض أن يكرس الغلام سالم لخدمة هيكل ذي غابة، لا أن يكون قربانا آدميا له كما يظن ريكمانز (٢) (ص ١٩) ٠ والنقش اللحياني المتأخر جس ٦٣ (= كاسكل رقم ٨٥ ، ص ١١٩) يشير الى تمثال (صلم) قدم الى ذي غابة ٠

(٢٤) يذكر الاله رضو (بالواو) كثيرا في النقوش الثمودية ٠ ويرد فيها أحيانا بدون واو (أي بالصيغة رضى) ٠ وورد فيها مرة بالصيغة رضأ (بهمزة في الآخر) ٠ وهذه الصيغة تطابق الاسم رضاء في شعر المستوغر كما سيلي ٠

ورضو هو رضى لدى عرب الجاهلية ٠ يذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام (ص ٣٠) أن من أسمائهم « عبد رضى » (١) ، ثم يقول (٢) :

وثرمد مال كان للزبير باعه عبد الله ابنه في دين أبيه ثم صار للوليد بن يزيد ٠ وبها الحفياء وغيرها » ٠

(١) عبد رضى جد لزيد الخيل الصحابي الطائي (الأغاني ، ط بولاق ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ = ط دار الكتب ، جـ ٨ ، ص ٢٣٣ ، وط بولاق ، جـ ١٦ ، ص ٤٧ ، حيث ينص أبو الفرج على أن « رضي صنم كان لطيىء » ٠)

ويذكر الهمداني في صفة جزيرة العرب (ط ملر ، ص ٩٨) وادي الصدارة الذي يهربق في بيحان (في حضر موت) ثم يقول : « وأهله الرضاويون من طيىء وهم من بني عبد رضي » ٠

وعبد رضى أيضا اسم الجد الثاني لقيس بن جحدر اللخمي جد الطرماح بن حكيم الشاعر (الأغاني ، ط بولاق ، جـ ١٦ ، ص ١٠٢) ٠

(٢) تجد مثل هذا القول أيضا منسوبا الى ابن اسحاق في سيرة ابن هشام (ط فستنفلد ، ص ٥٦ = ط السقا وزميليه ، القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ١ ، ص ٨٩ ـ ٩٠) ٠

« وذكر بعض الرواة أن رضى كان بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة فهدمه المستوغر ، وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم ·· وقال المستوغر فى كسره رضى فى الاسلام ، فقال :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلا تنازع أسحما
ودعوت عبد الله فى مكروهها ولمثل عبد الله يغشى المحرما »

فمن هذا يتبين أن رضى (أو رضاء) الهة أنثى لدى عرب الجاهلية· ولكن الصيغة المذكرة (رضو) التى يسميه بها الثموديون تدل على أنه كان عندهم الها ذكرا · وهذه الصيغة هى نظير (أرصو) اسمه لدى أهل تدمر (كما فى CIS ٣٩٧٤ : ١) ، وهو (رصو) فى بعض الأسماء التدمرية مثل تيم ــ رصو (أى عبد رصو) فى النقشين كوك ١١٥ (س ١) و ١٤٠ أ (س ٥) ، وجد ــ رصو (أى جد أو حظ رصو) فى Vog. ٨٤ (س ٣) ·

ويقترن أرصو عند أهل تدمر بالاله عزيزو ، فهما الهان توأمان ، ولعلهما نجم الصباح ونجم المساء ، شخصا nypostases كوكب الزهرة Venus · ويرد رضو أيضا فى النقوش الصفوية ، ويكتب فيها أحيانا بالياء مكان الواو (رضى) ، فلعل الصيغة التى بالواو يراد بها الجانب المذكر من الزهرة أى نجم الصباح، والصيغة التى بالياء يقصد بها الجانب المؤنث منها أى نجم المساء ·

واشتقاق الاسم واضح ، فهو من رضى يرضى رضا ورضوانا (بكسر الراء فى كل منهما أو ضمها) ومرضاة ضد سخط ·

أنظر فلهاوزن (٢) ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ، وكوك ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ و ٢٧٣ ، ولدزبارسكى ، ج ٣ ، ص ٩٢ ، وديسو (١) ، ص ٤١٢ ، و (٢) ، ص ٩٠ و ١٠١ (الهامش الرابع) و ١٤٢ ــ ١٤٣ ، و (٣) ، ص ١٤٢ ــ ١٤٦ ، وريكمانز (١) ، ج ١ ، ص ٣٢ ، و (٢)، ص ١٨و٢٢ و ٥١ (الهامش ١٦٥) ، ولتمان (٥) ، ص ٢٩ و ١٠٦ ــ ١٠٧ ، وفان دن براندن ، ص ١٢ ــ ١٣ ، وستاركى ، ص ٢١٢ و ٢٢٥ ــ ٢٢٦ ·

وانظر حديثنا عن اللات فى الهامش ٢١ ·

(٢٥) مناة من آلهة العرب فى الجاهلية ، تحدث عنها ابن الكلبى (ص ١٣ ــ ١٥) فقال ان صنمها كان منصوبا على ساحل البحر من ناحية

المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت العرب جميعا تعظمه وتذبح حوله، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينه ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون حوله ويهدون له ، ولم يكن أحد أشد اعظاما له من الأوس والخزرج . وكانت الأوس والخزرج ومن يأخذ باخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رءوسهم ، فاذا نفروا أتوه فحلقوا رءوسهم وأقاموا عنده ، لا يرون لحجهم تماما الا بذلك . فلاعظام الأوس والخزرج يقول عبد العزى بن وديعة المزنى أو غيره من العرب :

انى حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج

ويذكرها القرآن الكريم فى الآية ٢٠ من سورة النجم (ومناة الثالثة الأخرى) . وكانت لهذيل وخزاعة . ولم يزل العرب على تعظيمها حتى خرج النبى من المدينة سنه ثمان من الهجرة ، وهو عام الفتح ، فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس ليال ، بعث عليا اليها فهدمها وأخذ ما كان لها ، فأقبل به الى النبى . فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث ابن أبى شمر الغسانى ، ملك غسان ، أهداهما لها ، فوهبهما النبى لعلى، فيقال ان ذا الفقار ، سيف على ، أحدهما . ويقال ان عليا وجد هذين السيفين فى الفلس ، وهو صنم طيىء ، حيث بعثه النبى فهدمه .

هذا مجمل ما قاله ابن الكلبى عن مناة لدى عرب الجاهلية .

وكانت مناة من آلهة النبط أيضا ، يسمونها (منوتو) كما فى نقش رقاش النبطى (جس ١٧) ونقشى كوك ٧٩ (س ٥) و ٨٠ (س ٤و٨) . ويلاحظ أن جميع النقوش النبطية التى تذكرها من الحجر (مدائن صالح) فى الحجاز. وكانت مناة معروفة أيضا لدى أهل تدمر، يسمونها (منوت). ويدخل اسمها فى كثير من الأعلام اللحيانية بالصيغتين منت (أى مناة كما فى العربية) ومنوت (بواو كما فى النبطية والتدمرية) (١) . ونجد اسمها أيضا فى بعض الأعلام الثمودية مثل عبد منت (عبد مناة) فى نقش رقاش الثمودى (جس ١ = أويتنج ٧٧٢) وأس منت (أوس مناة) فى أويتنج ٦٥٢ وهاردنج ٨٣ و ١٣١ (٢) .

---

(١) انظر كاسكل (١) ، ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) نجد في العربية هذين العلمين (عبد مناة وأوس مناة) وأعلاما أخرى يدخل فى تركيبها اسم مناة ، فابن الكلبى فى كتاب الأصنام (ص ١٨) يذكر زيد مناة بن تميم ابن مر بن أد بن طابخة ، وعبد مناة بن أد ، وانظر فلهاوزن (٢) ، ص ٢٩ .

انظر فلهاوزن (٢) (ص ٢٥ ـ ٢٩) ، وهو يرى أن معنى الكلمة «نصيب» مثل (مناتا) فى الأرامية ، فهى اذن الهة القدر والنصيب(١) • وانظر كذلك ريكمانز (١) ، جـ ١ ، ص ١٨ ـ ١٩، و(٢)، ص ١٥ـ١٦، وجرومان ، ص ٨٤ ، وستاركى ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ •

وانظر حديثنا عن اللات فى الهامش ٢١ •

(٢٦) كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش • يقول ابن الكلبى فى كتاب الأصنام (ص ١٧ ـ ٢٤) : « ثم اتخذوا العزى • وهى أحدث من اللات ومناة • وذلك أنى سمعت العرب سمت بهما قبل العزى ••• ••• فهى أحدث من الأولين(٢) • وعبد العزى بن كعب (٣) من أقدم ما سمت به العرب • وكان الذى اتخذ العزى ظالم بن أسعد • كانت بواد من نخلة الشآمية (٤) يقال له حراض ، بازاء الغمير ، عن يمين المصعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال ، فبنى عليها بسا ، يريد بيتا (٥) • وكانوا يسمعون فيه

(١) مثل الالهة نمسيس Nemesis التى كانت تعبد فى تدمر .

(٢) يرى فلهاوزن (٢) (ص ٣٩ ـ ٤٠) أيضا أن العزى أحدث من مناة واللات، وهو يستدل على ذلك بأن العزى لا ترد في الأعلام المركبة الا بعد « عبد » ، فهى لا ترد أبدا بعد الأسماء القديمة المهجورة مثل زيد وتيم وأوس وشكم وشيع • ويستدل فلهاوزن أيضا بأن المصادر غير العربية تذكر مناة جوالى عصر المسيح ، وتذكر اللات في القرن الخامس ق • م ، وتذكر العزى بعد ذلك بزمن طويل وان غطى ذكرها بعدئذ تماما على ذكر الالهتين المتقدمتين .

(٣) هو عبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم .

(٤) فى معجم البلدان لياقوت (ط فستنفلد ، جـ ٤ ، ص ٧٦٩) ، « نخلة الشامية واديان لهذيل على ليلتين من مكة يجتمعان ببطن مر وسبوحة » .

(٥) يقول ياقوت فى معجم البلدان (ط فستنفلد ، جـ ١ ، ص ٦٠٩) «بساء» بالضم والتشديد والمد ، بيت بنته غطفان وسمته بساء مضاهاة للكعبة ، وهو من قولهم لا أفعل ذلك ما أبس عبد بناقة ، وهو طوفانه حولها ليحلبها ، وأبس بالابل عند الحلب اذا دعا الفصيل الى الناقة يستدرها به ، فكأنهم كانوا يستحلبون الرزق في الطواف حوله » .

وفى الاغانى (ط الساسى ، جـ ٢١ ، ص ٦٣) أن بنى بغيض (بن ريث بن غطفان) قالوا : « أما والله لنتخذن حرما مثل حرم مكة لا يقتل صيده ولا يعضد شجره ولا يهاج عائذه ، فوليت بذلك بنومرة بن عوف ، ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رياح بن ظالم ففعلوا ذلك وهم على ماء يقال له بس ، وبلغ فعلهم وما أجمعوا عليه زهير بن جناب وهو يومئذ سيد كلب فقال : والله لا يكون ذلك أبدا وانا حى ، ولا أخلى غطفان تتخذ حرما أبدا .. فسار في قومه حتى غزا غطفان ، فقاتلهم فظفر بهم زهير ، وأصاب حاجته منهم .. وقال زهير فى ذلك :

الصوت (١) ... وكانت أعظم الأصنام عند قريش . وكانوا يزورونه ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح . وقد بلغنا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكرها يوما فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى . كانوا يقولون : بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن اليه . فلما بعث الله رسوله أنزل عليه(٢): « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة

=

(١) ولم تصبر لنا غطفان لما
تلاقينا وأحرزت النساء
(٦) فخلى بعدها غطفان بسا
وما غطفان والأرض الفضاء
(٧) فقد أضحى لحى بنى جناب
فضاء الأرض والماء الرواء

الى آخر الأبيات » .

وورد ذكر بس أيضا في قول الحصين بن الحمام من أبيات بخاطب فيها بني حميس ابن عامر بن جهينة :

فان دياركم بجنوب بس
الى نقف الى ذات العظوم

قال صاحب الأغاني (ط بولاق ، جـ ١٢ ، ص ٢٦ = ط دار الكتب ، جـ ١٤ ، ص ٩) بعد ذكر الأبيات : « بس : بناء بنته غطفان شبهوه بالكعبة ، وكانوا يحجونه ويعظمونه ويسمونه حرما ، فغزاهم زهير بن جناب الكلبي فهدمه » .

فمن هذه النصوص الثلاثة يتبين أن بسا أو بساء (كما يسميه ياقوت) بيت بنته غطفان مضاهاة للكعبة في مكة ، وأن زهير بن جناب الكلبي هدمه.ولا ذكر هنا لوجود صنم للعزى في بيت غطفان هذا . ولكن ياقوت ، وهو يتحدث عن العزى (جـ ٣ ، ص ٦٦٥) يقول انها « سمرة (السمرة واحدة السمر وهو ضرب من شجر الطلح) كانت لغطفان يعبدونها ، وكانوا بنوا عليها بيتا ، وأقاموا لها سدنة ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد اليها ، فهدم البيت وأحرق السمرة .. وقال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان وسدنتها من بنى صرمة بن مرة ».
فهنا خلط واضح بين عزى كانت تعبدها غطفان على مايبدو في بيتها بس الذى هدمه زهير ابن جناب الكلبي ، وعزى نخلة المشهورة التى كانت تعبدها قريش والتى هدمها (كماسيلي) خالد بن الوليد .

وقد أوضح فلهاوزن (٢) (ص ٣٧ ــ ٣٨) هذا الخلط ، وأضاف أن ابن الكلبي وقع فى هذا الخلط اذ قال ان بسا بنى على العزى التى في نخلة ، فبس ليس اسم ذات معناه البيت عامة ، ولكنه علم على البيت الذى بنته غطفان للعزى التى عندها .

(١) أى الهمهمة التى كان عرب الجاهلية يتوهمون سماعها من أجواف الأوثان .
(٢) سورة النجم ، الآيات ١٩ ــ ٢٣ .

الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذا قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » . وكانت قريش قد حمت لها شعبا من وادى حراض يقال له سقام ، يضاهون به حرم الكعبة . فذاك قول أبي جندب الهذلى ثم القردى فى امرأة كان يهواها ، فذكر حلفها له بها :

لقد حلفت جهدا يمينا غليظة   بفرع التى أحمت فروع سقام(١)

(الى آخر الأبيات) ... وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها ، يقال له الغبغب . فله يقول الهذلى ... :

رأى قذعا فى عينها اذ يسوقها   الى غبغب العزى فوضع فى القسم(٢)

فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها . فلغبغب يقول نهيكة الفزارى لعامر بن الطفيل :

يا عام (٣) لو قدرت عليك رماحنا   والراقصات الى منى فالغبغب
وله يقول قيس بن منقذ بن عبيد ... :

تلينا ببيت الله أول حلفة   والا فأنصاب يسرن (٤) بغبغب
... ...

وكانت قريش تخصها بالاعظام . فلذلك يقول زيد بن عمرو ابن نفيل ، وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

---

(١) فروع سقام : اى رءوس الاشجار التى تغطى سقاما حمى العزى (فلهاوزن (٢) ، ص ٣٩) . وفرع العزى الذى تقسم به المرأة هو اذن راس الشجرة (السمرة) التى تسكنها فيما كانوا يعتقدون .

(٢) القذع (بالذال المعجمة) البياض . وروى فى سيرة ابن هشام (ط السقا وزميليه ، ج ١ ، ص ٨٧) « قدعا » (بالدال المهملة) ، والقدع السدر فى العين . وروى فى السيرة أيضا « فوسع » مكان « فوضع » . ووضع فى القسم أى وضع قسما فوق قسم . ومعنى البيت أن صاحب البقرة رأى أنها قاربت أن يذهب بصرها وهو يسوقها للذبح في غبغب العزى فوسع أو وضع في القسم . وكان دم الذبيحة يراق على رأس الصنم بدليل قول عمرو بن عبد الجن (اللسان ، مادة أبل ، ج ١٣ ، ص ٦) :

أما ودماء مائرات تخالها
على قنة العزى أو النسر عندما

(٣) أى ياعامر ، منادى مرخم .

(٤) يسرن : يرتفعن .

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا هبلا أزور وكان ربا لنا فى الدهر اذ حلمى صغير (١)

وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر بن مرة ... من بنى سليم (٢) . وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى ... فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) فعابها وغيرها من الأصنام ، ونهاهم عن عبادتها ، ونزل القرآن فيها . فاشتد ذلك على قريش . ومرض أبو أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن أمية ابن عبد شمس بن مناف) مرضه الذى مات فيه . فدخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكى . فقال : « ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه ؟ » . قال : « لا . ولكننى أخاف أن لا تعبد العزى بعدى » . قال أبو لهب(٣) : « والله ما عبدت حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك » . فقال أبو أحيحة : « الآن علمت أن لى خليفة » ، وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها . فلما كان عام الفتح، دعا النبى (صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد ، فقال : « انطلق الى شجرة ببطن نخلة فاعضدها (٤) » . فانطلق فأخذ دبية فقتله ، وكان سادنها » .

ويورد ابن الكلبى (ص ٢٥ – ٢٦) رواية مفصلة عن قطع العزى تنتهى الى ابن عباس ، وذلك حيث يقول : « كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فلما افتتح النبى (صلى الله عليه وسلم) مكة، بعث خالد بن الوليد . فقال له : ايت بطن نخلة، فانك تجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى . فأتاها فعضدها . فلما جاء اليه (عليه السلام) قال : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثانية . فأتاها فعضدها . ثم أتى النبى (عليه السلام) فقال : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثالثة . فأتاها . فاذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، وخلفها دبية بن حرمى الشيبانى ثم السلمى ، وكان سادنها ، فلما نظر الى خالد قال :

---

(١) رويت هذه الابيات باختلافات يسيرة فى سيرة ابن هشام (ط فستنفلد ، ص ١٤٥ = ط السقا وزميليه ، ج ١ ، ص ٢٤١) .

(٢) كان بنو سليم حلفاء بنى هاشم ، بل حلفاء بنى أبى طالب خاصة . وسليم ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان (سيرة ابن هشام ، ط السقا وزميليه ، ج ١ ، ص ٨٦) .

(٣) كان أبو لهب يسمى عبد العزى .

(٤) أعضدها : اقطعها بالمعضد ، وهو آلة يقطع بها الشجر .

أعزاء شدى شـدة لا تكذبى على خالد ألقى الخمـار وشـمرى
فانك الا تقتلى اليوم خالدا تبوئى بذل عاجـلا وتنصرى (١)

فقال خالد :

يا عز كفرانك لا سبحانك انى رأيت الله قـد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها ؛ فاذا هى حممة • ثم عضد الشجرة ، وقتل دبية الســادن • ثم أتى النبى (صلى الله عليه وسلم) فأخبره • فقال : « تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب • أما انها لن تعبد بعد اليوم » •

ويقول ابن الكلبى (ص ٢٧) فى ختام حديثه عن العزى: « ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب(٢) يعظمون شيئا من الأصنام اعظامهم العزى ، ثم اللات ، ثم مناة • فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وذلك فيما أظن لقربها كان منها • وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى • وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين • وكلهـم كان معظما لهـا أى للعزى ••• وكانت قريش تعظمها، وكانت غنى وباهلة يعبدونها معهم • فبعث النبى خالد بن الوليد، فقطع الشجر ، وهدم البيت ، وكسر الوثن » •

***

هذا ما أورده ابن الكلبى عن العزى • ويحـدثنا فلهاوزن حديثا طويلا عن عبـادة العرب للعزى كما تصفها المصادر غير العربية ، فيقول (ص ٤٠) ان اسم العزى ورد صراحة فى موضعين : (أ) فى قول مؤرخ سريانى ان الالهـة العربية التى يسـميها بروكوبيوس Procopius (المؤرخ البيزنطى المتوفى حوالى ٥٦٢ م) أفروديت Aphrodite هى العزى (عوزى) ، (ب)وفى قول اسحاق الأنطاكى (فى القرن الخامس الميلادى) ان العرب حرموا مدينة بيت ـ حور (فى أرض الرافدين) أهلها رغم أنهم (أى العرب) يعبدون بلتيس Beltis (٣) مثلها ، ولم يسلموها

---

(١) روى ابن هشام (ط السقا وزميليه ، ج ٤ ، ص ٧٩) هكذا :

أيا عز شـدى شـدة لا شوى لها
على خـالد ألقى القنـاع وشـمرى
يا عـز ان لم تقتلى المـرء خـالدا
فبوئى بإثم عاجـل أو تنصرى

(الشوى البقية ، ولاشوى لها : لا تبقى على شيء . التنصر : معالجة النصر)

(٢) اى كنانة وخزاعة •

(٣) هذا هو النطق اليونانى لبعلة (مؤنث بعل) •

من الدمار رغم أنهم مثلها يقدمون القرابين الى العزى (عوزى) • (بلتيس هي الزهرة Venus ، كما يقول بر – علي في معجمه ٢٤٨٠) • ويقول فلهاوزن (ص٤٠–٤١) ان اسحق الأنطاكي يطلق عادة على الالهة العربية التي سماها في هذا الموضع العزى وجعلها صنو الالهة بلتيس ، اسم كوكبتا (مؤنث كوكب) ، وهو اسم اعتاد السريان واليهود اطلاقه على كوكب الزهرة • ثم يقول فلهاوزن (ص ٤١) : « وهكذا يتجلى مما قاله المؤرخ السرياني واسحاق الأنطاكي أن العزى هي المقصودة حين يقال ان العرب يعبدون الزهرة أو نجم الصباح » • ويورد فلهوزن بعد ذلك (ص ٤٢ – ٤٤) عدة روايات عن عبادة العرب للزهرة أو نجم الصباح • وأخيرا يقول (ص ٤٤) : « يتضح من هذا كله ••• أن العزى لم تجعل صنو (الالهة) الزهرة لأنها الهة الحب ، ولكن لأن نجم الزهرة كان مقدسا لديها : والواقع أن هذه العلاقة ليست ثابتة بالنسبة للجزيرة العربية كلها ، وانما هي ثابتة فقط لمنطقة الحدود مع فلسطين وسوريا • فنحن لا نلحظ منها شيئا في الحجاز ونجد ••• فمن المحتمل اذن أن العرب لم يعقدوا الصلة بين الهتهم وكوكب الزهرة الا في مناطق الحدود تحت التأثير الأجنبي ••• » (١)

***

ونجد (هنعزى) (٢) ، أى العزى ، في النقش اللحياني القديم جس ٥٨ = ملر ٦ (كاسكل رقم ١٣ ، ص ٨٢) ، كما نجد (عزى) في النقش اللحياني القديم جس ٣٦ (كاسكل رقم ٢٥ ، ص ٨٨) • ويقول كاسكل (ص ٤٥) ان هذين النقشين أقدم موضع ورد فيه ذكر العزى ، وان كان المشكوك فيه أنها كانت تنتمي في الأصل الى لحيان ، لأن صاحب النقش الثاني سوري نبطي (٣) • هذا الى أن العزى لا تدخل في تركيب أسماء لحيانية •

---

(١) يرى ديسو (كما مر في الهامش ٢١) ان العزى (وهي الهة مقاتلة) تمثل اللات من حيث هي نجمة الصباح ، وان الالهتين مناة ورضى (اللتين تحدثنا عنهما في الهامشين ٢٤ ، ٢٥) تمثلان اللات من حيث هي نجمة المساء •

ويرى ريكمانز (١) ، جـ ١ ، ص ٢٦ ، و (٢) ، ص ٤٤ ، أن العزى الهة شمسية. ولكن ينكر ديسو (٢) (ص ١٢٨) ذلك •

(٢) أداة التعريف في اللحيانية هاء في صدر الاسم المعرف (كما في الثمودية والصفوية) ، ولكنها تصير (هن) في كثير من الأحوال قبل حروف الحلق ، ولهذا قيل هنعزى لأن العين حرف حلق • انظر وينت ، ص ١٦ – ١٨ •

(٣) بدليل اسمه المذكور ناقصا في السطر الاول من النقش : ••• بن : بعل : نتبعل ••• « ••• بن بعل (بن) نتن – بعل » • ولاحظ ادغام نون « نتن » في باء « بعل » ، ولهذا الادغام نظير في العلم التدمرى متبول (متن بول ، أى عطاء الاله=

ويتابع كاسكل رأى فلهاوزن من أن العزى هى نجم الصباح ٠

ولم يرد ذكر العزى في النقوش الثمودية بشمال الجزيرة ٠ ولكن ورد ذكرها فى المخربشات الثمودية التى كشفنها بعثة فلبى – ريكمانز فى وسط الجزيرة (عام ١٩٥١ – ١٩٥٢) (١) ، فقد دخلت فى تركيب هذه الأعلام : هنأعزى ، مرأ عزى ، مرأت عزىَ ، تيم عزى ؛ ويلاحظ أن اسم الالهة هنا غير معرف بأداة التعريف ٠ ووردت العزى معرفة فى أعلام أخرى هى : تملعزى (تيم العزى) ، عبد لعزى (عبد العزى) ، أمتلعزى (أمة العزى) ؛ ويلاحظ أن أداة التعريف هنا الألف واللام كما فى العربية ، رغم أن أداة التعريف في الثمودية هى الهاء ٠ انظر جاك ريكمانز ، ص ١٠ – ١١ ٠

***

وعرف النبط العزى أيضا ٠ فقد ورد ذكرها (مكتوبة العزا) فى النقش النبطى R ١٠٨٨ (وهو من البتراء) ، ونقش نبطى وجد فى جبل رم بالقرب من العقبة ، والنقش النبطى R ٢٠٩١ (وهو من بصرى بحوران) ٠ وورد اسمها بصيغة (عزيا) فى النقشين النبطيين السينائيين CIS ٦١١ و١٢٣٦ ٠ ودخل اسمها فى تركيب العلم النبطى عبد العزى الذى يرد فى النقش السينائى CIS ٩٤٦ ٠ انظر كانتنو ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ب – ١٢٩ أ ؛ وستاركى ، ص ٢١٣ – ٢١٥ ٠

ويقول ستاركى ان العزى ترد فى تدمر بالصيغة المذكرة عزيزو (٢) ٠ وهو يقصد بذلك الاله عزيزو الذى يقترن بالاله أرصو عند أهل تدمر (راجع الهامش ٢٤) ٠ ويقول ستاركى ان الاله عزيزو هو

= بول) ، انظر لدزبارسكى ، ج ٣ ، ص ٢١٦ – ٢١٧ ٠ ونجد نتن – بعل (اعطى الاله بعل) بدون ادغام فى نقش لحيانى آخر هو جس ١٧ = ملر ٣٥ (كاسكل رقم ١٧ ، ص ٨٤) ٠

(١) كشفت هذه البعثة تسعة آلاف نقش ثمودى يعدها للنشر الآن جاك ريكمانز. وكشفت البعثة كذلك ثلاثة آلاف مخربشة حميرية جديدة . وكان كشف هاتين المجموعتين من النقوش في المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض ، وبخاصة فى الجزء الجنوبى منه .

(٢) يقول ياقوت فى معجم البلدان (ط فستنفلد ، ج ٣ ، ص ٦٦٥) : «والعزى تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الاكبر ، والأعز بمعنى العزيز ، والعزى بمعنى العزيزة » .

كوكب الزهرة من حيث هو نجم الصباح ، وهذا يجب أن يصدق أيضا على العزى .

والعزى هي (**عزين**) (١) ، أي عزيان ، في النقوش السبئية مثل CIH ٥٥٨ (= R ٤١٤٩) و CIH ٥٥٩ (= R ٤٧٨٤) .
انظر ريكمانز (١) ، جـ ١ ، ص ٢٦ ، و جـ ٢ ، ص ١٠٦ أ .

***

انظر فلهاوزن (٢) ، ص ٣٤ ـ ٤٥ ؛ وسميث (١) ، ص ٦٠ (الهامش) و ٣٠٠ ـ ٣٠٤ ، و (٢) ، ص ٥٧ الهامش (مع تعليق الناشر في ص ٥٢١) و ١٨٥ و ٢١٠ (الهامش ٢) و٤٦٦ ؛ وريكمانز (١)، ص ٢٦ ، و(٢) ، ص ١٠ و١٥ و٢٠ و٤٤ ؛ وجرومان ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

وراجع حديثنا عن اللات (الهامش ٢١) .

---

(١) النون في عجز الكلمة أداة التعريف في السبئية كالألف واللام في صدر الكلمة في العربية .

هوامش الفصل التاسع

(١) انظر فى هذه النقوش جميعا لتمان (٢) ٠

(٢) لعلها عدولى (بفتحتين فسكون ففتح) فى بيت طرفة :

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدى

كما يرى فرنكل (ص ٢١٤ ، والهامش الاول فيها) ولتمان (١) (ص ٤٥ أسفل) ٠ ولكن يقول ياقوت فى معجم البلدان (ط ليبزج ، جـ ٣ ، ص ٦٣٣) ان عدولى هذه قرية بالبحرين ٠

ويرى لتمان ، فى الموضع المذكور ، أن الأصح اذن أن يقال عدولى (بفتحة فضمه طويلة فلام ممالة أو مكسورة) ، وهو يحلل هذا الاسم الى عد « أهل ، مدينة » (فى اللغة الحبشية) وأولى (بضم الألف وامالة اللام) اسم قبيلة أو جد قبيلة ٠ وانظر أيضا لتمان (٤) ٠

(٣) أى القرن الأول الميلادى ٠ والرأى السائد أنه يرجع الى حوالى ٧٥ م ، ولكن ترى جاكلين بيرين (ص ١٦٧-١٩٣) ، بعد تفصيل الكلام عن مشكلة تأريخ هذا الكتاب ، أنه كتب بعد ١٠٦ م ٠

(٤) انظر النقش فى لتمان (٢) ، ص ٣-٤ ٠ ويقول لتمان ان اسم هذا الملك لم يرد فى أى مصدر آخر حتى الآن ٠

(٥) أى كوزماس « ملاح المحيط الهندى » ٠ وقد نقل النقش فى القرن السادس الميلادى ، خلال زيارة لعدولى ، وأورد نصــه فى كتابه (اليونانى) Christian Topography ٠ انظر كامرر ، ص ٣١-٣٥

و٥٦ ـ ٦٥ و ١٠٧ ؛ وهو يميل الى نسبة هذا النقش الى الملك أفيلاس الذى يرد ذكره في النقود الحبشية ·

(٦) هما الأخوان اديسيوس وفرومنتيوس كما سيلى ·

(٧) انظر هذا النقش فى لتمان (٢) ، ص ٣٢ـ٤٢ · وهو أطول نقوش عيزانا · ويرجعه لتمان (ص ٣٢) الى حوالى ٣٥٠ م ، ويشير (ص ٣٥) الى أنه أقدم نقش مسيحى لمملكة أكسوم ·

(٨) بل جاء ذكره فى القرآن الكريم ، فى سورة البروج ٤ـ٩ : « قتل أصحاب الأخدود · النار ذات الوقود · اذ هم عليها قعود · وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود · وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد · الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد » ·

(٩) هكذا تسميه الرواية الحبشية (بامالة حركة اللام امالة طويلة) وتسميه الرواية اليونانية السباس Ellesbaas

(١٠) يقول كامرر (ص ١٢٣) : « لا نزاع فى أن محرم هو الاله الرئيسى ، أو على الأقل الاله الشخصى للأسرة المالكة ، الذى يجهر الملك بأنه ابنه ، وهو فى الوقت نفسه اله جيوشه ، فله طابع حربى معين ، ولعل هذا هو السبب فى أنه ترجم فى اليونانية بأريس Ares وهو مارس Mars اله الحرب » ·

(١١) مثل أولندورف (ص ٩٨) ، متابعا جويدى ·

(١٢) يسمى الأحباش « يهود » بلادهم فلشا (بفتحتين ففتحة ممدودة) ، وهى كلمة سامية معناها « منفيون ، مهاجرون » (مثل جولا فى العبرية) ؛ ولكن الفلشا يسمون أنفسهم « بيت اسرائيل » أو كيل (بفتح فسكون ففتح ، وهى كلمة كوشية لا يعرف معناها على وجه اليقين)· ولا ريب فى أن الفلشا ليسوا سلالة من اليهود ؛ فهم فرع من قبائل أجو Agau الحبشية ، يتكلمون لهجة من لهجات أجو الحامية ، ولا يعرفون من العبرية شيئا ، وتوراتهم هى الترجمة الحبشية لأسفار موسى الخمسة ، وهم يؤدون صلواتهم باللغة الحبشية كالأحباش المسيحيين ·

وموطن الفلشا اقليم سمين الجبلى شمال بحيرة طانا · وقد اشتبكوا مع أباطرة الحبشة فى حروب عدة منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، فشتتهم بعض الأباطرة المنتصرين (مثل بأد مريم ١٤٦٨ ـ ١٤٧٨ وشرص دنجل ١٥٦٣ ـ ١٥٩٧) أو أدخلوهم فى المسيحية كرها ، ولكن بقيت منهم حتى اليوم جماعات صغيرة يتراوح عددها بين خمسة عشر ألفا وستين ألفا على اختلاف فى التقدير ·

ويهودية الفلشا صورة غريبة من اليهودية ، تختلط بها عناصر وثنية ومسيحية • فهم لا يعرفون الا أسفار موسى الخمسة ، ويجهلون المشنا والتلمود ، وهم يحتفلون بالأعياد المذكورة فى توراة موسى ، ولكن بطريقة تختلف غالبا عن طريقة غيرهم من اليهود اختلافا كبيرا ؛ وهم لا يحتفلون بالأعياد اليهودية التى يرجع أصلها الى ما بعد النفى • ولكنهم يراعون تقاليد يوم السبت مراعاة دقيقة •

ويرى لتمان (٣) (ص ٢٦-٢٧) أن الفلشا اعتنقوا اليهودية حينما كانت الحبشة لاتزال فى عصرها الوثنى ، وذلك على أيدى « مبشرين » من اليهود جاءوا من صعيد مصر ، فقد كانت تعيش فى جزيرة الفانتين (تجاه أسوان) جالية عسكرية يهودية ابان سيادة الفرس على مصر (٥٢٥ - ٣٣٢ ق٠م) ، وكان لهؤلاء اليهود معبدهم الخاص ، ولم تكن علاقتهم وطيدة بيهود فلسطين ؛ ويبدو أنهم أخرجوا بعد ذلك من الجزيرة ، فلجأوا الى الحبشة ، وأقاموا بين بعض قبائل أجو ، ثم أدخلوهم فى نوع بدائى من اليهودية • ويرى لتمان أيضا أن الاسم فلشا ، ومعناه « مهاجرون ، منفيون » كما قلنا ، أطلق أولا على أولئك اليهود اللاجئين من مصر ثم على قبائل أجو التى هودوها •

ولكن يرى أولندورف (ص ١١٠ - ١١٢) رأيا أرجح هو أن الفلشا أحفاد بعض الأكسوميين المتهودين الذين لم يقبلوا الدخول فى المسيحية، وأن يهودية الفلشا اذن ليست الا بقية من الطقوس والعقائد العبرية واليهودية التى رسخت فى بعض أرجاء الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية فى القرون الأولى بعد المسيح ودخلت الحبشة بعد ذلك •

واللغة الأدبية عند الفلشا هى الحبشية ، فهم لا يستعملون لهجتهم الحامية فى التأليف الأدبى • وأكثر كتبهم شركة بينهم وبين سائر الأحباش ، ولكن ثمة كتبا قليلة خاصة بهم • ولم يلق أدب الفلشا العناية التى يستحقها بعد ، وان بذل هالفى J. Halévy وشكولى A.Z. Aescoly ولزلاو W. Leslau جهودا مشكورة فى هذا السبيل • أنظر أولندورف، ص ١٥٤ •

وأنظر أيضا فى الفلشا عامة لتمان (١) ، ص ٤٧ ؛ وجونز ومونرو، ص ٤٠ - ٤٣ •

(١٣) مر بنا فى الفصل السادس (الهامش ٥٠) أن سفر يهوديت

من أسفار الأبوكريفا • وانظر فى معنى الأبوكريفا الهامش ٤٩ من ذلك الفصل •

(١٤) فى الأصل الانجليزى للمؤلف « أسفار الأبوكريفا » ، ولكن الأسفار التى يذكرها المؤلف بعد ذلك هى قطعا من الأسفار المنحولة • وانظر فى معنى الأسفار المنحولة الهامش ٤٩ من الفصل السادس •

(١٥) سمى سفر اليوبيل بهذا الاسم لأنه يقسم سير أحداث العالم الى فترات يوبيل (انظر الهامش ٥٧ من الفصل السادس) ؛ وفترة اليوبيل تتكون من ٤٩ سنة مقسمة الى سبع مجموعات (٧ × ٧) ، وتشتمل كل مجموعة على سبع سنوات شمسية عدة الواحدة منها ٣٦٤ يوما • ويسمى السفر أيضا « التكوين الصغير » ، لأنه يسير محاذيا لسفر التكوين ، وان كان دونه فى القيمة • وهو يعيد المادة الاساسية التى يشتمل عليها سفر التكوين والأصحاحات الاثنتا عشرة الأولى من سفر الخروج ، ويضعها على لسان ملك من الملائكة أمره الله بأن يملى هذا التاريخ على موسى وهو على جبل سيناء • ولهذا نجد قطعا كبيرة هى مجرد تكرار لما يضمه العهد القديم من الأصحاح الأول من سفر التكوين الى الأصحاح ١٢ من سفر الخروج • ولكن هناك بعض الاختلافات فى ترتيب المادة ، فالأصحاح ٣٨ من سفر التكوين مثلا يرد (فى سفر اليوبيل) بين الأصحاحين ٤١ و٤٢• ولكن الأهم من ذلك ما فى السفر من زيادات قصصية (هجادية) ، ومن زيادات قانونية (هلاكية) تنم عن حرص على ابعاد اسرائيل عن كل نجس (أيسفلت (١) ، ص ٧٥٠) •

ويرى أيسفلت (ص ٧٥١) ، استنادا الى طبيعة هذه الزيادات القانونية ، أن سفر اليوبيل صدر عن طائفة قمران اليهودية ؛ ويؤيد هذا فى نظره أنه وجدت بين آثار قمران قطع من مخطوطات عدة تشتمل على النص العبرى الأصلى لهذا السفر • وهو يرى أنه ألف حوالى ١٠٠ ق٠م٠ ولكن يرجعه أولبرايت الى بداية القرن الثالث ق٠م ، وتسيتلين Zeitlin الى القرن الخامس ق٠م •

وقد ورد الكتاب كاملا فى ترجمة حبشية عثر عليها فى الحبشة فى منتصف القرن التاسع عشر • وفى عام ١٨٦١ كشفت قطع من ترجمة لاتينية توازى ثلث السفر • وترجع الترجمتان الحبشية واللاتينية الى ترجمة يونانية للأصل العبرى القديم الذى وجدت قطع منه بين آثار قمران كما قلنا (أيسفلت ، ص ٧٥٢) •

(١٦) سفر أخنوخ (الحبشى) مجموعة من الرؤى المختلفة نسبت الى أخنوخ ، وان كانت تختلف فيما بينها اختلافا شديدا سواء من حيث زمن النشأة أو طبيعة المحتوى .

وأخنـــوخ هو حنوخ المذكور فى العهد القديم ، وهو ابن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ؛ وابنه متوشـــالح هو جد نوح (سفر التكوين ، الاصحاح الخامس ، وسفر أخبار الايام الاول ١ : ١ ـ ٤) .

وقد نسبت تلك الرؤى المختلفة الى أخنوخ لأن اليهود المتـــأخرين كانوا يعتقدون أن له قدرة كبيرة على رؤية رؤى الله ، اعتمادا على ما ورد عنه فى سفر التكوين (٥ : ٢٢ و ٢٤) من أنه « سار مع الله » وأن الله « أخذه » ؛ ففسروا السير مع الله بأنه معرفة الأسرار ، وفسروا أخذ الله له بأنه يجوب السموات فى رؤاه .

ويقول المفسرون المسلمون ان ادريس الذى يذكره القرآن الـكريم (مريم ٥٦ ـ ٥٧ والأنبياء ٨٥ ـ ٨٦) هو أخنـــوخ ؛ قارن قول القرآن الكريم عن ادريس (مريم ٥٧) « ورفعناه مكانا عليا » بقول سفر التكوين (٥ : ٢٤) : « وسار أخنوخ مع الله ؛ ولم يوجد لأن الله أخذه » . ولـكن يرى نولدكه (٦) أن ادريس هـو أندرياس Andreas أخو بطرس الرسول .

وقد وصل الينا سفر أخنوخ كاملا فى ترجمته الحبشية ، ولدينـــا منها الآن نحو ٣٠ مخطوطة توالى كشفها منذ ١٧٧٣ م . أما الترجمـــات اليونانية واللاتينية التى وصلت الينا فهى لا تعطى الا أجزاء منه . وترجع الترجمة الحبشية الى ترجمة يونانية لأصل السفر ، وهو عبرى ، وقد يكون أراميا . وقد لقى السفر اقبالا كبيرا من المسيحيين فى أول الأمر ، ولكن نبذته الكنيسة المسيحية فيما بعد كما نبذه المعبد اليهودى من قبل ؛ وهذا هو السبب فى أنه لم يحتفظ به كاملا الا فى لغة كنيسة فرعيـــة (الكنيسة الحبشية) .

انظر أيسفلت (١) ، ص ٧٦٣ ـ ٧٦٨ .

(١٧) وصل الينا هذا السفر فى ترجمة حبشـــية ترجع الى ما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين ، وفى قطع من ترجمات يونانية ولاتينية وقبطية وسلافية قديمة . وهو مجموعة من ثلاثة أسفار صغيرة تدور حول اشعيا ، اثنان منها كاملان والثالث ناقص :

(أ) الأصحاحات ١ ــ ٥ : تتحدث عن استشهاد اشعيا ، اذ قبض عليه الملك منشى ونشره بمنشار (انظر الهامش ٢٢ من الفصل السادس): فهى من مصدر يهودى (وأصل عبرى) ، ولعلها ترجع الى بداية القرن الأول ق٠م ٠

(ب) من ٣ : ١٣ الى ٤ : ١٨ : جزء من رؤيا منسوبة الى اشعيا رأى فيها مجىء المسيح وانشاء الكنيسة الميسيحية وقدوم بليعل ويوم القيامة ، فهى من مصدر مسيحى ، ولعلها ترجع الى حوالى ١٠٠م ٠

(ج) الأصحاحات ٦ ــ ١١ : تتحدث عن صعود اشعيا الى السماء ، حيث سمع الله يأمر المسيح بالنزول الى الأرض ، ثم رأى المسيح يولد ويصلب ثم يصعد ثانية الى السماء ، فهى من مصدر مسيحى ، ولعلها ترجع الى القرن الثانى الميلادى ٠

انظر أيسفلت (١) ، ص ٧٥٢ ــ ٥٤ ٠

(١٨) يبدأ الكتاب بمقال كيرلوس De recta fide « الايمان الصحيح » ، ولهذا سمى الكتاب كله باسمه ، ولعل اطلاق هذه التسمية كان فى عصر متأخر ٠ والمقالات المجموعة فى الكتاب تؤكد أن المسيح « واحد » ، وأصحابها من ألد أعداء النساطرة الذين يقولون ان المسيح شخصان متميزان ٠ ومن المعروف أن الأحباش يدينون بمذهب الطبيعة الواحدة ٠

انظر جويدى ، ص ١٧ ــ ١٨ ، وتشيرولى ، ص ٣٠ ٠

(١٩) وضع هذا الكتاب فى سوريا فى القرن الثالث أو الرابع ، ثم أتى به رهبان سوريون الى الحبشة ، حيث ترجم الى الحبشية فى عصر متقدم هو عصر مملكة أكسوم ٠ وقد راجت ترجمته الحبشية ، كما راجت ترجماته الى اللغات الشرقية الأخرى والأوربية ٠ ولما تبين فيما بعد أن كثيرا من مادته أسطورى الطابع لم تعد الكنيسة الغربية تنظر بعين الرضا الى العمل على نشره ، ولكن احتفظ بمكانته فى الحبشة مدة طويلة٠ ولما كنا لا نملك من الأصل اليونانى للكتاب سوى مخطوطات متأخرة ، فان لترجمته الحبشية قيمة كبيرة فى تقويم النص ٠

انظر أولندورف ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ ؛ وتشيرولى ، ص ٣٠ ــ ٣١ ٠

(٢٠) يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء : الأول والثانى منهما ترجما عن أصل يونانى فى عصر مملكة أكسوم ، والجزء الثالث ملحق أضيف الى النص الحبشى بعد ذلك • ويحكى هذا الملحق رؤيا غريبة للقديس باخوم، رأى فيها خمس طوائف من الرهبان الأشرار وخمسا أخرى من الرهبان الأخيار •

انظر جويدى ، ص ١٧ و ٤١ ، وتشيرولى ، ص ٢٦ ـ ٢٩ •

(٢١) أكلى جوزاى : من أقاليم اريتريا •

(٢٢) اند ميكائيل واند سمعون وتعخا ماريام قصور فى مدينة أكسوم شملتها حفائر بعثة أكسوم الألمانية•انظر كرنكر ، ص ١٠٧ـ١١٠ و ١١٠ ـ ١١٢ و١١٢ ـ ١٢١ •

(٢٣) جوبدرا منطقة مملوءة بالآثار الصخرية تقع الى الجنوب الغربى من أكسوم بنحو أربعة كيلومترات أو خمسة • انظر وصف فون لوبكه للبوءة جوبدرا فى كتاب كرنكر ، ص ٧٣ ـ ٧٤ •

ملحق

لم يتجاوز المؤلف (موسكاتى) ، عند تناول الأدب الحبشى ، عصر الترجمة عن اليونانية ، وهو العصر القديم فى ذلك الأدب ، وذلك حتى لا يتجاوز نطاق الحضارة الحبشية القديمة · ولكن الأدب الحبشى فى العصور اللاحقة وثيق الصلة بالأدب العربى القبطى ، ولهذا نحب أن نطلع القارىء العربى على طرف من هذا الأدب الحبشى المتأخر · ولما كان نولدكه قد كتب مقالا طيبا عن الأدب الحبشى قديمه وحديثه يفى بالغرض الذى نتوخاه ، فاننا نكتفى هنا بترجمته · وقد نشر هذا المقال فى ص ١٣٤-١٤٠ من كتاب « الآداب الشرقية » ، الطبعة الثانية ، ليبزج - برلين ١٩٢٥ :

Die orientalischen Literaturen

(Die Kultur des Gegenwart, herausgegeben von Paul Hinneberg. Teil I, Abteilung VII).

الأدب الحبشى

بقلم تيودور نولدكه

مقدمة ·

ان هجرة العرب ، وبخاصة من اليمن ، الى الساحل الافريقى وهضبة الحبشة ، وهى هجرة بدأت فى عصور موغلة فى القدم ولم تنقطع حتى اليوم ، حملت اللغة السامية الى تلك الأرجاء · وقد احتفظت هذه اللغة بكيانها هناك رغم امتزاجها الشديد بلغة السكان الأصليين «الحاميين» ، بل ان هؤلاء اتخذوها لغة لهم على نطاق واسع · واللغة الأدبية الاثيوبية القديمة (الجعزية) قوية الصلة باللغة العربية ؛ وهى أوثق اتصالا ولا ريب باللغة السبئية (التى لا نعرفها لسوء الحظ الا من النقوش ، ولا نعلم عنها لهذا السبب الا النزر اليسير) ، وبغيرها من اللغات الحضارية القديمة فى جنوب الجزيرة العربية ·

(أ) أدب اللغة الجعزية

(١) العصر الأول :

النقوش :

لم تحدد اللغة الحبشية كتابة الا فى عصر متأخر نوعا ما · فلدينا

نقوش من القرن الرابع قبل الميلاد (لا قبل ذلك) تعبر عن اللغة الحبشية بحروف سبئية تعبيرا غير دقيق • ولكن بعد ذلك بقليل أنشأ أستاذ مجهول ، على أساس الأبجدية السبئية ، خطا للغة الحبشية صعب المأخذ بعض الشيء ، ولكنه يؤدى الغرض منه على نحو فريد ، ويعبر أيضا عن الحركات خير تعبير • وقد كتب بهذا الخط نقشان لملك كان لا يزال يدين بالوثنية ، وهما يرجعان الى حوالى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى (١) ، وقد كشفا فى العاصمة القديمة أكسوم ، ولغتهما تطابق لغة الأدب (الحبشى) المسيحى الذى بدأ حوالى ذلك الوقت بترجمة الكتاب المقدس •

ترجمة الكتاب المقدس :

وتعتمد هذه الترجمة حتى فيما يتعلق بالعهد القديم ، على النص اليونانى ، وان كانت هناك آثار واضحة تدل على أن المسيحية كاليهودية جلبها الى الحبشة أناس من سوريا • وقد صدرت الترجمة عن كتاب مختلفين تمام الاختلاف ، وربما استغرق العمل زمنا طويلا • ومن سوء الحظ أن النص الحبشى الأصلى فى المخطوطات المعروفة محرف بعض التحريف ، بسبب الاهمال أو المراجعة المقصودة • والكتاب المقدس الحبشى تنقصه رؤيا يوحنا ، التى لم يعدها كثير من المسيحيين حتى عصر متأخر من الأسفار المقدسة ، كما تنقصه من الأبوكريفا أسفار المكابيين• ولكن ترجمت أيضا فى ذلك العصر الأدبى الأول ، الذى نستطيع وضعه بين القرن الخامس والقرن الثامن تقريبا ، بعض « الأسفار المنحولة » ؛ فساواها الاثيوبيون ، من الناحية العملية على الأقل ، بالأسفار المقدسة، وهو أمر له أهمية كبيرة لأدب الكتاب المقدس • وقد بقى النص الكامل لسفرين قديمين من هذه الطائفة ، وهما سفر أخنوخ وسفر اليوبيل (الذى يسمى أيضا « التكوين الصغير ») ، فى الحبشية على الأقل ، كما أن الترجمة الحبشية تستطيع مع الترجمة اللاتينية والترجمات الشرقية الأخرى اقامة النص اليونانى الضائع لرؤيا عزرا (أو سفر عزرا الرابع)• وكان لهذه الأسفار ، ولا سيما أخنوخ وعزرا ، ما كان لأسفار الكتاب المقدس من تأثير عميق فى الأدب الحبشى المتأخر •

(١) هو الملك عيزانا قبل أن يتحول الى المسيحية . والرأى السائد الآن انه عاش فى القرن الرابع • (المترجم) •

آثار اخرى من العصر الأول :

وترجع الى هذا العصر المتقدم ، من بين الكتب الاثيوبية التى وصلت الينا ، بعض ترجمات قليلة لكتب يونانية لاهوتية • ولكن لا نكاد نجد بين آثاره كتبا ألفت أصلا بالحبشية ؛ ولا يصح فى الواقع أن نفترض أنه ألف شىء كثير تأليفا مستقلا خلال ذلك العصر فى مملكة أكسوم • ولا يجوز بأية حال من الأحوال أن يغالى المرء فى تقدير ذلك العصر •

وبالفتح الاسلامى قطعت الحبشة عن العالم المسيحى ، وبدا خلال قرون طويلة أن الحياة الأدبية فيها قد خمدت تماما أو كادت • فالملك لاليبلا نفسه (فى بداية القرن الثالث عشر) ، التى تعد كنائسه الصخرية أعظم الأعمال الفنية فى الحبشة الى أبعد حد ، لا نجد له تاريخا صحيحا ، ولكن نجد فقط أسطورة متأخرة تجعل من هذا الرجل النشيط حقا قديسا راهبا عاديا •

(٢) العصر الثانى :

مقدمة :

قامت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بقيام يكونو أملاك (١٢٧٠ ـ ١٢٨٥) أسرة حاكمة جديدة ، زعمت أنها وحدها صاحبة الحق الشرعى فى الحكم ، وانتسبت الى سليمان وملكة سبأ فضلا عن ملوك أكسوم القدامى • ولم يكن موطنها ، وهو الجزء الجنوبى من الحبشة ، ينتمى الى دولة أكسوم قديما ، كما أنه لم يتحول الى المسيحية الا تدريجيا وعلى نحو جزئى ؛ وكانت تسوده ، بجانب لغات شتى ، لغة شديدة الاختلاف عن الجعزية ، تغلغلت فيها عناصر أجنبية تغلغلا عميقا ، هى الأمهرية • ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن الجعزية لم تعد لغة حية بل حلت محلها لغات متفرعة عنها ، نهض أدب اللغة القديمة نهضة جديدة بقيام الدولة الجديدة • وهذا يرتبط قطعا بما عمد اليه الملوك من توثيق صلتهم بالكنيسة ، فقد كانت الكنيسة مع بعض التجاوز الممثل الوحيد للمصالح الروحية ، رغم أن حالتها الروحية فى جميع العصور تدعو الى الرثاء • وكانت الكنيسة الحبشية منذ زمن طويل عضوا فى الكنيسة المصرية • فقويت حينئذ الروابط التى كانت تصل مسيحيى الحبشة بالأقباط •

ولكن الكنيسة المصرية كانت قد أصبحت منذ زمن طويل كنيسة الرهبنة الخالصة ؛ وكان مستواها الروحى منخفضا بعض الشيء · ومن باب أولى لم تستطع صورتها المنعكسة فى الحبشة بين برابرة افريقية أن ترتفع عاليا بمستواها · ففيما يتعلق بمظاهر العبادة أعطى الشيء الكثير ، ولكن بقيت العناصر الوثنية قوية فى الحياة والدين ، فنظام الزوجة الواحدة ، الذى تدعو اليه الكنيسة حقا ، لم يطبق فى الحبشة أبدا ·

الترجمات عن العربية :

وهكذا ارتبط الأدب الحبشى فى القرون اللاحقة بأدب الأقباط ارتباطا وثيقا ، وهو يتكون الى حد بعيد جدا من ترجمات لآثارهم · وكان المترجمون الى حد ما أقباطا يقيمون فى الحبشة ويتكلمون اللغة العربية· فحلت محل الترجمات عن اليونانية ترجماتعن العربية وترجمات قليلة عن القبطية · وقد نقلت فعلا الى الحبشية كثير من الكتب اليونانية الأصل فى عصر الدولة السليمانية ، ولكن لم يكن ذلك الا بوساطة نص عربى · ويمكننا أن نورد قائمة طويلة من هذه الترجمات الحبشية التى تتناول فروعا مختلفة من اللاهوت ، والتى لقيت مكانة رفيعة ، وكان لها تأثير كبير فى الادب الحبشى الأصيل (غير المترجم) · ولكننا نورد مثالين فقط، نستمدهما من ميدانين متجاورين ·

فتح نجست :

ففى القرن الثالث عشر صنف ابن العسال ، وهو من رجال الدين الأقباط ، مجموعة قوانين استمدها من القوانين الكنسية القديمة والقوانين الرومانية «القيصرية» والقانون المدنى الاسلامى · وقد ترجمت تلك المجموعة الى الحبشية باسم « فتح نجست » (قانون الملوك) فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر ، وصارت فى الحبشة بمثابة قانون للكنيسة والدولة ، رغم أنها لا تلائم حاجات الأحباش من نواح عدة ورغم ازدحام الترجمة بمواضع سوء الفهم ، حتى توهم العلماء الأوربيون أنها مجموعة من القوانين الحبشية القديمة · ودراسة هذا الكتاب بالغة الصعوبة حتى على العلماء الأحباش أنفسهم ، ولا سيما لأنه يلزم اعتساف معنى من المواضع التى ترجمت خطأ أو حرفها النساخ ·

ابو شاكر :

كذلك يجد علماء الأحباش صعوبة كبيرة فى كتاب أبى شاكر فى التاريخ ، وهو مترجم عن العربية ، وله أهمية كبيرة للكنيسة بسبب حساب الأعياد ٠

كتب اللاهوت :

وبمرور الزمن طرق الأحباش مستقلين المسائل اللاهوتية أيضا ٠ فلدينا مثلا كتب مختلفة عن مسائل تتعلق بالعقيدة بعضها شديد الغموض ٠ وقد حفزهم الى هذا خاصة اتصالهم برجال الدين الروم الكاثوليك الذين جاءوا الى البلاد فى القرن السادس عشر ، بعد أن ساعد الأبطال البرتغاليون مسيحيى الحبشة بقوة السلاح ضد الهجوم الاسلامى ٠ وقد تبددت فى القرن السابع عشر كل فرصة كانت تبدو فى بعض الأحيان مواتية لضم البلاد الى مذهب روما وتقريبها بذلك من أوربا ٠

زرا يعقوب :

ولكن هذه الاحتكاكات دعت رجلا عميق التدين مع استقلال فريد فى التفكير ، هو زرا يعقوب (١٥٩٩ ــ ١٦٩٢) ، الى أن يتحرر بروحه من كل قيد كنسى وينشىء نظاما ربانيا (١) deistisch خالصا ، نجده فى الكتيب الذى كتبه عام ١٦٦٦ ٠ ولم يكن له ، فيما يبدو ، سوى تلميذ واحد مقرب اليه هو ولد حيوت ، الذى شرح أيضا آراء أستاذه فى رسالة صغيرة ٠ وقد استنكرا استنكارا شديدا الرهبنة وكل ألوان الزهد ، ودعوا الى حب الانسان لأخيه الانسان والتمسك بالأخلاق الفاضلة ٠ ولكنهما يقفان وحدهما تماما فى هذه البلاد وهذا الادب ٠ ومما يؤسف له أن كونتى روسينى قد أتى بأدلة ترجع الى حد بعيد أن هذين الكتابين من انتحال القرن التاسع عشر ٠

---

(١) أى قائما على الايمان بالله دون الكتب السماوية (المترجم)

كتاب الأسرار ـ كتب السحر ـ الكتب اليهودية :

ومن الآثار الغـريبة للكنيسـة الاثيوبية « كتـاب أسرار السـماء والأرض » الذى يرجع الى القرن الثالث عشر ٠ وفيه كل شيء يمكن أن يضمه كتاب ، ولكن نصيب العقل والمنطق فيه قليل ٠ ونجد فيه الى حد ما جو الكتب السحرية وهي كثيرة ٠ ونجد أيضا فى بعض كتب الصلوات كثيرا من تعاويذ السحر ٠ وبعض كتب يهود الحبشة (الفلشا) تذكر بعض الشيء بكتاب الأسرار المذكور ٠

الأساطير :

والكتب الاثيوبية التى تتعلق بالأسـاطير وسير القديسين بالغـة الكثرة ٠ وكثير منها مترجم عن العـربية أو القبطية ، ولكن كثيرا منها أيضا أصيل ٠ والميل الى العجائب ، بل الخزعبلات ، أوضح فى مثل هذه الكتب منه فى الكتب المصرية التى اتخـذها الأحباش مثالا لهم ٠ ويجب دائما أن نضع نصب أعيننا أننا هنا ازاء أدب رهبنة ٠ فنجد قديسا من الدرجة الثالثة يأتى بمعجزات لم يسمع بها من قبل ٠ والمسيح يتجلى للنساك بشخصه فى كثير من الأحوال زائرا عاديا ٠ والثالوث يأتى الى القديس فيلبوس فى صورة ثلاثة رجال يتحدثون اليه ، كما أتى مرة الى ابراهيم (سـفر التكوين ، الأصحاح ١٨) حسب تأويل الكنيسـة ٠ والقديسون يعرجون أيضا فى بعض الأحيان الى السماء ثم يرجعون الى الأرض ، ويأتون فجأة لمساعدة رجال أتقياء فى جهات عظيمـة البعد ٠ وهم يقومون فى رياضات التكفير عن الذنوب بما يفوق كثيرا طاقة البشر٠ وعندما اكتشف القديس أرجاوى بطريق الوحى المغارة الصخرية المنيعة التى كان عليه أن يقيم ديره عليهـا ، ظهرت حيـة كبيرة ليتخذها حبلا يتسلقه ، الخ ٠ الخ ٠ والواقع أننا نجد مثل هذه المعجزات أيضا لدى قديسى الهندوس ، الذين يفوقون الأحباش كثيرا من الناحية الروحيـة وان كانوا دونهم بمراحل من حيث النشـاط ٠ وبعض هذه الأسـاطير مواعظ تلقى أيام الاحتفال بهؤلاء القديسين ٠ وبعض هذه المواعظ يدل فى وضوح وجلاء على الغرض المقصود منها وهو حمل المؤمنين على تقديم هبات عظيمة الى الأبناء الروحيين للقديسين القدماء ٠ ومن الغريب أن بعض هذه المواعظ تمدنا أيضا ببعض المعلومات التاريخية ٠ وقد أحيطت مريم العذراء بأساطير كثيرة جدا ، حتى ليظن المرء فى كثير من الأحيان أنها

الالهة الحقيقية لتلك البلاد . وهناك أيضا ركن هام لعجائب كبار الملائكة، ولا سيما ميكائيل . هذا الى أن الاسكندر الأكبر نفسه يعد عندهم من القديسين ، كما هو عند غيرهم من الشرقيين ، ويحتفلون به فى الأساطير (فضلا عن تناولهم لسيرة الاسكندر Alexanderroman القديمة) . والسنكسار Synaxarion ، أى تقويم الشهداء ، أخذ كله عن الأقباط، ولكن زيدت عليه قطع اثيوبية أصيلة .

كبر نجست :

ويشتمل الكتاب الكبير كبر نجست («جلالة الملوك») على عدد من الأساطير النادرة . وهو يحكى خاصة كيف أن ملوك الحبشة الشرعيين من نسل سليمان وملكة الجنوب (ملكة سبأ) ، وكيف أن مؤسس الدولة (١) نقل تابوت العهد من أورشليم الى الحبشة (وكان ينظر الى تابوت العهد على أن روح الرب حالة فيه) . وفى الكتاب أيضا قطع طريفة طويلة . وقد صارت لهذا الكتاب الزاخر بالخلط التاريخى أهمية كبيرة ، فقد كان بمثابة المرجع الأكبر للنظم الحكومية والكنسية فى البلاد. ومن المحتمل أنه ألف فى القرن الرابع عشر . واذا لم يكن ترجمة اثيوبية كاملة لنص عربى قديم ، فان قطعا كبيرة منه على الأقل مترجمة عن العربية . وقد صدر الكتاب عن دائرة زعماء الكنيسة الأقباط ، وهو يهتم بجلالة الكنيسة الحبشية أكثر مما يهتم بجلالة العرش الملكى .

الأدب التاريخى :

ولكن للأحباش أدبا تاريخيا حقا . والواقع أن كتابى القبطيين ابن العميد(٢) ويوحنا النقيوسى فى تاريخ العالم مترجمان عن العربية . والنص الحبشى لتاريخ يوحنا النقيوسى ، الذى ضاع أصله العربى ، عظيم الأهمية ، لأنه يشتمل على أخبار مفصلة عن فتح العرب لمصر . ولكن الكتب الأصيلة عن تاريخ الحبشة أكثر أهمية لنا الى حد بعيد . وليس لدينا من الزمن القديم سوى قوائم بأسماء الملوك لا يعتمد عليها . وربما عنى الملوك « السليمانيون » فى عصر مبكر بتسجيل أعمالهم ، ولكن

(١) منيلك أو ابن حكيم . (المترجم)

(٢) جرجس بن العميد المعروف بالمكين . (المترجم)

أوائلهم لم يتركوا لنا فى الواقع سوى أخبار قصيرة • ولدينا أخبار مفصلة قديمة عن حروب عمد صهيون (١٣١٤ ـ ١٣٤٤) يبدو فيها مكافحا فى سبيل المسيح ضد الكفار ، ولكن هناك روايات أخرى تلقى ظلا ثقيلا من الشك على أخلاقه• وقد امتد العداء بين المسيحيين الأحباش والمسلمين خلال تاريخ البلاد كله على أنه صراع بين النور والظلام ، ولكن من الصعب غالبا على الحكم النزيه أن يقرر أى الجانبين كان أكثر همجية • وبحكم زرأ يعقوب (١٤٣٥ ـ ١٤٦٨) ، الملك المشرع الذى كان يجمع بين التقوى وخشونة الطبع ، تبدأ سلسلة متصلة من التواريخ لكل ملك من الملوك تقريبا حتى نهاية القرن الثامن عشر • ولم يرد لنا من التواريخ الأصلية سوى بعضها ، مثل تاريخ سوسنيوس (١٦٠٩-١٦٣٢) البالغ الأهمية ، ولكن لدينا مقتطفات على الأقل من التواريخ الأخرى ، وكذلك الى حد ما أخبار طيبة أخرى فى التواريخ الجامعة :

(١) التاريخ الصغير الذى ينتهى ببداية القرن الثامن عشر ، وقد ترجمه باسيه Basset الى الفرنسية وبجينو Béguinot الى الايطالية •

(٢) والتاريخ الكبير الذى أمر بوضعه حيل ميكائيل (نهاية القرن الثامن عشر) ، صانع الملوك العنيف •

(٣) ومجموعة ليق أطقو الذى كان صديقا (للعالمين المستشرقين) ريبل Rüppel ودبادى D Abbadie • وكان مؤلفو هذه التواريخ من رجال الدين بالطبع ، ولكنهم كانوا الى حد ما ممن خبروا الحياة حقا • ولو نشرت هذه التواريخ كاملة لوجدنا فيها أساسا ممتازا لدراسة التاريخ السياسى المضطرب لتلك البلاد الغريبة ومسائل أخرى غيره • ولغة التواريخ المتأخرة خاصة هى لغة جعزية ممتزجة بكثير من العبارات الأمهرية ، بل هى تنحو الى حد ما فى الأسلوب نفسه منحى اللغة الأمهرية • والأمهرية لغة الجزء الاكبر من البلاد ولغة الحكومة ، بينما ظلت الجعزية لغة الكنيسة والأدب ، وان كانت قد ماتت لغة كلام منذ زمن طويل • ويظهر أن هذا الخلط بين الجعزية والأمهرية غلب على كتاب سرعت منجست الذى يتناول نظام البلاط والرتب ، وهو يرجع الى القرن الثامن عشر • ويجدر بالذكر هنا أيضا كتاب صغير عن الدخلاء الأشرار ، شعب الجلا الهمجى ، وقد كتبه راهب على حظ كبير من الحصافة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ؛ وليس لدينا من هذا الكتاب حتى الآن سوى نص فيه كثير من التحريف •

الشعر :

ولا ريب فى أنه وجد فى الحبشة منذ أقدم الأزمان شعر يعالج أمور الدنيا ، ولكننا لا نجد فى الأدب الحبشى الا قصائد كنسية • ولدينا من هذه عدة مجموعات كبيرة ، تنسب نشأتها خطأ الى عصر بالغ القدم • وبعضها مخصص تماما للطقوس ، ومزود بألحان موسيقية • ولا يصح ، اعتمادا على النماذج القليلة التى لدينا حتى الآن ، أن نتوقع كثيرا من الجمال فى هذا الشعر ، الذى ينقصه أيضا الى حد ما القالب الشعرى •

(ب) أدب اللغات الحبشية الأخرى

الأمهرية :

سار الى جانب الأدب الاثيوبى منذ قرون أدب بلغة الشعب الأمهرية• وأقدم ما وصل الينا من النصوص الأمهرية قصائد طريفة وان تكن عسيرة الفهم تمجد ملوكا من القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر والقرن السادس عشر • وقد كتبت بالأمهرية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر رسائل مذهبية جدلية أوحى بها رجال الدين الكاثوليك ، فكانت دافعا الى كتابة رسائل مضادة • وبدأت أيضا ترجمات أمهرية للكتاب المقدس • ونشأت كذلك بعض الكتب الشعبية الروائية • وفى القرن التاسع عشر نهض الأدب الأمهرى نهضة كبيرة بتأثير من المبشرين أيضا ، بروتستانتيين (سويديين) وكاثوليكيين • ولكن سيرة الملك تيودور (١٨٥٥ ــ ١٨٦٨) التى كتبها القسيس زينب باللغة الأمهرية أصيلة كل الأصالة •

التجرينيا والتجرى :

وفى أيامنا هذه طبع بعض الأجانب كثيرا من النصوص المكتوبة بلغتين أقرب الى اللغة الحبشية القديمة ، هما التجراى أو التجرينيا ، لغة الكلام فى شمال الحبشة ، والتجرى السائدة فى الرءوس البحرية الشمالية • وقد تبين أخيرا أن سكان البلاد منذ زمن طويل استعملوا التجرينيا فى حالات قليلة جدا لتسجيل قانون عاداتهم •

مراجع المترجم

اسماء المؤلفين
(مكتوبة بالحروف العربية)

(أ)

أنجر	Unger
أنجناد	Ungnad
أوتن	Otten
أوسترلى	Oesterley
أولبرايت	Albright
أولندورف	Ullendorff
أيستليتنر	Aistleitner
أيسفلت	Eissfeldt

(ب)

بارت	Barth
باور	Bauer
بده	Budde
(فان دن) براندن	(van den) Branden
برتولت	Bertholet
برجشترسر	Bergsträsser
بروكلمان	Brockelmann
بنتسنجر	Benzinger
بـير	Beer
بيستون	Beeston

(ب)

برتشارد	Pritchard
بريتوريوس	Prätorius
بوبل	Poebel
بيرفز	Purves
بيرين	Pirenne

(ت)

تسمرن	Zimmern

Chapman	تشابمان
Cerulli	تشيرولي
Cheyne	تشين
Toy	توى

(ج)

Gaster	جاستر
Jamme	جام
Gray	جراى
Grimme	جرمه
Grohmann	جرومان
Gesenius-Buhl	جزنيوس ـ بول
Gesenius-Kautzsch	جزنيوس ـ كاوتش
Ginsberg	جنزبرج
Guignebert	جنيبير
Gutstein	جوتستاين
Gordon	جوردون
Jones	جونز
Joüon	جوون
Guidi	جويدى
Gurney	جيرنى

(د)

Driver	درايفر
Dillmann	دلمان
Dhorme	دورم
Dupont-Sommer	ديبون ـ سومير
Dussaud	ديسو

(ر)

Ryle	رايل
Reckendorf	ركندورف
Robinson	روبنسون
Rosenthal	روزنتال
Ryckmans	ريكمانز
Riehm	ريم

(س)

Starcky	ستاركى
Smend	سمند
Smith	سميت
(von) Soden	(فون) سودن

(ش)

Spuler	شبولر
Stade	شتاده
Schrank	شرانك
Schmökel	شموكل
Schulz	شولتس

(ف)

Fränkel	فرنكل
Fleisch	فلايش
Volz	فولتس

(ف)

Wellhausen	فلهاوزن
(von) Wissmann	(فون) فيسمان

(ك)

Caskel	كاسكل
Kammerer	كامرر
Cantineau	كانتنو

كاولي	Cowley
كرنكر	Krencker
كوك	Cooke
كونيج	König

(ل)

لاجارد	Lagarde
لاجرانج	Lagrange
لانجدون	Langdon
لتمان	Littmann
لدزبارسكي	Lidzbarski
لودز	Lods
لويد	Lloyd

(م)

موسكاتي	Moscati
مولتون	Moulton
ميسنر	Meissner

(ن)

نوت	Noth
نولدكه	Nöldeke

(هـ)

هاوبت	Haupt
هايدل	Heidel
هرفورد	Herford
همل	Hommel
هوفنر	Höfner
هول	Hall
هولتسنجر	Holzinger
هونيج	Hoenig
هونيجمان	Honigman

(و)

وينت	Winnett

(ى)

يرمياس	Jeremias
ينسن	Jensen

مراجع المترجم

— Aistleitner (J.), Untersuchungen zur Grammatik des Ugaritischen, Berlin 1954.

(2) Die mythologischen und kultischen Texte aus Ras Shamra, 2nd ed., Budapest 1964.

— Albright (W.F.), The Archaeology of Palestine, Penguin Books, Harmondsworth 1949.

— The Assyrian Dictionary (of the Oriental Institute of the University of Chicago).

— Barth (J.), Vergleichende Studien, ZDMG, Vol. 41 (1887), pp. 603-641 (I. Ueber biliterale Nomina).

(2) Die Nominalbildung in den semitischen Sprachen, Leipzig, 1894.

— Bauer (H.) and Leander (P.), Historische Grammatik der hebräischen Sprache des Alten Testaments, Halle 1918-1922.

— Beer (G.), Hebräische Grammatik, 2nd ed. by R. Meyer, Vol. 1, Berlin 1952.

— Beeston (A.F.L.), A Descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962.

— Benzinger (I.), Hebräische Archäologie, Freiburg i.B. and Leipzig 1894.

(2) Passover and Feast of Unleavened Bread, Encyclopaedia Biblica, Vol. 3 (1902), col. 3589-3601.

(3) Pentecost, Encyclopaedia Biblica, Vol. 3 (1902), col. 3649-3653.

(4) Tabernacles, Feast of, Encyclopaedia Biblica, Vol. 4 (1903), col. 4875-4881.

— Benzinger (I.) and Cheyne (T.K.), Atonement, Day of, Encyclopaedia Biblica, Vol. 1 (1899), col. 383-389.

— Bergsträsser (G.), Hebräische Grammatik, 1. Teil, Leipzig 1918.

(2) Einführung in die semitischen Sprachen, München 1928.

— Bertholet (A.), A History of Hebrew Civilization, transl. by A.K. Dallas, London 1926.

— Branden (A. van den), Les inscriptions thamoudéennes, Louvain-Heverlé 1950.

— Brockelmann (C.), Gundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, Vol. 1, Berlin 1908.

(2) Syrische Grammatik, 6th ed., Leipzig 1951.

— Budde (K.), Das Buch Hiob, Göttingen 1896.

(2) Das Buch der Richter, Freiburg i.B., Leipzig und Tübingen 1897.

— Cantineau (J.), Le Nabatéen, 2 vol., Paris 1930, 1932.

— Caskel (W.), Lihyan und Lihyanisch, Köln und Opladen, 1954.

— Cerulli (Enrico), Storia della Letteratura Etiopica, Milano 1956.

— Chapman (A.T.), Tabernacles, Feast of, in Hasting's Dictionary of the Bible, Vol. 4, pp. 668-669.

— Cheyne (T.K.), Cherub, Encyclopaedia Biblica, Vol. 1 (1899), col. 741-743.

— Cooke (G.A.), A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Oxford 1903.

— Cowley (A.), Aramaic Papyri of the Fifth Century B.C., Oxford 1923.

— Dhorme (Edouard), See Mana.

— Dhorme (P.), Langues et écritures sémitiques, Paris 1930.

— Dillmann (A.), Ethiopic Grammar, 2nd ed., enlarged and improved (1899) by Carl Bezold, translated by James A. Crichten, London 1907.

— Driver (G.R.), Semitic Writing, revised ed., London 1954.

(2) Canaanite Myths and Legends, Edinburgh 1956.

— Driver (S.R.), An Introduction to the Literature of the Old Testament, 9th ed., Edinburgh 1913 (reprinted 1920, 1929, 1950).

(2) Notes on the Hebrew Text of the Books of Samuel, Oxford 1913.

— Driver (S.R.) and White (H.A.), Atonement, Day of, in Hasting's Dictionary of the Bible, Vol. 1, pp. 199-202.

— Dupont-Sommer (A.), Les Araméens, Paris 1949.

— Dussaud (R.), See Mana.

(2) La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris 1955.

(3) Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris 1907.

— Eissfeldt (O.), Einleitung in das Alte Testament, 2nd ed., Tübingen 1956.

(2) See Religionsgeschichte...

— Fleisch (H.), Introduction à l'étude des langues sémitiques, Paris 1947.

— Fränkel (S.), Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen, London 1886.

— Gaster (Th. H.), Thespis, New York 1950.

(2) Festivals of the Jewish Year, New York 1953. (Apollo Editions).

— Gesenius-Buhl, Gesenius' Hebräisches und aramäisches Handwörterbuch über das Alte Testament, in Verbindung mit H. Zimmern, W. Max Müller und O. Weber bearbeitet von Frants Buhl, siebzehnte Auflage, Leipzig 1921.

— Gesenius-Kautzsch, Gesenius' Hebrew Grammar as edited and enlarged by the late E. Kautzsch, 2nd English edition, revised in accordance with the 28th German ed. (1909) by A.E. Cowley, Oxford 1910.

— Ginsberg (H.L.), Aramaic Dialect Problems, AJSL, Vol. 50 (1933-1934), pp. 1-9.

— Gordon (C.H.), Ugaritic Literature, Roma 1949.

— Gray (J.), The Krt Text in the Literature of Ras Shamra, 2nd ed., Leiden 1964.

(2) The Legacy of Canaan, Leiden 1957.

— Grimme (H.), Texte und Untersuchungen zur safatenisch-arabischen Religion, Paderborn 1929.

— Grohmann (A.), Arabien, München 1963.

— Guidi (I.), Storia della Letteratura Etiopica, Roma 1932.

— Guignebert (Ch.), The Jewish World in the Time of Jesus, translated by S.H. Hooke, London 1939.

— Gurney (O.R.), The Hittites, Penguin Books, Harmondsworth 1952.

— Gutstein (Rabbi Morris A.), Sanhedrin, in Collier's Encyclopedia (1957), Vol. 17, p. 324.

— Hall (H.R.), The Ancient History of the Near East, 10th ed., London 1947.

— Haupt (P.), in Actes du Douzième Congrès International des Orientalistes, Rome 1899, Tome Premier (Florence 1901), Résumé des Bulletins, pp. CLXXIV-CLXXV.

— Heidel (A.), The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, 2nd ed., Chicago 1949.

(2) The Babylonian Genesis, 2nd ed., Chicago and London 1951.

— Herford (R. Travers), Pirke Aboth... Edited with introduction, translation, and commentary by... New York 1925.

— Hoenig (S.B.), Sanhedrin, Encyclopaedia Britannica (1964), Vol. 19, col. 1013-1014.

— Höfner (Maria), Altsüdarabische Grammatik, Leipzig 1943.

(2) Die Beduinen in den vorislamischen arabischen Inschriften, in L'Antica Società Beduina (Università di Roma — Centro di Studi Semitici — Studi Semitici 2, Roma 1959), pp. 53-68.

— Holzinger (H.), Exodus, Tübingen etc. 1900. (Kurzer Hand-Commentar zum Alten Testament, Abteilung II).

— Hommel (F.), Ethnologie une Geographie des alten Orients, München 1926.

— Honigman, Arpad, Reallexikon der Assyriologie, Vol. 1 (Berlin and Leipzig 1932), p. 153.

— Jamme (A.), Le panthéon sud-arabe préislamique d'après les sources épigraphiques, Le Muséon, Vol. 60 (1947), pp. 57-147.

— Jensen (P.), abûbu, Reallexikon der Assyriologie, Vol. 1 (Berlin & Leipzig 1932), pp. 11-13.

— Jeremias (A.), Das Alte Testament im Lichte des alten Orients, 2nd ed., Leipzig 1907.

— Jones (A.H.M.) and Monroe (Elizabeth), A History of Abyssinia, Oxford 1935.

— Joüon (P.), Grammaire de l'hébreu biblique, Rome 1923, 2nd anastatic ed., Rome 1947.

— Kammerer (A.), Essai sur l'histoire antique d'Abyssinie, Paris 1926.

— König (F.E.), Historisch-kritisches Lehrgebäude der hebräischen Sprache, Vol. 1, Leipzig 1881.

— Krencker (D.), Aeltere Denkmäler Nordabessiniens, Berlin 1913. Mit Beiträgen von Theodor Lüpke und einem An-

hang von Robert Zahn. (Deutsche Aksum-Expedition. Band II Text).

— Lagarde (P. de), Gesammelte Abhandlungen, Leipzig 1866.

— Lagrange (Marie-Joseph), Etudes sur les religions sémitiques, Paris 1903.

— Langdon (St.), Babylonian Wisdom, Babyloniaca, Vol. 7 (1923), pp. 129-229.

— Lidzbarski (M.), Ephemeris für semitische Epigraphik, 3 vol., Giessen 1902-1915.

— Littmann (E.), Reisebericht der Expedition, Topographie und Geschichte Aksums, Berlin 1913. Unter Mitwirkung von Theodor Lüpke. (Deutsche Aksum-Expedition. Band I).

(2) Sabäische, griechische und altabessinische Inschriften, Berlin 1913. (Deutsche Aksum-Expedition. Band IV).

(3) Abessinien, Hamburg 1935.

(4) Adule oder Adulis, REA, Suppl., Vol. 7 (1940-1950), col. 1-2.

(5) Thamud und Safa, Leipzig 1940. (Deutsche Morgenländische Gesellschaft. Abhndlungen für die Kunde des Morgenlandes. XXV, 1).

— Lloyd (Seton), Foundations in the Dust, Penguin Books, Harmondsworth 1955.

— Lods (A.), Israel from its Beginnings to the Middle of the Eigth Century, translated by S.H. Hooke, London 1932.

(2) The Prophets and the Rise of Judaism, translated by S.H. Hooke, London 1937.

— « Mana », Introduction à l'Histoire des Religions. Tome Premier : Les Anciennes Religions Orientales. II : Les religions de Babylonie et d'Assyrie par Edouard Dhorme et les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens par René Dussaud, 2e éd., Paris, 1949.

— Meissner (B.), Die babylonisch-assyrische Literatur, Wildpark-Potsdam 1930.

— Moscati (S.), The Semites in Ancient History, Cardiff 1959.

(2) Lezioni di Linguistica Semitica, Roma 1960.

(3) Editor of : An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, by Sabatino Moscati, Anton Spitaler, Edward Ullendorff and Wolfram von Soden, Wiesbaden 1964. (Porta Linguarum Orientalium. Neue Serie, VI).

— Moulton (W.J.), Passover, in Hasting's Dictionary of the Bible, Vol. 3, pp. 684-692.

— Nöldeke (Th.), Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1904.

(2) Compendious Syriac Grammar, translated by J.A. Crichton, London 1904.

(3) Zur semitischen Pluralendung, ZA, Vol. 18 (1904-1905), pp. 68-72.

(4) Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910.

(5) Semitic Languages, Encyclopaedia Britannica, 11th ed. (1911), Vol. 24, col. 617-630.

(6) Idris, ZA, Vol. 17 (1903), pp. 83-84.

(7) Die äthiopische Literatur, in Die orientalischen Literaturen (Die Kultur der Gegenwart, herausgegeben von Paul Hinneberg. Teil I, Abteilung VII), 2nd ed., Leipzig-Berlin 1925, pp. 134-140.

— Noth (M.), Geschichte Israels, 5th ed., Göottingen 1963.

— Oesterley (W.O.E.), A History of Israel. Vol. II : From the Fall of Jerusalem 596 B.C. to the Bar-Kokhba Revolt A.D. 135, Oxford 1932. See Robinson.

— Oesterly (W.O.E.) and Robinson (Th. H.), Hebrew Religion, 2nd ed., London 1937.

— Otten (H.), See Religionsgeschichte...

— Pirenne (Jacqueline), Le royaume sud-arabe de Qataban et sa datation, Louvain 1961.

— Poebel (A.), Das appositionell bestimmte Pronomen der 1. Pers. Sing. in den westsemitischen Inschriften und im Alten Testament, Chicago 1932.

— Prätorius (F.), Aethiopische Grammatik, Karlsruhe und Leipzig 1886.

— Pritchard (J.B.), Editor of Ancient Near Eastern Texts, 2nd ed., Princeton 1955.

— Purves (G.T.), Pentecost, in Hasting's Dictionary of the Bible, Vol. 3, pp. 739-742.

— Reckendorf (H.), Zur Charakteristik der semitischen Sprachen. Actes du Xe Congrès des Orientalistes, 3e partie, section II, pp. 1-9, Leyde 1896.

— Religionsgeschichte des Alten Orients. Lieferung I. Mit Beiträgen von O. Eissfeldt, J. Hempel, H. Otten, E. Otto. Leiden/Köln 1964. (Handbuch der Orientalistik. Abteilung I, herausgegeben von B. Spuler. Achter Band. Erster Abschnitt).

— Riehm (E.), « Cherub, Cherubim », in Handwörterbuch des Biblischen Altertums, herausgegeben von Eduard C. Aug. Riehm, zweite Auflage besorgt von Friedrich Baethgen, Vol. 1 (1894), pp. 267-272.

— Robinson (Th. H.), A History of Israel. Vol. I : From the Exodus to the Fall of Jerusalem 586 B.C., Oxford 1932. See Oesterley.

— Rosenthal (F.), Die aramaistische Forschung seit Th. Nöldeke's Veröffentlichungen, Leiden 1939.

— Ryckmans (Gonzague), Les noms propres sud-sémitiques, 3 vol., Louvain 1934-1935.
(2) Les religions arabes préislamiques, 2e éd., Louvain 1951.

— Ryckmans (Jacques), Aspects nouveaux du problème thamoudéen, Studia Islamica, Vol. 5 (1956), pp. 5-17.

— Ryle (H.E.), Cherubim, in Hasting's Dictionary of the Bible, Vol. 1, pp. 377-380.

— Schmökel (H.), Geschichte des alten Vorderasien, Leiden 1957. (Handbuch der Orientalistik. Abteilung I, heraus-

gegeben von B. Spuler. Zweiter Band. Dritter Abschnitt).

— Schrank (W.), Babylonische Sühnriten, Leipzig 1908.

— Schultz (H.), Alttestamentliche Theologie, 2nd ed., Frankfurt a.M. 1878.

— Semitistik (Handbuch der Orientalistik. Abteilung I, herausgegeben von B. Spuler. Dritter Band. Leiden 1953-1954).

— Smend (R.), Lehrbuch der alttestamentlichen Religionsgeschichte, Freiburg i.B. und Leipzig 1893.

— Smith (W.R.), Kinship and Marriage in Early Arabia. New Edition. Ed. by S.A. Cook, London 1907.

(2) Lectures on the Religion of the Semites, 3rd ed. with an introduction and additional notes by S.A. Cook, London, 1927.

— Soden (W. von), Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1952.

(2) Akkadisches Handwörterbuch, Wiesbaden 1959—.

— Spuler (B.), See Semitistik.

— Stade (B.), Lehrbuch der hebräischen Grammatik, Leipzig 1879.

(2) Geschichte des Volkes Israel. Erster Band. Berlin 1887.

— Starcky (J.), Palmyréniens, nabatéens et arabes du nord avant l'Islam, dans : Histoire des Religions 4 (publié sous la direction de Maurice Brillant et René Aigrain), Tournai 1956, pp. 201-237.

— Toy (C.H.), The Book of the Prophet Ezekiel, SBOT, Leipzig 1899.

— Ullendorff (E.), The Ethiopians, London 1960.

— Unger (Eckhard), Akkad, Reallexikon der Assyriologie, Vol. 1 (Berlin & Leijzig 1932), p. 62.

— Ungnad (A.), Zur Erklärung der hebräischen nomina segolata, ZA, Vol. 17 (1903), pp. 333-343.

(2) Miscellen, ZA, Vol. 22 (1909), pp. 6-16 (II. 'Ammurapi, pp. 7-13).

(3) Grammatik des Akkadischen, 3rd ed., München 1949.

— Volz (P.), Die biblischen Altertümer, Calw & Stuttgart 1914.

— Wellhausen (J.), Israelitische und jüdische Geschichte, Berlin 1895.

(2) Reste arabischen Heidentums, 2nd ed., Berlin & Leipzig 1927.

— Winnett (F.V.), A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto 1937.

— Wissmann (Hermann von) and Höfner (Maria), Beiträge Zur historischen Geographie des vorislamischen Südarabien, Wiesbaden 1953.

— Zimmern (H.), Akkadische Fremdwörter als Beweis für babylonischen Kultureinfluss, 2nd ed., Leipzig 1927.